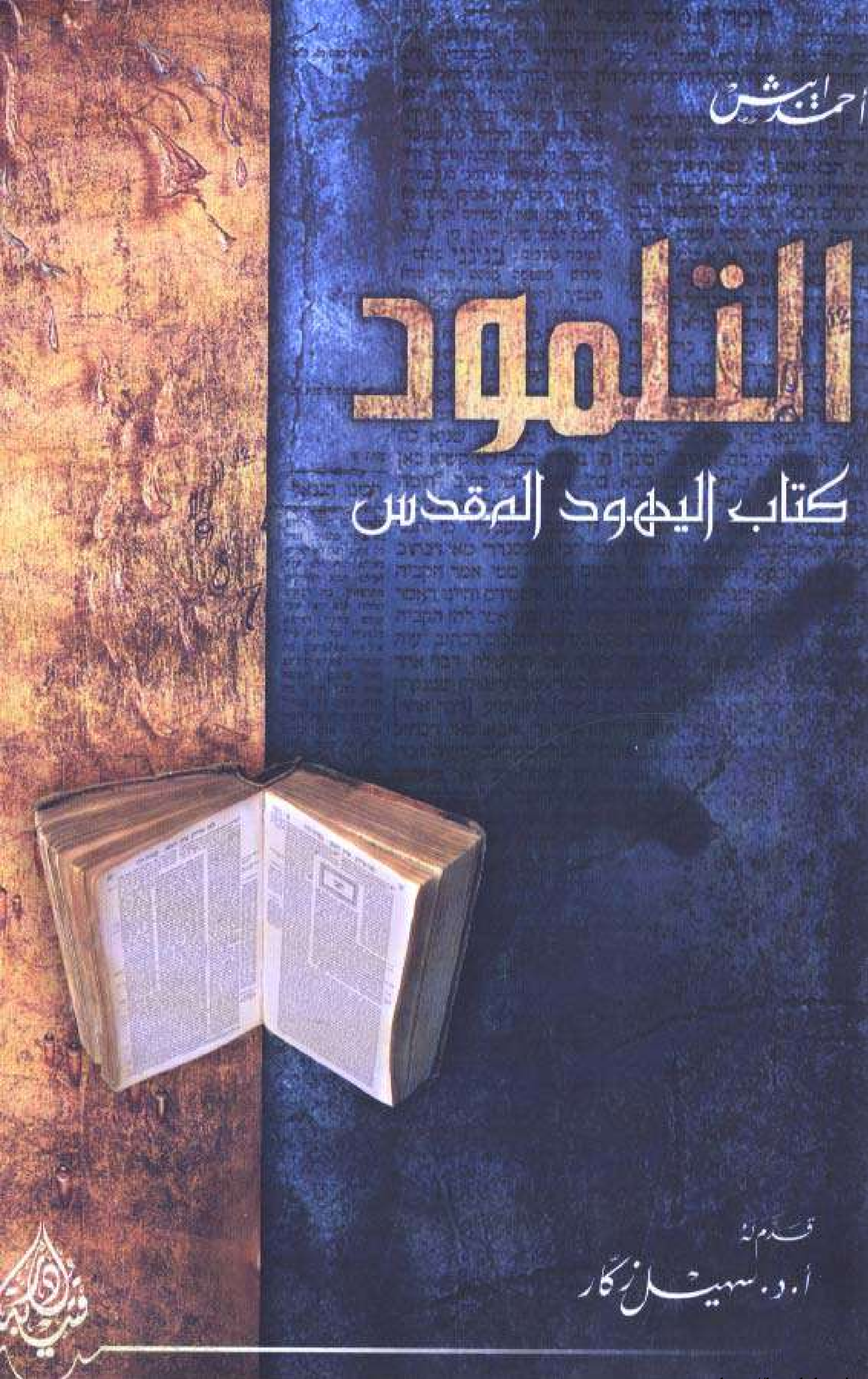


أحمد ايبش
التلمود
كتاب اليهود المقدس
قدم له
أ.د. سهيل زكار

التلمود

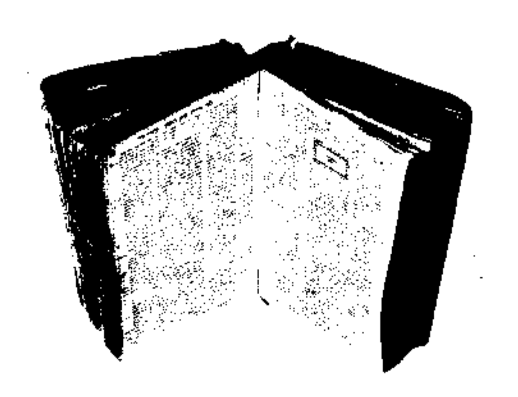
كتاب اليهود المقدس

حمد ايبش
كتوراة في التاريخ

التلمود

كتاب اليهود المقدس

تاريخه و تعاليمه و مقتطفات من نصوصه



قدم له
أ.د. سهيل زكّار



بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

ما هي حقيقة التّلمود ؟

وما هو أثره الدّيني والأخلاقـي في مُعتقـدات الجماعـات اليهوديّـة وسُلوكها عبر التاريخ ؟ ما هي تعاليمه ، وعلامَ تشتمل أجزاؤه الكثيرة ومفُرداته التـي تصـل إلى 2.5 مليون كلمة ؟

ماذا يعرف المثقّف العربي عن هذا الكتاب ؟ أليس من الغريب أن يكون كل ما كُتب عنه في العربيّة (على قلّته) ، كما يرى الكاتب الهندي ظَفَر الإسلام خان : مجرّد تكرار لكتاب شعبي قديم هو «الكنز المرصود في قواعد التّلمود» ؟ وما مدى دقّة رؤية الباحث المصري عبد الوهاب المسيري في موسوعته الشهيرة : «والواقع أن التّلمود ليس من الكتب الباطنيّة ، أو تلك التي تُحيط بها هالة من السّرّيّة والغرابة والإخفاء ، كما يتوهّم السَّواد الأعظم من النّاس» ؟

ما سرّ التّطابق المُذهل بين مرويّات «أجَـداه» التّلمـود ، وبين «القَصَص» في تُراثنا الإسلامي ؟ ولماذا عجزنا عن ترجمة هذا الكتاب ، الذي له من العمـر ما لا يقلّ عن 19 قرناً من الزمان ؟ ثم كيف يتسنّى للقارئ العربي فهم نصوصـه المعقّدة في العبادات والعرفانيّات ، بين رمزيّـات التّوحيد والحُلوليّـة والغنوصيّـة ومُعمّيات القَبّالاه والزُّوهار ، ونظرته لـ «الجوييم» أو «الأخيريم» ؟

أسئلة كثيرة وتساؤلات أكثر وأعمق وأخطر تبرز بـين السّطور والحواشـي ، في هذا الموضوع المُستغلق الهامّ والمرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتُّراث الدّيني لمشرقنا الأدنـى ، كحلقة أساسيّة منه لا يسعُنا جهلها أبداً !

نقطة الأهميّة الثانية في هذا السّياق ، هي أن التّلمود كوثيقة اشتراعيّة تحتلّ المرتبة الأولى في أغلب الدّوائر والمذاهب الدّينية اليهوديّة الفاعلة ، وهي بما تحمله من براغماتيّة إثنية وعقائدية ، أدّت إلى وسم الإيديولوجيا الصّهيونيّة بمبدأ عرقي شديد التّجذّر يقطع بأن «اليهود وحدهم هم شعب الله المختار ، والشعوب من دونه جميعاً كالبهائم» . فما مصدر هذه النّظرة التعصّبيّة الفوقيّة ؟

نعود هنا لنعبّر عن عجزنا التامّ عن إدراك السّبب الذي يؤدّي إلى تقاعس الدّوائر الثقافيّة العربيّة – الرّسميّة منها والخاصّة – عن القيام بهذا الواجب العلمي المتناهي الأهميّة : «إصدار ترجمة عربيّة علميّة دقيقة للتّلمود» . أيُعقل أنّا اليوم في عام 2006 قد ولجنا أعتاب الألفيّة الثالثة ، في عصر ثورة المعلومات ، ولم تظهر لدينا هيئة أو مؤسّسة علميّة جريئة تتولّى هذه المهمّة القوميّة والدّينيّة ؟ أو لنقُل في أضعف الإيمان : إرواءً للتعطّش الفكري ، «العلمُ بالشيء ولا الجهلُ به» ؟!

أليس فينا مَن له جُرأة ورُجولة الحَكَم الثاني صاحب قُرطبة ، لمّا أمر الحاخام يوسيف بن مُوشيه بنقل التّلمود إلى العربيّة ؟ وهل يعلم مثقّفونا شيئاً عن دَور الفكر الإسلامي بظهور الحركة القَرّائية اليهوديّة في القرن الثامن ، الرّافضة للتُّراث الشّفاهي الحاخامي (أي التّلمود) ؟ ولماذا لم نرَ حتى اليوم أيّة دراسة نقديّة جامعة لهذه الحركة التي مدّت جُسوراً بين الإسلام واليهوديّة «التّوراتيّة المُوسَويّة التّوحيديّة» ؟

وبعد ، فهذا كتابنا عن «التّلمود» ، جَهِدنا فيه أن نقدّم جديداً وألاّ نحذو حَذْوَ الكتب الهامشيّة البعيدة عن البحث الأكاديمي الرّصين ، مثل «الكنز المرصود» و«بروتوكولات حُكماء صهيون» . أخيراً ، نُزجي مزيد شكرنا وتقديرنا لعلاّمة الشام الأستاذ الدكتور سُهيل زكّار ، الذي أفادنا من معلوماته الغنيّة وشجّعنا على المضيّ ، وأتحفنا بمقدّمته الثّمينة . وبالغ الشكر لأستاذنا المربّي الكبير الدكتور محمد شيخاني ونجله قُتيبة ، اللذين أمدّا هذا البحث بكلّ اهتمام ومُتابعة .

دمشق ، 14 آذار 2006 د. احمد إيبش

مقدّمة

بقلم الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

في عام 539 ق.م ، نجح الإمبراطور الفارسي قُورُش في إقامة إمبراطوريّة فارسيّة عظمى ، هي الإمبراطوريّة الأخمينيّة ، وكان قوام هذه الإمبراطوريّة وحدة كل من إقليمي فارس وميديا ، وكانت مدينة الرّيّ هي الحاضرة الرّئيسية لإقليم ميديا ، وكان هذا الإقليم وثيق الصّلة حضارياً ولغوياً بأعالي بلاد الرّافدين ، أي بممتلكات الدّولة الآشوريّة الكبرى ، من مركز وأطراف شمالية وجنوبيّة وشرقيّة وغربيّة . وامتاز إقليم ميديا بتُراث ديني كبير ، تجلّى قبل تأسيس الإمبراطوريّة الأخمينيّة بانبعاث الدّيانة الزّرادشتيّة ، بتشعّباتها المثراويّة والزّروانيّة ، وبأساس عقيدتها الثّنويّة ، أي الإيمان بوجود قوّتين إلهيتين : سماويّة نورانيّة ، وأرضيّة مظلمة ، والقوّة السّماويّة خيّرة ، بينما القوّة الأرضيّة شرّيرة . وجاءت ولادة إلهيّ النّور (أهورمَزد) وإله الظلام (أهرمان) من إله له طبيعة أنثويّة - ذكريّة مزدوجة ، قادر على التّلقيح الذّاتي ، هو زروان (الزّمن اللامحدود أو الدّهر) .

وكان من أهم مزايا الدّين في إقليم ميديا وجود طبقة أو عشيرة للكهنة ذات مراتب متسلسلة هي عشيرة المجوس ، وكانت هذه الطبقة موجودة قبل ظهور الزّرادشتيّة ، وظلّت موجودة دوماً في المجتمع الإيراني ، الذي كان مجتمعاً طبقيّاً ، لا يجوز فيه لأحد - حتى بأمر من الإمبراطور - مغادرة طبقته صعوداً ولا حتى هبوطاً . وهذه الطبقات عند الحكيم تنسر هي :

1- طبقة أهل الدّين من : كهنة ، وعبّاد ، وزُهّاد ، وسَدَنة ، ومعلّمين .

2- طبقة أهل الحرب ، من فرسان ورجّالة .

3- طبقة رجال الإدارة ، من كتّاب الرّسائل ، والمحاسبات ، والأقضية ، والسّجلات ، والعُقود ، وكتّاب السّير ، ويدخل في طبقتهم : الأطبّاء والشّعراء والمنجّمون .

4- طبقة أهل المهن ، من زرّاع ، ورُعاة ، وتُجّار ، وسائر أهل الحرف .

وقال تنسر الذي يُقال بأنه عاصر تأسيس حكم الأسرة السّاسانيّة : «والنّاس في عهد زاهر دائماً ، ما حافظوا على هذه الأعضاء الأربعة ، ولم ينتقلوا من طبقة إلى أخرى»[1] .

وشغلت طبقة أهل الدّين المجوسي أهم الأدوار في التّاريخ الفارسي القديم ، كما أن دور رجال الإدارة كان عظيماً ، لأنهم امتلكوا مفاتيح السّلطة الفعليّة في الإمبراطوريّة . وكانت اللغة الآراميّة هي لغة إقليم ميديا ، ثم غدَت لغة الإمبراطوريّة بأسرها . وتوسّعت الإمبراطوريّة الأخمينيّة كثيراً منذ أيام قُورُش ، فاستولت على بابل سنة 538 ق . م ، ثم استولت على بلاد الشام ومصر ، وعلى أرمينيا ، وآسيا الصّغرى ، وسَعَت إلى التوسّع الكبير في أوروبا الشرقيّة . وفي آسيا توسّع الأخمينيّون حتى الهند وأفغانستان ، ولربّما اجتازوا نهر جيحون[2] ، وتمازجت في ظلّ دولتهم ثقافات عالم الشرق القديم . ومَن يقم بزيارة علميّة فاحصة لمدينة الفُرس (تخت جَمشيد - المجمع الملكي للأخمينيين) (على بُعد قُرابة الخمسين كم عن مدينة شيراز) يقدّر أنه كما وفدت سفارات شعوب العالم على هذه العاصمة تقدّم الولاء للأخمينيين ، وكما توفّرت طُرُز البناء البابليّة والآشوريّة وسواها ، اجتمع تُراث العالم القديم من ديني وفكري ومدوّناته هناك . وبعدما انتصر الإسكندر المقدوني الأكبر على الإمبراطور الأخميني داريوس الثالث عام 333 ق . م ، احتلّ «مدينة الفُرس» ودمّرها ، وأحرق الوثائق والمدوّنات التي كانت فيها ، وركّز جهوده ضدّ المدوّنات الدّينيّة ، فقد رُوي أن نسخة من كتاب «البستاه» الزّرادشتي كانت مكتوبة على اثني عشر ألف جلد بقرة ، قام بإتلافها ، وما لم يتلفه من الكتب أمر بنقله إلى الإغريقيّة والقبطيّة ، مثل بعض كتب «علم النّجوم والطبّ والفلسفة والحراثة»[3] .

---

(1) كتاب تنسر - ترجمة عربيّة (ط . القاهرة 1954) ، ص 32-34 .

(2) يرد ذكر نهر جيحون في التّلمود (لكن على أنه «نهر يحيط بالحبشة») ، وهذا دليل آخر على استقاء التّراث الدّيني اليهودي بالأصل من أرض بابل وفارس وميديا .

(3) تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء عليهم السّلام ، لحمزة الأصفهاني (ط . دار الحياة - بيروت) ، ص 40 .

ومن المعروف أن الإسكندر المقدوني الأكبر أراد عَولَمة العالم في أيّامه بجعله إغريقياً ، وصحيح أنه مات مُبكراً ، لكن الدّول التي ولدت من خلال نتائج أعماله العسكريّة لا سيّما دولة البطالمة والسّلوقيين ، تابعت الأخذ بسياسة العَولَمة ، التي عُرفت بالهَلّنَسة .

ولدى زيارتي في الشهر الماضي لمدينة الفُرس (تخت جَمشيد) في إصفهان بإيران ، رأيتُ في المنحوتات الجدارية المنقوشة تمثيلاً لشعوب العالم القديم ودُوله التي كانت تتوافد على مدينة الفُرس لتقديم فروض الولاء ، ولم يكن بين هؤلاء مَن مثّل شعب «يهود أو دولة لهم» ، ولهذا أسبابه المُعلّلة .

فعلى بُعد حوالي الخمسة كم عن «مدينة الفُرس» Persepolis ، هناك في لُحف الجبل مقابر أربعة من الملوك الأخمينيين ، أوّلهم داريوس [486-522 ق . م] ، الذي أعاد تأسيس حكم الإمبراطوريّة الأخمينيّة بعد موت قَمبيز بن قورُش ، ويُعرف موضع المقابر هذه باسم نَقش رُستُم ، حيث هناك نقش تركه داريوس ذكر فيه ثلاثين شعباً ومنطقة كانوا خاضعين له ، وله يدفعون الجزية . والذي يقرأ أسماء هذه الشعوب يمكنه أن يرى صور رُسُلهم وممثّليهم منحوتةً في الصّخر الأسود في «مدينة الفُرس» [تخت جَمْشيد] ، ومثلما ليس هناك صور ليهود في المنحوتات ، لم يرد ذكر يهود بين قائمة شعوب النَّقش . هذا وتتوافق مادّة هيرودوت في عدم ذكر اليهود مع نقش رستم ومنحوتات تخت جمشيد .

وعدم ورود ذكر لليهود سببه أنهم لم يكونوا قد ظهروا إلى حيّز الوجود ، حيث أن هذا حدث محلّياً في فلسطين في حوالي هذا التاريخ ، فقد استخدم الفُرس حاميات عسكريّة في فلسطين ومصر وسواهما ، وسكنت الحامية الأخمينيّة في مصر في جزيرة الفيِله Philae (بالنّيل وراء سدّ أسوان ، واسمها العربي «أُنس الوجود») ، وتميّزت بعبادة الإله يهوه . وكان لهذه الحامية علاقة بحامية فلسطين ، التي سكنت حول مدينة القُدس ، ولربّما لم يتجاوز تعدادها رجالاً ونساءً وأطفالاً مقدار اثني عشر ألفاً . وعُثر أثريّاً على بعض القطع الفخّاريّة التي حملت أختاماً ، بعضها حمل اسم «يه» ثم بعضها «يهد» ، وهذه الأسماء من دون أحرف صوتيّة ، عندما تُحرّك تصبح «يهوه» و «يهود» .

وينفي هذا الاكتشاف الأثري الموثّق مع غيره من الاكتشافات ما ورد في أسفار العهد القديم من أساطير وحكايات ، وهو يقودنا إلى إثارة موضوع العهد القديم وتاريخ تدوينه :

كان الإمبراطور داريوس الأول (522-486 ق . م) قد أعدّ ابنه خُسرو (اكسراكس Xerxes 486-465 ق . م) أثناء حياته لخلافته ، وبناءً عليه خلفه ، ثم عندما مات هذا الإمبراطور خلفه ابنه أردشير (أرطحشت - أرتااكسراكس) ، ونشط في بلاط هذا الإمبراطور أيّام حكمه عدد من الكَهَنة الإداريين ، كانوا زرادشت بشكل عام ، لكن لهم تميّزهم داخل هذه الدّيانة ، التي انضوى تحت عنوانها عدّة عقائد وديانات . وتصدّر هؤلاء عزرا الكاتب ، المدوّن الأول لأسفار العهد القديم والمؤسّس الفعلي لليهوديّة ، ونحميا السّاقي الذي تولّى خدمة النّساء في القصر الملكي ، ممّا يرجّح أنه كان مخصياً ، وكذلك دانيال الذي عمل أيضاً ساقياً ومعبّراً للأحلام . ولربّما تردّد عزرا ونحميا بحكم وظائفهما على فلسطين ، وعاشا بعض الوقت مع الحامية الأخمينيّة التي كانت حول القُدس ، وأن هذا لربّما كان حوالي عام 445 ق . م ، وإثر هذا بدأت تظهر تسمية يهود ، ويرجّح أن عزرا ونحميا بشّرا بزرادشتيّتهما بين عبّاد يهوه وسواهم ، وبات الآن لدينا مجموعة تميّزت دينياً اسمها «يهود» ، ولكن دون الخروج على جوهر الزّرادشتيّة .

ولا بُدّ أن عزرا نقل ما دوّنه ، فشكّل نواة ما سيُعرف باسم العهد القديم ، وعَزاه إلى النّبي موسى عليه السّلام ، وقد استقاه من محفوظات مجمع القصور الملكيّة ، أي «مدينة الفُرس» ، لكن من أين جاءت هذه المحفوظات إلى البلاط الأخميني ؟ هذا سؤال تصعب الإجابة عليه الآن بشكل موثّق ، لكنني لا أستبعد إقليم ميديا وأعالي بلاد الرّافدين ، حيث ورد ذكر حَرّان كثيراً ، وحيث استدلّ بعضهم أن أصل سفر أخنوخ (إدريس) قد دُوّن في أعالي هذين الإقليمين . وبرغم التّعديلات التي لحقت بما دوّنه عزرا وبرغم الإضافات ، ما تزال ثمّة ملامح زرادشتيّة واضحة نجدها في مخطوطات البحر الميّت ، وفي أن رجل الدّين اليهودي حمل التّسمية التي حملها عضو هيئة المجوس أي حكيم (حاخام) وديّانه ، ومثلما حمل كبير الكهنة المجوس اسم «مُوبذ مُوبذان» حمل كبير كهنة اليهود اسم الكاهن الأعظم .

وأكثر من هذا من حكايات سفر التّكوين التي اهتمّ بها اليهود حكاية تعلّقت بميلاد عيسو ويعقوب ابني إسحق من «رفقة بنت بتوئيل الآرامي أخت لابان الآرامي من فدّان آرام» ، ذلك أنه عندما كملت أيام رفقة «لتلد إذا في بطنها توأمان . فخرج الأول أحمر كلّه كفروة شعر فدعوا اسمه عيسو . وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدُعي يعقوب» . وأحبّ إسحق عيسو ، لكن رفقة آثرت يعقوبَ ، وعندما شاخ إسحق أراد أن يبارك عيسو ليستخلفه ، وتآمرت رفقة مع يعقوب لخداع إسحق ، فصنعت طعاماً ممّا أحبّه إسحق الذي فقد بصره ، وألبست يعقوبَ ملابس عيسو «وألبست يديه وملاسة عنقه جلود» جَديين «وأعطت الأطعمة والخبز التي صنعت في يد يعقوب ابنها . فدخل إلى أبيه وقال يا أبي ، فقال : ها أنذا ، مَن أنتَ يا ابني ؟ فقال يعقوب لأبيه : أنا عيسو بكرك» ، وجسّه إسحق وارتاب به فقال : «الصّوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو . ولم يعرفه لأن يديه كانتا مُشعرتين كيدي عيسو أخيه ، فباركه»[1] .

ويصرف النّظر عن الجانب الأخلاقي في هذه الحكاية ، وأننا ننزّه الأنبياء عن اقتراف مثل هذه الأعمال ، يهمّنا هنا الأصل الزّرادشتي الذي هو مصدرها ، وتعلّق الأمر بولادة أهورمَزد وأهرمان من زروان ، فقد قام «زروان الكبير فزمزم تسعة آلاف وتسعمائة وتسعاً وتسعين سنة ليكون له ابن ، فلم يكن ، ثم حدّث نفسه وفكّر وقال : لعلّ هذا العالم ليس بشيء ، فحدث أهرمن من ذلك الهمّ الواحد ، وحدث أهرمزد من ذلك العلم ، فكانا جميعاً في بطن واحد ، وكان أهرمن أقرب من باب الخروج ، فاحتال أهرمن الشيطان حتى شقّ بطن أمّه فخرج قبله وأخذ الدّنيا» ، لأن زروان كان قد قرّر استخلاف الولد الأول بالخروج وأوحى بذلك إلى أهورمزدا ، فأعلم هذا أهرمان ، فخرج أهرمان أولاً ، ونال بركة أبيه وخلافته في حكاية طويلة متشعّبة[2] .

---

(1) سفر التكوين : الأسفار 25-28 . انظر أيضاً كتابي «القدس في التاريخ» ج 1 منشورات القيادة الشعبية الإسلامية العالمية - طرابلس الغرب 2002 ، ص 52-62 . وسترد في نصوص التّلمود أدناه معطيات أوسع عن قضيّة عيسو ويعقوب .

(2) كتاب الملل والنّحَل للإمام عبد الكريم الشّهرستاني (ت 548 هـ) على هامش الفصل لابن حَزم - ط . القاهرة - ج 2 ص 74-77 .

وتعلّقت الثانية بالتّشريع اليهودي ، الذي قضى أنّه إذا مات زوج وهو شاب لم يُنجب ، ينبغي تزويج أرملته بأخيه ، وأن يُنسب الولد الذي يكون ثمرة هذا الزّواج إلى الأخ المتوفّى . وهذه القاعدة قاعدة زرادشتيّة كان اسمها «الأبدال» ، حكاها لنا تنسر في كتابه حيث قال : ومعنى الأبدال في مذهبهم أن الرّجل منهم إذا حان أجله ولم يكن له ولد ، فإذا كانت له زوجة زوّجوها مَن كان من أقاربه أقرب إليه وأولى . . ويُنسب الولد الذي يولد من هذا الزّواج إلى المتوفّى صاحب التّركة ، ويُقتل مَن يتصرّف على غير هذا النّحو ، وكانوا يقولون : «ينبغي أن يبقى نسل الميت حتى آخر الزّمان»[1] .

وقطع سقوط الإمبراطوريّة الأخمينية الصّلات السّياسيّة لليهود مع بلاد فارس ، ووضع هؤلاء اليهود في ظلّ مؤثّرات جديدة ، هي المؤثّرات الإغريقيّة والهلنسة . وهكذا أضيف إلى أسفار العهد القديم أسفار جديدة نجد فيها أخبار ردّات الفعل المؤيّدة أو المضادّة للهَلنسة ، ومع ذلك تهلنس العهد القديم ، وعلى هذا انتهت المرحلة الأخمينيّة ، وهي المرحلة الأولى في تاريخ تدوين أسفار العهد القديم ، وبدأت مرحلة جديدة سوف يكون لها تأثير كبير ودَيمومة .

أنا لن أحاول في هذه المقدّمة الخوض بمزيد من التّفاصيل حول المرحلة الفارسيّة[2] ، بل سوف أعالج المرحلة الهلنستيّة ، لكن مع شيء من الاختصار ، ومصدرنا هنا المؤرّخ اليهودي يوسيفوس بشكل رئيسي : فمن المشهور إقدام البطالمة في مصر على إقامة مكتبة عظيمة جداً في مدينة الإسكندريّة ، وسعى ملوك البطالمة إلى إغناء مكتبة الإسكندريّة ، قال يوسيفوس اليهودي : «كان في ذلك الزّمان رجل من أهل مَقدونيا يُقال له بطليموس ، وكان مُحباً للحكمة ، عاشقاً للعلوم ، شديد العناية بها ، كثير الرّغبة في تحصيلها . وكان مُقيماً بأرض مصر ، فملّكه المصريون عليهم ، فلمّا ملك ازداد تحرّقاً على العلوم ، وكثر شوقه إليها ، وعُني بتحصيل الكتب وطلبها من كلّ أمّة ، ومن كلّ صقع وبلد ، ويقال إنه لم يترك كتاباً إلاّ وحصّله عنده» .

---

(1) كتاب تنسر – ط . القاهرة 1954 ص 43–44 .
(2) انظر كتابي «القدس في التاريخ» ج 1 ص 60–68 .

وتابع يوسيفوس يروي لنا أن الملك المصري سمع بكتاب عزرا في فلسطين ، فحصل على نسخة منه حوّته وحوَت ما أضيف إليه من أسفار جديدة ، وعندما حُملت إليه النّسخة إلى مصر ، حُمل معها أكثر من سبعين حكيماً وشيخاً ، فأخلى للسّبعين حكيماً سبعين منزلاً ، وأمر أن ينزل كل رجل منهم في منزل مُنفرداً ، لا يلتقي أحد منهم مع صاحبه ، وإنما فعل ذلك لزيادة تحرّزه ، وكثرة حذره ، لئلاّ يجتمع أحدهم مع رفيقه ، فيتّفقوا على تغيير شيء من الكتب التي ينقلونها ، ثم أمر أن يُجعل مع كلّ رجل منهم كاتب من الحذّاق في اللّغة اليونانيّة .

ويفيد هذا الخبر أن عدد النّسخ التي حُملت إلى الإسكندريّة تجاوز السّبعين نسخة ، وهذا عدد كبير جداً ، ومَدعاة إلى الشّك ، لا سيّما في توافق نصوص من النّسخ من حيث المحتوى والضّبط . وأن الحاخامات - وعددهم أيضاً كبير - الذين حُملوا إلى الإسكندريّة كانوا يُتقنون ما سيُعرف باسم العبريّة والإغريقيّة ، أي كانوا مُتهلنسين . وقام هؤلاء الحاخامات ، كلّ على انفراد ، بنقل نسخة من الأسفار إلى الإغريقيّة ، وكانت المحصّلة لهذا الجهد توفّر سبعين نسخة مترجمة إلى الإغريقيّة كلّها متّفقة لم تختلف في شيء ، محرّرة في غاية الصحّة[1] .

قد يجد الإنسان صعوبة في تصديق هذه الحكاية بتفاصيلها ، لكن المهمّ هنا هل بالفعل جاءت النّسخ كلّها متّفقة ، أم تشكّلت لجنة لتوحيدها ومن ثمّ جرى اعتماد النّسخة الجديدة ؟ المثير للدّهشة أن كتاب عزرا الذي كتبه أصلاً بالآراميّة قد زالت نسخه من الوجود ، وزال الآن معه الأسفار المُضافة ، فهل يا تُرى هذه الحكاية كلّها ملفّقة ؟ أي أن سُلطات البطالمة أخرجت نسخة إغريقيّة رسميّة من أسفار العهد القديم ولاحقت النّسخ التي كانت متوفّرة بالآراميّة وأتلفتها ، لا سيّما إذا تذكّرنا أن عدد اليهود كان آنذاك ضئيلاً ، وأن هؤلاء كانوا أفراد حامية عسكرية تنتمي إلى النّظام الأخميني المنهار ، وهذه الحامية كانت عُرضة لكل أنواع التّهديدات . المهمّ هنا أن المرحلة الهلنستيّة أنتجت نصّاً جديداً للعهد القديم مكتوباً بالإغريقيّة ، بات يُعرف باسم «النصّ السّبعيني أو السّكندري» ، وهذا النّص هو الذي اعتُمد رسميّاً وتُرجم إلى مختلف اللّغات ، ومنها العبريّة .

---

(1) تاريخ يوسيفوس اليهودي - حروب اليهود (ط. بيروت 1874) ص 49-51 .

وساعدت هلنسة نصّ أسفار العهد القديم ، مع الاضطراب الدّيني في مصر وبلاد الشام وكذلك الاضطراب السّياسي ، على انتشار اليهوديّة ، ولا سيّما في بعض المناطق القريبة من القدس ، وفي منطقة أدوم القريبة . وعاش - كما كان الحال أيام الأخمينيين - بعض اليهود في القدس ، وحاول اليهود في ظلّ الصّراعات المتواصلة بين السّلوقيين والبطالمة إنشاء كيان سياسي ، أو فرض نفوذ ومكانة ، ونشأت بين صفوفهم عصابات متطرّفة [القنّائيون = الزّيلوت] مارست الاغتيال والنّهب والسّلب وترويع الآمنين . وازداد هذا الوضع واستشرى بعد سقوط حكم كلّ من السّلوقيين في سورية ثم البطالمة في مصر ، ودخول المنطقة بأسرها تحت حكم الإمبراطوريّة الرّومانيّة .

هذا وتحدّث يوسيفوس عن مجموعة من اليهود قامت قُبيل دخول الرّومان بحركات حربيّة مكّنتها من السّيطرة على القُدس ، وإقامة كيان سياسي عُرف باسم «الأسرة الحشمونيّة» ، وعُرفت مجموعة اليهود التي أسّست هذا الكيان باسم «المكابيين» . ويوجد بين أسفار العهد القديم سفران عن المكابيين[1] ، وأسرف هذان السّفران مع المؤرّخ يوسيفوس في الحديث عن الأعمال العسكريّة لهذا الكيان ، ويبدو أن قيامه كان له بعض الأثر في جعل اليهوديّة مشروعاً دينياً ، وفي نشرها ، وفي توفير مؤسّسات دينيّة وسياسيّة يهوديّة . ونظراً لأن الحكّام السّلوقيين عدّوا المكابيين متمرّدين استمرّت حملاتهم التأديبيّة العسكريّة ضدّهم ، وبات المكابيّون على اطّلاع على أخبار الإمبراطوريّة الرّومانيّة ، وسوء علاقتها مع السّلوقيين وتطلّعها إلى احتلال كلّ من سورية ومصر ، ولذلك راسلوها واعدين إيّاها بالمساعدة . ثمّ في عام 63 ق . م دخل القائد الرّوماني پومپيوس إلى سورية ، وفي دمشق استقبل الملك الحشموني «أرسطوبولس بن الإسكندر» وكان واقعاً في صراع مع أخيه هركانوس ، وبعد كثير من المشاقّ جرى تعيين هركانوس كاهناً أعظم ، ثم ما لبثت علاقات أرسطوبولس أن ساءت مع پومپيوس ، فزحف هذا ضدّ القُدس ، واستولى عليها بعنف مدمّر ، وعزل الملك الحشموني وأنهى حكم أسرته ، وأخذه معه إلى روما ، ويُستدلّ من اسم هذا الملك ومن بيّنات أخرى أنه كان «متُهلنساً» .

(1) ممّا يجدر ذكره أن سفري المكابيين ليست لهما سوى أصول يونانيّة كُتبا بها أصلاً .

إثر هذا شهدت الإمبراطوريّة الرّومانيّة صراعات عنيفة أدّت إلى مقتل پومپيوس وقيام يوليوس قيصر ، وفي أيام الاضطراب والفوضى ظهرت أسرة أدوميّة عربية حاكمة جديدة محلّ الأسرة الحشمونيّة . كما تمكّن الفُرس الفَرثيّون عام 40 ق. م من احتلال سورية ، وهنا ظهر من الأسرة الأدوميّة الجديدة هيرود بن أنتيباتر وعلا نجمه ، حيث ذهب إلى روما وكسب ثقة قادتها الجدد : أنطونيوس وأوكتافيوس ، فعيّنه مجلس الشيوخ الرّوماني ملكاً على القُدس ، فعاد إلى فلسطين ، وتعاون مع الوالي الرّوماني على سورية لطرد الفُرس ، وبذلك أخذ القُدس عام 37 ق. م ، وتابع التّوسّع حتى صار ملكاً على فلسطين كلّها ، وعلى أدوم ، وذلك امتداداً حتى حوران وجبلها ، أي حتى منطقة السّويداء الحاليّة (في سورية) .

وامتدّ حكم هيرود - الذي بات يُعرف بالكبير - من عام 37 ق. م حتى عام 4 ق. م ، وكان سياسياً محنّكاً ، وإدارياً ناجحاً ، عرف كيف يتخلّص من مُعظم الأزمات ، ولم يخضع لسُلطة الوالي الرّوماني على سورية . وكان مُحباً للعمارة ، وإليه يُنسب بناء مدينة قيساريّة فلسطين وغيرها ، مثل سبسطية . وزعمت الرّوايات اليهوديّة أن هيرود كان يهوديّاً بغيضاً ، ولكنه كان في الواقع يؤمن بعبادة «بَعْل السّماء» ولم يكن يهودياً ، ويدلّل على ذلك معبد بُني في أيامه في قرية سيع قرب بلدة قنوات في أحواز السّويداء السّوريّة[1] .

وقبل هيرود كان حكم الأسرة الحشمونيّة ممقوتاً ومدمّراً ، ونظراً لهذا ، وللانحدار المتنوّع للذّين اعتنقوا اليهوديّة ، ولردّات الفعل ضد الهلنسة وغير ذلك ، ظهر بين صفوف الطائفة اليهوديّة في القدس وأحوازها عدّة فرق كان أهمّها :

1- الحسيديّون .
2- الصّدوقيّون .
3- الفريسيّون .
4- القنّائيون .
5- الإيسينيّون .

---

(1) العرب في سورية لرنيه دوسّو - ترجمة عربية ، ط. بيروت 1985 - ص 150-157 .

وكان مذهب الحسيديين مذهباً باطنياً غنوصياً ، انتشر قديماً وتأصّل في أعالي بلاد الرّافدين (الجزيرة الفُراتيّة) والشام الشمالي . وأما حزب الصّدوقيين ، فهو حزب ادّعى أتباعه الانتماء إلى شخص أسطوري اسمه صادوق ، قيل كان كاهناً للملك داود ، وكان هذا الحزب يؤمن بالتعطيل ، ولا يؤمن لا بالملائكة ولا الشياطين ، واعتقد بفناء النّفس مع فناء الجسد ، وهذا كلّه موجود في الإطار الواسع للزّرادشتيّة[1] .

وعارض الفريسيّون - الذين اشتُقّ اسمهم من الفُرس - وشابهوا عشيرة المجوس من جميع الجوانب ، وقدّموا رجال الكهنوت اليهود المتعلّمين المتعصّبين ، وقد آمنوا بأن فعل الرّبّ لا ينقطع ، وبحريّة الإرادة عند الإنسان مع بقاء القرار بيد الرّبّ ، والمعاد عندهم بالرّوح والجسد .

واشتهر حزب القنّائيين (الزّيلوت) بالتّعصّب والعُنف والإقدام على سفك الدّماء ، وكانوا متديّنين متطرّفين كثيراً ، قيل إنهم كانوا الجناح العسكري للفريسيّين وقد مارسوا القتل للقتل . كان أحدهم يحمل خنجراً برأسين ، ويمرّ بين النّاس فيطعن به على الجانبين ، وهم الذين سيتسبّبون بتدمير القدس وفلسطين على أيدي الرّومان ، ومن ثمّ إبادتهم جميعاً[2] .

وكان أتباع الطائفة الإيسينيّة هم الذين اعتزلوا حياة اليهود غير الطبيعيّة من جميع الجوانب ، وأقاموا ديراً لهم على شواطئ البحر الميت في قُمران ، أو عين الجدي . ونظراً للعثور على تُراثهم المكتوب ، باتت معلوماتنا عنهم وافية تقريباً ، حيث كانوا بعيدين عن بقيّة طوائف اليهود ، تعدادهم حوالي الثلاثمائة فقط ، حافظوا على الأصول الزّرادُشتيّة ، وكانوا أقرب إلى الارتباط بدمشق والواقع الشامي العام في القرن الأخير لما قبل الميلاد والنّصف الأول من القرن الميلادي الأول[3] .

---

(1) أقوم الآن بطباعة كتاب واسع عن الزّرادشتيّة .
(2) يوسيفوس ، ص 97 ، 243-323 . القدس في التاريخ ، ج 1 ص 80-86 .
(3) قمتُ بترجمة مخطوطات البحر الميت التي كتبها الإيسينيون ، وهي قيد الطباعة الآن في دار قتيبة بدمشق .

وورث اليهود عن الزّرادُشت عقيدة المُنتظَر وسمّوه المسيح ، وفي مخطوطات البحر الميت أحاديث عن أكثر من مسيح مُنتظر ، كما أنه ظهر في القرن الأول للميلاد أكثر من شخص ادّعى المسيحيّة ، وتردّت الأوضاع الأمنيّة في القدس كثيراً ، خاصّة بعد وفاة الملك هيرود الكبير ، وحاول الرّومان ضبط الأحوال . وظهر في هذه الآونة المسيح عليه السّلام ، ولم تجلب رسالته السّلام إلى فلسطين ، وظلّت الأحوال تتدهور ، وسكّان البلاد يطلبون من روما ضبط الأمور ، فكان أخيراً أن ندب الإمبراطور الرّوماني نيرون (54–68 م) القائد ڤسپاسيان ، الذي تمتّع بالكفاءة والشعبية بين جنوده ، وعيّنه نائباً إمبراطوريّاً على سورية وما جاورها . وفي آذار عام 67 م كان ڤسپاسيان في أنطاكية ، ثم التحق به ابنه تيطوس فصار تحت قيادته عدّة فرق عسكريّة كبيرة ، وانضاف إلى الفيالق الرّومانيّة قوّات الحاكم الأدومي أغريپا الثاني ، وسهيم ملك حمص ، ومالك الثاني ملك الأنباط . وشرعت هذه الجيوش باجتياح مدروس لفلسطين بدءاً من الجليل ، وحاول اليهود تنظيم أمورهم العسكرية وعهدوا بالقيادة إلى ثلاثة من كبار الكهنة ، كان منهم يوسف بن كربون المؤرّخ . ولم يتوقّفوا في الوقت نفسه عن الحروب الدّاخليّة وأعمال القتل والسّلب ، وهكذا لحق الدّمار بكلّ مكان في فلسطين ، وبينما الحروب بين العصابات اليهوديّة قد وصلت إلى ذروتها ، وصلت الأخبار بانتحار نيرون ، وبعد عام من عدم الاستقرار نودي بالقائد ڤسپاسيان إمبراطوراً ، فاستخلف ابنه تيطوس بمتابعة النشاط العسكري في فلسطين . وفي عام 70 م سقطت القدس جثّة هامدة ، ثم سقطت بعدها بقيّة المناطق الفلسطينية حتى عام 73 ، ففي هذا العام تمّت إبادة بقيّة القنّائين الذين التجأوا إلى قلعة مَسْعَدة ، وهكذا أفرغت فلسطين تقريباً من سكّانها ، حيث يُقدّر عدد الذين قتلوا من أهلها بـ 1,350,000 إنسان .

وخلال الأحداث هاجرت أعداد كبيرة من السكّان ، من النّصارى أولاً أتباع النّبي يحيى عليه السّلام إلى الجزيرة الفُراتيّة ، وإلى جنوب العراق ، كما هاجرت أعداد من اليهود إلى بابل ، وإلى مناطق في الحجاز ، كما ساعدت وحدة الإمبراطوريّة الرّومانيّة عناصر من اليهود على الهجرة إلى بلدان أوروبيّة ، وإلى بعض بلدان الشمال الأفريقي ، وشكّل هذا بداية الشّتات اليهودي في العالم .

وقبل أن يفرغ تيطوس من مهامه استدعاه والده للقدوم إليه ففعل ، وبعد مغادرته عاد إلى خرائب القُدس أعداد من اليهود ، وكثير من الجليليين أو النّاصريين الذين سيُعرفون فيما بعد باسم المسيحيين ، وكانوا متخفّين في وادي الأردن في مدينة فِحل ، وبنوا هناك أكواخاً أقاموا فيها . وصار المكان بالفعل «وكراً للّصوص والقَتَلة» ، ذلك أن «اليهود الذين روحهم لم تكن حتى ذلك الحين تحطّمت بما فيه الكفاية ، أثاروا الاضطرابات ، وآذوا بشكل يومي النّاس المؤمنين [المسيحيين] وأفراد الأمم الذين كانوا هناك ، لأنهم كانوا متوحّشين إلى أقصى الدّرجات ، وقتلة سفكوا دماءً جديدة فوق القدس ، التي كانت الآن مسوّاة بالأرض ، ملطّخة بالدّماء» .

وبقي المكان على هذه الحالة البائسة حتى صار إيليوس هادريانوس إمبراطوراً [117–138 م] وقد «سمع بأن القدس التي كانت ميتة أخذت تتحرّك ثانية ، فعبر البحار بسرعة ، وقدم إلى هناك ، فوجد هناك كثيراً من النّاس من كلّ من المسيحيين واليهود ، كانوا على خلاف بين أحدهم والآخر ، بسبب الخلاف بين ديانتيهم ، وكان بالوقت نفسه أناس من الأمم وثنيين يكرهون الدّيانتين معاً ، وبناءً عليه» وضع فوق صخرة الجمجمة خارج القدس تمثالاً لڤينوس ، وعلى مقربة منه تمثالاً لجوبيتر إله الرّومان ، وفيما بينهما تمثالاً لنفسه ، ويُرجّح أن هذا كان عام 124 م . لكن ما لبث بعد مغادرته أن قام اليهود والمسيحيون وبقيّة السكّان بهدم ما بناه الإمبراطور ، واستدعى هذا أولاً إرسال فرقة رومانيّة إلى القدس ، ثم قدوم الإمبراطور هادريان نفسه ، فقام «بقتل اليهود وباعهم رقيقاً ، وأخرجهم مطرودين من البلاد ، وبنى مدينة القدس» بناءً جديداً ، وزاد مساحتها وعمل لها أسواراً ، وأعاد بناء معبد جوبيتر ، وهو المكان الذي ستحتلّه كنيسة القيامة في المستقبل ، ومنح المدينة اسماً جديداً اشتُقّ من اسمه «إيلياء» ظلّت تحمله حتى الفتح الإسلامي ، وأصدر مرسوماً إمبراطوريّاً بمنع اليهود من سكنى القدس ، أو حتى الدّخول إليها ، وهذا مرسوم سوف يجدّده الإمبراطور البيزنطي هِرَقل بعد انتصاره على الفُرس السّاسانيين عام 627 م ، ثم تجدّد بعد هذا سنة 17 هـ / 639 م في العهدة العُمَريّة[1] .

(1) من أجل المزيد من التفاصيل انظر : القدس في التاريخ ، ج 2 ، ص 9–83 .

وهكذا تجمّعت الآن في بابل طائفة من اليهود ، استقرّت وأقامت مع الأيام عدداً من المدارس أو مراكز النشاط الدّيني ، وظلّت هذه المراكز موجودة حتى قُبيل عام 1948 ، وفي بلاد بابل عاشت اليهوديّة دوراً جديداً ، هو الثالث ، بعد الدّورين الأخميني والهلنستي . وفي هذا الدّور أعاد الحاخامات النظر في أسفار العهد القديم زيادةً وحذفاً وتكييفاً ، وجعلوا هذه الأسفار على نوعين : شرعي ، ومحذوف (أبوكريفاوي) . وخلال هذه المرحلة البابلية المهمّة اعتمد الحاخامات على التّراث البابلي الغني جداً ، فاستولوا على بعض منه كلّياً ، واقتبسوا من بعضه الآخر ، وهكذا توفّر لديهم أدب ولهجة لغوية خاصّة هي التي ستُعرف بالعبريّة ، وكانت هذه العبريّة بلا أحرف صوتيّة ، فأدخلها الحاخامات فيما بعد على نصّ ما بات يُعرف باسم العهد القديم ، وأدّى هذا إلى تعديل بالنّصّ وتغيير تجاوز 25٪ ، وفي الحقيقة لم يأخذ نصّ العهد القديم شكله النهائي حتى القرن العاشر للميلاد .

والاستعارات من التّراث البابلي كثيرة جداً ، بدأت بقصّة الغريق وهو الملك شاروكين الأكّادي ، ثم نصوص أسفار كثيرة وعقائد من الممكن أن نرى نماذج عنها فيما نُشر بكتاب اسمه «حكمة الكلدانيين» [بغداد 2000] : النّصوص التي وردت في الجزء الأول من ص 101 حتى 168 ، وكذلك محتويات كتاب «الأخلاق في الفكر العراقي القديم» تأليف حسن فاضل جواد [بغداد 1999] ، وغير ذلك كثير جداً يحتاج ذكره إلى وقت طويل وإلى مؤسّسات بحثيّة .

وبعد قيام الإسلام ، وإثر معركة اليرموك ، وقعت بين أيدي العرب كمّيات كبيرة من النّصوص الدّينية اليهوديّة والمسيحية ، كان بينها أكثر من نسخة من العهد القديم ، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص على رأس الذين اهتمّوا بهذه النّصوص حيث تُرجم له سفر التثنية ، كما ذكر الإمام أبو عُبيد القاسم بن سلاّم في كتابه «غريب الحديث» وذكره مراراً ابن كثير في كتابه البداية والنّهاية . كما يبدو أن بعض الأسفار الأخرى تُرجمت إلى العربية في العصر الأموي ، لا سيّما من قبل وَهَب ابن مُنبّه ، ويبدو أنه توفّرت ترجمة كاملة للأسفار في العصر العبّاسي قبل حكم المتوكّل على الله [232-247 هـ / 847-861 م] . وأنا لديّ بعض ما توفّر للمتوكّل مع نسخة عربية أخرى ، هي الآن قيد التّحقيق والنّشر مع كامل الأسفار المحذوفة .

وفي الأندلس توفّرت بعض التّرجمات إلى العربيّة ، لا بل يبدو أن تاريخ يوسيفوس - كلّه أو بعضه - قد تُرجم إلى العربية ، حيث توفّر ذلك للإمام ابن حَزم الظاهري ، الذي تولّى نقد وتفنيد جُلّ الرّوايات التّوراتيّة في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنِّحَل» ، بشكل رائع لا نظير له .

ومهما بلغت أهميّة التأثير البابلي على العهد القديم ، كان الإنتاج الأعظم في هذه المرحلة هو تصنيف التّلمود البابلي الذي احتاج إلى عدّة قرون ، شروعاً من نهاية القرن الثاني للميلاد ، وعندما اكتمل نصّ التّلمود مع الشّروحات ، صار حجمه حوالي الثلاثين مجلّدة كبيرة ، فيها ما لا يقلّ عن مليونين ونصف المليون كلمة[1] . ولقد حصلتُ على نسخة كاملة من هذا الكتاب الذي لا يمكن إلا من خلاله التعرّف إلى جميع جوانب الفكر اليهودي ، وأصول الصّهيونيّة ، وعندي أمل كبير بترجمة هذا الكتاب كلّه إلى العربيّة ، إن أعان الله وشاء ويسّر . ولكن إلى أن يتيسّر هذا ، مفيدٌ جداً أن نقدّم إلى القارئ العربي والمسلم مُختاراتٍ من نصوص التّلمود ، وهذا ما أقدم عليه الأستاذ أحمد إيبش .

والأستاذ إيبش سليل أسرة دمشقيّة عريقة ، مؤهّل أكاديمياً ، يُحسن بالإضافة إلى العربية عدّة لغات ، منها الإنكليزيّة والفرنسيّة والعبريّة ، ويمتلك قدرة ممتازة على التّعامل مع نصوصها . والذي اختاره من التّلمود ترجمه عن العبريّة ، وعمله هذا عمل رائد في الفكر العربي يُشكر عليه ، ولكم أتمنّى في مستقبل الأيام التّعاون معه على ترجمة كتاب التّلمود البابلي كلّه ، فهذا هو الجهاد الأعظم ، وسيكون من خلال ذلك قاعدة تمكّن الإنسان العربي والمسلم من فهم أصول الفكر الصّهيوني ، فمن دون ذلك لا يمكن دحر الصّهيونيّة واسترداد الأرض المُغتصبة ، وتحرير المسجد الأقصى وقبّة الصّخرة وبقيّة المقدّسات .

لقد حاول العرب تحرير فلسطين بالسّلاح المستورد ، وبالفكر المستورد ، وبمجافاة الإسلام ، وإهمال العلم والعدل والمساواة والنّقاء ، فأخفقوا ، واستسلم جُلّ حكّامهم للصّهيونيّة ، إلا دمشق الشام .

---

(1) يُعتبر وصف المرحوم د. حسن ظاظا لمحتويات التّلمود هو الأفضل بالعربية ، انظر كتابه «الفكر الديني اليهودي - أطواره ومذاهبه» [ط. دمشق 1999] ص 66-93 .

وفي تاريخ أمّتنا من الدّروس أبلغها ، ولا سيّما في أحداث قرني الحروب الصّليبيّة ، فعندما تسلّم المجاهد نور الدّين محمود بن زنكي السّلطة في حلب عام 1146 م ، بعد مقتل أبيه زنكي ، وضع برنامجاً شاملاً في سبيل تحرير القُدس وطرد الصّليبيين ، فابتدأ بإنشاء المدارس لإحداث نهضة علميّة كبيرة شاملة . وساعدته النّهضة العلميّة على توحيد المجتمع ، فأزال الطائفيّة ، والعشائريّة ، والإقليميّة ، ووضع حدّاً للمفاسد في قطّاع القضاء وسواه ، وأوقف استغلال المناصب ، وضرب بنفسه وبأسرته المثل الأعلى ، ومنع الجُند وقادتهم من التّدخّل في شؤون النّاس وظلمهم واستغلالهم ، واهتمّ بالصّحّة ، والأمن والأمان وحريّة الرأي والمُعتقَد ، وأعاد بناء الجيش من حيث التّسليح والتّدريب والسّلوك ، وأقام لُحمة بين الجُند والمواطنين ، فبات الجيش يمتلك ظهيراً شعبياً فعّالاً ، وكثر عدد المتطوّعة . وحقّق وحدة بلاد الشام شمالاً وجنوباً ، ومدّ الوحدة إلى مصر ، وكذلك إلى الموصل ، حتى بات على شبه يقين بتحرير القدس ، حيث أمر بصنع منبر تُلقى عليه خُطبة التّحرير في المسجد الأقصى . وصحيح أن المنيّة وافت نور الدّين قبل التّحقيق الكامل لما خطّط له ، لكن خَلَفه صلاح الدّين تابع أمانة الجهاد ومسؤوليّته ، فحرّر القدس سنة 583 هـ / 1187 م ، وحمل منبر نور الدّين إلى المسجد الأقصى ، حيث بقي فيه إلى أن أحرقه الصّهاينة عام 1969 .

لا بدّ - خاصّةً في دمشق العروبة والإسلام والإيمان - من وضع خطط مماثلة لخطط نور الدّين ، بزيادة الاهتمام بالعلم والعلماء فعلاً ، يُضاف إلى هذا أن عصرنا هو عصر العلم والمعرفة ، اللذين لا يمكن أن يقوم أي مجتمع حضاري اليوم إلا على أساس متين يرتكز عليهما . ومن أهم مزايا عصرنا الآن الاهتمام بتواريخ الدّيانات والعقائد ، كما أن من مزايا بعض جوانب هذا الاهتمام في الغرب حملات ظالمة على الإسلام ، وعلى النّبي المُصطفى صلّى الله عليه وسلّم . فعلينا نحن الآن - كما فعل أئمّتنا الأوائل - خوض ميادين البحث في الدّيانات وتواريخها ، لا للإثارة ولكن لتبيان «أن الدّين عند الله الإسلام» ، وأن الإسلام صالح لكل زمان ومكان ، وأنه لا يصلح زمان ولا مكان من دون الإسلام ، لأن الإسلام هو الدّين الذي ارتضاه الله جلّت قدرته لعباده .

ما تزال علاقاتنا مع الغرب غير متوازنة وغير إنسانيّة ولا أخلاقيّـة ، حيث ما برح الغرب منذ إعلان البابا أوربان الثاني عن الحروب الصّليبيّة في عـام 1095 م حتى الآن ، يجرّعنا المرارة الدّموية كأساً بعـد كـأس ، فالعدوانيّة الغربيـة لـم تتوقّف منـذ ذلك الحـين ، والكيـان الصّهيونـي وسِمَته العنصريّة ، وغـزو أفغانسـتان والعـراق ، شواهد بارزة على ذلك .

وأنا شخصياً أطالب الغرب بتغيير سلوكه والإقلاع عن العدوان ، ولا أطالب أي عربي أو مسلم بالانتقام ، وذلك تأسّياً واقتداءً بمـا فعلـه النبـي المُصطفـى - صلّـى الله عليه وسلّم - يوم أُحُد ، حيث دعا لأعدائه بالهداية ، ثم عندما دخل مكّـة فاتحاً لم ينتقم حتى من وَحشي ومن هند ، بل قال : «اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء» .

فلتكن أبحاثنـا في ميـدان تـاريخ العقـائد أبحاثـاً تستهدف تبيـان أن كـل مـا هـو موجود - سوى الإسلام - زيف وبلاء في الحـاضرة وفي الآخـرة ، وأن نقـدّم للغـرب والعالـم كلّه صورة الإسلام الحقيقية ، وأن ندعو للنـاس جميعاً بالهدايـة لا بـالهلاك والإبادة ، وأن نهتم أكثر فـأكثر بوحـدة العـرب والمسـلمين ، لكـن دون التّسـاهل مـع الكيان العنصري الصّهيوني ، لأن كل متعامل مع هذا الكيـان متهـاون مفـرّط حكمـاً بالقُدس ، والذي يهون عليه التّفريط بالقُدس يسهل عليه التّفريط بالمسـجد الحَرام ، والمسجد النّبـوي . ومـا مـن مسـلم يتفـوّه بالشـهادتين ويؤمـن قلبـه بالوحدانيّة يجيز التّفريط ، فكلّ المصائب قد تكون هيّنة يمكن التّعـامل معهـا إلا مصيبـة الإيمـان ، فلـو فرّط بلال ولم يصرّ على قوله «أحَدٌ ، أحَد» ، ولـو تسـاهل الصّدّيـق رضـي الله عنـه مع المرتدّين ، لتغيّر وجه التاريخ ولَلَحِقَ الفسـاد ديـن الإسـلام مثلمـا لحـق غيـره مـن الدّيانات عبر التاريخ . وحين فرّط بعض الحكّام وتفاوضوا مع الكيـان الصّهيونـي ، فتحوا باباً للتّنازلات ازداد اتّسـاعاً ، ومـا زال يـزداد ، ولـم يتحقّـق حتـى الآن سـوى المزيد من الخسائر والإهانات .

وفقط بالجهاد تحقّـق الجـلاء عـن جنـوب لبنـان ، وسـيتحقّق قريبـاً مـن غـزّة ، ولكـي يُغلـق بـاب البـدع والتنـازلات ، علـى هـؤلاء الحكّـام التّوبـة إلـى الله تعـالى ، والإنابة والأخذ برأي جماهير المسلمين ، والالتزام بالشّريعة ، وإلا سيحصلون على الإدانة التّاريخية ، ثم الإدانة من قبله تعالى . ولا مَنجاة من ذلـك ، لأنهـم لا ريـب

سوف يؤتَون كتابهم بشمالهم : ﴿وأمّا من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوتَ كتابيَه * ولم أدر ما حسابيَه * يا ليتَها كانت القاضية * ما أغنى عنّي ماليَه * هلك عنّي سُلطانيَه * خُذوه فغُلّوه * ثمّ الجحيم صَلّوه * ثمّ في سلسلة ذَرْعُها سبعون ذراعاً فاسلُكوه﴾ [الحاقّة : 25-33] .

جزى الله بالخير والجنّة كلّ مَن عمل في سبيل الإسلام وهداية البشريّة ، بالقول والفعل ، وأقلع عن سفك الدّماء ، ذلك لأنه ﴿مَن قَتَلَ نفساً بغير نَفس أو فسادٍ في الأرض فكأنّما قتل النّاس جميعاً ومَن أحياها فكأنّما أحيا النّاس جميعاً﴾ [المائدة : 32] .

اللّهم ألهمنا الرُّشد ، وامنحنا العون والهداية ، لك الحَمد دائماً وأبداً ، وصلّى الله على النّبيّ المُصطفى وعلى آله وأصحابه ، ومَن أخذ بهُداه إلى يوم الدّين[1] .

سُهيل زكّار

دمشق ، 29 جُمادى الآخرة 1426
الموافق 4 آب 2005 م

---

(1) لم أقم بالاستفاضة في الحديث عن التّلمود ، واكتفيتُ بالإحالة إلى ما كتبه المرحوم الدكتور ظاظا ، تاركاً المزيد للأستاذ إيبش .



مقدّمة

التّلمود : تاريخه وتعاليمه

التّلمود أحد أهم الكتب الدّينية وأقدسها عند اليهود ، وهو النّتاج الأساسي للشّريعة الشّفويّة ، أي تفسير الحاخامات للشريعة المكتوبة (التُّوراه) . ويضمّ سجّلاً لنقاشات الحاخامات حول الشريعة اليهوديّة ، والأخلاق والعادات والأساطير والقَصَص ، التي يعدّها التّراث اليهودي مؤصّلة بالتّواتر الشّفوي . وهو مصدر أساسي للتّشريع والأعراف ، وللتواريخ الواقعيّة والمواعظ الأخلاقيّة .

يتألّف التّلمود من مكوّنين رئيسيين : «المشناه» ، وهي أول مجموعة مكتوبة من الشريعة الشّفوية للدّين اليهودي . و«الجمارا» ، وهي نقاش حول المشناه (علماً أن مصطلحي التّلمود والجمارا يردان عادةً بالتّوازي) . والتّلمود يتوسّع في نصوص التُّوراه الباكرة عموماً وفي المشناه بوجه الخصوص ، وهو أساس القواعد التالية للشريعة اليهوديّة كلها ، ولكثير من الأدب الحاخامي . وكذلك تجري الإشارة في العادة إلى التّلمود بعبارة «شاس» ש"ס ، وهي اختصار حروفي للتّسمية العبريّة «شِشّاه سداريم» ، وتعني : المباحث السّتّة . واسم التّلمود مشتقّ من الجذر العبري למד (لامَد) الذي يعني : دَرَسَ وتَعَلّم ، كما في عبارة «تلمود تُوراه» ، أي (دراسة الشريعة) . وهذا يتقارض مع العربية : تِلْمِيْذ ، تَلْمَذَة .

يُعدّ اليهود التّلمود كتاباً مقدّساً وأن كلام علمائه كان «يوحي به الرّوح القُدُس» (رُوح هَقُّدش רוח הקדש) ، على أساس أن الشريعة الشفاهيّة مُساوية في المنزلة للشّريعة المَكتوبة . والتّلمود مُصنَّف للأحكام الشرعيّة أو مجموعة القوانين الفقهيّة اليهوديّة حول المواضيع القانونيّة (هَلَخاه) والوعظيّة (هَجَداه) . وهو مُرادف للتّعليم القائم على أساس الشّريعة الشّفويّة (السّماعيّة) . من هنا ، يُطلق مؤرّخنا أبو الحَسَن المسعودي على سعيد بن يوسف الفيّومي اسم «السّمعاتي» ، والتعبير يُقابل «القَرّائي» أو مَن يرفض التّراث السّماعي ولا يُقرّ إلا بالتُّوراه المكتوبة .

وتتّضح الخاصيّة الجيولوجيّة في التّلمود ، فهو يضمّ داخله وجهات نظر شتّى متغايرة تماماً ، إذ أنه عبارة عن موسوعة تتضمّن الدّين والشريعة والتّأملات الغيبيّة والتاريخ والآداب والعلوم الطبيعيّة . كما يتضمّن فضلاً عن ذلك فصولاً في الزراعة وفلاحة البساتين والصّناعة والمهن والتجارة والرّبا والضرائب وقوانين الملكيّة والرّقّ والميراث وأسرار الأعداد والفلك والتّنجيم والقصص الشعبي ، بل ويغطّي مختلف جوانب حياة اليهودي الخاصّة ، أي أنه كتاب جامع مانع بشكل يكاد لا يدع للفرد اليهودي حريّة الاختيار في أي وجه من وجود النشاط في حياته العامّة أو الخاصّة ، إن هو أراد تطبيق ما جاء فيه .

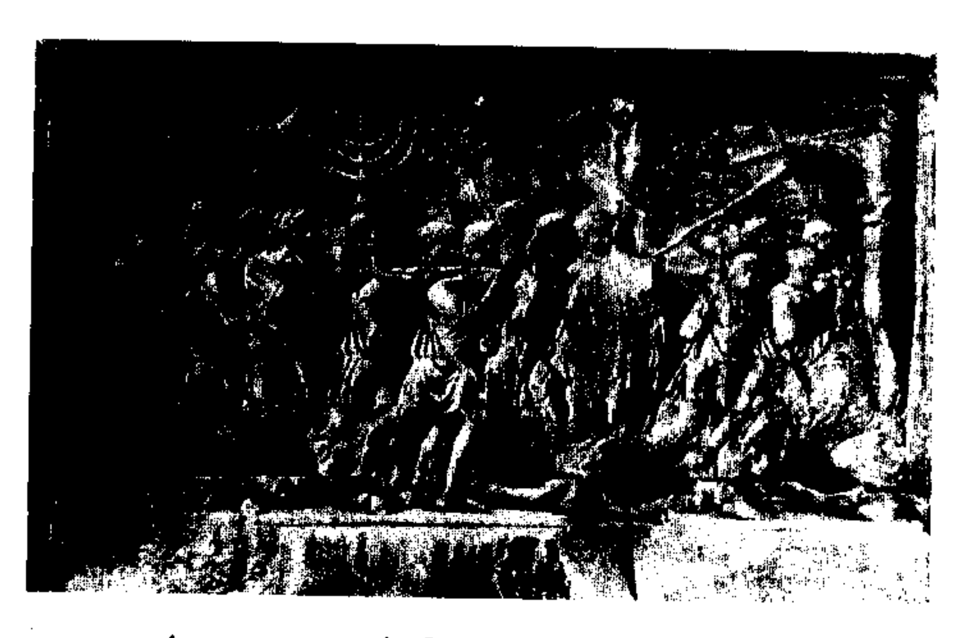
نشوء التّلمود وتطوّره

كان أوّل تدوين فعلي للتّراث الدّيني اليهودي في القرن الخامس قبل الميلاد ، على يد عِزرا الكاتب עזרא הספר «عِزرا هَسّوفير» ، الذي يعدّه اليهود واحداً من أنبيائهم الأخرونيم (أي التالين) ، وله في العهد القديم سفر خاصّ به ، وورد فيه لقبه : «عِزرا الكاهن الكاتب ، كاتب كلام وصايا الرّب» . وعلى ذلك ، ما كان مجرّد المدوّن الأول لأسفار اليهود ، بل والمؤسّس الفعلي لليهوديّة الباكرة المُستندة إلى التُّوراه (كتاب العهد) ספר הברית «سِفِر هَبْريت» .

بعد عِزرا ، قام بمتابعة مهمّة التّدوين طائفة من الكَتَبة (أو كَتَبة الشّريعة) عُرِفوا بالعبريّة باسم «سُوفِريم» ، فجمعوا أسفار التُّوراه وشرحوها ، وربطوا بها التُّراث المروي شفاهياً ، وراحوا يتناقلونه كشرح متواتر . وعلى امتداد 300 سنة ، قاموا باستنباط أحكام التُّوراه وتكييفها حتى أضحت شريعة تفاعليّة ، كما أنهم سنّوا طائفة من الشرائع اصطُلح على تسميتها «كلام السُّوفِريم» . وبنهاية هذه المرحلة ، كانت اليهودية الرّبّانيّة أو الحاخاميّة قد تأسّست بشكل واضح . ثمّ في بداية القرن الثاني قبل الميلاد ، تألّفت هيئة قضائيّة برئاسة الـ«زُوجوت» זוגות – أي المَثاني من حكماء الدّين – وصارت بمثابة سلطة هَلَخائيّة (تشريعيّة) . ومن هؤلاء المَثاني ظهر خمسة أجيال بين حوالي عام 150–30 ق.م ، قام أوّل جيل منهم بوضع الأسلوب المشنائي في تداول الشّريعة الشّفاهيّة .

غير أن تدوين المشناه لم يتمّ في الواقع إلا بين القرنين الثاني والثالث ، على يد الجيل الأخير من «الزُّوجوت» : هِلّيل وشَمّاي ، في عصر التَّنائيم (مُعلّمي المِشناه) أواخر القرن الأول ق.م . وهذه الفترة تميّزت بمحاولات متكرّرة لجمع مواد المِدراش والمِشناه المبعثرة ، فتمّ جمع المِشناه بأكملها في مدرستي هِلّيل وشَمّاي مطلع القرن الثالث الميلادي ، وتابعها حاخامات أُخر مثل يوحَنان بن زَكّاي (في مدرسته بيَبنه) ، والرّابي عَقيبا الذي جمع مواد متميّزة من المِدراش والمِشناه والهَجَداه .

بعد قيام الثّورة اليهوديّة ضدّ الرّومان بقيادة شمْعون بار كوخبا 132-135 م ، تمّ إحياء السَّنهِدرين (المحكمة التشريعيّة العُليا) ، فأقرّ رئيسها يهوداه هَنّاسي (الرّئيس) المجموعة التشريعيّة التّامّة للمشناه ، وهي التي يضمّها التّلمود اليوم . ولم يتمّ آنذاك إضافة مواد من المدراش أو الهَجَداه ، ثم شرع تلامذته يضيفون «البَرايتوت» (المواد الدّخيلة) ومنها «التُّوسِفتا» (التّذييل) ، بينما تم جمع المدراشيم في مصنّفات مستقلّة . وخلال الثلاثة قرون التّالية قام «الأموراثيم» بإضافة الجِمارا (الفلسطينيّة والبابليّة) ، حتى اكتمل جمع التّلمود بصورة عامّة في القرن السّادس الميلادي .



مشهد من قوس نصر القائد تيطوس في روما يمثّل «أخذ الغنائم من هيكل أورشليم» أقيم في روما تخليداً لانتصاراته في حملته على أواسط فلسطين 70 م

تركيب التّلمود ووظائفه

تؤمن اليهوديّة الأرثوذوكسيّة بأن كتب «تَنَخ» (أي أسفار التُّوراه ، وأسفار الأنبياء ، وأسفار التأريخ) كانت تتنزّل جنباً إلى جنب مع تراث شفهيّ ما يزال حيّاً . وعلى ذلك ، فإن «التُّوراه» תורה (الشريعة أو التّوجيه) هي الشّريعة المكتوبة ، بينما تختصّ الشريعة الشّفاهيّة תורה שבעל־פה بتطبيقاتها وتأويل معانيها اللفظيّة ، ويؤلّف التّلمود إلى أتمّ حدّ الجمع المؤصَّل والمُسند لهذه الشريعة الشّفاهية . ومن خلال ذلك فله أكبر الأثر على العقيدة والفكر اليهوديين . ورغم أنه ليس قاعدة شرعيّة رسميّة ، فهو يمثّل الأساس لجميع القواعد التالية للشريعة اليهوديّة ، ولذا فله دوماً أكبر الأثر في أحكام الهَلَخاه والممارسات الدّينيّة اليهوديّة (راجع مقدّمة مُوشيْه بن مَيمون على كتابه «مشنيه تُوراه» משנה תורה) .

والتّلمود مرتّب بحسب محتوياته وفق مَباحث ومقالات ، وإن كان بالمفهوم العام مقسوماً إلى قسمين : مِشناه ، وجِمارا . كما أن ثمّة تمييزاً ما بين «الهَلَخاه» (المواد المعيارية المختصّة بالتّشريع) ، و«الأجَداه» (المواد غير المعياريّة) .

المِشناه والجِمارا

كان البدء بتدوين الشريعة اليهوديّة الشّفاهيّة إثر خراب الهيكل عام 70 م ، فتمّ تحريرها على يد الرّابي يهوداه هَنّاسي ، فيما سُمّي «المِشناه» (משנה) في عام 200 للميلاد . ولقد تمّ اعتماد كتابة التّراث الشّفاهي بُغية الحفاظ عليه ، عندما لاح تماماً أن المجتمع اليهودي وعلومه في فلسطين كانت عُرضةً للفناء المحتوم . ويُعرف حاخامو المِشناه باسم (المُعلّمين) «تَنّائيم» (مفردها : تَنا תנא) ، وجرت العادة إيراد عديد من التّعاليم الواردة في المِشناه تحت اسم أحد هؤلاء التَّنائيم .

خلال القرون الثلاثة التّالية جرى على المِشناه تحليل ونقاش في فلسطين وبابل (حيث التجمّعات يهودية الكبيرة) . ويُعرف هذا التّحليل باسم «الجِمارا» גמרא . ويُشار إلى حاخامي الجِمارا باسم (الشُّرّاح) «أمورائيم» (مُفردها : أمورا אמורא) . وتحليل الأمورائيم يتركّز على إيضاح آراء وأقوال ووجهات نظر التَّنائيم .

وخُلاصة الأمر أن المشناه والجِمارا معاً تؤلّفان متن التّلمود . وعلى ذلك فإن التّلمود هو عبارة عن الجمع بين متن جوهري هو المِشناه ، أو «التّنقيح» (من الفعل شاناه שנה ، أي : ثنّى ، راجع) ، ومن التّحليل والتّذييل اللاحق ، أي «الجِمارا» التي تعني : التّكملة (من الفعل جَمَر גמר الذي يعني في العبرية : أتمّ ، وفي الآرامية يعني الفعل ܓܡܪ : دَرَس) .

مباحث التّلمود ومقالاته

تتألّف المِشناه من ستة مباحث (سِداريم ، مفردها سِدِر סדר ، أي سلك) . وكل واحد من هذه المباحث يتألّف من 7 إلى 12 مقالة ، تُدعى مَسّيختوت (مُفردها مَسّيخت מסכת) . وكل مَسّيخت تنقسم بدورها إلى أجزاء أصغر تُدعى المِشنايوت (مُفردها مِشناه) . ويُلاحظ في التّلمود أنه ليس لجميع مقالات المِشناه نصّ جِمارا . وفوق ذلك فإن ترتيب المقالات في التّلمود يختلف في بعض الحالات عنه في المِشناه ، وذلك يتّضح لدى مراجعة كل سِدِر بمُفرده :

1- سِدِر زِراعيم זרעים (البُذور) 11 مَسّيخت : وهو يبحث في الصّلوات والعبادة ، ثم الأعشار والتّشريعات الزّراعيّة .

2- سِدِر مُوعيد מועד (الفُصول) 12 مَسّيخت : يختصّ بالأعياد عند اليهود وأحكام يُوم شَبّات والتّقاليد الخاصّة به .

3- سِدِر نَشيم נשים (النّساء) 7 مَسّيخت : يختصّ بقوانين الزّواج والطلاق وحَلَف اليمين والنُّذور والوصايا .

4- سِدِر نزيقين נזיקין (العقوبات) 10 مَسّيخت : يشتمل على التشريع المدني والجزائي ، وطريقة عمل المحاكم وتحليف الأيمان .

5- سِدِر قَداشيم קדשים (المُقدّسات) 11 مَسّيخت : يبحث شعائر التّضحية والهيكل وأحكام الصّوم .

6- سِدِر طَهَروت טהרות (الطهارة) 12 مَسّيخت : يختصّ بأحكام الطهارة الشعائريّة .

تتضمّن المِشناه آراءً فقهيّة محسومة ، وكثيراً ما تضمّ خلافات في وجهات النّظر بين التّنائيم ، وبها القليل من الحوار . أما الجِمارا ، فهي على النّقيض من ذلك تُطرح بشكل سِجال جدلي بين اثنين من الحاخاميم متُناقضين في الرّأي (ومراراً ما يكونان مُغفلَيّ الهويّة ، وربما حتى كانا خياليين) ، يُصطلح على تسميتهما : «مَكشان» מקשן (السّائل) ، و«تَرتسان» תרצן (المُجيب) . وهذه السّجالات تشكّل «الكتل البنائيّة» للجِمارا ، واسم الفقرة الواحدة من الجِمارا هو «سُوجياه» (סוגיה أي المسألة ، جمعها سُوجيوت) .

وهذه السُّوجياه تتألّف عادةً من توسُّع تفصيلي للمِشناه مُبيّن بالبراهين . وفي كل سُوجياه يمكن لكل مشارك أن يذكر برهاناً توراتياً أو مِشنائياً أو أمورائياً لبناء دعم منطقي لرأيه . ومن خلال عمل ذلك ، تظهر من خلال الجِمارا نقاط خلاف لفظيّة ما بين التّنائيم والأمورائيم (غالباً تتمّ نسبة رأي ما إلى حاخام ثَبت سالف بمقدار ما يمكنه الرّدّ على سؤال) ، وتتمّ مقارنة الآراء المِشنائيّة بمقاطع من التُّوسِفتا (תוספתא أي المُلحق أو التّذييل ، وهي مصدر مُوازٍ للهَلَخاه من عصر المِشناه) ، ومن المدراش الهَلَخائي (أي المخيلتا والسِّفرا والسِّفرِه)[1] .

وجميع هذه المصادر غير المِشنائيّة يُصطلح على تسميتها بالبَرايْتُوت (مُفردها بَرايتاه ברייתה ، وتعني حرفياً بالآراميّة : الموادّ الدّخيلة) . ونادراً ما يتمّ حسم السِّجالات وإقفالها رسمياً ، وفي العديد من الأمثلة تحسم الكلمة النّهائيّة القانون العملي ، رغم أن هناك العديد من الاستثناءات لهذه القاعدة .

هذا وإن الواسطة اللغويّة لمتن التّلمود تختلف بشكل واسع بحسب المقطع ، فمقاطع المِشناه والإلماعات المنقولة من متن التّوراه ترد باللغة العبريّة القديمة ، بينما ترد مقاطع الجِمارا بالآراميّة[2] .

---

(1) التسميات معقّدة ، فالتّلمود رغم قدمه يبقى جديداً في اللغة العربية . أمّا المخيلتا (المعيار) فهي شرح مدراشيّ على سفر الخروج لشمعون بن يوحاي ، والسِّفرا (بالآرامية : كتاب) شرح على سفر اللّيويّين ، والسِّفرِه (بالجمع الآرامي) شرح لسفري العدد والتّثنية .

(2) أفضل مرجع اليوم حول المواد اللغوية في التلمود هو بحث هوفمان Hoffman عام 2004 .

الهَلَخاه والأجَداه

الجِمارا هي بالأساس وثيقة تشريعيّة ، لكنها فوق ذلك تزوّد المشناه بالجدال حول المواد اللامعياريّة ، أي الأجَدائيّة (أو الهَجَدائيّة) والتّفاسير التّوراتيّة ، كما أنها مصدر للتاريخ والأساطير . فعلى ذلك نرى أن الجِمارا مراراً ما قد تنتقل بالموضوع إلى قضايا ذات شأن مرتبط بفحوى السّياق ، بما في ذلك تذييلات روائيّة توراتيّة وأخلاقيّة وعلميّة واجتماعيّة وطبيّة . وغالباً ما يكون التّشابه الوحيد بين اثنتين من السّوجياه هو حقيقة أنهما تذكران الحاخام ذاته من التّنائيم أو الأمورائيم .

والمقالات (المَسّيختوت) التي تناقش مواداً فلسفيّة أو أخلاقيّة - كمَسّيخت براخوت مثلاً ، التي تعالج قضايا الصّلوات والبركات - نرى أنها تضمّ محتوىً أجَدائياً وافراً نسبياً . وتُقدّم الأجَدوت عموماً على شكل قصص أو تراث شعبي أو حكايات تاريخيّة أو مواعظ أخلاقيّة ، مع نصائح تجاريّة وطبيّة . مع ملاحظة أن هذا الأسلوب في العرض يُستخدم غالباً للتعبير بصورة غير مُباشرة عن تعاليم أكثر عُمقاً . أما «عين ياكوف» עין יעקב فهي تسمية تُطلق عادةً على مجموع المادّة الأجدائيّة بأسرها في التّلمود البابلي ، مُضافاً إليها التّعليقات التّذييليّة .

التّلمودان الأساسيان

برغم أن متن المشناه واحد ، فثمّة نوعان مختلفان من الجِمارا : اليروشلميّة والبابليّة ، وبالتالي ينبثق عنهما تلمودان بالاسمين المذكورين : التّلمود اليروشلمي والتّلمود البابلي . ولكن اليوم عندما ترد عبارة التّلمود مجرّدة من النّعت ، أو مُحلاّة بأداة التّعريف (هـ) فهي تعني تحديداً التّلمود البابلي ، وذلك على أساس المزيّة والأفضليّة والتفوّق . ولمّا كانت الجمارا البابليّة أكمل وأشمل من الجمارا الفلسطينية ، فإن التّلمود البابلي هو الأكثر تداولاً وهو الكتاب القياسي عند اليهود . ولذا ، فحين يُستخدَم لفظ (التّلمود) بمفرده وفي الكتابات العلميّة ، يشير اللفظ إلى الجمارا وحدها . ويُضاف عادةً تعليق الرّابي راشي (الرّابي شلومو بن يتسحاق) على التّلمود عند طبعه ، وإن كان هذا التّعليق لا يُعدّ جزءاً منه .

التّلمود اليروشَلمي

الأصحّ في تسميته : «التّلمود الفلسطيني» ، واليهود ينسبونه إلى أورشليم : «تلمود يروشَلمي» תלמוד ירושלמי ، مع أن المدينة خَلَت من المدارس الدّينيّة بعد هدم الهيكل الثاني ، وانتقل الحاخامات بعدها إلى إنشاء مدارسهم في يبنِه وصفورية وطبريّة . كما أطلق يهود العراق على التّلمود الفلسطيني اسم «تلمود آرتس يسرَئيل» תלמוד ארץ ישראל ، وأطلقوا عليه أحياناً اسم (تلمود أهل الغرب) ، نظراً لوقوع فلسطين إلى الغرب من العراق .

والجمارا في هذا التّلمود هي خُلاصة حوالي 200 سنة من تحليل المشناه في مدارس الفقه بفلسطين . وبسبب مكان وجود هذه المدارس ، فإن الأحكام الزراعيّة لما يُسمّى «آرتس يسرَئيل» تُناقش فيها بتفاصيل وافية . ولقد تم صوغها في عام 350 م على يد الرّابي يوسي في فلسطين . وهذه الجمارا بالإضافة إلى المِشناه تُسمّيان معاً «التّلمود اليروشَلمي» ، ولو أن هذه التّسمية غير دقيقة ، على اعتباره لم يُكتب في أورشليم . وعلى ذلك ، فهو يُعرف أيضاً بوجه أدقّ باسم «التّلمود الفلسطيني» أو «تلمود آرِتس يسرَئيل» .

هذا ، وإن الإحالة إلى التّلمود اليروشَلمي لا تتمّ عادةً بالإشارة إلى الصّفحة (كما هو الحال في التّلمود البابلي) ، وإنما بترقيم المِشناه التي تجري مناقشتها . وعليه فإن الإحالات تكون على الشكل التالي : [المَسّيخت – الفصل : المِشناه] (مثلاً : بِراخوت 1 : 2) . وبما أن التّلمود البابلي يُعدّ أكثر وقعاً وتأثيراً ، فإن الإحالات إلى التّلمود اليروشَلمي تُصدَّر عادةً بعبارة : «يَروشَلمي» ، لإيضاح مصدرها .

وأما أهم التّفاسير التّقليدية المشتهرة على هذا التّلمود اليروشَلمي فهما : «پِنْيه مُوشْيه» פני משה ، و«قَربان هَئيداه» קרבן האידה ، اللذان يُطبعان مع النّص التّلمودي في أغلب طبعات التّلمود اليروشَلمي .

هذا ، ولقد صدرت طبعات مترجمة عن التّلمود بكثير من اللغات الأوروبيّة ، ولم يُترجم منه إلى العربيّة شيء . أمّا عن ترجماته الإنكليزيّة فنذكر تفصيلها في الملحق بآخر كتابنا هذا (ص 400) .

التّلمود البابلي

هذا التّلمود هو نتاج الحلقات التّلموديّة (يشيڤا) في العراق (بابل) ، وأشهرها يشيڤوت سُورا ونهارْدَعَـه وپُومْبِديتا . ويُعرف هذا التّلمود في حالات نادرة جداً باسم «تلمود أهل الشرق» .

والجمارا في هذا التّلمود هي خُلاصة أكثر من 300 سنة من التّحليل للمِشناه في المدارس البابليّة . ولقد تمّ صوغها على شكل مجموعة رسميّة على يد الرّاب آشي والرّاب راڤينا ، من زعماء الجالية اليهوديّة بأرض بابل ، حوالي سنة 550 م . لكن الرّاب آشي توفي في عام 427 م ، مُخلّفاً نسخة مُبكرة من التّلمود بادَت ولم يبق لها أثر ، فقام راڤينا عقب وفاته بمتابعة عمليّة الجمع والتّحرير لفترة بعيدة . ثم استمرّت عمليّة الجمع والتّحرير على يد «التّساڤورائيم» أو «الرّابّانان تْساڤورائيه» (حاخامات التّلمود اللاحقون المُفسّرون) بناءً على هذا النّص لفترة 250 سنة تالية ، والكثير من المتن لم يبلغ شكله النّهائي إلا حتى عام 700 م . وتؤلّف المِشناه والجِمارا البابليّة معاً «التّلمود البابلي» תלמוד בבלי (اللفظ بالعبرية : تَلمُود بَڤلي) .

هذا ويبلغ عدد كلمات التّلمود البابلي مليونين ونصف مليون كلمة في نسخته الأصليّة (تشكّل الأجَداه 30٪ منها) ، وعلى هذا فإن حجمه يبلغ ثلاثة أضعاف حجم التّلمود الفلسطيني . وقد كُتب التّلمود بأكثر من لغة ، فالمشناه كُتبت بعبريّة خاصّة تُسمّى عبريّة المشناه ، أمّا الجمارا فبالآراميّة (الجمارا الفلسطينيّة باللّهجة الآراميّة الغربيّة ، والجمارا البابليّة باللهجة الآراميّة الشرقيّة) . وتتّسم الشّروح الواردة في التّلمود الفلسطيني بأنها أقصر وأكثر حرفيّة وقُرباً من النّصّ .

ويُلاحظ أن بعض المفاهيم القانونية في التّلمود البابلي تعكس أثر القانون الفارسي . كما أن التّلمودين مختلفان في بعض المواطن ، فيُلاحظ مثلاً أن الموقف من الوثنيين في التّلمود البابلي أكثر تسامحاً لأن وضع اليهود في بابل كان جيداً ، فقد جاء في التّلمود البابلي أن الأغيار خارج فلسطين لا يمكن اعتبارهم من الوثنيين . وبينما يحرّم التّلمود الفلسطيني بيع أيّة سلع للوثنيين في الأيام الثلاثة التي تسبق أيّ عيد وثني ، فإن التلمود البابلي يحرّم البيع في أيام العيد فحسب .

ومن أهم التطوّرات التي دخلت على الشريعة اليهوديّة ما جاء في التّلمود البابلي من أن : «شريعة الدّولة هي شريعتنا» ، بل قد ورد في التّلمود البابلي دُعاءٌ خاص يُتلى أمام ملوك الأغيار ويطلب لهم البركة ، نصّه : «مُباركٌ هو الذي مَنَح مخلوقاته شيئاً من جلاله» .

وتعود الآراء والفتاوى التي وردت في التّلمود إلى القرن الخامس قبل الميلاد . وبدأت عمليّة جمعها وتدوينها مع القرن الثاني الميلادي ، واستمرّت عمليّة التفسير والتدوين حتى القرن السّادس . وبعد اكتمال نصّ التّلمود ، استمرّت الإضافات والتعليقات حتى القرن الثامن عشر ، حين أضاف إلياهو (فقيه ڤيلنا) تعليقاته .

جرت طباعة التّلمود للمرّة الإولى في إيطاليا خلال القرن السّادس عشر عام (1520-1523 م) على يد بومبرج (كما سنفصّل أدناه) ، واشتملت هذه الطبعة على المِشناه والجِمارا ، بالإضافة إلى تفاسير راشي ، وكذلك التّوسافوت . والواقع أن جميع الطبعات مُنذ ذاك اتّبعت تنصيص الصّفحات ذاته (بمعنى أن النّص نفسه يظهر في الصفحة ذاتها بأيّة طبعة كانت) وإن اختلف التنسيق الطباعي ، ويبلغ مُجمل صفحاتها 5500 . غير أن أكثر الطبعات شيوعاً على الإطلاق هي القياسيّة المعروفة بطبعة ڤيلنا Vilna (عاصمة ليتوانيا من بلاد بحر البلطيق) ، التي قام بتنضيدها كلّ من أرملة روم Romm وإخوته وطُبعت بين 1880-1886 . والتّلمود البابلي يشتمل فيها على المِشناه الكاملة والـ37 جِمارا ، وعلى مَسّيختوت (مقالات) ثانوية وغير رسميّة (من الحَسرونوت) ، في 5894 صفحة من القطع الكبير .

ورقم الصفحة في التّلمود يشير إلى ورقة ذات وجهين اثنين (صفحتين) ، تُعرف في العبريّة باسم : «داف» דף ، ولكل داف وجهان «عموديم» (עמוד أي صفحة) موسومان بالحرفين א و ב (أ ، ب) . هذا وإن الإشارة الإسناديّة لنصوص التّلمود بواسطة «الدّاف» هو أمر حديث العهد نسبياً ، ويعود زمنياً إلى الطبعات الباكرة للتّلمود في القرن السّابع عشر . وأما الأدب الحاخامي السّابق لذلك فهو عادةً يشير بالإسناد إلى المَسّيخت أو الفصول ضمن هذه المَسّيخت . وفي يومنا الحاضر يتمّ الإسناد المرجعي بالشكل التالي : [المَسّيخت ، رقم الدّاف ، أ/ ب] (مثلاً : براخوت 23 ب] .

هذا وإن أهم تفسير أساسي للتّلمود البابلي هو تفسير الحاخام راشي רש"י (الرّابي شلومو بن يتسحاق ، 1040-1105 م) . وهـذا التّفسير شامل ويغطّي التّلمود بأكمله تقريباً ، وهو يقدّم شرحاً وافياً للعبارات ، وللتركيب اللفظي لكل فقرة تلموديّة . وأما التّفسير المعروف بـ التُّوسافوت תוספות (أي الإضافات أو الذّيول) فهو أيضاً يُعدّ أساساً للفهم الكامل لكل «داف» . وهو يتألّف من مجموعة من تفاسير التّلمود ، قام بجمعها في غالبية الحالات حاخامات «إشكنازيم» فرنسيون وألمان (وكان من بينهم أحفاد راشي نفسه) . وهو يدرج على خُطى أساليب التّلمود النّمطيّة في النّقاشات الجدليّة والسِّجال . ويرى البعض في هذه التّوسافوت إضافات على التّلمود نفسه (أي بعبارة «تلمود على التّلمود») ، وهي أيضاً تفي بمثابة تذييل على تفسير راشي الأساسي . والتفسيران كلاهما يظهران افتراضياً في كل طبعة للتّلمود ، منذ صدوره مطبوعاً للمرّة الأولى (انظر الشكل) .

في مدارس اليشيڤوت (مُفردها : يشيڤا ישיבה مدرسة دينية يهوديّة) ، تُعتمَد للدراسة المتقدّمة للمَسّيختوت ثلاثة تفاسير تحليليّة ، وضعها كلٌّ من : شلومو لوري (مَهَرشال) ، ومِئير لُوبين (مَهَرام) ، وصموئيل إيدلز (مَهَرشا) ، وهي تناقش متن التّلمود وتفسير راشي والتّوسافوت معاً . وكذلك فإن على التّلاميذ المتقدّمين أن يدرسوا التّفاسير التشريعيّة على التّلمود ، خاصّةً تفاسير : أشير بن يهيئيل (هَرُوش) ، ويتسحاق الفاسي (هَريف) ، ومُوشيه بن مَيْمون (هَرَمْبَم) .

وتُقسم تفاسير التّلمود إلى نوعين : رِشونيم وأخرونيم (السّابقون والتّالون) فأما الرِّشونيم فهم الحاخامات الذين عاشوا منذ حوالي عام 1000 م إلى ما يقارب عام 1450 م ، وأما الأخرونيم فمنذ قرابة العام 1450 إلى عصرنا الحاضر . وفي دراسة التّلمود من المألوف اعتبار أن التّفاسير القديمة تتمتّع بفهم أفضل للتّلمود من الحديثة . وعلى ذلك من النّادر جداً أن يقوم بعض الأخرونيم بنقد آراء الرِّشونيم ، بل يحاول الأخرونيم عادةً شرح تفاسير الرِّشونيم فضلاً عن محاولة التّفسير المباشر لعبارات التّلمود . ومن أبرز تفاسير الرِّشونيم : تفسير راشي ، التّوسافوت ، رَشْبا (شلومو بن أدريت) وريتڤا (يُوم طُوف بن أبرَهام) . وبعض الحاخامات الرِّشونيم كتبوا تفاسير تشريعيّة تُستخدم كذلك لفهم معاني التّلمود .

ومن الأمثلة على هؤلاء : يتسحاق الفاسي (هَريف) ، مُوشيْه بن مَيمون (هَرَمْبَم) ، أشير بن يهيئيل (هَرُوش) . ومن أشهر الحاخامات الأخرونيم : الرّابي أكيڤا (عَقيبا) آيگر Akiva Eiger ، وپْنيْه يهوشُوَع ، وممّن تلاهم لاحقاً الرّابي حاييم سوليڤيتشيك Chaim Soleveichik . هذا ، ويتعيّن على دارسي التّلمود جميعاً أن يتمرّسوا بالتّفاسير المذكورة أعلاه وسواها ، وعليهم استخدامها للتوصّل إلى فهم صحيح لأية ورقة («داف») من التّلمود . والورقة الواحدة من التّلمود بحاجة لدراستها على الوجه الصحيح إلى شهر كامل بُغية فهمها تماماً ، وحتى أن العديد من التّلموديين المتمرّسين يؤكّدون أنهم بعد سنوات طويلة من الدّراسة المُضنية لم يتجاوزا من التّلمود بعدُ مرحلة الأعتاب .

أساليب التّلمود ومواضيعه

المعروف أن التّلمود اليروشَلمي متجزّء الأركان ويعسر على القراءة ، حتى للتّلموديين المتمرّسين . غير أنه يغطّي عدداً من المواضيع المختصّة حصراً بما يُسمّى «آرِتس يسرَئيل» (أرض إسرائيل) ممّا لا تتمّ تغطيته في التّلمود البابلي (كما ذكرنا أعلاه) ، كما في الأحكام الزّراعيّة مثلاً . ومثل هذه الأحكام ، كترك زوايا الحقل للفقراء ، وترك الحقل بوراً كل سبعة أعوام إلخ ، تنطبق فقط ضمن حدود «آرِتس يسرَئيل» ، ولذا فإن الحاخامات التّلمود البابلي الذين عاشوا في المنفى لأجيال عديدة يعدّون أنفسهم غير خُبراء بهذه الأحكام .

وأما التّلمود البابلي فكانت عمليّة جمعه وتحريره أكثر عناية ودقّة بكثير . ومع ذلك فإن فقرات الجِمارا فيه توجد بمعيار 37 مقابل مقالات المِشناه (المَسّيختوت) البالغ عددها 63 ، وسبب ذلك أن مُعظم أحكام مبحثي زِراعيم (الأحكام الزّراعيّة المقتصرة على آرِتس يسرَئيل) وطهَروت (أحكام الطهارة الشّرعيّة المتعلّقة بالهيكل ونظام الأضاحي) ، كانت لها تطبيقات محدودة من النّاحية العمليّة ، ولذا لم يتم إضافتها[1] .

---

(1) رغم ذلك يُلاحظ أن هناك جمارا بابليّة على سدر قَداشيم ، وسبب ذلك ربما كان أن دراسة أحكام التّضحية تُعدّ إجمالاً بمثابة المكافئ لعمليّة التّنفيذ الفعلي للأضاحي .

وعبر العصور تمّت دراسة التّلمود البابلي بتركيز أكبر ، ولذا فله حشدٌ وافر من التّفاسير ، وفضلاً عن ذلك وبسبب أنه لاحق لليروشَلمي ، يُعتقد بأنه يحلّ محلّه ويقوم مقامه ، ولذا فلا غرو أن تكون العبادة اليهوديّة تلتزم عموماً كأساس لها هذا التّلمود البابلي .

ويتكوّن التّلمود من عنصرين : العنصر الشرعي والقانوني (هَلَخاه) ، الذي يذكّرنا بأحكام الفرائض والتشريعات الواردة في أسفار الخروج واللّيويّين والتّثنية ، والعنصر القصصي والرّوائي والأسطوري (أجَداه) ، بما فيه من أقوال مأثورة وأخبار وخُرافات وشطحات ، مع السّحر والتّراث الشعبي . ومُعظم المشناه يندرج ضمن التشريع (هَلَخاه) ، بينما مُعظم الجمارا قصص وأساطير (أجَداه)[1] . ويُلاحظ أن التفسير يستمدّ أهميّته من مدى قدمه ، فالأقدم أكثر ثقة وأهميّة من الأحدث .

ويشكّل التّلمود ، بسبب ضخامته وطريقة تصنيفه ، صعوبة غير عاديّة في محاولة استخدامه والاستفادة منه . ومن هنا ، بدأت جهود تصنيفه بعد إتمامه . وكانت أولى هذه المحاولات هي «هَلاخوت پسُقوت» הלכות פסקות (القوانين المُقرّرة) التي تُنسب إلى يهوداي جاؤون (القرن الثامن) ، و «هَلاخوت جَدُولوت» הלכות גדולות (القوانين العُظمى) التي كتبها شمعون كيّارا ، والعملان يلخّصان المادّة التّلموديّة المتعلّقة بالشرائع . وظهرت مصنّفات أخرى في القرن الحادي عشر ، خصوصاً في العالم العربي وفي شمال أفريقيا وأوروبا ، من أهمّها :

1- مشنيه تُوراه משנה תורה (تثنية التُّوراه) : لموشيه بن ميمون .
2- سفر هَطوريم ספר הטורים (كتاب الصّفوف) : ليعقوب بن أشير .
3- شُلَحان عاروخ שלחן ערוך (المائدة المنضودة) : ليوسيف قارو .

* * *

(1) تنبغي الملاحظة هنا أن الهَلَخاه والأجَداه في التّلمود ينبغي تميزها عن مجموع «المِدراش» מדרש ككتاب مُستقلّ عن التّلمود (في 10 أجزاء) . وهو مجموعة الشروح التي وضعها فقهاء الدين اليهودي (أشهرهم بار نَحماني صاحب مدراش ربّا מדרש רבא ، وتِنحوما صاحب مدراش تنحوما מדרש תנחומא) على غوامض نصوص العهد القديم . ولقد تم تدوين هذين الشرحين وتبويبهما في القرنين الثالث والرابع للميلاد .

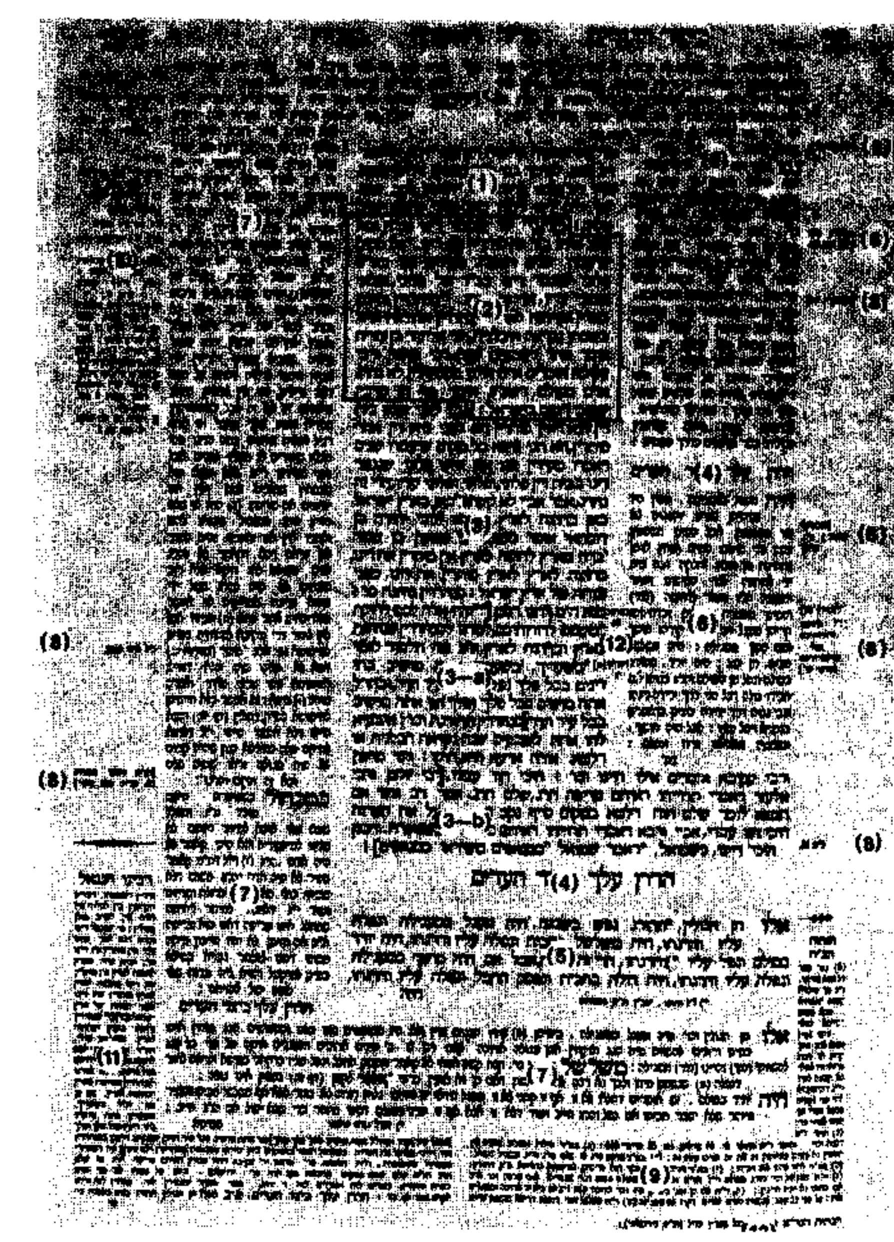
ظلّ التّلمود مجهولاً تقريباً في أوروبا المسيحيّة ، ولم يكتشفه المسيحيّون إلا في أواسط القرن الثالث عشر ، وذلك عن طريق اليهود المتنصّرين . ومنذ ذلك التاريخ أصبح التّلمود محطّ سخط السّلطات الدّينيّة ، لأنها كانت تراه كتاب خُرافات نجم عنه عدم اعتناق اليهود المسيحيّة ، كما كانت ترى أنه يحتوي على ملاحظات مُهينة ضدّ المسيحيّة كعقيدة ، وضدّ شخص المسيح وأمّه .

ويضمّ التّلمود فضلاً عن ذلك أجزاء عن مُحاكمة المسيح في السّنهدرين ، ويُقرّ بأن اليهود هم الذين صلبوا المسيح وأنهم يتحمّلون المسؤوليّة كاملة عن ذلك . وقد كانت الكنيسة تنظّم مُناظرات (مُجادلات خلافيّة) عَلَنيّة ، يشترك بها عادةً يهود متنصّرون مُلمّون بالتّلمود ويعرفون جوانبه السّلبيّة . وقد كانت الكنيسة تحرق نسخ التّلمود التي تُضبط من آونة إلى أخرى .

طبعات التّلمود

طُبع التّلمود الفلسطيني في مدينة البندقيّة بإيطاليا (بين عامي 1523–1524 م) بإشراف دانيل بومبِرج Daniel Bomberg ، كما أن التّلمود البابلي بُدئ بطباعته في إسبانيا عام 1482 ، لكن أقدم طبعة كاملة ظهرت في البندقيّة أيضاً (1520–1523 م) على يد بومبِرج ذاته . وقد غَدَت هذه الطبعة النّموذج الأصلي الذي حَذَت حذوه مختلف الطبعات التي تلتها . وقد نُشرت الطبعة القياسيّة في ڤيلنا Vilna عاصمة ليتوانيا بين 1880–1886 ، وهي تحتوي تعليقات مستفيضة ، في أكثر من 20 جزءاً . فكان يتمّ طبع المشناه والجمارا في العمود الأوسط ، بتوالٍ شاقولي ، وتُطبع في عمود مجاور لها تعليقات راشي على النّحو التالي :

(1) نهاية الجمارا على المشناه السّابقة . (2) المِشناه . (3) الجِمارا . (3-a) مدراش هَلَخائي تشريعي يؤيّد المشناه . (3-b) ثلاثة تعليقات موجزة من حلقات فلسطين وسورا وپومبديتا . (4) علامة تدلّ على انتهاء الفصل . (5) مشناه تابعة لفصل تالٍ . (6) شرح الحاخام راشي . (7) تعليقات تذييليّة (تُوسافوت) تناقش نقاطاً معيّنة من الجِمارا وشرح راشي . (8) إحالات إلى مصادر تلموديّة وحاخاميّة أخرى ومُتغيّرات نصيّة . (9) ملاحظات كتبها يوئيل سيركِس (1561–1640) . (10) إشارات لأحكام مُوشيه بن مَيمون ومُوشيه كونسي وكتاب «هَطور» و«شُلحان عاروخ» . (11) تعليقات للرّابي حنانئيل من شمال أفريقيا مطلع القرن الحادي عشر . (12) إحالات إلى الكتاب المقدّس . (13) ملاحظات لإلياهو (ڤيلنا جاؤون) .



نموذج لطبعة ڤيلنا القياسيّة (1880–1886 م) ، الصفحة 7 أ من مَسّيخت مكّوت (سِدِر نزيقين)
تناقش مصير رجل حُكم عليه ففرّ ، وبماذا ينبغي أن يُحكَم عليه مجدداً .
لاحظ متن المشناه المؤطّر ضمن خط مربّع حاصر ، والأقواس المربّعة التي تحدّد امتداد الشّروح (3-a) و (3-b) ، وكيف أن متن المِشناه ثم الجِمارا ثم الشّروح تُطبع بتراصف شاقولي في المتن .
حول مدلولات الأرقام انظر الصفحة المقابلة (المصدر : *Encycl. Britannica*)

تمّت ترجمة التّلمود إلى بعض اللغات الأوروبيّة (كما سنبيّن في الملحق بآخر كتابنا هذا ص 399) ، وتُرجمت مختارات قصيرة منه إلى العربيّة لا تمثّل الطبيعة المتناقضة للفكر التّلمودي . ولكنه تُرجم بأكمله إلى الإنكليزية (في لندن بين 1935-1952 بإشراف الرّابي إيزيدور إپشتاين ، وتُعرف بطبعة Soncino) ، وإلى بعض اللّغات الأخرى (كعمل الرابي أدين شتاينْزالتس Adin Steinsaltz في ترجمته إلى كل من الإنكليزية والفرنسيّة والرّوسيّة) ، وهو يقوم حالياً بإعداد طبعة جديدة للتّلمود البابلي والفلسطيني ، مزوّدة بترجمة عبريّة حديثة للنّصوص الآراميّة . ولقد صدر حتى الآن أكثر من خمسة وعشرين جزءاً من التّلمود البابلي ، ومن المتوقّع أن يصدر التّلمود في أربعين جزءاً ، خلال مدّة عشرة أعوام .

ويُلاحَظ أن الرّقابة الحكوميّة كانت تفرض على اليهود أحياناً أن يحذفوا بعض الفقرات التي تُظهر عداءً متطرّفاً للأغيار ، أو أن يُضيّقوا المجال الدّلالي لبعض الكلمات والعبارات العنصريّة المتطرّفة . ولذا ، حلّت كلمة (عكوم) بمعنى عابد الكواكب وأبراج النّجوم ، و(كوثي) بمعنى سامري ، و(كوشي) بمعنى زنجي أو حبشي محل (نكري) أو (جُوي) التي تعني : أجنبي أو غريب . وحلّت كلمة (بابليم) أي البابليين ، و(كنعانيم) أي الكنعانيين ، محلّ (أُموت هَعولام) ، التي تعني : أمم العالم .

والواقع أن جميع المحاولات تُضيّق المجال الدّلالي لكلمة (الأغيار) وتُخصّصها فتجعلها مقصورة إما على الوثنيين وحسب ، أو على جماعة محدّدة من النّاس مثل السّامريين أو البابليين . وهذا من قبيل استرداد البُعد التاريخي لمصطلح الأغيار (العام) ، حتى تتكيّف نصوص التّلمود مع الواقع الجديد حيث لم يعد الأغيار وثنيين بل أصبحوا من عَبَدة الإله . وكان يُسجّل في مستهلّ كل صفحة من التّلمود إعلان رسمي يقرّر أن قوانين التّلمود ضدّ الوثنيّة لا تنطبق على الأمم التي يعيش اليهود بينها ، وأنها تنطبق على الوثنيين فحسب (وحينما احتلّت إنكلترة الهند قيل إن المقصود هم الهنود البوذيّون ، كما ضُمّ إلى قائمة المعنيين بالهجوم سكان أوستراليا الأصليّون) . وبعض الطبعات تقرّر أن المعني بالهجوم هو (اليشمَعيلي) ، وتعني : المُسلم العربي ، من نسل إسماعيل بن إبراهيم .

مواقف الفرق والمذاهب
اليهودية من التّلمود

انتشر التّلمود ودراسته من بلاد بابل إلى مصر وشمال أفريقيا وإيطاليا وإسبانيا وفرنسا وألمانيا ، فصار اليهود يعدّون هذه البلاد ملاذاً ومُنطلقاً لفكرهم وعقيدتهم الرُّوحيّة ، وفي جميع هذه الأقطار تركّز الاهتمام الفكري اليهودي حصراً في التّلمود دون سواه .

مذهب القرّائيّة :

كانت الحركة القرّائيّة הקראות «هَقْراؤوت» (التي أسّسها داود بن عنان في العراق بالقرن الثامن الميلادي) ردّة فعل كبرى على سيطرة التّلمود ، ولقد قامت في عقر دار الجاؤونيم (الفُقهاء) بعد قرنين من إتمام جمع التّلمود . ولقد كان قيام هذه الحركة - بالإضافة إلى تأثير الثقافة الإسلامية - العاملين الرئيسيين الكبيرين في إثارة الطاقات الكامنة الغافية للدّين اليهودي ، فضخّت القَرّائيّة في البحث العلمي كثيراً من الإلهام الذي تدين له اليهوديّة بعدّة قرون من النّشاط المُثمر .

كان المفهوم المحوري للحركة القرّائيّة هو رفض «الشريعة الشّفاهيّة» ، المتمثّلة في التّلمود ، في مقابل الالتزام الصّارم حصراً بالشّريعة النّصيّة المكتوبة (تَنَخ = أسفار التّوراه وما يليها من أسفار النّبيئيم والكتوبيم) . وهذا بخلاف مفهوم اليهوديّة الرّبّانيّة (أو المعياريّة التّلموديّة) القائلة بأن «الشريعة الشّفاهيّة» قد تمّ إنزالها على مُوشيْه النّبي في جبل سيناء إلى جانب «الشريعة المكتوبة» ، وأنها لذلك ليست تقلّ عنها قُدسيّةً أو أهميّةً في التّشريع .

وتاريخ الحركة القَرّائيّة يبيّن أنها كانت ذات طابع ثوري متحرّر ، وفيها أصداء من حركة المعتزلة الإسلاميّة وفلسفتها الكلاميّة ، وأوّل ما رفضت النّزعة الحُلوليّة التي غلبت على اليهوديّة الحاخاميّة من بقايا الصّدوقيين . ومنذ قيامها أعلن أصحابها إيمانهم بنبوّة عيسى ﷺ ومحمد ﷺ ! ويُعتقد أن يهود الخَزَر اعتنقوا يهوديّة قَرّائية ، وكان كثير من قرّائي روسيا وبولونيا يروون أن لغتهم هي التُّركيّة .

القَبّالاه ودراسة التّلمود :

في داخل الدّين اليهودي ، كان المنافس الأكبر لسلطة التّلمود تطوّر القبّالاه קבלה (التّصوّف الباطني اليهودي) ، التي ظهرت بشكلها الحديث في القرن الثالث عشر . وخلال فترة انحطاط الحياة الفكريّة بين اليهود التي بدأت في القرن السادس عشر ، كان التّلمود يُعدّ بمثابة المصدر الأعلى للتّشريع لدى غالبيّة اليهود ، وفي القرن ذاته أضحت أوروبا الشرقيّة - بخاصّة بولونيا - القاعدة الأولى لدراسته . حتى أن الكتاب المقدّس (باعتباره وثيقة منفردة بحدّ ذاتها) حلّ في المرتبة الثانية ، وكرّست المدارس الدّينية اليهوديّة كافّة جهودها بشكل شبه حصري للتّلمود وحده ، بحيث أضحت كلمة «الدّراسة» مُرادفةً لمفهوم «دراسة التّلمود» .

أما الحركة الحَسيديّة החסידים التي ظهرت في بولونيا بالقرن السابع عشر وانتشرت عبر غالبيّة غربي الإمبراطوريّة الرّوسيّة وبعض أوروبا الشرقيّة (ما ينطبق اليوم على : بولونيا ، بيلاروسيا ، أوكرانيا ، مولداڤيا ، هنگاريا ، إلخ) فأدّت إلى إضفاء الأهميّة على القبّالاه وعلى الأفكار المرتبطة بها من النّاحية النّظريّة والتّطبيقيّة في اليهوديّة . واليوم ينظر اليهود الحَسيديّون إلى دراسة الحَسيديّة المتعلّقة بالقبّالاه على أن لها من الأهميّة ما يعادل دراسة التّلمود ، أو حتى أكثر منها أهميّةً ، على اعتبارها قوّة دفع نفسي تؤجّج الشّعور والإصرار على التعلّق بالشّريعة .

التّلمود وحركة التّنوير :

ظهرت ضدّ سلطة التّلمود ردّة فعل جديدة ، بظهور رائد حركة التّنوير اليهودي مُوشيْه مِنْدِلزون Moses Mendelssohn ، الذي دعا إلى البعث الفكري للدّين اليهودي من خلال احتكاكه بالثقافة الأمميّة (الشّعوب غير اليهوديّة) في القرن الثامن عشر . وكانت حصيلة هذا الصّراع تَمَثُّلاً أقرب للثقافة الأوروبيّة ، وخلق عِلم جديد لليهوديّة ، وحركات إصلاح الدّيني . وبرغم الميول شبه القَرّائيّة التي ظهرت في اليهودية الإصلاحيّة الباكرة ، تشبّث معظم اليهود بالتّلمود على اعتباره الوثيقة الأوّليّة التي يمكن من خلالها فهم اليهوديّة السّائدة .

اليهود في الحضارة الغربيّة :

أدّت الثقافة الحديثة تدريجياً إلى صرف معظم اليهود عن دراسة التّلمود ، فلذا نرى التّلمود في نظر أغلبيّة اليهود مجرّد فرع من فروع علم اللاهوت اليهودي . وبالإجمال ، قامت المعرفة اليهوديّة بتوفية التّلمود قدره تماماً ، إذ قام العديد من باحثي القرنين التاسع عشر والعشرين بتقديم إسهامات هامّة حول تاريخه ونقده النّصّي [1] ، كما أحلّوه بمثابة الأساس للأبحاث التاريخية والأثريّة . كما أن دراسة التّلمود قد اجتذبت انتباه حتى الباحثين من غير اليهود ، فتمّ إدراجه في فروع التّدريس بالجامعات .

التّلمود في مذاهب الدّين اليهودي المعاصر :

ما برحت اليهوديّة الأرثوذوكسيّة تعدّ التّلمود الوثيقة الأعلى شأناً التي يمكن من خلالها فهم اليهوديّة عموماً ، والهَلَخاه على وجه الخصوص . والأرثوذوكس من اليهود يدرسون التّلمود بعُمق وتمعّن ، لكنهم نادراً ما يستخدمون المصطلحات التّلموديّة التّشريعيّة لتحرير الشّريعة اليهودية المُدرجة في المجاميع الاشتراعيّة اللاحقة للتّلمود . فعملياً ، يستند الباحثون الأرثوذوكس عموماً على القوانين المنصوص عليها قديماً ، وسبب ذلك هو أن المجتمع اليهودي الأرثوذوكسي لديه قناعة بأن الاحتمالات الصّائبة لأوجه القوانين المختلفة قد استنفد بحثَها غالباً جماعة الحاخامات الرِّشونيم (السّالفون) ، ولذا فهم يُذعنون لما نصّ عليه هؤلاء . وأما الأفراد الذين لهم آراء يعدّها المجتمع اليهودي بمثابة ما يرقى إلى مستوى الرِّشونيم (مثل فقيه ڤيلنا [2] Vilna Gaon) فهم قلّة نادرة للغاية .

---

(1) نذكّر أن في ترجمة التّلمود إلى العربية ودراسته بالنّقد النّصّي فوائد جمّة لنا .

(2) فقيه ڤيلنا ، أو : ڤيلنا جاؤون (1720–1797 م) اسمه الحقيقي : إلياهو بن شلُومو تسالمان Elijah ben Solomon Zalman : أهم علماء التّلمود في العصور الحديثة على الإطلاق ، ولد في ليتوانيا وتنقّل بين المجتمعات اليهوديّة في پولونيا وألمانيا ، ثم استقرّ في ڤيلنا وأسّس مدرسة تلمودية عُليا (يشيڤا) خاصّة به ، وعارض الحركة الحَسيديّة وحدّ من انتشارها في ليتوانيا . له تعليقات شهيرة على التّلمود البابلي ، تمّ إدراجها بأسفل حواشي طبعة ڤيلنا القياسيّة ، المنشورة عام 1880–1886 م (انظر الشكل الوارد آنفاً) .

وفضلاً عن ذلك ، رغم أنه من الناحية النّظريّة من المُتاح في اليهوديّة الأرثوذوكسيّة تعديل أو إلغاء بعض المراسيم الحاخاميّة ، فهذا المطلب ينبغي أن تقوم به هيئة مُساوية تشريعياً (من حيث تمكّنها بالموضوع ، ومن حيث تقواها الدّيني) للهيئة التي أصدرت المرسوم التشريعي أصلاً . وبحسب وجهة النّظر الأرثوذوكسيّة يضحي من الوارد تعطيل المراسيم الحاخاميّة بمجرّد تأليف هيئة مجلس السّنهدرين (المحكمة اليهوديّة العُليا) من جديد ، إبّان ظهور المشيّح المُنتظر (والاعتقاد السّائد هنا يقول بأن الشّريعة سوف تنتقل من التّلمود البابلي إلى التّلمود اليروشَلمي) . كما أن اليهود الأرثوذوكس جاهزون دوماً لدراسة التّلمود ولو تكريماً لشأنه وحسب ، فهذا الأمر يُعدّ لديهم بمثابة فريضة دينيّة كدراسة الشّريعة المكتوبة תלמוד תורה . هذا ومُعظم اليهود الأرثوذوكس يعدّون منطق النّقاش التّلمودي مقدّساً بحدّ ذاته ، بما أنه نقاش قائم ضمن مفهوم الذّات الإلهيّة (فلذا ، حتى الآراء التي ثبت خطؤها أو التي لا تتوافق مع الهَلَخاه ، تُعدّ مقدّسة وجديرة بالدّرس) . ومن وجهة النّظر الثقافيّة ، تُتيح دراسة النّقاش التّلمودي للدّارس خُلاصة قرون من الثّقافة اليهوديّة والتُّراث اليهودي .

وكذلك فإن اليهود المُحافظين Conservative Jews يعدّون الهَلَخاه مُوجبة ومُلزمة ، غير أنهم لا يتقبّلون أحكام قوانين الشّريعة المُحدثة (ما بعد عام 1500 م) . وعلى ذلك ، فالمجتمع اليهودي المحافظ يعدّ نفسه بأنه يستخدم التّلمود بصورة مشابهة لما كان عليه الحاخامات السّابقون لعام 1500 م بالضبط . وأسلوب المحافظين في عمليّة التّشريع القانوني تركّز على إرفاق نصوص قديمة ومراسيم سابقة ضمن سياق تاريخي وثقافي ، وعلى تفحّص التّطوّر التاريخي للهَلَخاه . ويعدّ المجتمع المُحافظ أيضاً أن السّلطة الهَلَخائيّة لمجلس الحاخامات لها من السّلطة ما يفي بإلغاء المراسيم الحاخاميّة السّابقة ، وإصدار مراسيم جديدة بيدها رأساً . وهذه الأساليب عادةً ما ينجم عنها مُرونة عمليّة أكثر ، وفاعليّة أكبر في التّغيير .

أمّا اليهود الإصلاحيّون Reformist Jews وأتباع نزعة إعادة البناء اليهودي Reconstructionists ، فهم عموماً لا يقومون بتدريس الكثير من نصوص التّلمود في مدارسهم العبريّة ، وإنّما يدرّسونه في حلقاتهم الحاخاميّة خاصّة ، إذ أن مفهوم

العالَم الحاضر لدى اليهوديّة اللّيبراليّة يرفض فكرة الشّريعة اليهوديّة المُلزمة ، ويستخدم التّلمود كمصدر للإلهام والتّثقيف الأخلاقي والمعنوي . وغالبيّة الباحثين الليبراليين للتّلمود لا يدرسون التّلمود بذاك المستوى المتعمّق كما هو الحال لدى أتباع الحركتين الأرثوذوكسيّة والمحافظة .

* * *

الحملات المُعادية للتّلمود

يرى اليهود أن تاريخ التّلمود يعكس بشكل جزئي تاريخ ديانتهم في مواجهة عالم من العداء والاضطهاد ، لذا فإن هذا ما يفسّر روح العدائية والتشكيك المتجذّرة في صُلب العقليّة اليهوديّة . فتقريباً في الوقت الذي كان فيه التّساڤورائيم (المُفسّرون) البابليّون يقومون بوضع اللّمسات الأخيرة على عمليّة جمع التّلمود وتنقيحه ، إذا بالإمبراطور يوستنيانوس (527-565 م) يصدر مرسومه ضدّ إلغاء الترجمة اليونانيّة للكتاب المقدّس اليهودي في الصّلوات المُقامة في الكُنُس اليهوديّة . فكان هذا المرسوم ، الذي أملاه التعصّب المسيحي والمشاعر المعادية لليهوديّة ، فاتحةً للحملات على التّلمود ، الذي اتُّخذ منه موقف مشابه ، فبدأت هذه الحملات في القرن الثالث عشر بفرنسا ، حيث كانت دراسة التّلمود مُزدهرة آنذاك .

وأدّت التُّهم المُلقاة على التّلمود من قِبَل اليهودي المُرتدّ نيكولاس دونين Nicholas Donin إلى قيام المناظرة العلنيّة الأولى ما بين اليهود والمسيحيين ، وإلى أول عمليّة حرق لنسخ من التّلمود (في باريس بساحة جنيڤ عام 1244 م) . وأيضاً كان التّلمود موضوعاً لمناظرة أخرى في برشلونة عام 1263 م ما بين الحاخام مُوشيه بن نحمان (نحمانيدِس) وبابلو كريستياني Pablo Christiani .

كما قام كريستياني المذكور بحملة على التّلمود ، ممّا أسفر عن أمر رسمي بابوي ضدّه ، وعن أول قانون رقابة عليه ، تمّ تنفيذهما في برشلونة على يد هيئة مفوّضة من الآباء الدّومينيكان ، الذين أمروا بحذف مقاطع يشجبها المنظور المسيحي (عام 1264 م) .

وفي مُناظرة طُرطوشة Tortosa بإسپانيا عام 1413 م ، طرح إيرونيمو دى سانتافيه Heronimo de Santa Fé طائفة من الاتّهامات ، بما في ذلك التأكيد القاطع على أن إدانة الوثنيين والكفرة المرتدّين المنصوص عليهم في التّلمود إنما المقصود بهم في الواقع المسيحيّون . وبعد عامين قام البابا مارتينوس الخامس ، الذي كان الدّاعي إلى هذه المناظرة ، بإصدار أمر بابوي (لكنه بقي حبراً على ورق) يُحرِّم فيه على اليهود قراءة التّلمود ، ويأمر بإتلاف نسخه كلها .

على أن أهمّ هذه الاتّهامات وأبلغها أثراً كانت تلك التي أطلقها في بدايات القرن التاسع عشر المنشقّ اليهودي يوهانّس پْفيفَركُورْن Johannes Pfefferkorn ، الذي كان يعمل لصالح الآباء الدّومينيكان . وكان من نتيجة هذه الاتّهامات صراع لعب فيه الإمبراطور والبابا دور الحَكَم ، أمّا المُدافع عن اليهود فكان يوهان رُويْخلين Johann Reuchlin ، الذي جُوبه من قِبَل دُعاة النّزعة الظُّلاميّة ودُعاة النّزعة الإنسانيّة . ولقد أضحت هذه المناظرة ، التي تمّ أغلبها عن طريق الكتيّبات ، مقدّمةً لإجراء الإصلاح .

غير أن نتيجةً غير متوقّعة أبداً أسفرت عنها هذه القضيّة كانت صدور الطبعة الأولى الكاملة من التّلمود البابلي ، التي أصدرها دانييل بومبِرج Daniel Bomberg في البندقيّة (ڤينيسيا) ، وكان ذلك في عام 1520 ، تحت حماية مرسوم بابوي . وبعد ثلاثة سنوات ، في عام 1523 ، نشر بومبِرج الطبعة الأولى من التّلمود الفلسطيني (كما ذكرنا أعلاه) .

ولكن بعد ثلاثين عاماً ، بعد سماحه بنشر التّلمود مطبوعاً ، قام الڤاتيكان بحملة لتدميره . ففي يوم رأس السّنة (9 أيلول 1553 م) تمّ في روما إحراق نسخ التّلمود التي صودرت بموجب مرسوم من قِبَل محاكم التفتيش Inquisition ، وجرت عمليات حرق مماثلة في مُدن إيطالية أخرى ، مثل كريمونا في عام 1559 م . وصدر قانون الرّقابة على التّلمود وعلى الأعمال اليهوديّة الأخرى ضمن مرسوم بابوي نُشر في عام 1554 . وبعد خمسة أعوام تمّ إدراج التّلمود في أولى قوائم الكتب الواجب تطهيرها Index Expurgatorius ، وأمر البابا پيوس الرابع في عام 1565 م بحرمان التّلمود حتى من اسمه .

أمّا الطبعة «المُطهّرة» الأولى للتّلمود ، التي استندت إلى متنها مُعظم الطبعات التالية ، فهي التي ظهرت في بازل Basel (بال) بسويسرا (1578–1581 م) ، فحُذفت منها بالكامل مَسْيخت عَبوداه زاراه (عبادة الأوثان) مع مقاطع عُدّت مُعادية للمسيحيّة مع تحوير في بعض الجمل والعبارات . وتمّ إصدار مرسوم مُعادٍ جديد للتّلمود بيد البابا جريجوري الثالث عشر (عام 1575– 1585 م) ، وفي عام 1593 جدّد البابا كليمنت الثامن مرسوم الحظر القديم على قراءته وحيازته .

ثمّ أدّت الدراسة المتزايدة للتّلمود في بولونيا إلى إصدار طبعة كاملة (كراكوف Krakow عام 1602–1605 م) تمّ فيها طبع النّص الأصلي الكامل . وسبقتها طبعة تضمّ – ظنّاً – مبحثين فقط منه ، في لوبلين Lublin (1559–1576) . وفي عام 1707 صودرت بعض نسخ التّلمود بإقليم براندنبورغ ، لكنها رُدّت إلى أصحابها بأمر فريدريك ملك بروسيا . وآخر حملة على التّلمود جرت في بولونيا ، عندما عقد الأسقف دِمبوفسكي ، بتحريض من الفرانكيست ، مُناظرة علنيّة تلاها أمر بمصادرة جميع نسخ التّلمود الموجودة في إقليمه الأسقفي ، ويحرقها على الملأ .

هذا وإن تاريخ التّلمود يتضمّن أيضاً الحملات الأدبيّة التي شُنّت ضدّه من قِبَل اللاهوتيين المسيحيين ما بعد عهد الإصلاح ، حيث تمّ توجيه تلك الحملات الشديدة ضدّ التّلمود تحديداً ، رغم أنه كان موضع دراسة اللاهوتيين المسيحيين في القرنين السّابع عشر والثامن عشر . وفي عام 1830 خلال جدال في الجمعيّة الفرنسيّة للنّبلاء حول مسألة اعتراف الدّولة بالدّين اليهودي ، أعلن الأدميرال ڤيرويل Verhuell عن رفضه شخصياً لمسامحة اليهود الذين صادفهم في أسفاره عبر العالم ، سواءٌ لرفضهم الاعتراف بيسوع على أنه المسيح المُنتظر ، أو لاقتنائهم التّلمود .

وفي السنة ذاتها ، قام الأسقف كياريني l'Abbé Chiarini بنشر كتاب ضخم له في باريس بعنوان : «نظريّة اليهوديّة» *Théorie du Judaïsme* ، أعلن فيه عن النيّة بإعداد ترجمة للتّلمود ، فكان بذلك أوّل مَن دعا من المسيحيين إلى ترجمة التّلمود ونشره ، إنما بُغية الحصول على نسخة مقروءة منه ، يمكن فهمها ويمكن استخدامها للهجوم على العقيدة والمفاهيم اليهوديّة .

* * *



صفحة عنوان كتاب «أوتساروت حَيم» (خزائن الحياة) للقبالي اليهودي يتسحاق لوري
كُتبت هذه المخطوطة في المغرب عام 1760 م ، بيد رؤبين بن موشيه نَحماني

أقسام التّلمود

نعود لتذكير القارئ ببعض المفاهيم الأساسيّة ، التي نتوقّع أن تكون اختلطت في ذهنه حتى الآن بسبب تشابك الموضوع :

ينقسم التّلمود إلى المشناه والجمارا ، وتبلغ أقسام المشناه ستة وتسمّى بالعبريّة (سِداريم סדרים) أي المباحث (ولذا يُطلق على التّلمود لقب : شِشّا سِداريم ، أي المباحث الستة ، وتُختصر إلى حرفي : שס شاس[1]) . وهذه المباحث الستة هي أيضاً أقسام التّلمود الأساسية (وذلك باعتبار أن الجمارا تعليقٌ على المشناه وشرحٌ لها) . ثم تنقسم السِّداريم إلى مقالات تُسمّى (مَسيختوت מסכתות) ، تنقسم بدورها إلى فُصول تسمّى (پِراقيم פרקים) .

وفيما يلي تفصيل أجزاء السِّداريم الستة وتفريعاتها :

السِّدِر الأول : سِدِر زراعيم

يتألف من 11 مقالة (مَسّيخت) ، ويتناول قوانين التُّوراه الزراعية من الناحيتين الدينية والاجتماعية ، ويُسهب في شرح الأحكام التّوراتيّة المتّصلة بحقوق الفقراء والكهنة واللّيويين في غلال الأرض والحصاد . كما يبسّط القواعد والأنظمة المتعلّقة بالفلاحة والحراثة وزراعة الحقول والجنائن وبساتين الأثمار ، والسنة السبتيّة والعشار ، بالإضافة إلى المواد المحظور خلطها في النبات والحيوان والكساء . وتبيان مقالات سِدِر زراعيم هو كما يلي :

1- بِراخوت (البركات) : تتناول صلوات اليهود وعباداتهم والقواعد المتعلّقة بالأجزاء الأساسية للصّلوات اليوميّة .

2- پِعاه (زوايا الحقل) : تتناول القوانين المتعلّقة بزوايا الحقل واللقط المنسي ممّا ينبغي تركه للفقراء ، وغير ذلك من الفرائض والواجبات التي يرد ذكرها في سفر اللّيويّين (19 : 9-10) .

---

(1) ومنها اسم حزب (شاس) الديني الأرثوذوكسي المتعصّب في إسرائيل .

3- دماي (المشكوك بأمره من المحاصيل) : تتحدّث هذه المَسّيخت عن المحاصيل الزراعية ، كالذّرة وغيرها من منتوجات الأرض ، وعن استخراج العشار اللازم منها أو عدمه .

4- كلائيم (المخاليط أو الأخلاط) : تعالج الأحكام التّوراتيّة الواردة في سفر اللّيويين (19 : 19) ، وسفر التثنية (22 : 9-11) ، بالنسبة لخلط البذور المختلفة في الزراعة ، أو الجمع بين جنسين من المواد في الثوب .

5- شِفيعيت (السنة السابعة أو السبتيّة) : تبحث في القوانين المتعلّقة بإراحة الأرض والإبراء من الدّيون في السنة السبتية .

6- تِرومـوت (التّقدمات : الرفائع أو جراية الكهنة) : تعالج القوانين والفرائض المتعلّقة بذلك القسم من الغلال والمحاصيل المعيّن للكهنة .

7- مَعْسِروت (العشور) : وموضوعها العشار الأول المتوجّب دفعه سنوياً إلى اللّيوي من غلّة الحصاد ، واللّيوي بدوره يعطي الكاهن منه نسبة العُشر .

8- مَعْسِر شيني (العشار الثاني) : تتناول هذه المَسّيخت موضوع العشار الثاني الذي يحمله المالك بنفسه إلى أورشليم لكي يؤكل هناك .

9- حَلاّه (باكورة العجين) : تتعلّق هذه المَسّيخت بالقسم من العجين المفروض إعطاؤه للكاهن . وتتناول قانون هذا العجين وفرائضه .

10- عُرلاه (الغلفاء) : تتناول هذه المَسّيخت الحظر على استعمال ثمار الأشجار الصغيرة خلال السنوات الثلاث الأولى ، وقواعد الاعتناء بهذه الأشجار في السنة الرابعة ، طبقاً لما جاء في سفر اللّيويين (19 : 23-25) .

11- البِكوريم (البواكير ، الثّمار الأولى) : هنا أيضاً تنصّ هذه المَسّيخت على قوانين تقديم الثّمار الأولى في الهيكل ، وتتضمّن وصفاً للشعائر التي ترافق التّقدمة .

* * *

يؤلّف سِدر موعيد القسم الثاني من التّلمود البابلي في طبعة سونتشينو ، وهو يتوزّع على اثنتي عشرة مَسّيخت تضمّها أربعة مجلّدات ضخمة . أما تسمية (موعيد) بمعنى العيد أو الموسم المقدّس ، فهي مأخوذة على الأرجح من سفر اللّيويين (23 : 2) . والملاحظ أن المسائل الأساسية التي تتناولها أسفار هذا القسم تتعلّق بالسّبت والأعياد وأيّام الصّوم وغير ذلك من المواسم والمناسبات الدّينية ، بالإضافة إلى الطقوس والشعائر والفرائض والقرابين ، وإلى قواعد تنظيم التّقويم العبراني (حساب الميقات للأعياد اليهوديّة ، وكيفيّة معرفة الأشهر العبريّة القمريّة من السنة الشمسيّة لتعيين الأعياد اليهوديّة) . وهنا أيضاً يطالعنا الكثير من شرائع التّوراه والشرائع والقوانين المستمدّة من خارج التّوراه ، جنباً إلى جنب :

1- شبّات (السّبت) : تتناول هذه المَسّيخت قوانين السّبت والقواعد اللازمة لمراعاة عطلة يوم الرّاحة ، كما تتحدّث عن الأعمال المحظورة في ذلك النّهار .

2- عِروبين (المقادير) : تعني كمية من الأطعمة المحدّدة توضع في مكان معيّن لكي تكون بمثابة الزّاد للمسافرين أثناء عطلة السّبت ، دون أن تبتعد تلك الأمكنة عن بعضها فيصبح الانتقال خرقاً لقانون السّبت .

3- پساحيم (خراف الفصح) : تتناول قوانين إتلاف المخمّر من الطعام أثناء عيد الفصح اليهودي ، وتقديم الخراف والذبائح قرباناً ، ومواسم الرّبّ المقدّسة . وفي الفصل العاشر والأخير من هذه المَسّيخت ترد التفاصيل المتعلّقة بوليمة عشيّة الفصح والصّلوات التي تُصاحبها .

4- شِقاليم (الشّواقل) : الشّيقِل هو المثقال من الفضّة ، وتضم هذه المَسّيخت أحكام الضرائب والرّسوم التي تتم جبايتها لصيانة الهيكل وتأمين نفقاته وتقديم الذّبائح بصورة منتظمة .

5- يُوما (اليوم) : وتعرف هذه المَسّيخت باسم (يوم كِپور) أي يوم الغفران ، لأنها تتناول أنظمة هذا العيد وفرائضه داخل الهيكل ، كما ى تبسّط قوانين الصّوم وأحكامه ، وتصف الاحتفالات والطقوس التي يترأسها الكاهن الأكبر .

6- سُكّاه (المظلّة) : تحوي هذه المَسّيخت قوانين عيد المَظالّ ، وكيفيّة إقامة المظلّة أو الخيمة ، والإقامة تحتها سبعة أيام . كما تتحدّث عن شعائر هذا العيد وصلواته ، وعن النباتات الأربعة التي تؤخذ أغصانها لصنع المظلّة (راجع ما نذكره عنها في آخر القسم الخامس أدناه) .

7- بيتسا (بيضة العيد) : وتُعرف أيضاً باسم (يوم طوف) أي العيد ، إذ ترسم الحدود التي تتحكّم في إعداد الأطعمة أثناء الأعياد . كما تسرد مختلف أنواع الأعمال التي يُحظر إتيانها أو يُسمح بها خلال أيام العيد .

8- رُوش هَشّناه (رأس السنة) : تتناول المسائل المتعلّقة بالتّقويم العبري ورؤية الأهلّة للسنة الجديدة ، مثلما تحوي القوانين التي تجب مُراعاتها في مطلع الشهر السابع (تشري) ، أي رأس السنة المدنيّة عند اليهود .

9- تَعنيت (الصّوم) : تتناول أحكام الصّوم للأيام الرّسميّة ، أو المناسبات الطارئة على الصّعيدين الشخصي والاجتماعي ، وترتيب الصّلوات التي تُتلى في ذلك اليوم .

10- مَجِلاّه (لُفافة التُّوراه) : تتناول هذه المَسّيخت كتاب إستير (بالدرجة الأولى) ، لأنها تتناول أحكام قراءة قصّة إستير في عيد پوريم (النّصيب) . كما ترد فيه أحكام أخرى تتعلّق بقراءة التُّوراه أثناء العبادات العامّة .

11- موعيد قَطان (العيد الصغير) : تُعرف هذه المَسّيخت أيضاً بـ (مشكين) ، نسبة إلى الكلمات الأولى فيها . وتتناول أحكام العمل أثناء الأيام الفاصلة بين أوائل عيد الفصح وأواخره وبين عيد المَظالّ .

12- حَجيجاه (قرابين الأعياد) : تتناول القوانين والأحكام المتّصلة بالقرابين التي تُقدّم في الأعياد ، وتقارن بين شعائر الأعياد الثلاثة الكبرى ، بالإضافة إلى الحديث عن فريضة الحجّ إلى القُدس ، وأنواع القرابين التي ينبغي تقديمها في مثل تلك المُناسبات .

* * *

السِدر الثالث : سِدِر نَشيم

معنى كلمة (نَشيم) في العبرية : النّساء ، وتشتمل مقالات هذا القسم من التّلمود على قوانين الزواج والطلاق ، وغير ذلك من الأحكام التي تحدّد العلاقات بين الزّوجين ، وبين الجنسين بصورة عامّة . وهي تبلغ السبعة عدداً ، موزّعة على أربعة مجلّدات في طبعة سونتشينو . وهي :

1- يِبَاموت : العبارة صيغة جمع مؤنّث في اللغة العبرية لمفردة (يِبماه) ، وهي تعني امرأة الأخ المتوفى التي يجب على أخيه الزواج منها . كما تتناول هذه المَسّيخت الزيجات المحظورة بشكل عام ، وحقّ الفتاة القاصر بإبطال زواجها ، بالإضافة إلى التقليدج اليهودي المعروف باسم (خلع النّعل) ، أي حالة امتناع الأخ عن الزّواج بأرملة أخيه .

2- كِتوبوت (شؤون الزواج وعقوده) : تتناول هذه المسّيخت أحكام الاتفاق حول العروس والغرامة المتوجّبة عن الإغواء ، بالإضافة إلى واجبات الزّوجين وحقوق الأرملة والأولاد المنحدرين من زيجات سابقة .

3- نِداريم (النُّذور) : تصف هذه المَسّيخت مختلف أشكال النّذور ، والأنواع غير الصّحيحة منها ، وكيفيّة إلغائها والتّراجع عنها . كما تتحدّث عن قوة إلغاء النّذور التي نذرتها المرأة أو الابنة وألزمت نفسها بها .

4- نَزير (النّذير أو النّاذر) : تتحدّث هذه المَسّيخت عن النَّذر الذي يُلزم صاحبه به نفسه وكيفيّة التخلّي عنه ، والأمور المحظورة عليه ، والقيمة التي تُعطى لنذر النّساء والعبيد .

5- سُوطاه (المرأة المشبوهة) : الموضوع الأساسي لهذه المَسّيخت هي المحنة التي تتعرّض لها النرأة التي يشكك زوجها في إخلاصها ، ويتّهمها بارتكاب الزّنى ، والإجراءات التي ترافق ذلك . كما تتحدّث هذه المَسّيخت عن الأنواع السبعة من الفريسيين ، وعن الحرب الأهليّة التي دارت بين هركانوس وأرسطوبولوس .

6 – جِطّين (وثيقة الطلاق) : تعرض بالتفصيل للظروف المختلفة التي تؤدّي بالرجل إلى مناولة المرأة وثيقة طلاقها عندما يفسخ الزواج .

7- قدّوشين (التكريس) : تتناول الشعائر والفرائض المتّصلة بأمور الخطوبة والزّواج ، كما تتحدّث عن كيفيّة اقتناء العبيد والأقنان بصورة شرعيّة ، وتملّك العقارات ، إلى جانب مبادئ الأخلاق وغير ذلك من المسائل المتعلّقة بعقود الزواج والقران .

* * *

السِّفر الرابع : سِدِر نزيقين

معنى كلمة (نزيقين) في العبرية : الأضرار ، وتُقسَّم الأسفار العشرة في هذا الجزء من التّلمود إلى قسمين أساسيين : القسم الأول يضم الأسفار ، أو الأبواب الثلاثة الأولى (الباب الأول والأوسط والأخير) ، وموضوعها العام هو القانون المدني . وفيه 10 مَسّيختوت :

1- بابا قامّا (الباب الأول) : التسمية آراميّة الأصل ، تتناول أحكام الأضرار اللاحقة بالأملاك ، والأذى المُرتكب ضدّ الأشخاص بدافع إجرامي أو على صعيد الجُنحة . كما يعالج قضايا التعويض عن السّرقة والسّلب واقتراف العُنف .

2- بابا مِتسيعا (الباب الأوسط) : تتناول الأحكام المتعلّقة بالأشياء المفقودة التي يتمّ العثور عليها ، والبيع والمبادلة والرّبا والغشّ والاحتيال ، واستئجار العمّال والبهائم ، بالإضافة إلى الإيجار والتأجير والملكية المشتركة للبيوت والحقول .

3- بابا باترا (الباب الأخير) : تعالج هذه المَسّيخت القوانين المتعلّقة بتقسيم أملاك الشراكة والعقارات ، وقوانين التّجارة ، بالإضافة إلى القيود المفروضة على الأملاك الخاصّة والعامّة وحقوق الملكية والوراثة .

4- سَنْهِدْرين (المحاكم القضائية) : حول تأليف مختلف المحاكم القضائية ، وإجراءات المحاكمة ، وعقوبات الموت والإعدام عن الجرائم الكبرى . وفيها كيفيّة تنفيذ أحكام بالإعدام وعقوبات الموت . وتحوي الكثير مما له علاقة بمحاكمة المسيح وبالعقوبة التي تجب بالخارج عن دينه .

5- مَكّوت (الجَلدات) : تتحدّث هذه المَسّيخت عن اليمين الكاذبة والحَنث باليمين وشهادة الزُّور ، وعن (مدن اللّجوء) . بالإضافة إلى الآثام التي عقوبتها الجَلد بالسّياط ، والأحكام المتعلّقة بكيفيّة تنفيذ الجَلد (39 جلدة) .

6- شِبوعوت (القَسَم أو اليمين) : تتناول هذه المَسّيخت أنواع اليمين ، أي ما يحلفه الشخص بمفرده أثناء المحكمة ، ويمين المحكمة يصدق على الشهود والمُتقاضين مثلما يصدق على المراقبين والأوصياء .

7- عيدويّوت (الشّهادات) : تتضمّن مجموعة من الأحكام المختلفة .

8- عَبوداه زاراه (عبادة الأوثان) : تتحدّث عن عَبَدة الأصنام والأوثان : شعائرهم وطقوسهم وأعيادهم . كما تتضمّن مواصفات الأحكام التي ينبغي إنزالها بهم وبمن يشاركهم أو يخالطهم بالتعامل الاجتماعي . وتتضمّن المَسّيخت كثيراً من الأحكام والأقوال ذات الطابع الانتقامي التّعويضي .

9- أبوت (الآباء) : تتضمّن التعاليم والأقوال المأثورة عن آباء التّراث اليهودي منذ السّنهدرين الأكبر فصاعداً . وهي مليئة بالتّعاليم الأخلاقية والأقوال الحكمية المنسوبة في معظمها إلى معلّمي المشناه (أي التَّنائيم) .

10- هُورايوت (الأحكام أو القرارات) : تتناول الأحكام الخاطئة التي تصدر عن السّلطات الدّينية في المسائل المتعلّقة بالشعائر والطقوس . كما تتحدّث عمّا يجب تقديمه من تضحيات وذبائح إذا تمّ ارتكاب فعل عن هذه الأحكام .

* * *

السِّدر الخامس : سِدر قَداشيم

يدور الموضوع الأساسي في هذا القسم من التّلمود حول الطقس الرّباني والتّضحيات المتعلّقة بالهيكل . وكانت مُعظم الفرائض والأحكام الواردة في أسفاره مرتبطة أشدّ الارتباط بوجود الهيكل ، لكن الحاخامات في فلسطين وبابل تابعوا اهتمامهم بالطقوس القربانيّة والعبادات رغم هدم الهيكل وزواله .

ويُقسم هذا السِّدر إلى 11 مَسّختوت كما يلي :

1- زباحيم (الذّبائح) : تحتوي على الأحكام المتعلّقة بتقديم الذّبائح الحيوانية على اختلاف أنواعها وعلى اختلاف المراحل التي تمرّ بها . كما تضع الشروط التي تجعل القرابين مقبولة أو غير مقبولة . وتسهب المَسّيخت في شرح الشعائر المتّصلة برشّ الدّماء ، وإحراق القطع الدّهنيّة أو الذبيحة الحيوانية كلّها .

2- مِناحوت (قرابين اللحوم والشراب) : تصف قواعد إعداد قرابين الطعام والشراب وكيفية القيام بها : من سكب الزّيت على القرابين إلى الدقيق المَلتوت ، ومن حزمة أول الحصيد إلى الرّغيفين المخبوزين (خميراً باكورةً للرّبّ) ، إلى الفطائر الاثني عشر التي تُخبز من الدّقيق أيضاً .

3- حُلّين (الدُّنيويات) : تتضمّن مواصفات ذبح الحيوانات والطيور لأجل الاستهلاك العادي ، بالإضافة إلى تعداد مختلف الأمراض التي تجعل أكل تلك الذبائح محرّماً . وفيها معالجة عامّة لجميع قوانين الأطعمة والأحكام التي ينبغي التقيّد بها في إعداد الطعام .

4- بِكوروت (البواكير) : تتناول القوانين المتعلّقة بالمواليد البُكور من الحيوان والإنسان .

5- عَراخين (التّقديرات) : تتضمّن قواعد تحديد الكميّة التي ينبغي تقديمها وفاءً لنذر ما للهيكل ، بحيث يجري تقييم الشخص أو الشيء المنذور . ويختلف التقييم باختلاف السنّ والجنس (الذكر والأنثى) ، كما أن تجنيس البهيمة وتقييمها عائد إلى كاهن الهيكل . كما تتضمّن المَسّيخت القوانين التابعة لسنة اليوبيل .

6- تمُوراه (الإبدال أو البَدَل) : تتناول قواعد إبدال القرابين وتغييرها : الجيّد بالرّديء والرّديء بالجيّد ، أي أن الموضوع يتعلّق بتبديل بهيمة نجسة بأخرى سبق تقديمها على مذبح الهيكل .

7- كِريتوت (الرّسوم الجزائيّة) : تعالج الآثام والأخطاء التي تخضع لعقاب القطع (كريتاه) أو الفصل فيما لو جرى اقترافها بمحض الإرادة . أما إذا جرى ارتكاب الخطيئة عن غير قصد ، فلا بدّ أيضاً من تقديم القرابين تكفيراً عنها .

8- معيلاه (الإثم والخطيئة) : تتناول مسألة انتهاك الحرمات والمقدّسات ، وتدنيس الأشياء التابعة للهيكل أو المذبح .

9- تَميد (التضحية اليومية أو المستمرّة) : تصف خدمات الهيكل من حيث اتصالها بتقديم القرابين اليومية في الصباح والمساء ، وخصوصاً الخراف التي ينبغي تقديمها على المذبح صباحاً وعشيّة .

10- مِدّوت (المقاييس والأبعاد) : تحتوي على مقاييس الهيكل ومواصفاته ، فيما يتعلّق بساحاته وأبوابه وقاعاته ، وبالمذبح . كما تصف الخدمات التي يؤدّيها الكهنة أثناء وجودهم في الهيكل ، وأثناء قيامهم بحراسته وتدبير شؤونه .

11- قِنّيم (الأعشاش) : تسرد الأنظمة والأحكام المتعلّقة بتقديم الطيور قرباناً للتكفير عن الخطايا والمعاصي التي يقترفها الفقراء . كما تتناول بعض الأحوال والشروط المتّصلة بالنجاسة والقذارة .

* * *

السِّدر السادس : سِدِر طَهَروت

الموضوع المشترك في هذا الجزء السادس والأخير من التّلمود يتّصل بأحكام الطهارة والنّجاسة لدى الأشخاص والجماعات . وهو يضم 12 مَسّيختوت :

1- كِليم (الأواني والأوعية) : تختص بقواعد النجاسة في الأواني والأدوات التي تُستخدم للمنفعة البشريّة ، وتبيان الظروف والشروط التي تتحكّم في نجاستها . والأواني تشمل الأثاث والملابس وكافّة أدوات الاستعمال .

2- أوهالوت (الخيام) : تتناول الخيام باعتبارها ناقلة للنجاسة ، سواء عن طريق جثّة لميّت ، أو بواسطة الأواني والأوعية التي بقربها .

3- نِجاعيم (البَرَص والطواعين والأوبئة) : تبسط القوانين المتعلّقة بمعالجة البَرَص في البشر والألبسة والمساكن . كما تتضمّن المواصفات الضرورية لتطهير الأبرص وطرد النّجاسة من بدنه .

4- باراه (البقرة) : تتحدّث هذه المَسِّخت عن الخصائص الواجب توفّرها في العجلة الحمراء (باراه أدوماه) ، وصولاً إلى إعداد رمادها للاستخدام في التّطهير من النّجاسة والرّجاسة .

5- طَهَروت (التّطهيرات) : تعالج أحكام النّجاسة في الأطعمة والأشربة على اختلاف أنواعها ودرجاتها . كما تبيّن الشروط التي تتحكّم في تنجيسها عن طريق الاحتكاك بمختلف مصادر النّجاسة ودرجاتها .

6- مِقواؤوت (الآبار والخزّانات) : تتضمّن مواصفات الآبار والصهاريج والخزّانات فيما يتعلّق بالمتطلّبات التي تجعلها صالحة شعائرياً للتطهير والتغطيس . كما تتناول القواعد الحاكمة في جميع أنواع التغطيس الشعائري والطقسي .

7- ندّاه (الحائض والحيض) : تفصّل القول في أحكام النّجاسة الشرعيّة التي تنشأ لدى النّساء بسبب الحيض والنّفاس وبعد الولادة .

8- مكشِرين (الاستعدادات) : تتناول الظروف التي تصبح الأطعمة بموجبها قابلة للنّجاسة أو عُرضة للتّنجّس بعد احتكاكها بالسّوائل ، كما تعدّد السّوائل التي تنجّس الأطعمة في تلك الحالة .

9- زاڤيم (الزّاب - السّيلان) : تتحدّث عن نجاسة الرّجال والنّساء عند الإصابة بأمراض الزّهري والسّيلان وغير ذلك .

10- طِفول يُوم (الغسل اليومي) : تبحث في طبيعة النّجاسة لدى الشخص الذي قام بالغسل الشعائري (المفروض أثناء النّهار) لتطهير نفسه ، فإن عليه الانتظار حتى غروب الشمس لكي يُعدّ طاهراً ونظيفاً .

11- يَدَايْم (اليدان وتطهيرهما) : حول نجاستهما وتطهيرهما .

12- عُقتسين (سويقات الثّمار وقشورها) : وأحكام نجاستها .

* * *

عملنا في هذا الكتاب

لا ريب أن التّلمود بأجزائه الكثيرة ، ولغتـه المعقّـدة ، وموضوعاته المتنـافرة ، وأسلوبه الشّائك ، وتسلسله اللا مُترابط ، وسياقه الصّعب ، وجوّه الملبّد بالغُموض ، يفرض مشقّةً وعناءً ومتاعبَ غير اعتياديّة لكـل مَـن يـروم التّعـاطي بـه ، سـواءٌ أكـان دارساً أو محلّلاً أو مؤلّفاً ، أو حتى مجرّد قـارئ . ومَـن لـم يجـرّب فـلا يحكُمـنّ ! وباختصار نقول : نجزُم دون أدنى طيفٍ من شكٍّ أو مُشاحّة أن التّلمود أصعـب نـصّ ديني يمكن أن يحاول إنسانٌ دراسته ، فكَيف الكتابة عنه ؟

من خلال ذلك ، نُلاحظ أن جميع مَن ألّفـوا عنـه في العربيّـة – دون استثنـاء – لم يرجعوا أبداً إلى نصّه الأصلي ، ولا هو بمتناولهم أصلاً ، وحتى لـو توصّلـوا إليـه لوقفوا عاجزين عن استنطاقه ، هذا إن كانوا يُجيـدون مـن العبريّـة أيّ شـيء أصـلاً ! ها نحن نُدرج في مسرد مراجعنا هذه الكتب كلّها (ما خلا ثلاثة منها لم تكن بمتناولنـا رغم أننا قرأناها) ، فلم نرَ أيّ كتاب منها خرج عن نطاق ما نقول !

قُصارى القول : بعد 25 عامـاً بالتّمـام والكمـال أمضيناهـا في محاولـة دراسـة هذا الكتاب ، نرى أخيراً شيئاً من الآهليّة للكتابة عنه ، بشرط أن نلتزم بمقابلة كلّ مـا نكتبه على أصله العبري والآرامي في متن التّلمود مُباشرةً . أمّا النّسخة التي نرجع إليها منذ 1981 فهي من إصدار دار Rebecca Bennet في نيويورك عـام 1958 في 64 مجلّداً من القطع الصغير ، وهي منقولة عن طبعة Soncino الشهيرة بإشراف الرّابي إيزيدور إيشتاين ، والصّادرة بلندن بين 1935–1952 .

على أنه بالطّبع كان لا بدّ لنا من اقتبـاس خطّـة انتقائيّـة لأنطولوجيـا التّلمـود ، بدلاً من الخبط العشوائي بين متاهاته التي لا تنتهي ، فألفينا أن خير مـا نفعلـه هـو متابعـة الأسلوب الانتقائي لأشهر ثلاثة من حاخامات عصرنا ألّفوا عن تلمودهـم ، وهـم : هايمان پولانو ، وأبراهام كوهين ، وأدين شْتاينْزالتس .

قمنا بجمع ما وصلت إليه يدنا من تآليف هؤلاء ، وتجاوزنا ذلك إلى عشرات المراجع بشتّى اللّغات ، ثم تابعنا على الإنترنت ، فقابلنا وانتقينا وحقّقنا واقتبسنا . ثمّ راجعنا ما انتقيناه على متن التّلمود ، فبات العمل عبر هذه الخطّة أيسر وأوثق . كما أفدنا من مصادر مُساعدة مُلحقة بالتّلمود ، هي تحديداً : «سِدِر هَدُّوروت» סדר הדורות (سِلك العُصور) و«مِنُورات هَمّاؤريه» מנורת המאורי (مشكاة الأنوار) ، وهذا ما اقتبسناه خصوصاً عن پولانو . أمّا تاريخ التّلمود وتحليل مُعطياته الثيولوجيّة فأكثره عن كوهين وشْتاينْزالتس بالإنكليزيّة والفرنسية .

حول نهجنا في نقل المُفردات من العبريّة إلى العربيّة ، نَحَونا قدر الإمكان إلى اتّباع العبريّة السّفارديّة الأندلسيّة الفُصحى ، فحافظنا على الباء بدلاً من ڤ ، والحاء بدلاً من خ . أمّا الأسماء العبريّة المُنتهية بهاء وقبلها ألف أو مَدّة طويلة (ـָ) «قَماص» فلم نرسمها على طريقة مَن عرّبوا التُّوراه بأغاليطهم الفادحة : يهودا ، مكفيلَه ؛ بل كتبنا : يهوداه ، مكفِلاه . ومعيارنا في ذلك كان لغة قرآننا الكريم : توراة ، صَلاة ، لذلك كتبنا : هَلَخاه ، هَجَداه ، عَبوداه زاراه ، پاراه أدوماه[1] .

كما أننا نُحجم دوماً عن رسم أسماء العَلَم (أشخاص وأماكن) بما يُوافق اللغة المُترجم إليها ، فالمعياريّة هي للّغة المُترجم منها ، بلفظها وجَرسها الصوتي (phonetic) وإيقاعها السّماعي ونكهتها اللّسانيّة . لذلك نقلناها بمنطوقها العبري ، لا بما اعتادته الأسماع ، والغاية من ذلك هي الموثوقيّة والدقّة ونقل القارئ إلى جوّ الموضوع . وما أكثر ما نراه في الكتب المترجمة من أغاليطَ لا تُعقَل[2] .

عَدَدنا الأسماء العبريّة جميعها ممنوعةً من الصَّرف ، فلم نسِمها بتنوين ولا بكَسر . والجيم مُعطشة دوماً (g) . أما كلمة (بِن) في أسماء اليهود فأجريناها على القاعدة العبرية ، ولذا لم نُسبقها بألف في أي حال من الأحوال .

* * *

---

(1) غير أن الهاء هنا لا تُلفظ ، إنما نُثبتها كتابةً لحفظ المَدّة والوقوف على ساكن فحسب .
(2) طالعنا مؤخراً كتاباً معرّباً عن الإنكليزية حول «اللهجات العربية القديمة في غربيّ الجزيرة» ، اسم مؤلفه : حاييم رابين Chaim Rabin ، فإذا بالمترجم يُثبته : تشيم !



מאימתי קורין את שמע בערבין. משעה שהכהנים נכנסים לאכול בתרומתן עד סוף האשמורה הראשונה דברי ר' אליעזר. וחכמים אומרים עד חצות. רבן גמליאל אומר עד שיעלה עמוד השחר. מעשה ובאו בניו מבית המשתה אמרו לו לא קרינו את שמע אמר להם אם לא עלה עמוד השחר חייבין אתם לקרות ולא זו בלבד אמרו אלא כל מה שאמרו חכמים עד חצות מצותן עד שיעלה עמוד השחר הקטר חלבים ואברים מצותן עד שיעלה עמוד השחר וכל הנאכלים ליום אחד מצותן עד שיעלה עמוד השחר א"כ למה אמרו חכמים עד חצות כדי להרחיק אדם מן העבירה: גמ' תנא היכא קאי דקתני מאימתי ותו מאי שנא דתני בערבית ברישא לתני דשחרית ברישא תנא אקרא קאי דכתיב בשכבך ובקומך והכי קתני זמן קריאת שמע דשכיבה אימת משעה שהכהנים נכנסין לאכול בתרומתן ואי בעית אימא יליף מברייתו של עולם דכתיב ויהי ערב ויהי בקר יום אחד אי הכי סיפא דקתני בשחר מברך שתים לפניה ואחת לאחריה ובערב מברך שתים לפניה ושתים לאחריה לתני דערבית ברישא. תנא פתח בערבית והדר תני בשחרית עד דקאי בשחרית פריש מילי דשחרית והדר פריש מילי דערבית: אמר מר משעה שהכהנים נכנסים לאכול בתרומתן. מכדי כהנים אימת קא אכלי תרומה משעת צאת הכוכבים לתני משעת צאת הכוכבים. מלתא אגב אורחיה קמשמע לן כהנים אימת קא אכלי בתרומה משעת צאת הכוכבים והא קמשמע לן דכפרה לא מעכבא כדתניא ובא השמש וטהר ביאת שמשו מעכבתו מלאכול בתרומה ואין כפרתו מעכבתו מלאכול בתרומה. וממאי דהאי ובא השמש ביאת השמש והאי וטהר טהר יומא

דילמא

نموذج تفصيل «داف» (ورقة) قياسية من التّلمود : مطلع سِدرِ زراعيم ، مَسّيخت براخوت



בסוז

בינ"ז עמ"י עש"ז

הגדה של פסח

עם פירוש

כום אליהו

אלידו כן הרוש

ברכת האילנות

תולדות מז הרב המחבר

נדפס פה אי גרבה יע"א

שמורים לכל בני ישראל

בדפוס חדאד הי"ו

Imprimerie HADDAD DJERBA (Tunisie)

1938

صفحة عنوان كتاب صلوات «هَجَداه الفصح»
طُبعت في جزيرة جَربا بتونس عام 1938

مقتطفات
من نصوص التّلمود



القسم الأول
سير الأوّلين في سِفر التّوراه

الفصل الأول
من قَين وهَبِل إلى خراب برج بابل

وعرف آدام אדם حَوّاه חוה امرأته ، فحبلت وولدت ابنين وثلاث بنات . وسَمّت المولود الأول «قَين» קין [1] ، وقالت : «اقتنيتُ رجلاً من عند الرّبّ» ، وسمّت مولودها الثاني «هَبِل» הבל ، وقالت : «بلا شيء نزلنا هذه الدّنيا ، وبلا شيء سنُخرج منها» .

فعندما كبر الولدان اختصّ أبوهما كلاً منهما بحرفة في الأرض ، فغدا قَين عاملاً في الأرض ، وهَبِل راعياً للغَنَم .

وحدث من بعد أيام أن الولدين قدّم كل منهما قُرباناً للرّبّ ، فقدّم قَين من أثمار الأرض ، وقدّم هَبِل من أبكار غنمه . ولكن فيما انتقى هَبِل أجود خرافه وأسمنها ، قدّم قَين أثماراً من الحَشَف البالي ، من أردأ ما أنبتته الأرض . ولذا فلم يُتقبَّل قربان قَين ، ولكن إذا بنار القبول تهبط من السّماء فتستوفي التّقدمة المباركة التي أدّاها أخوه تجاه بارئه . فلذلك حلّ غيظٌ شديد في قلب قَين ، وعَزَم متى واتته الفرصة على أن يقتل أخاه .

---

(1) يلاحظ القارئ هنا اختلاف الأسماء عمّا هو معروف في الترجمات العربية للتُّوراه : قايين وهابيل ، وكذلك الأمر في اسمي آدم وحوّاء ، لكننا آثرنا ترجمة المَبنى واللفظ الأصلي للأسماء كما هو بالعِبْرية لا كما اعتادته الأسماع . وهذا من باب الدقّة العلمية أولاً ، ومن باب التقيّد بالمحتوى الفيلولوجي ثانياً . واسم هَبِل تُحرّك فيه الكسرة بشكل مُمال كحركة حرف العلّة é بالفرنسية . واسم قَين مُشتق من الفعل العِبْري : קנה : اقتنى ، حاز ، تملّك . أما هَبِل فمن مفردة : בל : لاشيء .

وحدث أن كان قَين يحرث حقله ، فكان هَبِل يقود قطيعه إلى المرعى واجتاز بالأرض التي كان أخوه يفلحها . بنفس ملؤها السّخط خفّ قَين صوب هَبِل مُخاطباً إياه[1] : «أنّى لك أن تأتي بقطيعك فتحلّ به في أرضي التي أملكها ، ليرعى فيها ؟» . فأجاب هَبِل : «وأنّى لك أنت تأكل من لحم غَنَمي ؟ وأنّى لك تلبس ثياباً مصنوعة من صوفها ؟ ادفع لي قيمة اللّحم الذي أكلتَ ، واللّباس الذي لبستَ ، لأن ذلك كلّه مُلكٌ لي ؛ وعندذاك تراني أخرج منها بالفعل ، وأطير في الهواء فلا أمسّ أديمها» .

فقال قَين لأخيه : «ها أنت ذا الآن في قبضتي ، فإن وقع في نفسي أن أقتلك الآن في هذا اليوم ، مَن تُراه يثأر لمقتلك ؟» . «الرّبّ ، مَن أحلّنا هذه الأرض» ، أجاب هَبِل ، «فهو الحَكَم العَدل الذي يُجزي المُحسن بإحسانه والمُسيء بإساءته . وليس بمقدورك أن تقتلني وتتوارى عنه بفعلتك هذه فلا ريب أنه سيعاقبك حتماً ، حتى لهذا الكلام الخبيث الذي تبتدرني به الآن» .

فزاد هذا الكلام في غيظ قَين ، وما كان منه إلا أن رفع أداة الفلاحة التي كانت بيده ، وضرب بها أخاه على حين غرّة ، فأرداه قتيلاً . هكذا سُفح دم هَبِل على يد أخيه قَين ، وجرى الدّم في الأرض ، حتى أنه بلغ المكان الذي كانت تقف فيه خراف هَبِل .

وحدث بعد هذا الفعل الطائش أن قَين ناح وبكى بمرارة . ثم تدارك نفسه ونَقَب حُفرةً في الأرض ، فوارى فيها أخاه عن نور النّهار . وبعد ذلك ظهر الرّبّ لقَين ، وقال له : «أين هَبِل أخوك الذي كان معك ؟» . فقال قَين : «لا أعلم ، أرقيبٌ أنا لأخي ؟» . فقال الرّبّ : «ماذا فعلتَ ؟ دم أخيك صارخٌ إليّ من الأرض . وتظن أني لا علم لي بجُرمك الذي تُنكره الآن . فالآن ملعونٌ أنت من الأرض التي فتحت لتبتلع دم أخيك . ومنذ الآن لا تعود تعطيك قوّتها ، ولا تستجيب لكدّك ، ولا تعود تعطيك شيئاً غير الحَسَك . طريداً وتائهاً تكون منذ الحين في الأرض» .

(1) يلاحظ القارئ وجود زيادات تفسيرية في التّلمود على نصّ التّوراه (تكوين – 4) .

فخرج قَيِن شريداً من لَدُن بارئه ، صوب الأرض التي بشرقي جنّة [أي بستان] عِدِن גן־עדן .

ثم بعد ذلك الحين ، لمّا بدأ الرّب يسمح لقَيِن بالاستقرار ، حبلت امرأته وولدت ابناً . وسمّى قَيِن ابنه «حَنُوك» חנוך ، لأن الرّبّ أجاز له في نهاية الأمر الاستقرار في الأرض . وشرع يبني مدينة ، فسمّاها هي الأخرى «حَنُوك»[1] ، للسّبب عينه ، لأنه لم يعد طريداً وتائهاً في الأرض .

* * *

ثم عندما بلغ آدم المئة والثلاثين من العمر ، وَلَدَ ابناً آخر ، ودَعا اسمه «شِيْت» שת[2] . وعاش شيت مئةً وخمس سنين ، ووَلَدَ «أنوش» אנוש . وبدأ النّاس يكثرون ويتوالدون على وجه الأرض ، لكنّهم دنّسوا أرواحهم بالخطايا والمعاصي تجاه الرّبّ ، وتعاظم شرورهم وطغيانهم يوماً بعد يوم . ونسوا إلههم الأبدي الذي خلقهم وأعطاهم الأرض مُلكاً لهم ، فراحوا يعملون الصّور من النّحاس والحديد والخشب والحجر ، وطفقوا يسجدون لها عابدين . ودام النّاس على ذلك الضلال طوال مدّة حياة أنوش .

ولهذا فقد تزايد سخط الله عليهم ، وقدّر طوفان نهر جيحون נהר גיחון لتدميرهم وإفنائهم . ولكن رغم أن ثلث البشر انقرضوا من جرّاء ذلك ، لم يرعوِ الباقون أو يتوبوا ، بل أقاموا على شرورهم ضالّين أمام عيني الله .

---

(1) في العِبْرية חנוך تعني : تنشئة ، تدشين ، ومنها عيد الأنوار «حَنُوكاه» חנכה ، أي عِيد التّدشين في 25 كسليف ، كما يُطلق اسم חנכיה على شمعدان المنوراه ذي التسعة شُعَب المُستعمل في عيد الأنوار . وفي العِبْرية تعني «حَنُوك» اليوم : تربية ، تعليم .

(2) يُترجم الاسم إلى العربية : شيث ، رغم أن حرف الثاء في العِبْرية ليس أصيلاً . ومردّ ذلك أن التراجمة الذين عرّبوا التّوراه لم يعتمدوا النص العِبْري المسوراتي מסורתי ، بل نقلوا عن ترجمة يونانيّة متأخّرة ، ميّزت (بنحو مغلوط) بين حرفي ת (تاف) و ט (طيت) العِبْريين بنقل الأول بالحرف اليوناني ثيتا θ (ث ، th) ، والثاني بالحرف اليوناني تاو τ (ت ، t) ، ومن هنا منشأ الغلط في العربية وكل اللغات الأوروبية أيضاً . والعجيب أن نقرأ إلى اليوم نصّ التّوراه بالعربية مترجماً عن اليونانيّة بأغاليطها (وهي ليست الترجمة السّبعينيّة תרגום השבעים القديمة) ، بدلاً من ترجمته رأساً عن العِبْرية !

في أثناء هذه المدّة توقّف الزّرع والحصاد ، وحلّت بالأرض مجاعة مُمضّة ، لأن النّاس لمّا زاغوا وفسدوا فسدت الأرض معهم ، وبدلاً من أن تُعطي ثماراً لقُوت الإنسان راحت تطرح شوكاً وحَسَكاً .

* * *

وعاش أنوش تسعين سنةً ، ووَلَدَ «قينان» קינן . وكان قينان رجلاً حكيماً يعرف الأمور جميعها ، وعندما بلغ الأربعين من العمر حَكَمَ جنس البشر بأسره . ولمّا كان رجلاً حصيفاً فقد علّم النّاس ، ونقل إليهم حكمته وعلومه . وقد أدرك بأن البشر سوف ينالون جزاءاً كبيراً على شُرورهم الدّائمة ، وتنبّأ حول المستقبل والطوفان الذي سيصيب به الله الأرض ، وكتب هذه النبوءات على ألواح من حجر ، وأودعها في الخزنة .

وعندما بلغ قينان السبعين من العمر وَلَدَ من الأبناء ثلاثة بنين وابنتين . أما الابنتان فصارتا زوجتين للامك למך بن متُوشَئيل ، الحفيد الخامس من سُلالة قَين[1] . فولدت زوجته الأولى «عَاداه»[2] עדה ابناً سمّته «يابال» יבל ، وابناً آخر سمّته «يُوبال» יובל . أما أختها «صِلاّه» צלה فكانت عاقراً لا تُنجب مدّة سنوات عديدة .

ولكن حدث أن صِلاّه ، برغم شيخوختها ، ولدت ابناً سمّته «تُوبال قَين» תובל קין ، قائلةً : «بعدما شختُ وهبني الرّبّ القدير ابناً» . ثم حبلت صِلاّه ثانيةً ، وولدت ابنة سمّتها «نَعَمَاه» נעמה ، وفي هذا الاسم كناية عن السّرور والفرح في سن الشيخوخة .

فلمّا شاخ لامك شحّت عيناه ، ثم كُفّ بصره تماماً ، فكان ابنه تُوبال قَين يقتاده بيده عندما يخرج .

---

(1) تفصيل ذلك : لامك بن متوشَئيل بن محويَئيل بن عيرد بن حنوك بن قَين . ودوماً أسقطنا ألف (ابن) هنا لأن المقصود بها المفردة العِبرية בן لا العربية ابن . وهما واحد في اللغتين على أي حال .

(2) في الترجمات العربية المألوفة للتُّوراه : عادَة وصِلّة ، وهذا رسم غير صحيح البتّة ، فعلى من يُترجم التقيّد بالمعايير اللفظية للغة التي يترجم منها لا التي يترجم إليها .

وحدث أنه عندما كان تُوبال قَيِن صغيراً ، اقتاد أباه إلى الحقول للصيد ، وقال لأبيه : «انتبه ، هو ذا حيوان للصيد» ، ارم بسهمك في ذاك الاتجاه . ففعل لامك كما أشار عليه ابنه ، فإذا بالسّهم يصيب قَيِن الذي كان يمشي على مَبْعَدة ، فأرداه قتيلاً . فهكذا تمّ الاستداد من دم قَيِن كما كان سَفَحَ دم أخيه هَبِل .

وعندما اقترب لامك وابنه وأدركا أنهما قد قتلا جدّهما قَيِن بدلاً من حيوان صيد ، ارتعدت مفاصل لامِك بشدّة وضرب كفّاً بكف بقوّة ، من هول الصّدمة والحزن والخوف . ولمّا كان ضريراً لم يتسنّ له رؤية ابنه ، وحصل أن لَكَز رأس الفتى بين يديه ، فصرعه على الفور . ولمّا اكتشفت زوجتاه ما قد أتى عليه زوجهما أنحيتا عليه باللّوم وكرهتاه .

لكنه خاطبهما قائلاً : «يا عادَاه وصِلاّه ، اسمعا قولي ! آه ، يا امرأتي لامِك ، أصغيا لكلامي ! لقد قتلتُ رجلاً يؤلمني مقتله وولداً يجرح قلبي مقتله ، ولكن لم أفعل ذلك عن قسوة قلب أو سابق تصميم . أنتما تعلمان أني عجوز أشيب ، وأن عيناي لا تُبصران ؛ فكان ما فعلتُ بغير قصد مني ، لا بل كان فيه جُرحي وألمي» .

ثم صفا قلب الزّوجتين على زوجهما ، بوساطة من أبيهما آدام ، لكنهما لم تُنجبا بعدُ أبناءً آخرين .

* * *

«ووَلَدَ مَهَلَلْئيل يرِد ירד ، ويرِد وَلَدَ حَنُوك[1] חנוך ، وحَنُوك وَلَد مِتُوشِلَح מתושלח» . وعَبَدَ حَنُوك الله وسار معه ، وازدرى الأشرار الذين حوله ، والتزم بالعلوم والحكمة إلى دروب العليّ القدير . وحدث أنه فيما كان يصلّي في بيته إذا بمَلَك من الله يناديه من السّماء قائلاً : «حَنُوك ، حَنُوك» ، فأجاب : «ها أنا ذا» . فقال المَلَك : «قُم ، انهض من وحدتك وامش بين النّاس . علّمهم طريق الحقّ ، وأرشدهم إلى ما ينبغي لهم فعله» . ففعل حَنُوك كما أمره الله .

(1) يُترجم الاسم بالغلط «أخنوخ» في التّوراة المعرّبة (تكوين – 5 : 18) ومصادر السّير . وقد عُثر في الحبشة على مخطوط سفر ضائع من التّوراة يُنسب لحنوك ، نُشر في إنكلترا .

راح يمشي بين النّاس ويعلّمهم سُبُل الخالق ، ويجمعهم ليهديهم بإخلاص وصدق . وقام بتكليف أتباعه لينادوا في جهات المعمورة حيثما كان بشر : «مَن كان منكم يرغب بمعرفة سُبُل الله وسلوك طريق الصّلاح ، فعليه بقَصد حَنوك» . وحكَم حَنوك البشريّة فأذعن لطاعته النّاس ، ولمّا كان مقيماً بينهم عَبَدوا الله حقّ عبادته . وتقاطر الأمراء والحكّام للاستماع إلى كلامه الحكيم وليؤدّوا تجاهه فروض الطاعة . وأحلّ حَنوك السّلام على امتداد الأرض .

وامتدّ حكم حَنوك على جنس البشر ثلاث مئة وثلاث وخمسين سنة ، كان ينتهج فيها العدل والصّلاح ، ونعمت الأرض بالأمن والسّلام طوال هذه المدّة . وكان مِتُوشِلَح ابناً لحَنوك ، ولامِك ابناً لِمتُوشِلَح . ومات آدام ، عن عمر يناهز التسع مئة وثلاثين سنة ، عندما كان لامِك بعمر الخامسة والستين ، فدُفن بتكريم عظيم على يدي شيت وحَنوك ومِتُوشِلَح . سُجّي جُثمانه داخل مغارة ، وتُشير بعض المصادر إلى أنها مغارة «مَكفِلاه» מכפלה [1] . ومنذ ذلك الحين ، أي دفن آدام ، اتُّخذت عادة الاحتفال بمراسم الجنازة للموتى .

مات آدام لأنه أكل من ثمر شجرة المعرفة ، وعبر خطيئته هذه ينبغي لذرّيته من البشر جميعاً أن يذوقوا الموت مثله ، كما قال الله . وكانت السنة التي مات فيها آدام هي الثالثة والخمسون بعد المئتين من حُكم حَنوك .

وحدث في ذلك الوقت أن حَنوك تاق بكل جوارحه إلى العُزلة من جديد ، فتخلّف ثانيةً عن مجامعه المتكررة مع النّاس . لكنه لم يعتزل عنهم بالكلّيّة ، إنما كان يختلي بنفسه ثلاثة أيام ، ثم يظهر في اليوم الرابع ليقدّم إليهم النّصائح ويعلّمهم . ولكنه بعد مضي بضعة سنوات زاد من فترات اعتزاله عن العالم ، فصار يختلي بنفسه عن النّاس ستة أيام ، ثم يخرج ليعظهم في اليوم السابع . غير أنه بعد ذلك لم يعد يظهر أمام الناس غير مرّة واحدة في السنة ، ورغم تَوقهم إلى رؤيته والإصغاء إلى صوته ، في غير هذا اليوم الوحيد في السنة ، لم يكن في مقدورهم رؤيته أبداً .

(1) انظر ما يرد عنها في التُّوراه ، سفر التكوين – 23 : 9 . وفي الإشكنازيّة : مَخپيلاه .

وغدا حَنوك قُدّوساً بحيث أن النّاس ارتعدوا منه وما عادوا يجرؤون على الدنوّ منه عندما كان يظهر لهم ، لهالة النّور السّماوي الذي يتألّق على وجهه . لكنهم كانوا عندما يتكلّم يتجمّعون ويُصغون إلى كلامه ، وينهلون من علومه ، وراحوا ينحنون أمامه ويهتفون بملء أصواتهم : «عاش المَلِك !» .

وحدث أنه بعدما تعلّم سكّان المعمورة من حَنوك سُبُل الله ، ناداه مَلَك من السّماء قائلاً : «اصعد يا حَنوك ، اصعد إلى السّماء ، لتحكم بين أبناء الرّب في السّماء كما كنتَ حكمتَ أبناء البشر على الأرض» .

فجمع حَنوك النّاس وقال لهم : «ها أنا دُعيتُ إلى السّماء ، بيد أني لا أدري متى يكون أوان صعودي . لذلك فهلمّوا أعلّمكم قبل أن أمضي ، مكرّراً الدّروس التي كنتم سمعتموها من فمي» . وأحلّ حَنوك السّلام والوئام بين بني البشر ، وأرشدهم إلى طريق الخلود . وراح أتباعه ينادون حيثما كان بشر : «مَن كان منكم يرغب بالحياة ويتعلّم سُبُل الله ، فعليه بقَصد حَنوك ليتعلّم ، قبل أن يُرفع من بيننا عن وجه الأرض» .

وهكذا علّم حَنوك النّاس ووحّدهم بسلام ووئام . ثم ركب جواده ومضى مُبتعداً ، فتبعه حَشد غفير من النّاس مسيرة يوم .

وحدث أنه في اليوم التالي تكلّم حَنوك مع الذين تبعوه ، قائلاً : «ارجعوا إلى خيامكم ! أين تتبعونني ؟ ارجعوا ، وإلا أصابكم الموت» . فعادت طائفة من أتباعه عند سماعهم هذا الكلام ، لكن طائفة أخرى تابعت المسيرة بصحبته ، وكان كل يوم يخاطبهم قائلاً : «ارجعوا ، وإلا أصابكم الموت» .

وفي اليوم السادس كان لا يزال ثمّة بعض ممّن تبعوه ، فقالوا : «حيث تذهب فمعك نحن ، وطالما كان الله حيّاً فلا شيء يفرّقنا عنك إلا الموت» . فلمّا ألفاهم حَنوك مصرّين على هذا الوجه كفّ عن مخاطبتهم . وكان الذين عادوا في اليوم السادس يعلمون عُدّة الذين تبعوه ، غير أن أحداً من هؤلاء الذين تركوهم في اليوم السادس لم يعد البتّة . وفي اليوم السابع ارتفع حَنوك إلى السّماء في زوبعة ريح ، بمركبة وخيول من نار .

وحدث أنه بعد ارتفاع حَنوك إلى السّماء شرع النّاس في البحث عن أولئك الذين تبعوه ، فوجدوا في المكان الذي غادروهم فيه ثلجاً وجليداً كثيفين . فلمّا حفروا في الجليد عثروا على جُثث الأشخاص الذين كانوا عنهم يبحثون ، أما حَنوك فلم يعثروا له على أي أثر . فكان هذا معنى نص سفر التّوراه المقدّس : «وسار حَنوك مع الله ، ولم يوجد (أي حيث جرى البحث عنه) لأن الله أخذه» . ויתהלך חנוך את־האלהים ואיננו כי־לקח אתו אלהים: (בראשית تكوين – 5 : 24) .

وكان ارتفاع حَنوك إلى السّماء عندما كان عمر لامِك بن مِتُوشِلَح مئة وثلاث عشرة سنة .

* * *

وحدث بعد ارتفاع حَنوك إلى السّماء أن النّاس نصبّوا ابنه مِتُوشِلَح ملكاً عليهم . فأقام مِتُوشِلَح على أصول الصّلاح التي لقّنه إياها أبوه . واستمرّ في تعليم النّاس التّقوى والخير كما كان فعل حَنوك من قبله . ولكن في أواخر مدّة حُكمه راح النّاس يهملون تعاليمه ولا يأبهون بها ، فضيّعوا حقوق النّاس بينهم ، وعصوا أوامر الله .

وحلّ بهم غضب الرّبّ من جديد ، فعادت الأرض تُنبت شوكاً وحَسَكاً بدلاً من ثمارها التي يقتات بها الإنسان ، لكنهم لم يتوبوا ولم يكفّوا عن شرورهم وضلالاتهم . ولذلك قرّر الله أن يُفنيهم بأكملهم من على وجه الأرض .

وعندما كان لامِك بن مِتُوشِلَح في سن المئة وستة وثمانين عاماً ، مات شيت بن آدام ودُفن . وفي هذه الأثناء اتّخذ لامِك למך لنفسه زوجة ، هي أشْمُوَع אשמע ، ابنة إلِيْشُوَع אלישע بن حَنوك ، وولَدَ ابناً فسمّاه نُوَحْ נח[1] . ونشأ نُوَحْ على فضائل الصّلاح وتمسّك بقوّة بسُبُل الحقّ التي لقّنه إياها مِتُوشِلَح ، غير أن النّاس تمادوا في معاصيهم تجاه الله وفشا الغشّ بينهم .

---

(1) كذا مبنى الاسم في العِبْرية ، ورغم أنه يتألف من حرفي (ن – ح) فالقاعدة العِبْرية أن الحاء الأخيرة المحركة بِپَتاح ويسبقها حُولام قَطَان أو قبوص تُلفظ : ـوَح ، كاسم : شِلُوَح .

فقال الله : «هي ذي الأرض بأكملها قد فسدت . أمحو عن وجه الأرض هذا الأنسان الذي خلقتُ ، وكذلك طيور السّماء وبهائم البرّ ، لأن شرور الإنسان ليست تؤهّله للحياة ، وإنّي لآسفٌ على خلقي إيّاه» .

غير أن الرّبّ أمسك عن غضبه ، إلى أن مات كل إنسان كان يسلك إليه بالخير سبيلاً ، قبل أن يحلّ لعنته التي قرّرها ، وذلك لئلا يُصر عباده الصّالحون ما يكون من جزاء قومهم . ولكن نُوَح[1] لاقى بركةً في عيني الرّبّ ، فاصطفاه الله مع أسرته من بين بشر الأرض كلّهم ، ليُبقيه وإيّاهم على قيد الحياة ما بعد الفناء الذي قَدّر له الوقوع .

وحدث في السنة الرّابعة والثمانين من عمر نُوَح أن أنوش بن شيت مات بعمر تسع مئة وخمس سنين . وعندما أضحى عمر نُوَح مئة وسبعين ، مات قينان عن عمر تسع مئة وعشر سنين . ومات مَهَلَلْئيل عن عمر ثمان مئة وخمس وتسعين سنة ، عندما كان نُوَح بعمر مئتين وثلاثين سنة . وعندما أضحى نُوَح في عمر ثلاث مئة وستين ، مات يِرِد بعمر تسع مئة واثنتين وستين سنة . وكذلك مات في تلك الأيام جميع مَن اتّبعوا أوامر الرّبّ ، من قبل أن يُريهم العقاب الذي قد أمر بوقوعه .

وحدث في السنة الثمانين بعد الأربع مئة من عمر نُوَح ، أن الصّالحين الوحيدين المتبقّين في ذلك الجيل كانوا مِتُوشِلَح ونُوَح مع أسرته . وعندها ، صدرت كلمة الرّبّ إلى مِتُوشِلَح ونُوَح كما يلي : هيّا امضيا ، أعلنا أمام البشرية قاطبةً : هكذا تكلّم الرّبّ : «تراجعوا عن نواياكم الخبيثة ، تخلّوا عن طرقكم الضالّة» ، لكي يعفو عنكم الله ويُبقيكم على وجه الأرض . لأن الله الأزلي قال : «إني سأمهلكم مئة وعشرين سنة لتتوبوا ، فإن تخلّيتم عن طرقكم الضالّة ، سوف أتخلّى عن نيّتي في إفنائكم» .

---

(1) نذكّر - كما قلنا في المقدّمة - أننا عددنا الأسماء العِبْرية في نصّنا ممنوعة من الصّرف ، لئلاّ يقع الالتباس في كون الألف المنوّنة أصلية في الاسم ، ثم إن هذه الأسماء بصيغتها العِبْرية الأصلية لن يستقيم تنوين آخرها أو كسره . ونحن بذا على أي حال لم نخرج عن قاعدة النّحو العربية المتّبعة . فمعذرةً من سيبَوَيْه أنْ لم نكتب : لكنّ نوحاً !

فمضى نُوَح ومِتُوشِلَح قُدُماً ، وتحدّثا بكلمات الرّبّ هذه أمام النّاس . وكانا كل يوم ، من الصّباح حتى المساء ، يخاطبان النّاس ، لكن النّاس لم يُلقوا بالاً إلى كلامهما .

ولمّا كان نُوَح رجلاً باراً في جيله ، فقد اصطفى الرّبّ ذُرّيّته لكي تنتشر على الأرض بأسرها . ثم قال الله لنُوَح : «اتّخذ لنفسك زوجةً ، وأنجب الأبناء ، إذ أنني أراك أمامي رجلاً باراً . فأنت وحدك ، مع امرأتك وأبنائك ، سوف تحيون على الأرض من بين هذا الجيل» .

ففعل نُوَح كما أمره الله ، واتّخذ نَعَماه ابنة حَنوك زوجةً له ، وكان عمر نُوَح أربع مئة وثمان وتسعين سنة عندما تزوّج نَعَماه . وحبلت نَعَمَاه وولدت ابناً سمّته «يافِتْ» יפת[1] قائلةً : «قد أكثَرَنا الله على الأرض» . وولدت ابناً آخر فسمّته «حام» חם . وولدت ابناً ثالثاً فسمّته «شِيْم» שם[2] قائلةً : «وهبني الله اسماً عظيماً في الأرض» . وكان عمر نُوَح خمس مئة وستين عندما ولدت له ابنه الثالث شِيْم .

فنشأ الصبية وساروا مع الله ، كما علّمهم نُوَح ومِتُوشِلَح . وفي هذه الأيام مات لامِك ، والد نُوَح . لكن لم يكن له من الصّلاح لا كأبيه ولا كابنه . وكان عمره لمّا مات سبع مئة وسبعاً وسبعين سنة .

وكلّم الرّبّ مِتُوشِلَح ونُوَح من جديد ، قائلاً : «مرّة أخرى ادعيا البشرية إلى التّوبة . كرّرا النّداء قبل أن يحلّ عقابي بالنّاس» . غير أن النّاس لم يُصغوا ، بل تجاهلوا كلمات الإنذار .

---

(1) الاسم في العِبْرية من فعل פתה : وسّع ، نشر ، مدّ . ومن الغلط ترجمته : يافث ، عن اليونانية ، كما قدّمنا في كلامنا على اسم شيت .

(2) هكذا يُلفظ الاسم في العِبْرية (ومعناه : اسم) وهو في العربية سام ، كما في اليونانيّة وعنها لغات أوروبا . والصحيح هو إيراد الاسم بصيغته الأصلية لا بقولبته حسب اللغات الأخرى ، صحيح أن بين اللغات السّاميّة إقلاباً بين الحروف (كالسين والشين هنا) ، ولكن لا نرى سبباً للإبقاء على هذه الترجمة المغلوطة . بل غايتنا في هذا العمل تقديم نموذج دقيق ومباشر عن نصّ التّلمود ، نقلاً عن لغته الأم ومصطلحاته الأصليّة ، الأمر الذي لم يتمّ بالعربية حتى الآن سوى مرّة واحدة (في عمل مويال عام 1909) .

فقال الرّبّ لنُوَح : «نهاية كل بَشَر قد أتت أمامي ، إذ أفسدوا طرقهم ، فها أنا مُهلكهم مع الأرض . أما أنت فاصنع لنفسك تابوتاً[1] من خشب قَطراني . وهكذا تصنعه : ثلاث مئة ذراع يكون طوله ، وخمسين ذراعاً عرضه ، وثلاثين ذراعاً ارتفاعه . وتصنع باباً للتّابوت في جانبه وتُكمله إلى حدّ ذراع من فوقه» .

وفي السنة الخامسة والتسعين من بعد الخمس مئة من عمره ، شرع نُوَح في صنع التّابوت ، وأتمّه في السنة الست مئة من عمره ، وخلال مدّة صنعه تزوّج أبناؤه الثلاثة من بنات مِتُوشِلَح الثلاث .

وحدث أيضاً في هذه الأيام أن مِتُوشِلَح بن حَنوك مات بعمر تسع مئة وتسع وستين سنة . وبعد موته قال الرّبّ لنُوَح : «فلتدخل التّابوت أنت وأهل بيتك كلّهم ، وها أنا مُرسلٌ إليك البهائم والطيور جميعها حول التّابوت . فعليك أن تقف عند مدخل التّابوت ، وستجمّع البهائم والطيور أمامك ، فما أقعى منها أمامك فليُدخلها بَنوك إلى التّابوت ، وما بقي منها قائماً فذَرْها» .

فكما تكلّم الرّبّ حصل ، وتجمّعت البهائم بأعداد كبيرة مقابل التّابوت ، فما أقعى منها أُدخل إليه ، فيما تُركت الأخرى . وعند مضي سبعة أيام قصفت الرّعود والبروق في السّماء فهزّت أركان الأرض ، وأظلم بهاء الشّمس ، وهطل مطر عظيم ، وتجاوزت حدّة العواصف كل ما عرفه الإنسان أو تخيّله .

هرع النّاس إلى التّابوت وتمسكوا به وصاحوا بنُوَح مستغيثين ، فأجابهم : «مئة وعشرون سنة مضت وأنا ألحّ عليكم لتسمعوا كلامي ، أما الآن فهَيْهات ، قد فاتتكُم الفرصة» .

وهطل المطر أربعين يوماً وأربعين ليلة بقوّة هادرة ، حتى أن أصحاب التّابوت أصابهم الهلع والقلق ، من خوفهم ألا يكون تابوتهم قادراً على تحمّل هذا الجبروت الغامر . فراحت كل بهيمة في التّابوت ، على اختلاف أنواعها ، تصيح من الخوف والعجز ، حتى أضحى الصّخب هادراً ورهيباً .

(1) المفردة الواردة في العِبْرية : תבה تِباه (تِڤاه) : صندوق ، كما تُطلق على تابوت العهد . فترجمناها به بدلاً من : سفينة أو فُلك ، على اعتبار الأصل وهو هنا أولى .

عند ذلك توجّه نُوَح إلى الله الأزلي ضارعاً : «ياربّ ، أتوسّل إليـك ، نجّنـا السّاعة ! فبغير عَون في وجه هذه الشدّة ترانا سنؤوب إليك . أنهار المياه تروّعنا ، والموت يلتطم بين الأمواج حولنا . انظـر بوجهك إلينا يا ربّ ! ارحمنا ، أحينا وأنجدنا وخلّصنا !» . فسمع الله صوت نُوَح ، وتذكّره .

* * *

«وأرسل الله ريحاً على الأرض على الأرض فتناقصت المياه ، . . . . ، واستقرّ التّابوت في الشهر السّابع . . . . ، على جبل أراراط» אררט [1] . ففتح نُوَح كوّة التّابوت ، وصرخ إلى الله من جديد قائلاً : «يا ربّ ، يا إله السّموات والأرض ، أطلق أرواحنا من الأسر ، حرّرنا من الحبس الذي نعيش فيه . فقلوبنا قد أضنتها زفرات الأسى . فأجاب اللهُ نُوَحَ قائلاً : «في خاتمة العام يكون لكم أن تخرجوا من التّابوت» .

وحدث في الشهر الثاني ، في اليوم السابع والعشرين من الشهر ، أن جفّت الأرض . ولكن نُوَح وأسرته مكثوا في التّابوت ، ولم يبارحوه حتى كلّمهم الله قائلاً : «اخرُجوا من التّابوت» . فخرج عندئذ جميع البشر والحيوانات من المركب الذي نجت أرواحهم فيه .

وعبد نُوَح وبنوه الرّبّ طوال سني حياتهم ، وباركهم الله . وتكاثر جنس البشر بسرعة بعد الطوفان . وأسماء تلك الأجيال مكتوبة في التُّوراه . أما كُوش כוש بن حام ، حفيد نُوَح ، فقد تزوّج في شيخوخته امرأة صبيّة ، وولَد ابناً سمّاه «نِمْرُود» [2] נמרד ، لأنه في تلك الأيام بدأ النّاس يعصون أوامر الرّبّ مجدّداً ، فاسم نمرود يعني التمرّد والعصيان .

---

(1) تضمين حرفي من متن التُّوراه ، تكوين : 8 : 1–4 . أما اسم الجبل فهو يُلفظ بالإشكنازية بالتاف (أرارات) ، ويُنسب إلى جبل معروف في جنوب شرقي تركية اليوم ، تغمره الثلوج صيفاً وشتاءً . أما في التراث الإسلامي فيسمّى الجبل المذكور : الجُودي .

(2) كذا منطوق الاسم في العبرية لا بفتح النون كما في العربية ، والواو تُلفظ O . واسمه ليس النّمرود بن كنعان كما في كتب السِّير ، بل نِمرود بن كُوش . وهو صاحب قصّة إلقاء إبراهيم في النّار ، التي ليست في التّوراة أصلاً بل في المدراش والتّلمود .

ثم شبّ نِمرود ، وكان أبـوه يحبّه حبّاً جَمّاً ، لأنه كان ابن شيخوخته . وكان ثمّة رداء من الجلـد صنعه الله لآدام ، فلمّـا مات آدام غـدا هـذا الرّداء ملكـاً لحَنوك ، ومنه انتقل إلى مِتُوشلَح ابنه ، وأعطاه مِتُوشلِح لنُـوَح ، الـذي أخـذه معـه في التّابوت . ولمّا خرج النّاس مـن التّـابوت ، سَرَق حـامُ هـذا الـرّداء وأخفـاه عـن إخوته ، ثم أعطاه فيما بعد خفيةً لكُوش ابنه . وأخفاه كُـوش سنين عديـدة ، ثـم بسبب حبّه العظيم لِنمرود ابن شيخوخته أعطاه إيّاه . فلمّا أضحـى نِمْـرُود في سـنّ العشرين لبس هذا الرّداء ، فأسبغ عليه قوّة وجبروتـاً ، كجبّـار صَيـد في البـراري ، وكجبّار حرب ينال مـن أعدائـه وخصومـه . وتكلّلـت بـالظّفر حروبـه وأعمالـه ، حتى غدا ملكاً على الأرض كلّها .

وها هي ذي مقدرته إلى يومنا هذا لا تزال مضرباً للأمثال بين النّاس ، فمـن يعلّم الأيادي الفتيّة فن استعمال السّلاح ، والأذهان الفتيّة أسرار القنـص ، يتمنّـى لتلامذته أن يكونوا «كنِمْرُود ، جبّار صيد في البراري ، وظافراً في حروبه» .

ولمّا أضحى نِمْرُود في الأربعـين ، تشاجر إخوتـه بنـو حام مـع بنـي يـافِت . فجمع نمرود عشيرة كُوش ، وتقدّم لقتال بني يافِت . وخاطب جيشه قـائلاً : «لا تجزعوا ، واطردوا الخوف من قلوبكم . فأعداؤنا سيُضحون بلا ريب غنيمـةً لكـم فتفعلون بهم ما تشاؤون» . وحاز نمرود على النّصر ، وأمست جيوش أعدائه تبعاً له . ولمّا عاد مع جنوده إلى ديارهم مُبتهجـين بـالنّصر ، أحـاط بـه النّـاس ونصّبـوه ملكاً ، ووضعوا على رأسه تاجاً . فعيّن لنفسه مستشارين وقُضاةً وشيوخاً وقوّاداً ومقدّمين ، وأسّس حكومة للأمّة ، وعيّن تارَح بن ناحُور[1] תרח בן נחור كبير أُمناء مملكته .

فلمّا أرسى نمرود قواعد سلطانه هكذا ، قرّر أن يبني مدينة ، بلدة مسـوّرة ، لتكون عاصمة مملكته . فاختار لذلك سهلاً وبنى فيه مدينة كبيرة ، سمـّاها شِنعار שנער . وأقام نمرود في شِنعار بأمان ، وسرعان ما غدا حاكم العالم بأسره . وفي ذلك الحين كان لسكان الأرض أجمعهم لغة واحدة ولسان واحد .

---

(1) تارَح بن ناحور هو أبو أبرام (إبراهيم عليه السلام) ، كما سيرد في الفصل التالي .

راح نمرود يتقلّب في نعمائه فنسي ربّه ولم يعبده ، بل صنع أرباباً من خشب وحجر ، وراح النّاس يتّبعونه فيما يفعل . وعَبَدَ ابنه مردان מרדן الأصنام هو الآخر ، ومن هنا مصدر المَثَل القائم إلى يومنا الحاضر : «وهل يُخلِّف الشّرير إلا أشراراً ؟» .

* * *

وحدث في هذه الأيام أن قوّاد نمرود وأحفاد فُوط פוט ومِصْرايم מצרים وكُوش כוש وكَنعان כנען عقدوا مجلساً ، وقالوا فيما بينهم : «لنبنِ لنا مدينةً وفي وسطها برجٌ عالٍ كحصن ، وليصل رأسُه إلى السّماء . فهكذا نُقيم لأنفسنا اسماً عظيماً وجبّاراً ، ترتجف أمامه أعداؤنا جميعاً . عندها لا يجسرنّ أحد على مسّنا بسوء ، ولا تشتّتنّ الحروب أمجادنا» .

ولمّا خاطبوا الملك بهذا الكلام وافق على خططهم . وهكذا اجتمعت هذه العشائر واختارت بقعةً ملائماً لمدينتها ، في سهل شرقي بأرض شنعار . ولمّا كانوا آخذين في البناء ، دبّ العصيان في قلوبهم ، عصيانٌ في وجه الله ، وتخيّلوا أن بوسعهم اختراق السماء ومحاربته . فانقسموا إلى ثلاث فرق ، وقالت الفرقة الأولى : «نرقى إلى السّماء فنضع فيها آلهتنا ونتعبّدها» . قالت الفرقة الثانية : «بل نقتحم سموات الربّ ونضارع قوّته بقوّتنا» . بينما قالت الفرقة الثالثة : «أجل ، ونرميه بوابل من أسهُمنا وحرابنا» .

فنظر الله أفعالهم الضالّة واطّلع على نواياهم الخبيثة ، فيما مضوا في البناء . وكانوا إذا سقط حجر مما يرفعون حزنوا وبكوا ، أما إذا سقط أحدٌ من إخوانهم ودُقّت عنقه لم يكترث أحدهم للرّوح التي أُزهقت قيد شعرة . وهكذا ، مضوا في البناء سنين عديدة ، إلى أن قال الله : «والآن نُبَلْبِل ألسنتهم»[1] . فإذا بالنّاس ينسون لغاتهم ، وراحوا يخاطبون بعضهم بلغات غريبة . ومن جرّاء عدم التّفاهم الذي سبّبه اختلاط الألسن راحوا يتشاجرون ويقتتلون ، فمات منهم الكثير في هذه المعارك ، إلى أن اضطرّوا في النهاية إلى الكفّ عن البناء .

---

(1) بحسب تفسير التّوراه أن مملكة «بابل» בבל سُمّيت نسبة لهذا الحدث .

وجازى الله كل واحدة من الفرق الضالّة الثلاث بحسب خطيئتها ، فأما الذين قالوا : «نضع آلهتنا في السّماء» ، فقد مسخهم الله قردةً ؛ وأما الذين قالوا : «نرميه بوابل من أسهُمنا وحرابنا» ، فقد قتل بعضهم الآخر بسبب عدم إمكانيّة التّفاهم بينهم ؛ وأما الذين قالوا : «لنجرّب قوتنا بقوّته» ، فقد شُتّت شملهم على وجه الأرض .

وكان البُرج متجاوزاً جداً في الطول ، فأما الجزء الثالث منه فقد غاص في الأرض ، وأما الثلث الثاني فقد احترق وتبدّد ، فيما بقي الثلث الأخير إلى وقت خراب بابل .

وعلى هذا النّحو المذكور كان تشتُّتُ البشر عبر الأرض ، وتفرّقهم إلى أمم كثيرة متعدّدة .

* * *



الفصل الثاني
من مولد أبرام إلى خراب سِدُوم وعَمراه

كان تارَح بن ناحُور[1] תרח בן נחור كبير مُقدّمي الملك نمرود ، وكان أثيراً جداً عند مولاه الملك . فلمّا ولدت امرأته أمتِطاه אמתלאה بنت كرنَبُو כרנבו ابناً سمّت الوليد «أب - رام» אב־רם ، وهذا يعني : أبٌ عظيم . وكان عمر تارَح سبعين سنة لمّا ولد ابنه أبرام .

وحدث في ليلة مولد أبرام أن تارَح استضاف عدداً من أصحابه ، بما فيهم حُكماء الملك نمرود وسَحَرته . فأمضوا السّهرة في العَربَدة والصَّخَب ، ولمّا مضوا من منزل مُضيفهم كان الصّبح أوان انبلاجه . فلمّا رفعوا بأبصارهم صوب السّماء أبصروا بنجم كبير ساطع يطلع أمامهم في المشرق ، ويبتلع أو يلتهم أربع نجوم صغاراً من أركان السّماء الأربعة . فتعجّب السّحرة مليّاً لهذه الواقعة ، وقال بعضهم للآخر :

«لا بُدّ أن هذا نذيرٌ مرتبط بمولد طفل تارَح . فعندما يكبر سيغدو له شأن عظيم ويتزايد سلطانه وقَدْره للغاية ، وسيبيد نسله أركان هذه المملكة ويحوزون على أملاكها» .

ومضى كلٌّ إلى بيته وراحوا يُمعنون النّظر في هذا الشأن ، ثم لمّ التقوا في بيت التجمّع قالوا : «فلنُنبئنّ الملك بالواقعة العجيبة التي برزت لناظرينا . فإن نمي خبرها إلى علمه عن طريق آخر غيرنا فسوف يستبدّ به الغضب علينا لكتم الأمر عنه ، أو لعلّه حتى يقتلنا لإهمالنا . لنذهبنّ إليه للتوّ فنجنّب أنفسنا مغبّة الأمر» .

---

(1) اسم أبي أبرام حسب التُّوراه (تلك 11 : 10-26) والمدراش والتّلمود : تارَح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عيبر بن شالَح بن أرفكشاد بن شيم بن نُوَح . وفي «قصص الأنبياء» للنّيسابوري : «زارح» ، القريبة من تسميته في القرآن الكريم «آزَر» .

فلمّا دخل حُكماء الملك إلى حضرته حيّوه قائلين : «أيها الملك ، لتحيا أبد الدّهر !» . ثم تقدّم كبير الحكماء فروى للملك الظاهرة التي شهدتها أبصارهم ، والتّعبير أو المعنى الذي نسبوه إليها . فلما أتمّ الرّواية قال : «والآن من بعد إذن الملك ، نُشير بأن يدفع مولانا دية[1] هذا الوليد لأبيه ويُهلكه وهو رضيع ، وإلا كان مصيرنا ومصير أبنائنا من بعدنا في مستقبل الأيام أن نلقى الخراب على يديه وأيدي أبنائه» .

أصغى الملك بإمعان إلى كلام أتباعه وأقرّ ما أشاروا به . فبعث برسول إلى تارَح ، ولمّا مَثُل هذا بين يديه أخبره بكل ما رواه الحُكماء ، ثم قال : «ولهذا فلتسلّمنا الطفل السّاعة ، لنقتله قبل أن تحلّ بنا الشّرور ، وسوف نجزيك مكانه ملء خزائنك ذهباً وفضّة !» .

فأجاب تارَح : «قد استمعتُ إلى كلام مولاي ، وكلّ ما يرغب به فأنا له مُطيع ، ولكن فليتفضّل مولاي الملك بأن يسمح لي بذكر أمر طُلب مني في الأمس بالذّات ، وبأن ألتمس منه المشورة حول ذاك» .

«لا بأس عليك ، فلتفعل» ، أجاب نمرود . «هات ما عندك» .

قال تارَح : «البارحة جاء إلى بيتي أيون بن موراد ، راغباً أن يبتاع مني الفحل الكريم الذي تكرّمتم مولاي الملك بمنحه إياي ! فقال أيون : «بع هذا الجواد وسأعطيك كامل ثمنه ، وكذلك أملأ إصطبلك بالتّبن والعَلَف» . فأجبتُه بأني لا أستجيز لنفسي التّصرّف بعطيّة الملك بغير إذنه . ولذا فإني الآن أيها الملك أطلب منك المشورة !» .

أجاب الملك بحدّة مُغضباً : «أفيقع في بالك أن تبيع عطيّتي ، وأن تستغني عن ذاك الفحل المسوّم طمعاً بالذّهب والفضّة والتبن والعَلَف ؟ هل أنت بحاجة إلى مثل هذه الأشياء الخسيسة حتى تقايض عليها بالجواد الذي وهبتك إيّاه ، وهو الفحل الذي لا نظير له في البلاد ؟» .

---

(1) بالأصل : ثمن ، وكلمة دية استعملناها لموافقة الترجمة ، وإن لم تكن في الأصل . وفي ترجمتنا هذه نحاول المحافظة على روح النصّ أولاً ، ثم صوغه بعربية سليمة ثانياً .

فركع تارَح أمام الملك ، وقال : «فإن كان هذا حُكمك بخصوص ذاك الجواد ، فكيف تطلب مني أن أسلّم وليدي ؟ فإن كان الذهب والفضة لا يفيان بثمن عطيّة مولاي ، فكيف تراهما يفيان بثمن وليدي ؟» .

استشاط الملك غضباً لهذا الكلام ، ولاح الشرّ جلياً على محيّاه ، ممّا دفع تارَح إلى أن تابع كلامه قائلاً : «أنا وكلّ ما أملك رهنٌ للملك ، بما في ذلك وليدي ، بغيرما مال ولا ثمن» . قال الملك : «لا ، بل مالاً أدفعُ فيه» . فقال تارَح : «بإذن مولاي ، أعطني ثلاثة أيام للتفكير في الأمر ، ثم إني أريد مُفاتحة أم الصبي به» . فأجابه نمرود إلى ما طلب ، وانصرف تارَح من حضرته .

بعد انقضاء الأيام الثلاثة أرسل الملك إلى تارَح ، يأمره بإشخاص الصبي ، وإلا أهلكه هو نفسه مع أسرته كلّها . فلمّا تسلّم تارَح أمر الملك ، وأيقن أنه ماض فيما يريد ، بادر إلى ابن أحد عبيده ، وكان وُلد في يوم مولد أبرام ، فأرسله إلى الملك نمرود ، وقبض المال دونه ، مدّعياً أنه وليده .

فما كان من الملك إلا أن قتل الصبي بيده ، بينما أخفى تارَح امرأته وأبرام وحاضنة الصبي في مغارة نائية ، مُرسلاً القُوت إليهم سرّاً كل أسبوع . فأقام أبرام في هذه المغارة إلى أن بلغ العاشرة .

في غضون هذه السنوات ، كان هاران بن تارَح הרן בן תרח ، أخو أبرام الأكبر ، تزوّج فولدت له امرأته ابناً سمّاه «لُوط» לוט ، وولدت له أيضاً ابنتين ، سمّت إحداهما «ملكاه» מלכה والأخرى «ساراي» שרי . وعند ولادة ساراي كان عمر أبرام اثنين وأربعين عاماً . وكان أبرام منذ نُعومة أظفاره محبّاً للرّبّ . ووهبه الله قلباً حكيماً متفتّحاً للفهم ولتجلّي عظمة الخالق ، وقادراً على مجابهة أباطيل الوثنيّة .

لمّا كان طفلاً نظر إلى نور الشمس البديع في رابعة النّهار ، وبهائها المتلألئ على الكائنات كلّها ، فقال : «لا ريب أن هذا النّور السّاطع هو الله ، فإليه أتوجّه بعبادتي» . فعبد الشمس وصلّى إليها . لكن لما تلا النّهار وأفل بريق الشمس ، بدأ شعاعها الذي كان غامراً الأرض بالضّياع بين طيّات الظلام ، وفيما راح

الأصيل ينوخ بكلكله إذا بالفتى يكفّ عن الابتهال قائلاً : «هذا لا يكون إلهاً . أين تُراي إذاً أجد الخالق الذي صنع السّموات والأرض ؟» ، فنظر باتّجاه الغرب والشمال وإلى الشرق ، فرأى أن الشمس اختفت من أمام ناظريه ، وأضحت الطبيعة محتجبة خلف طيّات اليوم المنصرم . ثم طلع القمر ، فلمّا رآه أبرام يلتمع في كبد السّماء بما معه من آلاف النّجوم ، قال : «لعل هذه تكون الآلهة التي خلقت الأشياء كلّها» . وبادر بصلاته إليها . ولكن لمّا لاحت تباشير الفجر وشحبت النّجوم ، وشحّ نور القمر ببياض فضّي ثم ضاع في أوبة بهاء الشمس ، أدرك أبرام ساعتها كُنه الله قائلاً : «ثمّةَ إلهٌ قُدرتُه أسمى وذاتُه أرفع وأقوى ، وما هذه الأجرام المنيرة إلا من بعض مخلوقاته وصُنع يديه» .

وفيما كان أبرام بن تارَح يتدرّج يومياً في مسالك الحكمة والمعرفة في بيت نُوَح ، دون أن يدري أحدٌ شيئاً عن أحواله ، كان رعايا الملك نمرود ، الذين حكموا بابل يعمهون في طرقهم الضالّة ، برغم ما يُنذَرونَه من وقوع البَوار بهم وبكل ضالّ . ورعايا نمرود هؤلاء لقّبوه أمْرافِل אמרפל[1] . وكان مردان بن نمرود أشدّ ضلالاً من أبيه ، وحتى تارَح الذي ما برح كبير أمناء الملك ، غدا هو الآخر عابداً للأصنام . فكان في بيته اثنتا عشرة صورة كبيرة من خشب وحجر ، يمثّل كلّ منها إلهاً خاصاً بشهر من شهور السنة ، يصلّي إليها ويتعبّدها .

عندما بلغ أبرام الخمسين من العمر غادر بيت معلّمه نُوَح ، عائداً إلى تارَح أبيه . فلمّا أبصر الاثني عشر صنماً المتوسّدة مكان الشّرف في دار أبيه ، استطار الغيظ في نفسه ، وآلى على نفسه مُقسماً : «وحياة الرّبّ ، لئن لبثتْ هذه الصّور ها هنا ثلاثة أيام أُخَر ، فليجعلني ربّي الذي خلقني واحداً منها» .

خفّ أبرام إلى أبيه الذي كان مُحاطاً ببطانته ، فسأله قائلاً : «أخبرني يا أبتي ، أنّى لي أن أجد الله الذي خلق السّموات والأرض ، وخلقكَ وخلقني وخلق البريّة أجمعين في هذا العالم ؟» . فأجاب تارَح : «يا بنيّ ، خالق الكائنات موجود معنا هنا في الدّار» . قال أبرام : «فأرنيه إذاً يا أبتاه» .

---

(1) اسمه في التُّوراة (تكوين – 14 : 1) : «أمرافِل ملك شِنعار» אמרפל מלך־שנער.

فاصطحب تارَح أبرام إلى حجرة داخلية ، وأشار إلى الأصنام الاثني عشر وأخرى عديدة أصغر منها حولها ، قائلاً : «هذه هي الآلهة التي خلقت السّموات والأرض ، وخلقتكَ وخلقتني والعالمين أجمع» .

فقصد أبرام أمّه قائلاً : «يا أمّاه ، ها هو ذا أبتي قد أطلعني على الآلهة التي خلقت الأرض وكلّ ما عليها ، لهذا أرجو منك أن تهيّئي لي جَدياً لأقدّمه قُرباناً لآلهة أبي ، كيما تأكله وتتلقّاه بعين الرّضا» .

ففعلت أم أبرام كما طلب منها ، وقدّم أبرام الطعام الذي هيّأته أمام الأصنام ، لكن أيّاً منها لم يمدّ يده ليأكل . فقال أبرام ساخراً : «ربما لم يلاقِ مذاقُها مزاج الآلهة ، أو فلعلّ كميّة الطعام تبدو ضئيلة . سأقدّم قرباناً أكبر ، وأجتهدُ أن يكون أشهى طعماً» .

في اليوم التالي طلب أبرام من أمّه أن تهيّئ جَديين ، بأفضل إتقان ، فلمّا قدّم ذلك أمام الأصنام وجد النتيجة ذاتها التي رآها في اليوم الفائت . تعجّب قائلاً : «ويلٌ لأبي ولهذا الجيل الضالّ ، ويلٌ لمَن تميل قلوبهم إلى الزّيغ والباطل فيعبدون صوراً بكماء لا تحسّ ، فلا هي تشمّ ولا تأكل ولا تنظر ولا تسمع . لها أفواه ولا تتكلّم ، لها أعين ولا تُبصر ، لها آذان ولا تسمع ، لها أيدٍ ولا تتحرّك ، لها أرجل ولا تمشي»[1] . فما كان منه إلا أن استلّ أداة من حديد وراح يكسّر بها الأصنام جميعها ما خلا واحداً ، ووضع بيده حديدته التي استخدمها[2] .

تناهت ضجّة الفعل إلى أذني تارَح ، فهرع إلى الحجرة حيث ألفى الأصنام المحطّمة والطعام تقدمة أبرام مُزجىً أمامها . فصرخ بغضب ونقمة في وجه ابنه : «ما هذا الذي فعلته بآلهتي ؟» . فأجاب أبرام : «قد جلبتُ لها طعاماً شهيّاً ، وإذا بها تمدّ أيديها إليه بشراهة دفعةً واحدة ، كلّها ما عدا كبيرها ، أزعجه جشعها ، فلم يُمسك نفسه أن استلّ تلك الحديدة التي بيده وراح يحطّمها جميعاً» .

---

(1) هذه العبارات ترد في مزامير داود – 115 : 5 .

(2) قصّة تكسير أبرام لأصنام أبيه ليست في التّوراه ، بل هي تراث شفهي مصدره المدراش والتّلمود ، يُصنّف من الأجداه .

أجاب تارَح بغضب : «كذبٌ ما تقول ، ألهذه الصّور نسمة حياة لكي تتحرّك وتفعل كما تدّعي ؟ ألم أصنعها بيدي هاتين ؟ فكيف يمكن لكبيرها أن يحطّم الأصغر منه ؟» . فكان ردّ أبرام : «إذاً فيمَ عبادتُك آلهةً لا تحسّ ولا تقوى على شيء ؟ آلهةٌ لا هي تقدر على معونتك فيما تحتاج ، ولا هي تسمع دعاءك ؟ ألا ساء ما تفعل وما يفعل أمثالك من عبادة صور الحجر والخشب ، ناسين الله ربّنا خالق السّموات والأرض وكلّ ما بينهما . ها أنتم تكسبون على أنفسكم الخطايا ذاتها التي جُوزي بها أجدادكم بمياه الطّوفان . فلتكفّ يا أبتاه عن عبادة هذه الآلهة ، قبل أن يحلّ السّخط بروحك وأرواح أهل بيتك !» .

وتناول أبرام الحديدة من يد الصّنم المتبقّي ، فحطّمه هو الآخر أمام ناظري أبيه . فلمّا رأى تارَح فعل ابنه ، هرع إلى الملك نمرود واشتكى فعل أبرام قائلاً : «إن لي ابناً وُلد منذ خمسين عاماً ، قد فعل كذا وكذا . فأرجو منك استحضاره للمثُول بين يديك ليُحاكم» .

فلمّا استُدعي أبرام أمام الملك ، قال له نمرود : «ما هذا الذي فعلتَ بآلهة أبيك ؟» . فأجاب أبرام الملك بالكلام ذاته الذي قاله لأبيه . ولمّا قال : «ليس للصّنم الكبير من قوّة أو بأس ليفعل ذلك» ، تابع أبرام قائلاً : «إذاً فيم عبادتُك إيّاه ؟ لماذا تحثّ رعيّتك على سلوك طرقك الباطلة ؟ أولى لك أن تعبد ربّ العالمين العظيم ، القادر على كل شيء ، المُحيي والمُميت . الويل لك يا ذا القلب السّقيم . فلتتحوّلْ عن طرقك الضالّة ، واعبُدْ مَن بيده مقاليد حياتك وحياة شعبك جميعه ، أو تمُتْ مَذموماً مَدحوراً[1] ، أنت ومَن يتّبعك» .

فأمر الملك مُقدّمي جيشه بالقبض على أبرام والزّجّ به في السّجن ، فمكث في محبسه عشرة أيام . وفي ذيّاك الحين جمع نمرود مجلسه ، وخاطب أمراءه ومُقدّميه قائلاً : «سمعتُم بأفعال أبرام بن تارَح ، لقد واجهني بازدراء ولم يُقم وزناً لسُلطاني . ها هو ذا بات في السّجن ، فأخبروني ما العقاب الذي ينبغي إنزاله بهذا الرّجل الذي اجترأ على مقامي هكذا ؟» .

---

(1) نترجم عبارات التّلمود بما يُقابلها مألوفاً في العربية لا بالورود التوقيفي ، فليُعلم .

فأجاب المستشارون : «مَن يجترئ على مقام الملك فجزاؤه الموت شنقاً ، أما هذا الرّجل فقد أتى على ما هو أدهى ، لقد كفر بآلهتنا وحقّرها ، لذا فينبغي أن يُحرق حيّاً . فإن حَسُن في عيني الملك ، ليوقَد أتونٌ نهاراً وليلاً ، ثم ليُلقى أبرام هذا في وسطه» .

فحَسُن هذا الرأي في عين الملك ، وأمر بتجهيز ذلك على الفور . فلمّا أُوقد الأتون حتى بلغ حرارة عظيمة مُهلكة تجمّع المُقدّمون كلّهم ، والشعب جميعاً كباراً وصغاراً ، ليشهدوا تنفيذ حُكم الملك . وصعدت النّساء حاملات أولادهن سطوح بيوتهن ، بينما تجمهر الرّجال بأعداد غفيرة . غير أن الجميع بقوا مبتعدين لم يجرؤ أحد منهم على الدنوّ من الأتون للنّظر فيه ، من شدّة اللهب .

وحدث أنه عندما أُتي بأبرام من السّجن ، ورآه الحُكماء والسّحرة ، رفعوا عقيرتهم وهتفوا بنمرود : «أيها الملك ، هذا الرّجل نعرفه حقّ المعرفة ! فما هو سوى ذاك الوليد الذي حدث عند مولده قبل خمسين سنة أن ظهر نجم عظيم فأهلك أربعة نجوم أخرى . لقد هزئ بك أبوه وخدعك إذ أرسل إليك عوضاً عنه صبيّاً آخر سواه لكي يُقتل بمقتضى أمرك» .

عندما سمع الملك هذا الكلام استشاط غضباً ، وأمر بإحضار تارَح على الفور أمامه . وقال له : «سمعتَ ما أكّده أمامي هؤلاء السَّحَرة ، فأنبئني الآن ، هل كان ما قالوه صدقاً ؟» . فلم يجد تارَح مناصاً ، وهو يرى مدى الغيظ العظيم الذي استبدّ بالملك ، من أن يجيب بصدق : «الأمر كما أخبر الحُكماء . لقد أخذتني الرّأفة بابني ، فأرسلتُ لك بدلاً منه ابن واحد من عبيدي» .

فسأله نمرود : «مَن ذا الذي أشار عليك بذلك ؟ قُل الصّدق لتنجو !» . ارتعدت فرائص تارَح من سَورة غضب الملك ، فأجاب متسرّعاً ، دون أن يعي ما يقول ، وكان الأمر غير ما روى : «إنه هاران ابني الآخر ، هو الذي أشار علي بذلك» . وكان هاران لا طاقة له للتّمييز في مسألة الإيمان ، ولم يقرّر لنفسه أيعبد أصنام أبيه أم إله أبرام ؟ فلمّا أُلقي بأبرام في السّجن ، قال في قلبه : «لنرَ أيُّ الربّين أقوى ، فإن فاز أبرام تبعتُ دينه ، وإن هلك فلأتبعنّ دين الملك» .

فلمّا أدان تارَح ابنـه هكـذا ، أجـاب نمـرود : «إذاً يلقـى هـاران عقوبـة أبـرام ذاتها ، وليُقذف بابنيه معاً في الأتون» .

فكان أن أُحضر أبرام وهاران أمام الملك ، وعلى الملأ أمام السكّان جميعاً تمّ تجريدهما من أثوابهما ، وقيِّدت أيديهما وأقدامهما ، ثم أُلقيا في الأتون الملتهـب . ولشدّة حرارة النّار كان مصير الاثني عشـر رجـلاً الذيـن قذفـوا بهمـا في النّـار أنهـم هلكوا فيها ، لكن الله بسط رحمته على عبده أبـرام ، فرغـم أن الحبـال التـي تقيّـده احترقت من حول أعضائه ، إذا هو يمشي بداخل النّار دون أن يمسّـه منهـا سـوء[1] . أما هاران أخوه ، الذي لم يكن قلبه متعلّقاً بـالله ، فقـد لاقـى حتفـه علـى الفـور في اللّهب المُستعر . وصاح خُدّام الملـك بمولاهـم : «هـو ذا أبـرام يمشـي دون أن يمسّـه سوء بين ألسنة اللّهب ، لقد تَلِفت الحبال التي قيّدناه بها ، أمـا هـو فلـم يمَسّـه أيٌّ ضرر كان» .

أبى الملك أن يصدّق هذا الأمر العجيـب ، فأرسـل بعـض مَـن يثـق بهـم من مُقدّميه لينظـروا في الأتـون ، فلمّـا أيّـدوا كـلام مرؤوسيهم عقـدت الدّهشـة لسـان الملك ، وأمر مُقدّميه بإخراج أبرام مـن النّـار . لكنهـم مـع ذلـك لـم يتمكّنـوا مـن القيام بأمره ، حيث أخذت ألسنة اللّهب تسـتعر في وجوههـم ، فهربـوا مـن هولهـا وحرارتها اللاهبة . وعنّفهم الملك قائلاً بوجـه الهُـزء : «عجّلـوا ، أخرجـوا أبـرام وإلاّ مات !» . لكـن محـاولتهم الثانيـة بـاءت بالفشـل كـالأولى ، وفيهـا احـترق ثمانية منهم حتى الموت .

ثم نادى الملك أبرام قائلاً : «يا عبد إله السّموات ، فلتخرج من النّار وتقدّم أمامي» . فمشى أبرام خارجاً من النّار والأتون ، ووقـف في مواجـه الملـك . ولمّـا رأى الملك أن أبرام لـم تنكوِ منه شعرة واحدة بلهيب النّـار ، أخـذ منه العجـب كـلّ مأخذ .

---

(1) من الهام الإشارة إلى أن قصّة إلقاء أبرام في النّار ليست في متن التُّوراه ، بـل هـي كسابقتها (تحطيمه أصنام أبيه) تراث شفهي الأصل مصدره المدراش والتّلمود ، ويُصنّف من ضمن الأجَداه אגדה (شرح نصوص تاريخية وأخلاقية وردت في التّوراه وفسّرها فقهاء اليهود) . وفيها رواية كاملة لحكاية أبرَهام (إبراهيم) : מעשה אברהם «مَعَسِيه أبرَهام» .

فقال أبرام : «إله السّموات ومَن بيده كلّ شيء ، قد نجّاني من النّار» . فركع أمراء الملك أمام أبرام ، لكنه ابتدرهم بقوله : «ليس إليّ الركوع ، بل لربّ الكون العظيم الذي خلقكم . اعبدوه واسلكوا سبُله ، فهو مَن يُنجي من الهلاك ويحفظ من الموت» .

ووَقَرَ في قلب الملك هو الآخر الارتياع من أبرام ، فقدّم إليه عديداً من الهبات الثمينة ، وفارقه بسلام .

وحدث بعد ذلك أن ناحور[1] נחור وأبرام اتّخذا لهما امرأتين ، اسم امرأة ناحور مِلكاه ، واسم امرأة أبرام ساراي أو يِسْكاه[2] יסכה . وكانتا كلاهما ابنتي هاران ، أخي زوجيهما[3] .

عقب حوالي العامين من نجاة أبرام من الموت حرقاً ، حلم الملك نمرود برؤيا غريبة . فإذا به في هذا المنام يقف بجيشه في وادٍ ، وقبالته أتون عظيم تتأجّج فيه النّار ، فأتى رجل يُشبه أبرام من داخل الأتون ووقف أمام الملك ، حاملاً بيده سيفاً مَسلولاً . ثم اقترب الرّجل من نمرود والسّيف مُصلتٌ بيده ، فنكص نمرود على عقبيه وهرب . وعندما هرب الملك رماه الرّجل ببيضة ، وتدفّق من هذه البيضة نهر ماء غزير ، فغمر الملك وجيشه بأكمله ، فغرقوا كلهم ما عدا الملك وثلاثة رجال معه . وأثناء انطلاقهم هاربين ، استدار الملك لينظر رفاقه الذين نجوا معه ، فإذا بهم رجال طوال القامة ذوو مظهر جليل ويرتدون حُللاً ملكيّة . ثم اختفى النّهر ولم يبق سوى البيضة . ثم في تتمّة حلمه رأى الملك نمرود طيراً يخرج من هذه البيضة ، فحلّق هذا الطير فوق رأسه ونقر عينيه . وهبّ الملك من نومه برُعب كبير ، وراح قلبه يدقّ بسرعة ودمه يفور في عروقه .

---

(1) ناحور هو ثاني أبناء تارَح الثلاثة : أبرام وناحور وهاران . (تكوين - 11 : 27) .
(2) من المألوف تعدّد أسماء وألقاب شخصيّات التراث الدّيني اليهودي ، كما سنرى أدناه بمثال يعقوب (يسْرَئيل) وهَدَسّاه (إستير) ، هذا عدا عن الرّموز بأسماء كبار الرّبانيين ، مثل : شلومو يتسحاقي (راشي רש"י) وموشيه بن ميمون (رَمْبَم רמב"ם) . وألقاب التكريم مثل : رابينو هَقّدوش רבינו הקדוש «سيّدنا القديس» ليهودا هَنّاسي .
(3) يرد في التّوراه (تكوين - 20 : 12) على لسان أبرام (وهنا صار اسمه أبرَهام) : «وبالحقيقة أيضاً هي أختي ابنة أبي ، غير أنها ليست ابنة أمي ، فصارت لي زوجة» .

في الصّباح أرسل الملك خلف حكمائه ، وبعد أن حكى لهم حلمه طلب منهم تعبيره . فأجاب أحد الحكماء ، واسمه أنوكي אנכי قائلاً : «ما هذا المنام إلا تعبير عن الشرّ الذي سيصدر عن أبرام وذُرّيته تجاه الملك في المستقبل . وإنّه لَمُنبئ عن اليوم الذي سيهبّون فيه ويدحرون مولانا الملك مع جيوشه كلّها . ولن ينجو خلا الملك ذاته ، مع ثلاثة ملوك يحاربون إلى صفّه . أما النّهر والطير اللذان يخرجان من البيضة ، فما هما إلا رمزٌ يدلّ على ذرّيّة هذا الرّجل ، الذي سيصدر عنه مُطلق الضّرر تجاه أمّتنا وشعبنا في الأيام الآتية» .

«هذا هو تعبير الحلم ، ومعناه الوحيد . وأنت تعلم تمام العلم ، يا مولاي الملك ، أنه منذ عدّة سنوات خَلَت أدرك حكماؤك هذا الأمر بعينه ، ولكن لسوء طالعك تركتَ هذا الرّجل على قيد الحياة . فطالما بقي حيّاً يُرزق ستبقى مملكتك في خطر» .

وقعت كلمات أنوكي موقعاً بليغاً من نفس الملك ، فكلّف بعض رجاله بالانسلال خفيةً للقضاء على حياة أبرام . ولكن مؤامرة الملك تمّ إحباطها على يد إليعيزِر الدّمشقي [1] דמשק אליעזר خادم أبرام ، الذي أهداه له نمرود ، إذ علم بنوايا الملك ، فنبّه سيّده قائلاً : «قُم فبارح هذا المكان على عَجَل ، لتنجو من الهلاك» . وأخبر أبرام بحُلم الملك ، وبمغزاه كما عبّره له الحُكماء .

لذلك خفّ أبرام إلى بيت نُوح وبقي مختبئاً فيه ، بينما جعل خُدّام الملك يفتّشون بيته والدّيار المُحيطة دون جدوى ، ومكث مدّة طالت ، حتى أن النّاس نسوه بالكلّيّة .

وحدث خلال هذه المدّة من الاستتار أن تارَح ، الذي كان ما يزال ذا حُظوة عند الملك ، جاء خفيةً لزيارة ابنه . فخاطبه ابنُه قائلاً : «هلُمَّ بنا نرحل إلى أرض غير هذه الأرض ، لنمضِ إلى أرض كنعان . تدري أن الملك يطلب حياتي ، ورغم أنه يضعك موضع التّكريم والرّفعة ، فإن المال والسّلطة لا يساويان شيئاً

---

(1) إليعيزِر الدّمشقي هو الخادم الذي أهداه نمرود لأبرام عقب خروجه من النّار ، يذكره أبرام في نصّ التّوراه : «وقيّم بيتي هو إليعيزِر الدّمشقي» (تكوين – 15 : 2) .

بالقياس إلى الموت والأذيّة . هيّا فلترحل معي يا أبتاه ، ذَرْكَ من هذا الباطل الذي تتبع ، لنعش بأمان ونعبد الله العظيم الذي خلقنا ، بسعادة وسلام» .

والحَفَ نُوَح وابنه شيْم إضافة إلى أبرام ، حتى أذعن تارَح لهم ونزل عند رغبتهم . وهكذا خرج تارَح وابنه أبرام ولُوط ابن ابنه ، وساراي كنّته ، وأهل بيته بأكملهم ، مغادرين «أور الكلدانيين» אור כשדים مدينة بابل ، فرحلوا إلى أرض حاران חרן ، وأقاموا هناك[1] .

وكانت البلاد حولهم نضيرة ومُخصبة ، وثمّة مجالٌ رَحْب للرّجال والماشية التي بحوزتهم . أما أهل حاران فقد أجلّوهم وكرّموهم ، وباركهم الله ونظر إلى أهل بيتهم بعين الرّضا .

وحدث بعد أن أقام أبرام في حاران ثلاث سنين أن الرّبّ تجلّى له وقال : «أنا الرّبّ إلهك الذي أنجاك من نار الكلدانيين ، وخلّصك من قدرة أعدائك . فإن أصغيتَ جاداً إلى كلامي واتّبعتَ أوامري مُثابراً عليها ، لأكثرنّ نسلك بعدد نجوم السّماء ، حتى يصير كل مَن أبغضَكَ يخشى بأسَك . وتحلُّ عليك نعمتي وعلى أعمالك رضاي . فقُم الآن وخُذ ساراي امرأتك ومَن يتبعك وكلّ ما تملك ، وامض إلى أرض كنعان כנען فأقم بها ، وأكونُ إلهك وأباركُكَ»[2] .

فرحل أبرام بأهل بيته إلى أرض كنعان مُطيعاً أمر الرّبّ ، وكان عمره لمّا بارح حاران خمساً وخمسين سنة . فلمّا ضرب أبرام خباءه في أرض كنعان بين سكّان البلد ، تجلّى الله له ثانيةً وقال : «هذي هي الأرض التي وهبتُك إيّاها مُلكاً لك ولنسلك . فتكون الأجيال الخارجة منك كثيرة كنجوم السّماء ، والبلاد التي أطلعتُك عليها تكون ميراثهم على الأرض» .

وصنع أبرام مَذبحاً لله ، ودعاه باسم الرّبّ[3] . وبقي مُقيماً في كنعان ، ثم بعد أن مضت له هناك ثلاث سنين مات نُوَح بعمر تسع مئة وخمسين عاماً .

---

(1) قابل على نصّ التّوراه (تكوين – 11 : 31) .
(2) قابل على نصّ التّوراه (تكوين – 12 : 1-5) .
(3) قابل على نصّ التّوراه (تكوين – الأصحاح 13) .

بعد ذلك عاد أبرام إلى حاران ليزور أباه وأمّه ، فبقي معهما في حاران خمس سنين . وفي خلال هذه المدّة عكف على نشر عبادة الله الأزلي ، فأفلح في كسب الكثيرين من أهل حاران[1] عباداً لله الواحد الأحد .

وتجلّى له الرّبّ في حاران قائلاً : «قُم فامض إلى أرض كنعان ، أنت وامرأتك وكلّ مَن وُلد في بيتك ، وكلّ النّفوس التي اهتدت بك في حاران . فلك أعطي الأرض من نهر مصر إلى حدّ النّهر الكبير نهر الفُرات» .

ففعل أبرام كما أمره الرّبّ ، ومضى معه لُوط ابن أخيه من حاران إلى أرض كنعان . وكان للُوط قطعان ماشية وفيرة ، ذلك أن الله قد بارك أعماله . فحدث أن رُعاة لُوط ورُعاة أبرام اشتجروا ودبّت بينهم البغضاء بخصوص حقوق الرّعي وموارد الماء ، فاختصموا فيما بينهم . لذلك قال أبرام للُوط : «إنّك لمخطئ ، وبسبب رُعاتك صيّرتني مكروهاً في أعين جيراننا . رُعاتُك يوردون قطعانهم في أراض هي مُلكٌ للغير ، وعلي أنا تقع الملامة بالنتيجة . ما أنا إلا غريب نازل بهذه الدّيار كما تدري ، فعليك أن تأمر خدمك بالكفّ عمّا هم فاعلون» .

لكن برغم تحذيرات أبرام ، ظلّ رُعاة لُوط يختصمون مع رُعاة أبرام ، ويخرقون مراعي جيرانهم . ثم في نهاية الأمر تكلّم أبرام بجدّيّة قائلاً : «لا تكن خُصومة بيني وبينك فنحن أقربون ، غير أننا نفترق الآن كلٌّ إلى سبيله . فلتمض حيثُ تشاء ، اختر مكان إقامتك أنّى تحبّ ، أنت وماشيتك وكلّ ما تملك ، ولكن بعد الآن فلا تلازمني . وإمّا يصيبنّك خطرٌ فإني مُسارعٌ إلى نجدتك ، وأكون معك في الأمور كلّها ، ولكن لتعتزلنّ عنّي ، إليك رجائي» .

فرفع لُوط طَرْفَه ورأى البُقعة المواجهة لنهر الأردن הירדן ، فأبصر سهولاً نضيرة ومزارع خصبة ودياراً تُبهج المرء ، مَراعيها فسيحة ومياهها غزيرة ، تسرّ النّاظرين . فارتضى لُوط بالدّيار ، وارتحل إليها ونزل إلى سِدُوم סדם ، مُعتزلاً بسلام عن أبرام ، ومعه ماشيته وجميع ما يملك . أما أبرام فقد بقي وأقام في غياض مَمْرا ממרא بالقرب من حِبْرون חברון .

---

(1) ينسبها مؤرّخو السّير إلى حَرّان من حواضر الرّافدين القديمة ، في جنوب تُركية اليوم .

«وكان أهل سِدُوم أشراراً خاطئين أمام الرّبّ جداً»[1] .

وفي هذه الأيام ، كانت سِدُوم ومعهـا أربـع مُدُن أخـرى يسكنها نـاسٌ ذوو أفعال شرّيرة ، تثير سخط الله العلـيّ القدير ونقمته . وفي الـوادي غرسـوا بسـتاناً جميلاً يبلغ امتداده عدّة مراحل ، وكان مُزداناً بالفواكه والأزاهير ، وكل مـا يُمتع النّظر ويُسكر الحواسّ . فكان النّاس يختلفون إليه أربع مرّات في السـنّة بـالصّخب والعزف والرّقص ، ويقترفون أعمـال الفسـق وعبـادة الأوثـان ، متمـادين في ذلـك إلى أبعد الغايات . ولم يكُ ثمّة مَن ينبس بكلمة ترهيب أو تقريع .

وكـانوا في حيـاتهم اليوميّـة قُسـاة القلـوب وغدّاريـن في آن معـاً ، يظلمـون الغربـاء ويستغلّون كـل مَن توقعـه المقـادير في حبـائلهم . فـإن قـدم تـاجر جـوّال مدينتهم ، وضعوا أيديهم على مَتاعه إما بالقوّة أو بالحيلة ، فـإن احتـجّ أو اشـتكى هزؤوا به أو طردوه .

فحدث مرّة أن رجلاً من عيلام كان مسـافراً إلـى مكـان يلـي سِـدُوم ، فبلـغ مدينتهم هذه عند مغيب الشمس . وكان بحوزته جحش وعليه سَـرج ثمـين علّـق عليه بضائع نادرة وغالية الثّمن . فلمّا لم يعثر له على مكان يأوي إليه ويأتمن عليه دابّته ، نوى أن يُمضي ليلته في أزقّة سدُوم ، ثم يتابع رحلته في الصّباح . فصادف أن أحد سكّان سِـدُوم - ويُدعـى حِيْدُود חידוד - أبصـر بهـذا الغريـب ، فدنا منه بخبث ومراوغة يسائله : «من أين الرّجل ؟ وإلى أيـن تقصـد ؟» . ردّ الغريـب : «قدمتُ من حبرون ، ومقصدي ما يلي مدينتكم هذه ، لكـن هـا هـي الشـمس قـد أفلت وليس أمامي مكان ألجأ إليه ، فها أنا ماكثٌ هنا في الأزقّـة . معـي خـبز وماء لنفسي ، وتبنٌ وعَلَف لراحلتي ، ولذا فلستُ مضطراً لأحد» .

أجاب حيدود : «لا ، هذا لا يجوز ، تعال فبِتْ عندي ، ولن أكلّفـك شـيئاً بل أقوم أيضاً بأوَد دابّتك» . واصطحب حيدود الغريب إلـى داره ، فـنزع السّـرج الثمين من على ظهر الجحش والأمتعة التي كانت عليه ، وأودعها في خزانتـه ، ثـم طرح للجحش عَلَفاً وللغريب لحماً وشراباً ، فأكل من زاده وبات عنده .

---

(1) تضمين حرفي من متن التّوراه (تكوين - 13 : 13) .

في الصباح قام الغريب باكراً يقصد متابعة رحلته ، لكن حيدود قال له : «تناول فطورك أولاً ، ثم فلتتابع طريقك» . وبعد أن أكل الرّجل قام ليمضي في طريقه ، فتمنّع عليه حيدود قائلاً : «قد مضى من النّهار جلّه ، فلتبقَ عندي هذا اليوم أيضاً ثم ترحل» .

فبقي الغريب في بيت حيدود حتى صباح اليوم التالي ، ثم اعتذر عن دعوة حيدود الملحّة للبقاء يوماً آخر ، وتجهّز للرّحيل . فقالت امرأة حيدود : «مكث الرّجل يومين ولم يدفع شيئاً» . فأجابها حيدود : «الزمي الصّمت يا امرأة» . ثم جلب للغريب جحشه ، وودّعه قائلاً : «صحبتك السّلامة» .

قال الغريب : «مهلاً ، سرجي وبساطي الملوّن المحزّم بحبال ، وأمتعتي ، أين هي كلّها ؟» . قال حيدود متعجباً : «ماذا ؟» . فتابع الغريب قائلاً : «قد سلّمتُك بساطاً جميلاً محزّماً بحبال ، وأنت خبّأته في دارك» .

قال حيدود مُبتهجاً : «آه ، نعم ، الآن أعبّر لك حُلمك هذا . فرؤياك حبالاً تدلّ على أن عمرك طويل كالحبال عندما تُمدّ من أوّلها لآخرها ، وأما رؤياك بساطاً ملوّناً فتعبيره أنك في يوم ما ستمتلك بستاناً مليئاً بالزّهور والثّمار اليانعة» . فأجاب الغريب : «لا يا ربّاه ، أنا لم أكن أحلم . . قد سلّمتُ إليك بساطاً ملوّناً محزّماً بحبال ، ولقد خبّأتَ ذلك كلّه في دارك» .

فقال حيدود : «ها قد عبّرتُ لك منامك وأطلعتك على فحواه ، فلا داعي لترداد ذلك . النّاس عادةً يدفعون لي لتعبير مناماتهم أربع قطع فضيّة ، أما أنت فسأكتفي منك بثلاثة فحسب» .

استبدّ الحنق بالغريب من هذا التصرّف الشائن ، وادّعى على حيدود أمام محكمة سِدُوم بسرقة أمتعته . فلمّا روى كلّ من الرّجلين قصّته ، قال القاضي : «صَدَقَ حيدود ، فهو مُعبّر منامات وذلك عنه معروف» . فقال حيدود للغريب : «وبما أنّك قد ادّعيتَ علي كاذباً ، فعليك أيضاً أن تدفع لي كامل حقّي ، أربعة قطع فضّيّة ، فضلاً عن ثمن أربع وجبات أكلتها عندي» . أجاب الرّجل : «أدفع قيمة طعامك بكل سرور ، إن أنت أرجعت إلي سَرجي وأمتعتي» .

ومضى الرّجلان يتبادلان الشتائم والسّباب ، فطُردا من المحكمة ، وانضمّ الرّجال في الشوارع إلى طرف حيدود ، فتشاجرا مع الغريب وطردوه من المدينة ، بعد أن سلبوه كل ما يملك .

وكان النّاس في سِدُوم إن دخل مدينتهم فقيرٌ يعطونه صدقةً ليُقال إنهم أهل برّ وإحسان ، ولكنهم أبرموا فيما بينهم اتفاقاً بألاّ يعطيه أو يبيعه أحد زاداً ، أو أن يُسمح له بمغادرة المدينة . فكان الرّجل بالنتيجة يموت جوعاً ، فيستردّ النّاس المال الذي أعطوه إيّاه . لا بل يسلبون ما يستر بدنه من أسمال بالية ، ويدفنونه عارياً في البريّة .

وفي إحدى المرّات ، أرسلت ساراي خادمها إليعزِر إلى سِدُوم للسؤال عن أحوال لُوط وأهل بيته . فلمّا دخل المدينة ، أبصر إليعزِر رجلاً من سِدُوم يتشاجر مع غريب بعد أن احتال عليه ، فإذا بالغريب يخفّ إلى إليعزِر ويستجير به طالباً العون . قال إليعزر للسّدُومي : «ماذا أنت فاعلٌ بهذا الرّجل الفقير ؟ حُقّ لك أن تخجل بتصرّفك هكذا مع غريب في وسط مدينتك !» .

فأجاب السّدُومي : «أأخوكَ هو ؟ ما شأنُك أنتَ بخُصومتنا ؟» ، وتناول حجراً فشَدَخَ به هامة إليعزِر ، فراح دمه يشخب على الأرض . ولمّا أبصر الرّجل الدّم أمسك بتلابيب إليعزِر صائحاً : «ادفع لي أجر الفَصد ، إذ خلّصتُك من هذا الدّم الفاسد ، هيّا ادفع لي بالعَجَل فهكذا تقضي شريعتنا» .

فقال إليعزِر مندهشاً : «عجباً ! أتجرحني وتطلب عليها أجراً ؟» . فلمّا أحجم إليعزِر عن الدّفع ، أخذه السّدومي إلى المحكمة ، وراح هناك يكرّر مطالبته بالأجر . قال القاضي مُخاطباً إليعزِر : «حكَمنا عليك بأن تدفع للرّجل أجره ، فلقد أسال دمك ، وهكذا تنصّ شريعتنا» .

فما كان من إليعزِر إلا أن دفع المال المترتّب ، ثم رفع الحجر وضرب به القاضي بقوّة ، فشخب دمه نازفاً بشدّة . وقال إليعزِر : «هاكَ إذاً ! وبحسب شريعتكم فلتدفعوا أجري لهذا الرّجل ، ومالكم لا لزوم له عندي» . وخرج من المحكمة .

وفي مرّة أخرى ، دخل سِدُوم رجلٌ فقير ، ولمّا أحجم الجميع عن إعطائه ما يأكل ، فقد تضوّر جوعاً حتى كاد يتلف ، وصادف أن مرّت به ابنة لُوط . وراحت تمدّه بالقُوت عدّة أيام ، فتعطيه خبزاً كلّما ذهبت تستقي المال لأبيها . فلمّا رأى أهل المدينة الرّجل ما يزال على قيد الحياة ، تعجّبوا للغاية كيف أمكنه البقاء بغير زاد ، وبادر ثلاثة منهم لمراقبة حركات الرّجل وسكّناته . فلمّا أبصروا ابنة لُوط تعطيه طعاماً ، أمسكوا بها واقتادوها إلى القُضاة الذين حكموا عليها بالموت حرقاً ، وتمّ تنفيذ العقوبة بها .

وثمّة بنتٌ أخرى قدّمت طعاماً لغريب ، فحُكم عليها بأن طُلي بالعسل جسدها ، وعُرّضت للسع النّحل حتى لاقت حتفها .

لهذه الأفعال الرّديّة ، أصاب سِدُوم وأخواتها المُدُن الأربع الهلاك بنار مُحرقة من السّماء ، ولم ينجُ من أهليها خَلا لُوط وعائلته ، لمحبّة الله عبده الصّالح أبرام .

* * *

الفصل الثالث
من مولد يصحاق إلى وقعة شِكيْم[1]

«وافتقد الله ساراه ، فحبلت وولدت لأبرَهام ابناً في شيخوخته»[2] .

وعندما وُلد يصحاق[3] יצחק صنع أبرَهام[4] אברהם تكريماً لأجله مأدبة عظيمة ، دعى إليها كبار الشيوخ كافّةً وذوي النَّسَب والأعيان في ديرته ، من أمثال أبيملِك אבימלך ومُقدّمي جيشه ، وتارَح أبي أبراهام ، وناحور أخاه ، اللذين سافَرا من حاران لحضور الحفل ، وكذلك كان شيْم مع ابنه عيبر من بين الحضور . وهنّؤوه جميعاً من صميم قلوبهم ، فكان قلب أبراهام مُفعماً بالسّرور .

وكان يشْمَعيل[5] ישמעאל ، ابن هاجار הגר وأبرَهام ، مُغرماً بالصّيد ورياضات البرّيّة ، فكان يتنكّب قوسه في كل وقت . وفي إحدى المرّات عندما كان عمر يصحاق حوالي خمس سنوات ، صوّب يشمعيل سهمه نحو الصّبي صائحاً : «الآن أرميك» . فلمّا رأت ساراه هذا الفعل خشيت على حياة ابنها ، ووقع في قلبها حقدٌ على ابن خادمتها ، فتكرّرت منها الشكوى مراراً لأبرَهام على أفعال الفتى ، وألحّت عليه أن يُبعد كلاً من هاجار وابنها من قبائه ، وبإرسالهما ليعيشا في مكان آخر .

---

(1) ينسب مفسّرو التّوراه شِكيم إلى مدينة نابلس المعروفة ، وهكذا يُسمّيها اليهود اليوم .

(2) تضمين شبه حرفي من التّوراه ، تكوين – 21 : 1–2 .

(3) يُرسم الاسم : (ي ص ح ق) ، ويُلفظ بالإشكنازيّة : «يِتْسْخاق» ، لتعذّر نُطق حرف صَدي (צ) لدى اليهود الغربيين . ولم نرسم الاسم هنا إسحاق على ما هو مألوف في العربية ، لأن هذا يقلب مَبنى الاسم تماماً ، ولا ننسينّ أن ثمّة قيمة عددية تقابل الأسماء حسب أبجديّة (أبجد هوز . .) ، فإن قولبنا الأسماء تغيّرت بالكلّيّة .

(4) في التّوراه (سفر التكوين 17 : 5 و 15) أن الله أمر أبرام أن يغيّر اسمه إلى أبرَهام ، واسم امرأته ساراي إلى ساراه .

(5) بالعربية إسماعيل ، حسب قاعدة إقلاب السين والشين . ومعنى الاسم : الله سَمِعَ .

ولمدّة من الوقت ، عاش يشْمَعيل مع أمّه في بريّة فـاران[1] פארן ، مستمتعاً على الدّوام بهوايته في الصّيد . ثم ارتحلا إلى مصر ، حيث اتّخذ يشمعيل له امرأة ووُلد له هناك أربعة بنين وابنة . لكنه سرعان ما آب إلـى موطنـه الأثير في البريّـة ، فأقام ثلاثة أقباء ، لنفسه ولجماعته ولأهل بيته ، إذ باركه الله فكان صاحب ماشـية وقطعان كثيرة .

وحدث بعد هذا بأعوام ، أن أبرَهام تـاقَت نفسـه إلـى هـوىً مَكنـون يعـاوده دوماً ، فعزم على زيارة ابنه ، وكان أن أعلم ساراه بعزمه وانطلق بمفرده على مَـتن بعير . وصل مكان إقامة يشْمَعيل قُرابة وقت الظهر ، فألفى ابنه غائبـاً عـن بيتـه في الصّيد . ولاقى أبرَهام معاملةً رديئة من طرف امرأة يشْـمَعيل التـي لـم تعـرف مـن يكـون ، وأبَـت إعطـاءه خـبزاً ومـاءً كمـا طلـب . فلهـذا قـال لهـا : «عندمـا يعـود رَجُلـك فلتقولـي لـه ، مـن بعـد أن تصغـي مُحيّـاي ، إن رجـلاً عجـوزاً مـن بـلاد الفلسطينيين أتى بابك في غيابك ، وقال لـي إنـه عندمـا يعـود رَجُلـك فقولـي لـه أن ينزع المسـمار الـذي دقّـه في قبائـه ويبدّلـه بواحـد خـيراً منـه» . وبعـد أن تفـوّه بهـذا الكلام ، انطلق أبرَهام قافلاً إلى موطنه .

فلمّا عاد يشْـمَعيل إلـى بيته روَت لـه امرأتـه مـا جـرى ، ووصفـت لـه هيئة الرّجل وكرّرت كلماته ، فأدرك يشْمَعيل أن أباه زاره وعومـل بـازدراء . فكـان أن طلّق يشْمَعيل امرأته ، وتزوّج بنتاً من أرض كنعان .

بعد حوالي ثلاث سنوات ، زار أبرَهام ثانيةً قباء ابنه ، فكان ابنه أيضـاً غائبـاً عن البيت ، غير أن امرأته كانت لطيفة ومضيافة ، فرَجَت الغريب الذي لـم تعرفـه بالترجّل عن بعـيره ، وقدّمـت لـه خـبزاً ولحمـاً . ولهـذا قـال لهـا : «عندمـا يعـود رَجُلك فلتصفي له هيئتي وقولي لـه : أتـاك هـذا العجـوز مـن أرض الفلسـطينين ، وترك لك هذه الرّسالة : المسمار الذي دققته في قبائك جيّد وقيّم ، فـانظر أن يلقـى اعتباراً لائقاً» . وبارك أبرَهام يشْمَعيل وأهل بيته ، عائداً إلى موطنه .

---

(1) ورد ذكـر بريّـة فـاران (أو پـاران) في سـفر التكويـن – 14 : 6 ، 21 : 21 (وهنـا ذكـر إقامـة يشمعيل وأمّه هناك) . وفي أطلس أوكسفورد للكتاب المقدّس أنها بأواسط سيناء جنوبـي بلاد كنعان ، وهذا التوصيف غير جازم بعد . راجع : *Oxford Bible Atlas*, p. 59 .

فلمّا عاد يشْمَعيل ، سرّه جداً أن يسمع رسالة أبيه ، وشكر الله على ما وهبه من امرأة صالحة ذات شأن ، وبعد مدّة قام وأهل بيته لزيارة أبرَهام ، فمكث عنده في أرض الفلسطينيين عدّة أيام .

بعد أن أقام أبرَهام على هذا الوضع ستاً وعشرين سنة ، انتقل بأهل بيته كلّهم وممتلكاته إلى بئْر شيبَع באר שבע قرب حبرون . فغرس هناك غيضة وبنى دوراً واسعة ، أبقاها على الدّوام مفتوحة في وجه الفقراء والمحتاجين ، فكان الجائعون يدخلون كيف شاؤوا ويتناولون الطعام على هواهم ، وكان المحتاجون ينالون بكلّ كرم كل ما يلزمهم لمعيشتهم . ولمّا كان أصحاب الشأن يقصدون أبرَهام ليُطروا أريحيته ويُثنوا عليه كان يقول : «إنّما الشكر والحمد لله ، قيّوم السّماء الأزلي خالق كل شيء ومَن بيده ملكوت كل شيء ، وهو وحده الطّاعم الكاسي» .

فكانت عقيدة أبرَهام التي انتهجها حياته كلّها تقوم على إطعام الجياع ، وإكساء ذوي الفاقة ، والرّفق بالمساكين ، والعَدل بين النّاس أجمعين ، وحَمْد الله الأزلي على آلائه ونعمائه[1] .

* * *

وأتت كلمة الرّبّ إلى أبرَهام ، قائلاً : «الآن خُذ ابنك الذي تحبّه ، وقدّمه قُرباناً على محرقة على أحد الجبال الذي أُريك»[2] .

فعندما صدر الأمر إلى أبرَهام ، كان همّه الأكبر – من جُملة فيض من الآلام والوساوس التي ألمّت بتفكيره – هو ضرورة إبعاد يصحاق عن أمّه . فلم يقدر أن يطلعها على عزمه ، وكان الصبي معها دوماً . أخيراً ، توجّه إلى قباء ساراه ، فجلس إليها وقال : «ابنك يشبّ وسيصير رجلاً ، ولم يتلقّ بعدُ أصول العبادة السّماوية . فغداً آخذه معي ليتعلّم سُبُل الرّبّ عند شيْم وعيبر» .

---

(1) برغم هذا كلّه ، لم يتلقّ أبرَهام نصّاً موحىً به من السّماء ، حسب التُّوراه ، بل كان أول نص سماوي هو ما أُنزل على موسى النّبي ﷺ كما سيمرّ أدناه .

(2) قابل على التُّوراه : تكوين – 22 : 2 .

فأجابت ساراه : «فلتمض يا سيّدي ، ولتفعل كما قلت ، لكن لا تأخذنّ الصّبي مسافة بعيدة ، ولا تُقصينّه عن ناظريّ مدّة طويلة» . فقال أبرَهام : «فلتَدعي الله من أجل سعادة ابنك ، وسعادتي ، وسعادتك أنت» .

في خلال تلكم الليلة استبدّ القلق بساراه بخصوص فراقها القريب عن يصحاق ، فعجزت عن النّوم ، ولّما بان لناظريها في باكر الصّباح زوجها والصبيّان اللذان برفقته ، متأهّبين للانطلاق في رحلتهم ، ضمّت يصحاق إلى حضنها ، وبكت بمرارة ، وتنهّدت قائلة : «أوّاهُ يا بُنيّ ، يا بُنيّ ! كيفك يسعني أن أدعك تنأى عني ، يا وحيدي ، ويا مُنيتي وأملي ؟» . ثم التفتت نحو أبرَهام وقالت : «فلتحرص على الصبيّ كل الحرص ، فهو صغير وغَضّ العُود ، لا تَدَعه يمشي في الحرّ ، ولا تدعه يُضنيه السّفر فيهزل جسمه» .

وألبست يصحاق أفخر ما لديه من ثياب ، وشيّعته مع إمائها ، حتى فارقهنّ أبرَهام وعُدن إلى بيوتهنّ .

تابع أبرَهام ويصحاق رحلتهما مع الفتيين الاثنين ، وهما يشمَعيل ابن أبرَهام ، وإليعيزِر قيّم بيته . ففي أثناء الطريق كلّم يشمَعيل إليعيزِر قائلاً : «أبي ينوي تقديم ابنه يصحاق قُرباناً للمحرقة ، فأكون أنا وارثه ، أما أنا ابنه البكر ؟» .
أجاب إليعيزِر : «كلا ، فأبوك قد طردك لئلا ترث ما يملك . بل إلي أنا ، خادمه الأمين ، تؤول ثروته أجمع» .

ولّما تقدّموا في مسيرهم خاطب يصحاق أباه قائلاً : «أي أبتاه ، ها هي ذي النّار والحطب ، فأين هو حَمَل الأضحية ؟» . فأجاب أبرَهام : «الحقّ أن إلهنا اختارك أنتَ يا بُنيّ ، كمخلوق بلا خطيئة ، قُربان محرقة يليق بعليائه بدلاً من الحَمَل» . فقال يصحاق عندها : «فها أنا إذاً أركع مُطيعاً بالحمد والشكر رغبةَ الله الحيّ» .

قال أبرَهام : «أي بُنيّ ، هل ثمّة من معصية تخفيها في قلبك ، أو أي نَزَغ سوء في فكرك ؟ إن كان من ذلك شيء فلتُبده أمامي يا بنيّ دونما حَرَج ، ولا تُخفِ عني شيئاً في هذه السّاعة العظيمة» .

فأجاب يصحاق : «وحياة الله يا أبتي ، إن قلبي لم يعرف سوءاً ، ولم يبدر مني ما يستوجب النَّدَم . ومُباركٌ هو الرّبّ الذي اصطفاني اليوم» .

كان هذا الجواب من الصبي مُريحاً جداً لقلب أبيه ، فتابعا طريقهما في صمت ، إلى أن أفضيا إلى البقعة التي اختارها الله . فأقام أبرَهام مَذبحاً للرّبّ ، وكان ابنه يناوله الحجارة ويعاونه في عمله . فإن من يؤمن بالله يتقوّى قلبه على الدّوام ، ورغم أن العيون لتَدمع فإن القلب لراسخٌ مرتبط بالله .

فلمّا تمّت إقامة المذبح أزجى أبرَهام الحطب عليه مرتّباً ، ثم أوثق ابنه يصحاق على الحطب . فخاطب يصحاق أباه قائلاً : «يا أبتاه ، فلتوثقني بإحكام لئلاّ أفسد القُربان بحركة النَّزع . وكُن ثابت القلب يا أبتي ، ولتشحذ السّكين . وأخبر أمي أن فرحها قد راح ، فالابن الذي ولدتِه في سنّ التّسعين قد هلك بلهيب النّار . وبعدما يفنى جسدي فخُذ معك من رَمادي المتبقّي ، وقُل لساراه : هذا هو يصحاقك ، الذي قُدِّم قُرباناً لله» .

فلمّا سمع أبرَهام هذا الكلام بكى بمرارة ، لكن يصحاق تابع بنبرة ثابتة : «هيّا يا أبي ، فلتنفّذ مشيئة الرّبّ» . ومدّ رقبته للسكين التي في يد أبيه[1] .

* * *

«فعمد أبرَهام إلى الكبش ، فأخذه وأصعده محرقةً بدل ابنه»[2] .

ورشّ أبرَهام دم الكَبش على المَذبح ، قائلاً : «ليكُن هذا الدّم كدم ابني مُقدّماً قُرباناً أمام الرّبّ» . وفي خلال تقديم هذا القُربان الرّبّاني استمرّ أبرَهام يصلّي قائلاً : «ليكُن هذا كدم ابني مُقدّماً قُرباناً أمام الرّبّ» .

وفيما كان أبرَهام ويصحاق بعيدين في هذه المهمّة ، جاء رجلٌ عجوز إلى ساراه ، قُرب خبائها ، وقال لها : «أتدرين أن أبرَهام قد قدّم يصحاقك قُرباناً أمام الرّبّ ؟ نَعَم ، ورُغم مُقاومته وصياحه ، قُدّم ابنُك أضحية للذّبح» .

---

(1) التّتمة معروفة . وفي المرويات الإسلامية اختلاف : أكان الذّبيح إسحاق أم إسماعيل ؟
(2) تضمين حرفي من التّوراه ، تكوين – 22 : 13 .

فصرخت ساراه صرخة عظيمة من أعماق قلبها ، وارتمت على الأرض ونشجت بمرارة : «واهاً يا بُني ، ليتني أموتُ فداك ! يا مَن ربّيتُك وأطعمتُك ، ويا مَن كانت له حياتي ومحبّتي كلّها . فالآن يُمسي زُهوّي وفرحتي نُواحاً ، إذ استوفت النّار بهجتي . فلتسلُ يا قلبي ! فحياة النّاس أجمعين يُمسكها الله بيده . وليتبارك مَن يتبع وصاياك يا ربّ ، لأنك بارّ وكلامك صدق . لهذا يا ربّ ، ولو فاضت عيناي بالدّمع السّخين ، فإن قلبي مُفعم بالرّضا !» .

ثم قامت ساراه ، وسارت من بِئْر شيبَع[1] إلى حبرون ، وراحت تستقصي على الطريق عن زوجها وابنها ، لكنها لم تتمكّن من معرفة شيء عنهما . فلمّا رجعت إلى مضاربها ، قابلت العجوز عينه الذي كان كلّمها من قبل ، فقال لها : «الحقّ أني كذَبْتُك القول ، فابنُك ما زال حيّاً» .

فكان قلب ساراه أقوى في تحمّل الحزن منه في تلقّي الفَرَح ، ممّا أدّى بهذه الأنباء والصّدمات في قلبها أن لاقت حتفها ، وهكذا ماتت ولحقت بآلها . فلمّا عاد أبرَهام ويصحاق ووجدا ساراه جسداً هامداً ، صاحا بنواح أليم ، وراح خدمهما معهما يندبون الفقيدة بأسى .

* * *

غدا يصحاق في سن التاسعة والخمسين من عمره ، وكانت امرأته رِبْقاه[2] רבקה عاقراً ، فدعا يصحاق الرّبّ أن يفتقد امرأته كما كان افتقد ساراه أمّه ، قائلاً : «يا ربّي ، ربّ السّموات والأرض ، ويا مالئ الثّقلين بخيرك ورحمتك ! قد جئتَ بأبي إلى هذا الموضع من بيت أبيه ومن صُلب آله ، واعداً إيّاه بإكثار نسله بعدد نجوم السّماء ، وبأن تهب لنسله هذه البلاد ميراثاً ومُلكاً . فهلاّ أنلتنا يا الله وعدَك الذي وعدتَ ؟ إليك يا الله نرنو بآمالنا ونتضرّع أن تهبنا ذُرّيّة ونسلاً كما وعدتنا ! يا إلهي ، إليك أرنو بأملي !» .

---

(1) بالعربية : بئر السّبع ، وفي نصّ التُّوراه (تكوين – 21 : 31) مغزى هذه التّسمية .
(2) يُترجم اسمها في التّوراه المعرّبة عن التّرجمة السّبعينيّة : رفقة ، وهذا غلط لغوي . وفي سفر التكوين (25 : 20) أنها كانت بنت بتوئيل الآرامي من فدّان آرام .

واستمع الله إلى دُعاء يصحاق ، فولدت له امرأته توأمين ذكوراً ، فسمّت أحدهما وهو الأول «عيْسَو» עשו ، والثاني «يعقوب» יעקב[1] . وكان عيْسَو كَلفاً بالصّيد ورياضات البَرّ ، ويعقوب مُقيماً بالخيام يتلقّى من جدّه أبرَهام سُبُل الرّبّ وتعاليمه .

فلمّا كان الفتَيان بعمر خمسة عشر عاماً ، مات أبرَهام بعمر مئة وواحد وسبعين عاماً . ولمّا دري بموته سكّان أرض كنعان ، أقبلوا بملوك ديرتهم وأمرائها مُسارعين لتكريم جُثمانه ، وكذلك أقبل أنسباؤهم المقيمون في حاران جميعاً ، وأيضاً بنو إمائهم ، لحضور مراسم جنازته . فدفنه يصحاق ويشْمَعيل في مغارة مَكفِلاه ، وكلّ من كان على صلة به أقام عليه الحداد عاماً كاملاً .

وكان أبرَهام رجلاً عزّ وجود أمثاله تحت عين الشّمس . فمن غَضَارة عُمره عَبَدَ خالقه وسار على الدّرب القويم أمامه ، ومنذ مولده وحتى ساعة موته كان إلهه دوماً معه . وكان يُحدِّث بنعماء الله كلّ من قابله ، وأنشأ لأبناء السّبيل من العابرين روضةً وفتح أبوابه بكل كَرَم للمحتاج والمنقطع وابن السَّبيل . ومن أجل أبرَهام نظر الرّبّ بعين الرِّفق إلى أهل الأرض ، وعقب موته بارك الرّبّ يصحاق ابنه ورَفَعَ شأنه إلى أبعد حدّ .

وازداد ابنا يصحاق في القوّة والسّنّ . فكان عيْسَو رجلاً خبيث الطويّة ، تعتريه الأهواء ، ومُغرماً بالصّيد والبَرّ . أما يعقوب الذي كان راعياً ، فكان امرءاً ذكياً ودمث الأخلاق ، ماضياً في طريق التُّقى الذي بيّنه له أبرَهام .

وحدث أن عيْسَو راح يصطاد في البريّة يوماً ما ، عندما صادف خروج نمرود للشأن ذاته . ولمّا كانا كلاهما صيّادين فائقين فقد دبّت منافسة بليغة بين الاثنين ، أعقبتها غيرةٌ مُميتة . وصادف أن أبصر عيْسَو نمرودَ[2] لمّا كان أتباعه كلّهم – خلا اثنين – بعيدين عنه . فكمن عيْسَو ، ولمّا مرّ نمرود حيث كان مكمنه أوتر قوسه وسدّد سهمه فأصمى نمرودَ في سُويداء قلبه .

---

(1) قابل على التُّوراه : تكوين – 25 : 26 .
(2) ذكرنا أننا عددنا الأسماء العِبْرية جميعها ممنوعة من الصَّرف ، فليُعلم .

ثم هرع عيْسَو من مكمنه ، واشتبك في عراك مُميت مع تابعيّ نمرود ، فصرعهما وأرداهما قتيلين كليهما . وجرّد من على منكبي نمرود الرّداء العجيب المذكور سلفاً ، والذي كان صنعه الله لآدام . ثم خفّ عائداً إلى البيت ، فأدرك قباء أبيه وقد أعيا ، وكان بغاية الجوع والتّعب والإنهاك . فقال عيْسَو ليعقوب أخيه[1] : «أطعمني من هذا الطّبيخ الأحمر ، فإني قد أعييتُ» . فقال يعقوب : «بِعني اليوم بِكريّتك» . ففكّر عيْسَو في نفسه : «لا ريب أنني الآن مُطالبٌ بدم نمرود ومقتولٌ به» ، فقال : «إنّما أنا صائرٌ إلى الموت ، فما لي والبِكريّة ؟» .

وهكذا ابتاع يعقوب من عيْسَو حقّ بكريّة المواليد בכורה ، وكذلك قبراً لنفسه في مغارة مكفيلاه[2] . فأعطى يعقوب لعيْسَو خُبزاً وطبيخاً من العَدَس ، فأكل وشرب ومضى لشأنه . فبالمال كان ابتياع يعقوب هذين الحقّين ، وبعد أن تمّ البيع أعطى أخاه ما طلب .

أمّا جثّة نمرود فعثُر عليها وحُملت إلى بابل ودُفنت فيها . وعاش نمرود متين وخمسة عشر عاماً ، وكان مقتله على يد واحد من نَسل أبرَهام ، تماماً كما بانَ له في رؤياه .

* * *

ولمّا نال يعقوب البَركة التي كانت مقصودةً لعيْسَو[3] ، كان يصحاق شيخاً طاعناً في السّنّ ، فقال عيْسَو : «قَرُب يوم موت أبي ، وإنّي لآخذٌ بثأري من يعقوب جزاءً بما فعله في حقّي» . فأُخبرت رِبْقاه بهذه النيّة ، فاستدعت يعقوب ودفعته للهرب إلى حاران ، عند أخيها لابان ، ليُقيم هناك حتى يزول غيظ أخيه[4] .

---

(1) قابل على التّوراه : تكوين – 25 : 30 . لكن رواية قتل عيْسَو لنمرود ليست فيها ، ولا يُفهم مغزى كلامه عن الموت إلا بهذه الحواشي التفسيرية هنا .
(2) راجع ما تقدّم أعلاه في الفصل الأول ، وكذلك سفر الخروج – 49 : 29–30 .
(3) قابل على التّوراه : تكوين ، الأصحاح 27 . وذلك تمّ بترتيب من رِبْقاه التي كانت تؤثر يعقوب علي عيسو لزواج هذا الأخير من بنات حثّ ، ولم ينتبه يصحاق لشحّ بصره .
(4) قابل على التّوراه : تكوين – 27 : 41 .

فدعا يصحاق يعقوب وباركه وأوصاه ، فقال له[1] : «لا تأخذ امرأة من بنات كنعان ، فإن أبي أبرَهام كذلك قال ، من كلمة الرّبّ ، الكلمة التي وعد بها نسلك هذه الأرض إن أطعنا الرّبّ واتّبعنا أوامره بإخلاص . قم فامضِ إلى حاران إلى بيت بتوئيل أبي أمّك ، واحرص على ألا تنسى الرّبّ إلهك وطُرُقه جميعها . لا تلتفت يميناً أو يساراً إلى أباطيل النّاس الذين تمضي إليهم . والله القدير يحلّ عليك نعمةً في أعين أهل البلد ، واتّخذ لنفسك ثمّ زوجة على ما يروق لك ، وليهب الله بَركة أبرَهام لك ، ويُنميك ويكثّرك وتكون جمهور شعوب في الأرض ، ويردّك إلى هذه الأرض ولك بنون وعزٌ وغنى» .

فأطاع يعقوب أباه ، ومضى إلى أرض بني المشرق ארצה בני־קדם (بلاد بين النّهرين נהרים) . وكان في السابعة والسبعين من عمره لمّا غادر بِئْر شيبَع . ولمّا رحل يعقوب من بيت أبيه دعا عيْسَو ابنه إليفاز אליפז وقال له خفيةً : «امضِ فاتبع يعقوب وليكن قوسُك بيدك ، فاكمن له واقتله بين الجبال ، واغنم كل ما معه من مال ونفائس ، ثم عُد إلي» .

وكان إليفاز عندها في الثالثة عشرة من عمره ، غير أنه كان لا يُجارى في سرعة المشي ، ويُجيد الرّمي عن القوس . فأطاع أباه ، وأخذ معه بعضاً من الرّجال وتبع يعقوب فأدركه عند تُخوم أرض كنعان[2] . ولمّا رأى يعقوب إليفاز آتياً خلفه توقف وانتظر مجيئه ، يحسب أن ابن أخيه يحمل رسالة من دياره . لكن إليفاز لما اقترب امتشق سيفه ، فسأله يعقوب عن سبب لحاقه به ، فأجاب الفتى : «كذا وكذا أمرني أبي ، وأنا لا أجرؤ على عصيان أوامره» .

فلمّا أدرك يعقوب نيّة عيْسَو ، ورأى على الفتى علائم العَزم على تنفيذ ما كُلّف به ، بادره ورجاله بالقول : «خذوا كل ما معي ، كل ما أعطانيه أبي وأمي في يديّ ، ولتبقوا على حياتي . وتكون هذا المكْرُمة عمل خير لكم»[3] .

---

(1) قابل على التّوراه : تكوين – 28 : 1–4 .
(2) أرض كنعان المذكورة مراراً في التّوراه والتّلمود هي الجزء الجنوبي من فلسطين إلى حدّ صحراء النّقَب وصحراء سيناء . هذا علماً أن الكنعانيين أثرياً قطنوا سوريا أيضاً .
(3) رواية محاولة قتل يعقوب هذه لا ترد في نص التّوراه ، بل هي إضافة تفسيرية في التلمود .

وأعطى الرّبّ في أعينهم حُظوة ليعقوب ، فتركوه يتابع رحلته بأمان . وأما الذّهب والفضّة وكل متاع نفيس كان أخذه معه من بيت أبيه ، استولى عليه إليفاز ورفاقه وحملوه إلى عيْسَو . فكان عيْسَو ممتعضاً بشدّة لأنهم أذعنوا لرجائه ، وضمّ الكنز الذي استولوا عليه إلى خزائنه .

وتابع يعقوب رحلته إلى حاران . فلمّا وصل جبل موريا‎ه מריה نزل ونام ليلته . وتراءى له الرّبّ وقال : «أنا الرّبّ إله أبرَهام وإله يصحاق أبيك . وهذه الأرض التي أنت نائمٌ عليها أُعطيها أنا لنسلك ، فلا تخف ها أنا معك أحفظك حيثما اتّجهت ، وأُكثّر نسلك بعدد نجوم السّماء . وأُبدّد شمل أعداءك أمامك ، فيحاربونك ولا يظفرون بك . وبالعزّ والثروة أردّك إلى أرض أبيك»[1] .

فانتبه يعقوب من نومه مسروراً بوقع الرؤيا الجميلة والمطَمْئنة التي تبارك بها في نومه . وسمّى ذلك المكان «بيت إيل» בית־אל [بيت الله] .

ولمّا بلغ يعقوب حاران أخبر خاله لابان לבן كيف سلب منه إليفاز بن عيْسَو كل ما يملك ، وطفق يبكي معلناً أنه بات فقيراً محتاجاً . فقال لابان : «إنك أنت عَظمي ولحمي ، فأنا أقوم بأوَدك حتى ولو كنتَ مُفلساً»[2] .

* * *

من بعد أن بحث لابان بغير جدوى عن يعقوب لمّا رَحَلَ فارّاً بامرأتيه وأبنائه وممتلكاته[3] ، ومن بعد أن قال الله لابن بتوئيل בן־בתואל[4] : «إيّاك أن تكلّم يعقوب بخير أو بشرّ»[5] ، وجّه لابان بعد فراقه عن صهره رُسُلاً إلى عيْسَو ، وأوصاهم قائلاً : هكذا قولوا :

---

(1) قابل على التّوراه : تكوين – 28 : 11-19 .
(2) والذي جرى بعد ذلك أنه عمل خادماً لدى خاله سبع سنين فزوّجه ابنته الكبرى ليئاه ، ثم سبع سنين أخرى فزوّجه الصغرى راحيل . انظر التّوراه : تكوين – 29 .
(3) انظر التّوراه : تكوين – أصحاح 30-31 ، حول خلاف يعقوب مع خاله لاستغلاله إيّاه ، وتحوّل ثروته إليه ، ورحيله عائداً إلى أرض أبيه بزوجتيه ليئا وراحيل ابنتي لابان .
(4) أي لابان بن بتوئيل الآرامي خال يعقوب ذاته . انظر التّوراه : تكوين – 25 : 20 .
(5) قابل على التّوراه : تكوين – 28 : 11-19 .

«قدمنا من عند لابان خالك وقريبك ، وهو يقول لك : أتدري ما فعله أخوك يعقوب بي ؟ أتاني منهوكاً ومعوزاً ، فآويته إلى بيتي مكرّماً مودوداً . إليه قدّمتُ ابنتيّ زوجتين ، وخادمتا ابنتيّ أيضاً أعطيتهما له . فباركه الله بسببي ، فجمع ثروة طائلة . وولد له بنون وحاز عبيداً وإماء ، وأغناماً وثيراناً وماشية من كل نوع ، بأعداد كبيرة ، وكذلك فضّةً وذهباً . ثم بذلك كلّه مضى فتركني ، هرب خلسةً بكل ممتلكاته صوب أرض كنعان ، بلاد أبيه . حتى أنه حرمني من تقبيل ابنتيّ ، وساقهما كالمسبيّتين بالسّيف ، وشرٌّ من هذا كلّه أنه سرق آلهتي . وعند مَعْبَر[1] يَبُق מעבר יבק تركتُه بكل ما معه ، فإن رغبت بإدراكه فثمّ أنتَ واجده . فلتذهبنّ إذاً ولتفعلنّ به ما يحلو لقلبك»[2] .

فلمّا سمع عيْسَو هذه الكلمات من رُسُل لابان ، تجدّد في قلبه كل ما كان لاقاه من يعقوب في حقّه ، واضطرم في قلبه الكُره والحُقد على أخيه . فجمع بنيه وخدمه ، وكل أهل سِعير שעיר ، فتألّفت منهم فرقة تعدّ أربع مئة راجل ، وتقدّم على رأسهم ليلاقي يعقوب وينال منه .

بعدما بارح رُسُل لابان عيْسَو ، رحلوا إلى أرض كنعان ، وأخبروا رِبْقاه هناك بترتيباته وعزمه على الكمين ليعقوب ومعاقبته . فخفّت رِبْقاه لإرسال اثنين وسبعين رجلاً لمعونة ابنها الأثير عليها . فأدركوه عند مَعْبَر يَبُق ، فقال يعقوب لمّا رآهم : «هذا جُند الله» ، وسَمّى المكان : مِحَنايِم[3] מחנים .

فتبيّن يعقوب خَدَم أبيه ، وسألهم عن أحوال أهله ، فأجابه الرُّسُل : «هم بخير ، وكذلك نؤدّي إليك إليك هذه الرّسالة من أمّك : «قد أتاني الخبر يا بُنيّ أن أخاك عيْسُو قاصدٌ إليك في طريقك برجال سعير . وعليه فأنا أرجوك أن تستمع

(1) قابل على التُّوراه : تكوين – 32 : 22 . وفي التّرجمة العربية للتُّوراه ، نقلاً عن التّرجمة السّبعينية : «مَخَاضَة يَبُوق» . فهذا دليل على سوء هذه التّرجمة ، فإن كانت المفردة الواردة بالعِبْرية מעבר (مَعْبَر) تتوافق مع العربية تماماً بالمبنى والمعنى ، فلماذا ندور ونترجمها عن اليونانية بالمخاضة ؟ خاصة أن لها صلة بتسمية «العِبْري» .

(2) ليس في التُّوراه خبر هذه الرّسالة من لابان إلى عيسو ، إنما فيها فحوى هذا الخطاب بين لابان ويعقوب عند جبل جِلعاد . قابل على التُّوراه : تكوين – 32 : 25–55 .

(3) قابل على التُّوراه : تكوين – 33 : 3 (في المسوراتية ، أما السبعينية فالآية 2) .

كلامي . فعندما تراه لا تكُ متهوّراً ولا متعنّتاً ، بل فلتبادره التحيّة بالرّفق واللّين ولتتحفه بالتّقدمات النّفيسة من الخيرات التي باركك الله بها . وعندما يخاطبك فلتُجبه بالحلم واللّطف ، فيزول عنك غضبه . لا تنسينّ أنه أخوك الأكبر ، وإنه لمن واجبك إجلاله وتكريمه»[1]» .

فبكى يعقوب لكلمات أمّه ، لكنه نزل عند رغبتها . فوجّه رُسُلاً قدّامه إلى عيْسَو ، لينقلوا إليه الكلام كما أوصت أمّه . فأدرك الرُّسُل عيْسَو ورَبعه ، وقالوا له كما أمرهم يعقوب ، ولكن عيْسَو أجاب بإباء قائلاً : «كلاّ ، فالحقّ هو ما نمي إلى مَسْمَعي من قبل ، وأنا أعلم بما فعله يعقوب بلابان ، وكيف ردّ جميل قريبه الذي أدناه وأعطاه امرأتين وحلالاً جمّاً ، ففرّ آخذاً معه ابنتي لابان ، وساقهما كالمسبيّتين بالسّيف . وهو لم يُسئ إلى لابان فحسب ، بل بي أيضاً غدر مرّتين واغتصب ما هو لي . وهكذا فإني شاخصٌ اليوم لملاقاته ، وها هو ذا ثأري الذي لبثتُ أترقّبه عشرين عاماً يلوح أمام ناظريّ» .

فلمّا بلغت هذه الكلمات مسامع يعقوب ضاق به الأمر جداً . ولمّا ألفى العَون من الأرض معدوماً ، توجّه إلى الرّبّ ملتجئاً بملء قلبه ودَعاه بإخلاص ليُنجيه من هذه الشّدّة التي ألمّت به وبآله . ثم قَسَم القوم الذين معه وقطعان الماشية إلى فرقتين . وأوكل فرقةً منهما إلى إليعيزِر الدّمشقي خادم أبيه أبرَهام ، وأبناؤه معه ؛ والأخرى إلى إلينوس بن إليعيزِر وأبنائه . ثم أمرهم بما يلي : «تقدّموا مفترقين ، فإن أُخذت إحدى الفرقتين نَجَت الفرقة الأخرى»[2] .

ثم لمّا قابل عيْسَو سجد إلى الأرض أمامه سبع مرّات ، وأعطاه الله نعمةً في عيني أخيه . وتلاشى حقد عيْسَو وحلّت محلّه طبائع العطف ، فأنهض يعقوب من الأرض واعتنقه وقبّله .

* * *

(1) هذه الرّسالة ليست في متن التُّوراه .
(2) يرد في متن التُّوراه هنا ، قبل لقاءه بعيسو ، خبر مخاطبة الله إيّاه قائلاً : «لا يعقوب يُدعى بعدُ اسمُك بل يِسرَئيل» : לא יעקב יאמר עוד שמך כי אם־ישראל .

نزل يعقوب بأهل بيته جميعاً قُبالة مدينة شكيْم שכם ، وابتاع قطعة أرض لسُكناه من أبناء حَمور חמור بمبلغ خمسين شيْقلاً[1] . وأقام هناك بيته وعاش بسلام وأمان حوالي ثمانية عشر شهراً .

ثم عمل أهل شِكيم احتفالاً عظيماً ، مناسبةً للفرحة والرّقص والغناء واللّهو على اختلاف أنواعه ، وشاركت بنات البلدة في مُجريات الاحتفال . وحدث أن راحيل רחל وليئاه לאה ، امرأتي يعقوب ، وديناه דינה ابنته اشتدّت بهنّ الرّغبة في حضور مشاهد الفرح هذه ، فمضين إلى المكان الذي تجري فيه الاحتفالات . كان أعيان المدينة حاضرين بأسرهم ، وكان شِكيم שכם ابن الملك أيضاً من بين الحضور .

فصادف أن أبصر شِكيم ديناه ، فخلبت الفتاة لبّه من فورها بجمالها الفتّان ومظهرها البسيط . وسأل عمّن تكون ، فقيل له إنها ابنة يعقوب العِبْري ، الذي نزل منذ مدّة غير بعيدة في أرض أبيه . وبرّح الحبّ بقلبه شديداً ، واستغلّ فرصة سانحةً فجذب الفتاة المذعورة غصباً إلى داره وافترَعَها .

فسارعت راحيل وليئاه إلى بيتهما وأخبرتا يعقوب بما جرى . فوجّه على الفور اثني عشر خادماً إلى دار شِكيم لطلب الفتاة ، لكنهم لقوا استقبالاً فاتراً من قبل حاشية الأمير وطُردوا إلى سيّدهم يعقوب . فلم ينبس بكلمة ، بل انتظر بهدوء عودة أبنائه إلى البيت .

في تلك الأثناء ، وجّه شِكيم رسولاً إلى أبيه ، طالباً منه أن يزور يعقوب ويطلب ديناه زوجة له . فامتعض الملك كثيراً ، وطلب ابنه فقال له : «ألم ترُق لنفسك زوجة من بنات بلدنا ؟ ما وجه رغبتك بهذه الفتاة العِبْرية ، الغريبة عن قومك ؟» ، فأجاب شكيم أباه : «قد حَسُنت في ناظريّ» ، وأقنع أباه بحبّه للفتاة حتى أذعن الملك في النّهاية بأن يطلب أباها يعقوب ويلتمس موافقته للزّواج .

---

(1) في التُّوراه المعرّبة عن الترجمة السّبعينية اليونانية تُترجم عبارة שקל (شيقِل) : شاقل ، ولا ندري من أين أتوها بألف إن كانت في العِبْرية محركة بصيريه צירה ، وهي تتوافق مع العربية : ثقل (ومنها : مثقال) . فهذا دليل آخر على سوء التّرجمة .

ثم حينما عاد بنو يعقوب إلى البيت ، وعلموا بالحادثة التي تمّ فيها الإساءة البليغة تجاه أختهم الوحيدة ، غلى الدّم في عروقهم . وقالوا : «لا جزاء لهذه الجريمة إلا الموت ، فأختنا دُنّست بالخطيئة العُظمى التي أنذر الله نُوَح وبنيه من اقترافها إن رغبوا في الحياة . الموت لمَن دنّس بيتنا ، بيدنا نقتله ونقتل أهل بيته وأهل مدينته كلّها» .

وفيما كان بنو يعقوب يتكلّمون بهذا ، إذا بحَمُور أبي شِكيم يدخل إليهم ويخاطب يعقوب قائلاً : «ابني شِكيم يرغب بابنتك له ، فألتمس منك أن تعطيها زوجةً له ، وخُذوا بنات بلدنا . بلدنا واسع ، وهذه الأرض بين أيديكم فأقيموا معنا واتّجرُوا وافعلوا ما يروق لكم ، ولا نريد منكم إلا أن توافقوا على مطالب ابني» . ولمّا اختتم حَمُور مقالته دخل ابنه شِكيم وتابع ما يعرضه أبوه ، قائلاً لأبيها وإخوتها : «هَبوني حُظوةً في أعينكم ، وأعطوني الفتاة زوجةً ، وكل ما تطلبونه مني أعطيكم كما ترسمون لي» .

فأمّا شِمْعُون שמעון وليوي לוי ، اللذان لبثا يتربّصان الدّوائر لإنزال الجزاء للدنّس الذي لحق بأختهما ، فأجابا شِكيم وأباه بطريق المراوغة : «سنفكّر بما تقولان . ها هي أختنا في أيديكما . لكن امهلانا بعض الوقت لنستشير جدّنا يصحاق ، فهو رجل حكيم ، ولديه خير الرأي فيما يتوجّب فعله في حالة كهذه ، وإننا لملتزمون بما يُبديه من رأي» .

فوافق شِكيم على هذا التّرتيب ، وانصرف مع أبيه من بيت يعقوب . ولمّا ذهبا ، راح بنو يعقوب يؤكّدون على تصميمهم بإنزال عقوبة الموت جزاءً وِفاقاً بالرّجل الذي دنّس بيتهم ، ومعه أهل مدينته بأسرهم الذين كانوا السبب في اجترائه على فعله الخسيس .

قال شِمْعُون : «هاكُم الرأي ، نقول للقوم هكذا : «قد ارتضى لنا ربّنا خِلّة الختان ، ولا نستطيع أن نعطي بناتنا وأخواتنا لرجل لم يلتزم عهد الله . فلتصيروا مثلَنا وعندها نتصاهر ، وإلا نأخذ ابنتنا ونمضي عنكم» . ثم لمّا يتملكهم الألم والضّعف ، نهجم عليهم ونبذل السّيف في رجالهم أجمع» » .

فوقعت خطتّه من إخوته موقعاً حسناً ، ولمّا عاد إليهم شِكيم وحَمُور لسماع قرارهم ، أعلنوا أمامهما أن هذه كانت مشورة يصحاق ، قائلين إن جدّهم جزم بأن إعطاء أختهم لرجل أقلف لهو عارٌ يَلزمهم أبد الدّهر .

فجمع شِكيم وأبوه عندها النّاس عند أبواب المدينة ، وأطلعاهم على مطلب بني يسْرَئيل ، وحاولا حثّهم على القيام بما هو مطلوب . فكان النّاس بأجمعهم راضين بالإذعان لملكهم ، ما خلا حَدقام بن يبريد ، والد حَمُور ، وإخوته السّتّة . فراحوا يزدرون بيعقوب وأبنائه ويدافعون عن أمّهات مدينتهم اللواتي أحجمن عن السّماح بتعريض أبنائهن لهذا العمل .

قال هؤلاء : «بِئس ما تفتريان ، أليست بنات الكنعانيين يصلحن زوجات ، حتى رغبتما بالزواج من بنات هذا العِبْري الغريب بينكم ؟ إليكم عن هذا الفعل البائر الذي لم يسنّه لكم آباؤكم من قبل ، فهذا فعل نحس . بمَ تجيبون إخوانكم الكنعانيين عندما يسألونكم عن مردّ هذا الخَبال ؟ وكيف ستبدون في أعين إخوتكم بني حام عندما يُقال : «أمن أجل امرأة عِبْرية يأتي شِكيم وأبوه وأهل مدينته كلّهم هذا البِدعة ؟» . هذا الذّلّ الذي ارتضيتماه لنفسيكما عن طيب خاطر لن نرضخ له ، بل نجمع إخواننا ونقاتلكما عليه فلتعلما ، حتى الموت» » .

فبدأ النّدم ينتاب حَمور وشِكيم على ما تسرّعا في طرحه ، ولكنهما عادا فأجابا : «لا يدخلنّ في ظنّكم أننا إنما نفعل ذلك محبّةً بالعِبْريين ، بل إن هي إلا من باب المُداورة لنُعمي أبصارهم ونأخذ ابنتهم . فلتلبثوا حتى نَنْقَه من الختان ، وساعتها يصيرون وما يملكون لنا كلّهم ، فنتصرّف فيهم كيف نشاء» .

وسمعت ديناه هذا الحوار ، فأرسلت خادمةً إلى بيت أبيها تُنبئه وتُنبئ إخوتها بتواطؤ شِكيم . فأقسم شمعون وليوي[1] : «بحياة الرّبّ إله الكون ، غَداة غدٍ ننقضُّ على هؤلاء القوم ، فلا ينجونّ من سطوتنا منهم أحد» .

---

(1) في التُّوراه المعرّبة عن الترجمة السّبعينية اليونانية يُترجم اسم לוי (ليوي) : لاوي ، ومثل ذلك : سفر اللاويين . وهذا عجيب ، فحركة صيريه צירה التي تسم اللام هي بمثابة ياء لا ألف ، وتُنطق كالحركة الفرنسية é . والاسم في الإشكنازية : ليڤي .

وهذا ما فعلاه فنفّذا ما عزما عليه ، وانقضّا على القوم في اليوم التالي ، فبينما كانوا يتألّمون من جرّاء الاختتان ، قتل ابنا يعقوب حَمُور وشِكيم وسكّان المدينة أجمع ، وأرجعا أختهما ديناه إلى بيتها .

فلمّا أدرك يعقوب مغبّة تهوّرهما حزن وغضب واستبدّ به القلق . وقال مُستنكراً : «ما هذا الذي فعلتماه بي ؟ نزلتُ هذا البلد وخلتُ أني أخلد إلى الرّاحة ، فالآن إذ يعلم ربَع هؤلاء بما فعلتما يجتمعون عليّ ويقتلونني فأهلك أنا وأهل بيتي» .

لكن ابنيه أجابا : «هذا كلّه يقع على عاتق شِكيم . أكُنتَ تريدنا أن نكفّ ونسكت ، ونصبر على هذا الفعل والدّنس العظيم ؟» .

وكان عدد الرّجال الذين قُتلوا بأيدي العِبْريين سبعة وأربعين . أما النّساء فأخذوهنّ سبايا .

وحدث عندما غادر شِمعون وليوي مدينة شِكيم ، أن رجلين كانا مختبئين أسرعا إلى مدينة تَفناه תפנה فأطلعا ملكها وسكّانها على ما جناه ابنا يعقوب في شِكيم . فأبى الملك أن يصدّق أن عشرة رجال بوسعهم التغلّب على مدينة ، فوجّه رُسُلاً لاستبيان حقيقة الأمر . وقال : حتى في زمن الملك نمرود ، عندما كان النّاس جبابرة ، لم يكن هذا الأمر ممكناً . لكن لمّا عاد رُسُله وأخبروا أنهم لم يلاقوا في شِكيم كلّها سوى نساء نادبات ، جمع الملك رجاله وقال : تجهّزوا لنذهب ونقاتل العِبْريين ، فنفعل بهم كما فعلوا بإخوتنا في شِكيم .

غير أن أمراءه أجابوه قائلين : «بقومنا وحدهم لا طاقة لنا بهؤلاء العِبْريين . فعشرة منهم أهلكوا مدينة ، ولم يقف في وجههم رجل واحد . لنرسلنّ في طلب المعونة من الملوك المجاورين لنا ، علّنا بذا نتمكّن منهم» .

فلاح للملك في هذا الرأي عين الصّواب ، وأرسل إلى ملوك الأموريين المقيمين بجواره يُعلمهم بفعل بني يعقوب ، ويلتمس معونتهم لمعاقبة هؤلاء . فأجاب ملوك الأموريين طلبه ، وجمعوا حوالي عشرة آلاف رجل ، زحفوا لقتال بني يعقوب .

ففزع يعقوب من ذلك فزعاً شديداً ، وراح ينحو مجدّداً باللّوم على أبنائه لتهوّرهم . فخاطب يهُوذَاه יהודה أباه قائلاً : «أتصرَّفْنا بغير حقّ ، شِمعون وليوي وبقيّتنا ؟ لقد دُنِّست أختنا ولُطِّخ بالعار بيتنا ، وانتُهكت محارم إلهنا . لهذا السبب مكّننا الرّبّ من المدينة . ففيم جزعك ؟ ولمَ تحزن وتغضب على أبنائك ؟ الله ذاته الذي أوقع برجال شِكيم طُعمةً في أيدينا سيُظفرنا بهؤلاء الأموريين القاصدين في طلبنا . طِب نفساً ولا عليك يا أبانا ! لا تخف ، بل لتدعو الرّبّ إلهنا أن يحفظنا وأن يُسلم أعداءنا إلى سطوتنا» .

ثم استدعى يهوداه خدمه وأمرهم بالذهاب لاستطلاع مَن كان زاحفاً إليهم وكم عُدّتهم . ثم خاطب شِمعُون وليوي قائلاً لهما : «تجهّزا ، وكونا بطلين . الرّبّ إلهنا معنا . فليتمنطق كل رجل بسيفه ويتنكّب قوسه ، مؤمناً بالسّماء ، سنحارب هؤلاء الأموريين ونُلاقي الفَرَج» .

وطفق بنو يعقوب وخدمهم وخدم يصحاق ، الذي كان يقيم في حبرون ، يتجهّزون للحرب . وأما يصحاق رئيس أسرتهم فدعا الله لينصرهم ، قائلاً : «يا ربّ ، يا الله ، قد كنتَ خاطبتَ أبي ووعدتّه قائلاً : «سأكثّر نسلَك بعدد النّجوم في السّماء» . وعلي أيضاً أعدتَ هذا الوعد ، والآن ها هي جيوش كنعان قادمة لتحارب أبنائي . فيا ربّ يا إله الكون ، أثنِ هؤلاء الملوك عن عزائمهم ، ودَع رهبة أبنائي تحلّ في قلوبهم وتخضد شوكتهم ، واحملهم على التّراجع والعودة إلى ديارهم بغير إراقة دماء . خلّص أبنائي وخدمهم من قوّة هؤلاء الملوك ، فبيدك أنتَ الجبروت والبأس والقوّة» .

وتلا يعقوب أيضاً صلاةً مَهيبة للغرض ذاته .

فلمّا شارف الأموريون على بني يعقوب وقوّاتهم ، اجتمع الملوك والأمراء ليتشاوروا قبل الشروع في الهجوم ، حيث أن قلوبهم لم تكن قد استكانت بعد من الرّعب الذي حلّ بها من بسالة العِبْريين . واستجاب الرّب لدُعاء يصحاق ويعقوب ، فتضاعف هذا الرّعب والخوف ، ثم استبان بكلام واحد منهم ، ولاقى صدى في قلوب الآخرين :

«ها نحن اليوم مُقدمون على فعل أخرق بمحاولة قتال هؤلاء العِبْريين ، كالسّاعي بقدمه إلى حتفه . ها عشرة رجال بمفردهم تغلّبوا على سكّان شِكيم ، والآن هؤلاء الرّجال العشرة ذاتهم مع خدمهم جميعاً يتربّصون بنا . إن إلههم راض عنهم ، وهم ينعمون بحمايته الخاصّة . ما من آلهة في الأمم الأخرى تقدر أن تأتي بالعجائب التي أبداها في هذا الشأن إلههم تجاه شعبه المختار . ألم يسعى نمرود إلى إهلاك جدّهم الأكبر أبرَهام ، فنجّاه إلههم من نار الأتون المتلظّية ؟ ألم يحارب أبرَهام هذا نفسه الأربعة ملوك الذين أسروا قريبه لُوط الذي كان مقيماً بسِدُوم ؟ إن إلههم جبّار ، وهو يؤثرهم ، وسيهبهم النّصر علينا . وهذا يعقوب نفسه قد نجا من عيْسَو ومعه أربع مئة رجل . وهل بوسع عشرة رجال إهلاك مدينة بغير عَون من السّماء ؟ فحتى لو كنّا نعدّ مئة مرّة أكثر ممّا نحن الآن فسوف نُمنى بالكسرة ، لأننا لسنا نحاربهم هم ، بل نحارب إلههم . لنثنِ أعنّتنا عنهم ونتراجع بغير قتال» .

فواحداً بعد الآخر راح ملوك الأموريين ينكصون على أعقابهم ويعودون إلى ديارهم دون أن يمسّوا يعقوب بسوء . ومكث العِبْريون في مواقعهم متربّصين بالهجوم حتى المساء ، ولكن لمّا لم يأت الأموريون آبوا إلى بيوتهم . ثم تراءى الرّب ليعقوب ، قائلاً : «قُم فاصعد إلى «بيت إيل» وأقم هناك ، واصنع هناك مذبحاً لله الذي أنجاك وبَنيك من السّوء» . فرحل يعقوب وأبناؤه إلى بيت إيل بحسب أوامر الله .

وكان عمر يعقوب يومذاك تسعة وتسعين عاماً . فأقام حوالي ستة أشهر في «بيت إيل» בית־אל [بيت الله] ، التي كانت تُدعى «لُوْزَاه» לוזה [1] سابقاً ، فماتت دِبُوراه דברה حاضنة رِبْقاه ، ودفنها يعقوب بأسفل شجرة بلّوط في بيت إيل . أما رِبْقاه بنت بتوئيل ، أم يعقوب ، فماتت أيضاً في ذلك الحين ، ودُفنت في مغارة «مَكفِلاه» מכפלה [2] .

(1) في الترجمتين العربيتين للتُّوراه (عن الترجمة السبعينية طبعاً) يرد الاسم : لُوزَ ، رغم أن مَبنى الاسم بالعِبْرية لا وجه للفظه إلا : لُوزاه .
(2) راجع ما تقدّم عنها أعلاه في الفصل الأول ، وهي في حِبْرون (الخليل) .

ولمّا غدا يعقوب في سنّ المئة ظهر الله له ودعاه «يسْرَئيل» ישראל [1]. ثم ارتحل بعدُ بأهل بيته إلى حِبْرُون ليُقيم عند يصحاق أبيه . وفي طريق هذه الرّحلة ماتت امرأته راحيل ، بعمر خمسة وأربعين عاماً . وأقام يعقوب وأهل بيته مع يصحاق في أرض كنعان كما أمر الله أباهم أبرَهام[2] .

* * *

(1) راجع ما تقدّم أعلاه في هذا الفصل . وقابل على نصّ التُّوراه (تكوين - 35 : 10) :
ויאמר־לו אלהים שמך יעקב לא־יקרא שמך עוד יעקב כי אם־ישראל יהיה שמך ויקרא את־שמו ישראל:
ترجمة النصّ : «وقال له الله اسمك يعقوب لا يُدعى بعدُ اسمك يعقوب ، بل يسْرَئيل يكون اسمك . ودعا اسمه يِسْرَئيل» .
وأما اسم يِسْرَئيل ישראל ، ومعناه : الله قَوَّمَ ، فكتابته في العِبْرية بحرف اليود (الياء) وليس الألف ، أما في العربية فنتوّه أن الهمزة حرف أصلي ، وإن كانت مكسورة فهي فعلاً تقابل الياء وليس الألف . على أي حال فثمّة إشكاليات في أحرف العلّة وحركات التشكيل ما بين اللغات «السّاميّة» الحيّة : العربيّة - العِبْرية - الآرامية السّريانية .
(2) أما بنو يعقوب فهم 12 ابناً وابنة واحدة (تكوين - 35 : 23-26) :
من امرأته لِيئاه : رُؤبين ראובן ، شِمعون שמעון ، ليوي לוי ، يِهُودَاه יהודה ، يِسّاسخار יששכר ، زَبُولُون זבלון ، دِيناه דינה .
من راحيل : يوسيف יוסף ، بِنيامين בנימן .
من بِلهاه בלהה أمَة راحيل : دان דן ، نفتالي נפתלי .
من زِلفاه זלפה أمَة لِيئاه : جاد גד ، أشير אשר . (الجيم تُنطق كجيم مصرية)



الفصل الرابع
من فتوّة يُوسيف إلى بلوغه حُكم مصر

كان يُوسيف[1] יוסף ، ابن يعقوب وراحيل ، لم يشترك في وقعة شِكيم ، إذ كان مجرّد فتىً يافعاً ، أصغر من أن يقاتل مع إخوته[2] . لكنه برغم ذلك تملّكته الرّغبة في أن يُضاهي مكانتهم ، لا بل شعر بأن شُهرته ستطير في الآفاق أكثر . أما أبوه فكان يحبّه بوجه الخصوص لأنه ابن شيخوخته ، وكعربون على هذه المحبّة صنع له قميصاً جميلاً موشّى . فأثارت علائم التميّز هذه في نفس يُوسيف ميله الفطري إلى التفوّق ، وكان لمّا يرى هَنَات في أفعال إخوته يَشي بها إلى أبيه ، فسرعان ما كسب على نفسه عداوتهم ، ولم يستطيعوا أن يكلّموه بسلام .

ولمّا غدا يُوسيف في السابعة عشرة من عمره ، تراءى له منامُه المعروف ، فرواه لإخوته ، فقالوا له : «ألعلّك تملُك علينا أو تتسلّط علينا ؟» . فقصّ يُوسيف الحلم على أبيه الذي أصغى إليه باهتمام ، ولمحبّته الشديدة له قبّله وباركه . ولمّا علم بقيّة إخوة يُوسيف بهذا التصرّف من أبيهم ازدادوا كُرهاً ليُوسيف . لكنه عندما قصّ عليهم حلمه الثاني ، فروى أن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً رآهم له ساجدين استطار غيظهم إلى أبعد الحدود ، حتى أن أباهم يعقوب ذاته لجأ إلى زجر صاحب الأحلام الطّموح[3] .

---

(1) الاسم يُشتهر في العربية : يُوسُف ، وفي العاميّة : يُوسِف . أما مبناه في العِبْرية ونطقه فهو كما رسمناه ، على اعتبار تحريك حرف السامخ (السين) بصيريه צירה ، وهي أقوى من الكسرة وتشبه ياءً مُمالة . ولذا فسنرسم الاسم في كتابنا على هذا النّحو ، وإن كنا خالفنا المعهود ، فنحن هنا نترجم نصّاً اصطلاحياً بأقرب ما ينبغي إلى الدقّة .

(2) وإخوته الأحد عشر هم : رَؤبين ، شِمعون ، ليوي ، يِهوداه ، يساكر ، زبولون ، دان ، نفتالي ، جاد ، أشير ، بنيامين .

(3) قابل على التّوراه : تكوين – 37 : 10 .

وحدث يوماً أن بني يعقوب خرجوا ليرعوا غنم أبيهم ، فتأخّروا في مسعاهم حتى قلقت نفس أبيهم عليهم . وخشي أن يكون أهل شِكيم قد استنجدوا ببعض إخوانهم ليُدركوا ثأرهم من أبنائه لحربهم التي شنّوها على مدينتهم . فطلب يعقوب يُوسيف وقال له : «هو ذا إخوتك خرجوا يرعون عند شِكيم ، ولمّا يرجعوا إلى الحين . فهَلُمَّ فاخرُج في طلبهم ، وائتني بأخبار سلامتهم» .

فجال يُوسيف بعض الوقت في نواحي شِكيم ، فلم يرَ من إخوته أحداً ، ولم يدرِ أين يبحث عنهم ، فصادفه رجلٌ وهو تائهٌ ، فسأله : «مَن تطلب ؟» ، أجاب يُوسيف : «أطلب إخوتي ، أتدري أين اتّجهوا ؟» ، فقال الرّجل : «إي نَعَم ، رأيتُ إخوتك ، وقد سمعتهم يقولون : نمضي إلى دُوتان[1] דתן» .

فلمّا رأى إخوة يُوسيف الفتى مُقبلاً عن بُعد ائتمروا عليه ، فقرّروا قتله . فقال شِمعون : «ها هو صاحب الأحلام مُقبل . والآن تعالوا نقتله ونطرحه في أحد أجباب البريّة ، فلمّا يسألنا أبونا عنه نقول إن وحشاً ضارياً افترسه» . فلمّا سمع رَؤبين مقالهم قال : «لا ، بل لا نفعل مثل هذا . إن أبانا لن يغفر لنا ما حيينا هذا الجُرم . بل اطرحوه في بئر ودَعوه يموت» . وهذا الرأي أبداه رَؤبين لكيّ يخلّصه من أيديهم ، ثم يستنقذه فيردّه إلى أبيه .

فلمّا طُرح يُوسيف في البئر (הבאר) ، عملاً بهذا الرّأي ، صاح بإخوته بملء صوته : «ماهذا الذي فعلتُم ؟ لمَ تعاملونني هكذا ؟ ماذا فعلتُ وبِمَ أذنبتُ ؟ ألا تخافون الربّ بفعلتكم هذه ؟ أولستُ لحمكم ودمكم ابن يعقوب ؟» . وراح يصيح : «رَؤبين ، يِهودَاه ، ليوي ، شِمعون ، أخرجوني من هذا البئر . . آه ، يا بني يعقوب ، ارحموني ! إن أخطأت في حقّكم فتذكّروا وصايا أبيكم ، من لدُن أبرَهام ويصحاق ويعقوب ، بالرّحمة باليتيم وإطعام المسكين وسقاية الظامئ وإكساء الفقير ، أم تُراكم تُمسكون عن رحمة مَن هو لحمكم ودمكم ؟ إن كنتُ أخطأتُ في حقّكم ، فلتسامحوني بحقّ أبينا يعقوب» .

---

(1) في التّوراه المعرّبة عن الترجمة السّبعينية بطبعتها الكاثوليكية : دوتائين ، أما في الطبعة البروتستانتية : دُوثان (بترجمة حرف ثيتا θ اليوناني ثاء) . وكلاهما غلط . ونعود إلى التأكيد على وجوب إعادة ترجمة التّوراه عن العِبرية مباشرة لا اليونانية .

لكن إخوته ابتعدوا عن البئر لئلا يسمعوا صياحه ، وجلسوا يأكلون طعامهم المعتاد . وفيما كانوا يأكلون ، راحوا يتشاورون حول الوضع النهائي لأخيهم ، فكانوا متحيّرين بين أن يتركوه حيث كان ، أو أن يقتلوه ، أو يردّوه إلى أبيه . فبينما هم يتشاورون ، أبصروا قافلة من اليشْمعيليين مُقبلة ، في طريقها إلى مصر ، فقال يهُوداه لإخوته : «ما الفائدة من أن نقتل أخانا ؟ هلمّوا نبيعه لقافلة اليشْمَعيليين هذه فيأخذونه حيث يشاؤون ، فلعلّه يموت بين شعوب الأرض ، ولا يكون دمُه يُسفك بأيدينا نحن» .

فوافق الإخوة على هذا الرّأي ، وأن يبيعوا يُوسيف إلى اليشْمَعيليين . ولكن الذي جرى أنهم فيما كانوا يتمارون في الأمر ، مرّ قوم مِديَنيّون يطلبون في دربهم بئر ماء ، فصادف أن مرّوا بالبئر الذي كان فيه يُوسيف مُلقىً ، ولمّا نظروا فيه هالهم أن يروا فتىً وسيماً طَلق المُحيّا . فجذبوا يُوسيف من البئر وحملوه معهم .

فلمّا مرّوا بإخوة يُوسيف ، رآه هؤلاء معهم فصاحوا : «حَسْبُكم ! ما تظنّون أنفسكم فاعلين ؟ بأي حقّ تسرقون عبدنا الذي طرحناه في البئر لعصيانه ؟ هلمّوا فأرجعوه لنا» . أجاب المديَنيّون : «أعبدكم هو ؟ أخادمٌ هو لكم ؟ يبدو الأمر عكس ما تَدّعون ، إذ هو أكثر وسامةً وفراهةً من أيّ واحد فيكم . قد لقينا ذا الفتى في البئر ، وإنّا لأصحابُه» .

كرّر بنو يعقوب مقالتهم الأولى : «أرجعوا لنا العبد وإلاّ أفنيناكم قَتلاً» . فاستلّ المِديَنيّون أسلحتهم ، وأعدّوا العدّة للانخراط في قتال دام على الفور . فقال شمعون : «وَيحكمْ ، ألا تعرفون أننا أهلكنا مدينةً عن بكرة أبيها ؟ وَيحكمْ ، إن لم تردّوا عبدنا لنفعلنّ بكم ما كنّا فعلناه بمدينة شَكيم» . فلمّا سمع المِديَنيّون هذا الكلام خفضوا من أصواتهم ومالوا إلى الرّفق واللّين ، قائلين : «ما لكُم ولهذا العبد الآبق ؟ فلتبيعوه لنا ، ولكم ندفع ما تشاؤون» . وهكذا تمّ عقد صفقة بيع على التوّ ، فباع بنو يعقوب أخاهم يُوسيف إلى المِديَنيين بعشرين قطعة من الفضّة ، حيث كان رَؤبين متغيّباً ولم يتسنَّ له منعهم من ذلك[1] .

---

(1) في هذه المقاطع زيادات تفسيريّة على التُّوراه (تكوين - الأصحاح 37) .

وأخذ المِدْيَنيّون يُوسيف معهم ، ورحلوا إلى جِلعاد גלעד . لكنهم في أثناء طريقهم ندموا على شراء الفتى ، فقال بعضهم للبعض الآخر : «هذا الفتى تراه تبدو عليه مخايل الفراهة ، لا ريب أن الرّجال الذين ابتعناه منهم قد سرقوه من أرض العِبْريين ، فإن طاف أهله عنه يبحثون لربّما وقعوا عليه في أيدينا فيكون فيه هلاكنا» .

ففيم كانوا يتمارون في ذلك الشأن ، كانت قافلة اليشْمَعيليين التي رآها بنو يعقوب قد اقتربت من المِدْيَنيّين ، فهتف بهم هؤلاء وباعوا لهم[1] يُوسيف بالثّمن ذاته الذي كانوا دفعوه فيه ، وهم فرحون بالخلاص من الهمّ النّازل بهم . فجعل اليشْمَعيليّون يُوسيف على بعض أباعرهم وحملوه معهم إلى مصر . ويكى يُوسيف بحُرقة أثناء الرّحلة لما أدركه بأن كلّ خطوة تنأى به بعيداً عن دار أبيه ، وتُوصد دونه بإحكام كل باب للأمل . وضاق اليشْمَعيليّون ذَرعاً بشهيقه ونحيبه المستمرّين ، فأغلظوا له القول والمعاملة .

وفي دربهم مرّوا بالمكان الذي دُفنت فيه راحيل أم يُوسيف . وتعرّف يُوسيف على المكان ، فألقى بنفسه على قبر أمه وأطلق لروحه المُعنّاة لواعج الأسى فبكى قائلاً : «أمّاه ، يا أُمّاه ، قُومي من لحدكِ فانظري بُنيَّكِ ! قد بيعَ عبداً ، وما من عين تنظر إليه بالرّأفة . قومي فانظري بُنيَّكِ وابْكِ معه على بلوائه ومحنته ! أفيقي من رُقادكِ ، وكُفّي إخوتي عنّي ! قد جرّدوا عني قميصي وفي ربقة العبودية طرحوني ، ومرّتين أُخذتُ بالبيع ، ففُرّق بيني وبين أبي ، وعن كلّ قلب رحيم وعين رئيفة أُقصيتُ . قومي يا أمّاه ، وادعي إلهك ! ولتري يا أُمّاه مَن يُنصف الله الأزلي ومَن يُدين ! هُبّي من رُقادكِ ، فعليكِ بأبي ولتُسَكّني من لوعته وأساه ، وترفّقي له بكلام السّلوى وبشائر الخير ، لعلّ قلبه يعود فيحيا . هلُمّي قُومي يا أُمّاه وانظري إلى بُنيّكِ !»[2] .

---

(1) نعمد إلى استخدام التعابير الشائعة في لغة اليوم الفصحى ، بدلاً من : باعوه منهم ، عملاً بقاعدة : خطأ مشهور خيرٌ من صواب مهجور . وهذا لا يعني أننا نجهل المعياريّة في لغتنا الفصحى .

(2) هذا المقطع كلّه غير وارد في التُّوراه ، وينفرد به نصّ التّلمود .

فدافع اليشمَعيليّون يُوسيف عن قبر أمّه باللّطم والصّياح . فقال لهم يُوسيف : «هَبوني حُظوةً في أعينكم ، خُذوني إلى بيت أبي فيُغنكم» . فهزؤوا به وقالوا : «ألستَ عبداً ؟ فمن هو أبوك ؟ ها أنتَ قد أُبعتَ مرّتين ، فإن أنتَ إلا عبد ، وبئس العبدُ الآبق ، فلو كنتَ ذا شأن لما تم بيعك مرّتين» .

فانتحب يُوسيف ونصل عُوده واعترته الأسقام ، فقال أسياده : «ما تُرى هذا الصبي إلا هالكاً بين أيدينا ، فيضيع المال الذي دفعناه فيه . إن كان يرغب بالعودة إلى بيت أبيه فلنردّه إليه ، لعلّنا نستعيد المال الذي دفعناه فيه» . لكن بعضهم الآخر قال : «بِئس الرّأي ، فالمسافة قصيّة وإن عُدنا الآن تباعَد بيننا وبين منازلنا . لنأخذنّ الفتى إلى مصر ، وبمقدورنا أن نبيعه هناك ، وبثمن بالغ» .
فوقع هذا الرأي موقع القبول لدى أغلبيّة القافلة ، وحملوا يُوسيف معهم إلى مصر .

أما بنو يعقوب فلمّا باعوا أخاهم أنّبهم ضميرهم ، وتمنّوا استرداده شراءً ، ولكن على اعتبار مبيعه الثاني أخفقوا في العثور عليه . وبينما كانوا يفتّشون عنه عاد رَؤبين إلى البئر الذي طُرح فيه يُوسيف ، بُغية أن يخلّصه ، فوقف عند حافّة البئر ، لكنه لم يسمع صوتاً ، فصاح : «يا يُوسيف ، يا يُوسيف !» ، لكنه لم ينل جواباً إلا الصّمت . فارتاع رَؤبين ، وظنّ أن يُوسيف قد مات من الخوف ، فنزل إلى البئر ، آملاً أن يكون جسده لم يفارق الحياة تماماً . ولمّا ألفى البئر خاوياً مزّق ثيابه وصاح[1] : «كيف أمضي الآن إلى أبي ؟! كيف لي أن أنظر في وجهه ويُوسيف قد مات ؟!» .

ورجع مُسارعاً إلى إخوته ، فألفاهم يتشاورون حول كيف يخبرون أباهم بفَقد يُوسيف . فعنّف رَؤبين إخوته وقال لهم : «بِئسَ ما صنعتُم ، ستُودون بأبيكم الشيخ إلى التّهلُكة» . واتّفق الإخوة على إبقاء مصير يُوسيف سرّاً بينهم ، وعملوا بمشورة يِسّاكَر ، فأخذوا قميص يُوسيف وخَرّقوه في مواضع عدّة ، وذبحوا جَدياً من المَعز وغَمَسوا القميص في دمه ، ثم عفّروه بالتّراب .

(1) عودة هنا إلى تقابل النصّ مع فحوى التُّوراه (تكوين – 37 : 29-30) .

وبَعَثوا بالقميص على يد نَفتالي فأنفذوه إلى أبيهم ، وكلّفوه أن يسلّمه له قائلاً : «ها نحنُ جمعنا مواشينا فتوجّهنا إلى درب شِكيم ، وهذا القميص وجدناه في طريقنا بالبرّيّة ممزّقاً ومُلطّخاً بالدّم ومعفّراً بالتّراب . فنلتمس منك أن تفحصه وأن تُثبته ، أقميصُ ابنك هو أم لا ؟» .

فأثبت يعقوب قميص يُوسيف على الفور ، وسقط بوجهه إلى الأرض ، ولبث بلا حراك مدّة طويلة ، ثم قام ينتحب بملء صوته : «قميصُ ابني هو» . وبنواحي العشيّة أرسل يدعو أبناءه ، فوجدهم الرّسول بثياب ممزّقة وقد حثَوا التّراب على رؤوسهم . فلمّا جاؤوا البيت آلمت قلوبهم لوعات أبيهم المريرة ، لكن إذ أنّبهم ضميرهم جعلوا يُنكرون رؤية يُوسيف ، وأعادوا على أسماعه قصّة عثورهم على القميص .

واسترسل يعقوب في نُواح شديد ، ومكث ووجهه إلى الأرض . فرفع يِهوداه رأس أبيه ومسح من عينيه الدّموع ، غير أن يعقوب أبى السّلوى عمّا هو فيه ، وقال : «وَحشٌ ضارٍ افترس يُوسيف ، سوف لن أراه أبداً بعد اليوم» . وناح على يُوسيف سنين كثيرة .

وحمل اليشْمَعيليّون يُوسيف إلى مصر ، فلمّا قاربوا مشارفها صادفوا أربعة رجال من نسل مِدان מדן ، وهو ابن أبرَهام وقِطُوْراه קטורה ، فقالوا لهم : «أتشترون منّا هذا العبد ؟» ، فرأى الرّجال يُوسيف فتىً وسيماً طَلق المُحيّا ، فاشتروه من اليشْمَعيليين بتسعة شواقل وحملوه إلى مصر . ثم قال المِدانيّون : «هو ذا فُوطيفَر פוטיפר وزير فَرْعُوه פרעה [فرعون] رئيس حرسه[1] يبتغي شراء عبد فتيّ أمين ونجيب ليقوم بأمور بيته . فلنحاول بيع هذا الفتى له» .

فحمل المِدانيّون يُوسيف إلى فُوطيفَر ، فأعجب هذا الأخير بشكل يُوسيف ومواصفاته ، وسألهم : «كم ثمنه ؟» ، قال المدانيّون : «أربع قطع من الفضّة» . قال فوطيفَر : «أشتريه إذاً ، شريطة أن تأتوني بالرّجل الذي ابتعتوه منه . فهو لا يبدو عليه سيماء العبيد ، وأخشى أن يكون مسروقاً من بلاده ومن بيته» .

---

(1) سفر التكوين (39 : 1) : סריס פרעה שר הטבחים : خصيّ فَرْعُوه رئيس الحرس .

فأحضر المدانيّون اليشمَعيليين الذين منهم ابتاعوا يُوسيف ، واقتنع فوطيفَر برواياتهم للصّورة التي حازوا بها مُلكيّة الفتى ، فدفع القطع الأربع من الفضّة ، واشترى يُوسيف عبداً له .

ووجد يُوسيف نعمةً في عيني فوطيفَر ، فكُلّف بقوامة بيته وممتلكاته كلّها . وكان الرّبّ مع يُوسيف ، ومن أجله بارك فوطيفَار وأهل بيته جميعاً . وعند ذلك كان يُوسيف في حوالي الثامنة عشرة من العمر ، وكان فتىً حَسَن الهيئة وجميل المنظر لا نظير لحُسنه في أرض مصر . فلمّا كان مُلزَماً من خلال واجباته بالتنقّل في أركان بيت سيّده جميعها بحريّة تامّة ، لَفَتَ أنظار زِليْخاه זליחה امرأة فُوطيْفَر . فافتُتنت المرأة بمحاسن جسده وجمال وجهه ، وراحت تبوح له يوماً بعد يوم بحبّها له وترجوه أن يُبادلها ما تكنّه له من شعور . فأحجم يُوسيف عن الاستماع إليها ، وجهد أن يجنّب نفسه هذا الاهتمام منها . ولمّا قالت له : «ما أجملك من فتىً ، إنه لا نظير لحُسنك في هذه الدّنيا» ، أجاب : «مَن خلَقني خلَق العالمين أجمع» . ولمّا تغزّلت بملاحة عينيه أجاب : «وبِمَ تراهما ينفعانني إذا صرتُ إلى رمسي وخَبَا فيهما النّور والحركة ؟» .

فلمّا ألفت زليخاه يُوسيف غير آبهٍ ولا مُكترث بكلامها المعسول ولا يُذعن إلى تدنيس بيت سيّده ، راحت تهدّده بالموت والسّجن إن هو تمادى في تمنّعه ، لكن يُوسيف ردّ ذلك بقوله : «مَن خَلَقَ الإنسان يفكّ قيد المأسور ، وهو الذي يُنجيني من عقابك» .

وكانت صاحباتها اللواتي يزُرنها يأخذهنّ الإعجاب أيضاً بيُوسيف ، ويُطرين حُسنه . وفي إحدى المرّات لمّا وُضعت الفواكه أمام الزّائرات ، راحت إحداهنّ تقشّر فاكهةً فجرحت إصبعها دون أن تشعر بما جرى ، إلى أن لفت نظرها تقاطر الدّم على ثوبها ، إذ كانت عيناها زائغتين بيُوسيف ، وخيالها مأخوذاً برونق حُسنه وبهائه[1] .

---

(1) هذه الحكاية لا ترد في التُّوراه ، إنما هي أيضاً مثال على الحواشي التفسيرية الأجَدائيّة (من الأجَداه) الواردة في التّلمود . وهنا ننبّه إلى أهمّية تتبّع قصص الأنبياء الواردة في سفري تُوراه ونبيئيم على ما يكملها في التراث الشفوي التّلمودي ، استكمالاً للرّواية .

ومَضَت الأيام ، ورغم إلحاح زليخاه استمرّ يُوسيف مُعرضاً عن غوايتها . وحدث أنه في وقت وفاء النّيل خرج أهل مصر جميعاً من بيوتهم ، بما فيهم الملك والأمراء والشعب بأسره ، للفرجة على وفاء النّيل وللاحتفال بالعُطلة تكريماً له . فمثل غيرهم من أفراد الشّعب ، خرج أهل بيت فُوطيْفَر أيضاً ، ما خلا يُوسيف الذي مكث حارساً لممتلكات سيّده ، بالإضافة إلى زليخاه التي مكثت بنيّة الانفراد بيُوسيف .

لبست زليخاه أفخر أثوابها ، وراحت تُغوي يُوسيف بتحرُّق أكثر من ذي قبل ، فلكي يُفلت من أهوائها استدار وانسلّ على حين غرّة من بين يديها . فلمّا فعل ذلك أمسكت بثوبه لتُبقيه أمامها ، فانشطر الثّوب وبقيت منه قطعة في يدها . فلمّا أبصرتها ، ووَقَرَ في مُخيّلتها مقدار المذلّة التي قُوبلت بها ، حلّ في قلبها كُره عظيم ، كما أنها خافت أن ينمي خبر القصّة إلى زوجها . فسارعت إلى استبدال ثوبها الفخم بلباسها المعتاد ، ونادت بفتىً ليُحضر رجال البيت . فلمّا وصلوا لاقتهم بالصّياح والنّواح ، وقصّت عليهم حكايةً عن وقاحة يُوسيف ، فنسبت إليه باطلاً فِرية التحرّش والمُراودة عن النّفس ، ممّا صدر عنها هي في الواقع ، وزادت على ذلك تُهمة الإرغام بالقوّة ، فقالت : «أمسكتُ بثيابه ورفعتُ صوتي وصرختُ ، فخاف وانهزم عنّي ، فبقيت هذه المِزقة من ثيابه بيدي» .

فروى الرّجال هذه الافتراءات لفُوطيفَر ، فأتى بيته يقدُمه شرّ مستطير تلقاء يُوسيف ، وأمر على الفور بجلد الفتى بقوّة . وأثناء إيقاع هذه العقوبة به ، بكى يُوسيف بقوّة ، ورفع رأسه إلى السّماء متضرّعاً : «تعلم يا الله علم اليقين أنني بريء من هذه الادّعاءات كلّها ، فكيف أُقتل الان زوراً وبُهتاناً ؟» .

وقدّم فُوطيْفَر يُوسيف أمام القُضاة ، فادّعى عليه قائلاً : «هذا العبد فعل كذا وكذا» . فاستنطق القُضاة يُوسيف ، فأدلى بروايته عن الحادثة قائلاً : «لم يكن الأمر هكذا ، إنما حصل كذا وكذا» . فأمر القُضاة عندها بجلب الثّوب الممزّق إليهم ، ولدى فحصه حكموا ببراءة يُوسيف . لكنهم مع ذلك أشخصوه إلى السّجن ، درءاً من مغبّة التّشهير بامرأة شخص من مستوى فُوطيْفَر .

وأُودع يُوسيف السّجن اثنتي عشرة سنة مديدة ، وفي خلال هذه المدّة زارته زليخاه ، فوعدته أن تردّ إليه حرّيته وكرامته إن هو نزل عند رغباتها . لكنه رفض بثبات ، إلى أن كفّت أخيراً عن وطرها . وفي حين كان يُوسيف محبوساً على هذا الشكل ، محروماً من حرّيته ، كان أبوه يعقوب في أرض كنعان ينوح عليه نواح أب فرّقه الموت عن ابنه الحبيب .

* * *

وحدث في ذلك الحين أن فَرْعُوه [فرعون] أقام عيداً لوزراء مملكته وأمرائه[1] ، وكان رئيس السّقاة ورئيس الخبّازين قائمَين على خدمة المدعوّين . فوجد الأمراء في الخبز نُحاتة حجر الطحن ، ولقي أحدهم في الخَمْرَة[2] ذُبابةً . فسخط فَرْعُوه لذلك سخطاً شديداً ، وأمر بالاثنين إلى السّجن ، فمكثا فيه حَولاً كاملاً .

ثم وُلد لفَرْعُوه ابن ، وكان بكراً له ، فعمّت الفرحة البلد . ولمّا كان الطفل في يومه الثالث أمر فَرْعُوه بإقامة مأدبة هائلة ، وأمر بإخراج رئيس السُّقاة لحضورها . لكن السّاقي نسي وعده ليُوسيف بأن يذكُره إن ردّه فَرْعوه إلى مكانته كما عبّر له ، فكان أن مكث في سجنه عامين آخرين .

في ذلك الحين ، كان يصحاق بن أبرَهام ما زال مُقيماً في أرض كنعان ، وعمره مئة وثمانية أعوام . وكان عيْسَو ابنه مُقيماً في إدوم . فلما علم عيْسَو أن أباه قد هرم وضعف بدنه ، وبأن أيّامه على الأرض باتت معدودة ، رحل إلى كنعان إلى بيت أبيه ، هو وأهل بيته بأكملهم . وكذلك رحل إلى هناك يعقوب وأبناؤه من حِبْرُون ، وكان يعقوب ما يزال نائحاً على يُوسيف الفقيد .

---

(1) قابل على التُّوراه : تكوين – الأصحاح 40 .

(2) الخَمْرَة كلمة آرامية : חמרא حَمرا ، معناها : الحمراء كما يدل مبناها ومعناها ، دخلت العِبْرية بنُطق الحاء خاءً – والخاء في العِبْرية أصلها كاف أو حاء – فسُمّي بها النّبيذ من باب التّكنية عن لونه . بينما في قواميس العربية راج تفسير مصدرها من الخِمار أي الغطاء ، بمعنى أنها تحجب العقل ، فأيهما يلوح أقرب إلى تلقائية المنطق وبداهة المعنى ؟ يتفق فُقهاء اللغة على أن تسمية الأشياء والآلات والأماكن لا تنجم عادةً عن قصة مطوّلة ذات أركان وحواش ، بل عن معنى أو وصف بسيط تلقائي لا تعقيد فيه .

وقال يصحاق ليعقوب : «أدْنِ أبناءَك منّي كي أباركَهم» . فأدنى يعقوب أبناءه الأحد عشر وابنته الوحيدة إلى جانب أبيه . ووضع يصحاق يده على رؤوس بني يعقوب واعتنقهم واحداً إثر الآخر ، قائلاً لهم : «إله أبيكم مُباركُكم ونسلكم يُكثّره بعدد نجوم السّماء» .

وبارك يصحاق أيضاً أبناء عيْسَو قائلاً : «مهابتكُم تحلّ في قلوب أعدائكم ، ويملأ إلهكم قلوبهم رُعباً» . ثم دعا يصحاق بهم أجمع ، أبناءً وأحفاداً ، وخاطبهم ، موجهاً كلامه بالخصوص إلى يعقوب : «إن الرّبّ إله الكون كلّمني فقال : «لنسلك أعطي هذه البلاد ليملكوها ، إن التزم أبناؤك شريعتي وطُرُقي . وأقيم العهد الذي قطعتُه لأبيك أبرَهام» . والآن يا بُنيّ ، فلتعلّم أبناءك وأبناء أبنائك مخافة الرّبّ وأن يسلكوا الطريق الذي يرضيه ويحسُن في عينيه . لأنكم إن ثابرتم على شريعته سوف يُعطيكم العهد الذي بذله لأبرَهام ، ويجتبيكم أنتم ونسلكم إلى أبد الدّهر» .

ثم مات يصحاق ، فبكي يعقوب وعيْسَو معاً لوفاته . وحملا جثمانه إلى مغارة مَكفِلاه מערת המכפלה التي في حِبْرُون ، وانضمّ ملوك كنعان جميعهم إلى وفود النائحين في جنازة يصحاق . فدُفن بتشريف كبير ، كما لو أنه كان من الملوك . وناح عليه أبناؤه اثني عشر شهراً ، بينما أقام ملوك كنعان عليه الحُزن ثلاثين يوماً .

وكان يصحاق قد أوصى بحلاله ومُمتلكاته كلّها إلى ابنيه . فقال عيْسَو ليعقوب : «ها هو ما تركه لنا أبونا ، وينبغي أن نقتسمه حصّتين ، وسوف أنتقي حصّتي» . فقسّمَ يعقوب ممتلكات أبيه كلّها إلى حصّتين بحضور عيْسَو وأبنائه ، ثم خاطب أخاه قائلاً : «خُذ لنفسك الحصّتين اللتين تراهما أمامك . إذ أن إله السّماء والأرض كلّم كلاً من والدينا أبرَهام ويصحاق قائلاً : «لنسلك أعطي هذه الأرض ميراثاً أبديّاً» . والآن فكلّ ما خلّفه أبونا هو أمامك ، فإن رغبتَ بالملك الموعود – أي أرض كنعان – فخُذه ، ويكون هذا الميراث الآخر من نصيبي . أو إن شئتَ هاتين الحصّتين ، فليكن لك كما يحسُن في عينيك ، وتكون أرض كنعان حصّتي ومُلكاً لي» .

فقبل أن يجيب عيْسَو ويقوم بالاختيار ، قصد نِبايوت נביות بن يِشْمَعيل ، الذي كان في تلك الدّيار آنذاك ، وطلب منه الرّأي في ما يختار . فأجابه نِبايوت : «ها هم الكنعانيّون الآن مقيمون في البلاد بسلام وأمان ، فهي في الوقت الحاضر مُلك لهم . دَع يعقوب يظنّ نفسه وارثها يوماً ، ولتأخذ أنت تركة أبيك وثروته الشخصيّة» .

فاتّبع عيْسَو هذه النّصيحة ، وإذ أخذ الممتلكات الشخصيّة أعطى ليعقوب حصّته أرض كنعان من نهر مصر إلى النّهر الكبير نهر الفُرات ، وكذلك مغارة مَكفِلاه في حِبْرُون ، التي اشتراها أبرَهام من عِفْرُون بن صُحَر עפרון בן־צחר [1] للدّفن . فأخذها يعقوب لتكون مدفناً له ولنسله إلى الأبد . فحرّر يعقوب صكّاً ودوّن فيه تفاصيل العَقد جميعها ، وتمّ توقيع الشّهود عليه وخَتمه . وهذا هو نصّ الصّك :

«أرض كنعان وجميع المُدُن التي تضمّ : الحِثّيين ، والحويّين ، واليَبُوسيين ، والأموريّين ، والفِرزّيين ، والأمم السّبع جميعها ، من نهر مصر إلى نهر الفُرات . وكذلك مدينة حِبْرون ، التي هي قِريَت أربَع קרית ארבע ، والمغارة التي بها . وهذا ما اشتراه يعقوب بالمال من أخيه عيْسَو ، مُلكاً له يورّثه من بعده لأبنائه وأحفادهم إلى الأبد» .

وأودع يعقوب هذا الصَّكّ حُقّاً من فخّار لكي يبقى محفوظاً ، ووضعه في يد أبنائه بمثابة حُجّة لهم .

فأخذ عيْسَو كل ما خلّفه أبوه ، ورحل عن أخيه يعقوب ، كما هو مكتوب في التُّوراه : «وأخذ عيْسَو نساءه وبَنيه وبناته وكلّ نفس في بيته ، وماشيته وكل بهائمه وسائر مُقتناه الذي اقتنى في أرض كنعان ، وانتقل إلى أرض أخرى من وجه يعقوب أخيه» (تكوين – 36 : 6) . ورحل بكل مُقتناه إلى أرض سعير שעיר فلم يرجع مُطلقاً إلى أرض كنعان ، التي غَدَت ميراثاً أبدياً ليسْرَئيل .

* * *

(1) انظر التُّوراه : تكوين – 23 : 8–9 .

ثم إن الذي كان من أمر فَرْعُوه [فرعون] أنـه أصـدر بلاغـاً عبر أرض مصـر كلّها لجميع ما فيها من حُكماء . ودعاهم للمثول بين يديه ، والاستماع إلى الحلم الذي أزعجه . فقال : «مَن أمكنه أن يعـبّر لـي معنـى هـذه الرّؤيا بشـكل صحيـح أعطيتُه كلّ ما تشتهي نفسه ، كائناً ما كان . أمّا مَن كان يقدر علـى تعبير الأحـلام ولا يُطابق أوامري ، أمرتُ به فيُعدم بلا مُراجعة» .

فأتى كل مَن في أرض مصر من حُكماء وعرّافين وسَحَرة ، ووقفوا بين يـدي الملك . فروى لهم الملك حُلمه ، وبرغـم كـثرة التعبيرات التـي طُرِحـت لـم يتّفـق منها اثنان قَطّ على معنى واحد . وراح بعضهم يُناقض الآخر ، فلم يزيدوا الملـك إلا حيرة على حـيرة . وتعـدّدت التعبيرات للغاية ، فمنهـم مَـن قـال : «البقـرات السّبع السّمان سبعة مُلوك يحكمون عرش مصر من نسل الملوك ، والبقرات السّبع العجاف سبعة أمراء يُولدون لهم ، ثم في عاقبة الأمر يُهلكون الملوك السّبعة . أمـا السّنابل السّبع الجياد فهي سبعة أمراء عظام من هذه البلاد ، يقعون في الأيام التاليـة بالحرب في أسر سبعة أمراء ، هم الآن ضعاف ولا يُؤبَه لهم» .

فيمـا قـال آخـر : «بـل البقـرات السّبع السّمان هـنّ سـبع ملكـات سـوف تتزوّجهنّ في الأيام التالية ، والبقرات السّبع العجاف تدلّ على أن أولئك الملكـات سوف يمُتن خلال مدّة حُكمك أيّها الملك ! أما السّنابل السّبع الجياد والسّبع الدّقاق فهـنّ أربعـة عشر ابنـاً سـيولدون لـك ، وسـوف يقتتلـون فيهـزم السّبعة الضعـاف إخوانهم السّبعة الأقوياء» .

غير أن الملك لم ترُق له هذه التّفاسير كلّها ، وأقام كاسفاً مضطـرب البـال ، لأن الرّبّ قدّر ليوسف أن يتمّ إطلاق سراحه مـن السّجن وأن يرتقـي إلـى منصب رفيع . ولهذا الشأن بقي فَرْعُوه غير راضٍ بكلام حكمائه .

وازداد حنق الملك ، فصرف الحكماء من حضرته ، وخرج من أمامه جميـع حكماء مصر وعرّافيها وسَحَرَتها يُجرجرون أذيـال الخيبة . وأمـر الملـك في فـورة غضبه بهؤلاء جميعاً أن يُقتّلوا . فلمّا سمع بذلك رئيس السُّقاة التمـس المثـول بـين يدي الملك ، وتكلّم أمامه بعين الخضوع قائلاً :

«أيها الملك فلتعش إلى الأبد ! وليدُم عزّك أيها الملك على البلاد كلّها دائماً وأبداً ! كُنتَ مرّة غاضباً على خادمك ، فأمرتَ بحبسه ، سنةً كاملة أمضيتُها في السّجن ، أنا ورئيس الخبّازين . وكان معنا هناك في زنزانتنا خادم عِبْري يتبع بيت رئيس الحرس . كان اسمه يُوسيف ، وإذ غضب عليه سيّده أودعه السّجن ، حيث راح يخدم رئيس الحرس ويخدمنا أيضاً .

«وحدث لمّا كنّا نمضي هذه السّنة في السّجن أننا رأينا كلّ منّا حُلماً ، فعبرّ لنا العبد العِبْري لكل واحد منا حسب حُلمه . فكان كما عبّر لنا الحلمين وكما تكلّم جرى ووقع في الحقيقة .

«لذلك يا سيدي الملك ، أرجوك ألا تقتل حكماء مصر سُدىً . وها هو العبد ما برح في السّجن ، فإن حَسُن في عينيّ الملك فليُستدعى إليه . وليستمع إلى الأحلام التي أرّقت بال الملك ، وإنّه لقادر على تعبيرها بوجه الصّواب» .

اعتبر الملك بكلام رئيس السُّقاة ، فأمر بإحضار يُوسيف إليه . لكنه أكّد على مُقدّميه وجوب الانتباه إلى عدم إفزاع الفتى ، مخافة أن يحول الخوف بينه وبين تعبير الحُلم بشكل صحيح . فذهب خدم الملك وأحضروا يُوسيف من زنزانته ، واحتلَق وأبدلوه ثياباً جديدة وأخذوه للمثُول بين يدي الملك . وكان الملك يجلس على عرشه ، فدُهش يُوسيف وانبهر بمرأى الجواهر التي تزيّن عرشه إذ راحت تبرق وتلتمع .

وكان يؤدّي إلى عرش الملك سبع درجات ، وكان العُرف في مصر أنه إن مَثُل أمير أو واحد من الأعيان بين يدي الملك ، أن يصعد إلى الدّرجة السادسة . وأما إن طُلب رجلٌ أدنى أو مواطن عادي من الأهلين للمُثول أمامه ، ينزل الملك إلى الدّرجة الثالثة ويخاطبه منها . ولهذا لمّا جُلب يُوسيف إلى حضرة الملك ركع إلى الأرض عند أدنى العرش ، فنزل الملك إلى الدّرجة الثالثة وكلّمه فقال :

«إنني قد رأيتُ حُلماً ، ومن بين حكماء البلد وسَحَرَته لم يكن ثمّة مَن يعبّره لي . وقد سمعتُ عنك أنّك واسع البصيرة وتنعُم بمزايا ربّانيّة ، فأرسلتُ في طلبك كيما تُعبّر لي حُلمي» .

فقال يُوسيف : «أيها الملك ، لا بعلمي وقوّتي ، بل الله يُجيب ويُعطي فَرْعُوه السّلام» . ووجد يُوسيف حُظوة في عيني الملك ، وأنبأه بتعبير حُلمه . وكانت رُوح الله مع يُوسيف ، فراح الملك يُصغي بكامل جوارحه ونفسه إلى كلام يُوسيف .

فقال يُوسيف لفَرْعُوه : «لا يبدُرنّ في ظنّ الملك أن حُلميه اثنان منفصلان ومختلفان ، بل إنهما يُنبئان عن نذير واحد ، وما ينوي الرّبّ فعله بالأرض إنما يُكاشِف به فَرْعُوه في رؤياه . فاسمح لي أن أفيدك أيّها الملك حول الطريقة التي تُنجي بها حياتك وحياة سكّان بلادك بأسرهم من شرور المجاعة الرّهيبة التي ستحلّ قريباً فتُنضب البلاد وتُتلف خصوبتها . فلينظر الملك رجلاً حكيماً فهيماً يُقيمه على البلاد ، يكون عارفاً بشؤونها ، وليُعيّن هذا دونه وكلاء فيذرعون طول البلاد وعرضها لجمع الطعام في سنيّ الخير ، ويخزّنونه بعناية للسنين القادمة ، فلا تنقرض البلاد في سنيّ المجاعة التي تأتي . وليشرّع الملك لأهل البلاد بأن على كل واحد فيهم أن يجمع من نتاج الأرض ويخزّنه في سني الخير ، لكي يكون ذخيرةً له عندما تنضُب الزّروع وتُمحل الأرض» .

فأجاب الملك : «وكيف جزمتَ أن تعبيرك للحُلم صحيح ؟» ، فأجاب يُوسيف : «ثمّة علامة على صدق كلامي . سيُولد للملك ابن ، وفي يوم ولادته يموت ابنك البكر ، الذي عمره الآن سنتان» . وعقب أن أتمّ يُوسيف خطابه ، ركع للملك وانصرف من حضرته .

وحدث أن الواقعة التي تنبأ بها يُوسيف جرت بالفعل . فلقد ولدت الملكة ابناً ، وفي اليوم الذي حُملت به البشارة إلى الملك أصابه سرور بالغ . ولكن ما إن خرج البشير بها ، حتى ألفى خُدّام الملك ابنه البكر ميتاً ، وكان هناك بكاء وعويل عظيمين في قصر الملك . فلمّا سأل الملك عن سبب البكاء والصّياح قيل له عن الفاجعة ، فتذكّر كلام يُوسيف وأقرّ به مصدّقاً ما فيه[1] .

---

(1) هذه الرّواية عن صدق يوسيف وموت ابن فرعون البكر ليست في التُّوراه ، بل ينفرد بها التّلمود . راجع نصّ التّوراه : تكوين - الأصحاح 41 . وهذا مثال آخر على الحواشي التفسيرية ، لكننا في القسم الثاني من كتابنا سنشرح آلية هذه الحواشي أكثر .

بعد هذه الأمر دعا الملك بأمرائه ومُقدّميه وأعيان دولته وجمعهم بأسرهم ، فلمّا مثلوا بين يديه قال لهـم : «قـد شـهدتُم وسـمعتُم مقالـة هـذا الفتـى العِبْري ، وتعلمون أنّه كما تكلّم قد جرت الأحـداث . لذلـك فعلينـا أن نصـدّق بـأن تعبيره الحُلمي هـو الصّحيـح ، وبـأن نصائحه ذات شـأن واعتبـار بـالغين . ينبغـي لنـا أن نتأهّب استعداداً لهذه المجاعة التي ستحلّ بنا لا محالة . لذلك فـإني أطلـب إليكـم أن تلتمسوا لنا عبر مصر كلّها رجلاً ذا حكمة ومعرفة في قلبه ، لنُقيمه حاكمـاً علـى البلاد» .

فأجابوا الملك : «إن نصائح العِبْري قيّمة للغاية ، فطالما أن البلاد في يد الملك يفعل بها مـا يحسُـن في عينيـه ، وطالما أن العِبْري أثبـت حكمتـه وحُذقـه ، فلـمَ لا يختاره مولانا الملك ويُقيمه حاكماً للبلاد ؟» . فقال الملك : «نعم ، بـالفعل . إن كان الله أعطى علم هذه الأمور للعِبْري ، فإذاً ليس فينا مَن هو أكـثر حكمـةً وفهمـاً منه . فما اقترحتموه يوافق ما يجول بفكري . سنعيّن العِـبْري حاكمـاً لنـا ، ومـن خلال حكمته سوف تنجو بلادنا من مخاطر العَوز والفاقة» .

فأرسل فَرْعُوه في طلب يُوسيف ، وقال له : «قـد نصحتَنـي أن أعيّـن رجـلاً حكيماً فهيماً ليجنّب البلاد مغبّة المجاعة . ولا ريـب أنـه ليـس فهيـمٌ حكيـمٌ مثلـك بعدما عرّفك الله هذه الأشياء كلّها . واسمك لا يكـون بعـدُ يُوسـيف ، بـل يكـون «صافِنَتْ فَعْنِيَح» צפנת פענח (كاشف الخفايا)[1] ، وبه تُدعـى بين النّـاس . ولا يكونُ أعلى منك يداً في المملكة غيري أنا فَرْعُوه ، وبحسـب كلماتك تجـري أحكـام مصر . ولا يكون فيها أعلى منك إلاّي بعرشي هذا» .

---

(1) انظر التُّوراه : تكوين – 41 : 45 . أما في الترجمات العربية للتُّوراه عن الترجمة السّبعينية العتيدة ، فترد العبارة : «مُخلّص العالم» في الترجمة الكاثوليكية ، أما في البروتستانتية : «صَفْنَات فَعْنيحَ» ، مما دلّ على جهل التراجمة المطلق باللسان العِبْري ، إذ حركوا الحاء في الكلمة الثانية بالفتحة ومن قبلها ياء ساكنة . أما القاعدة العِبْرية في هـذه الحالـة (برغـم إثبات اليَتاح فعلاً على الحيت) أن الحاء الأخيرة المحركة بيَتاح ويسبقها حرف يُود أو حركـة صيري تُلفظ : ـيَحْ ، ككلمة : مِفْتِيَح . ويتمـاثل مـع ذلك قـاعدة اسـم نُـوَح أعـلاه . والتسمية العِبْرية المذكورة تُلفظ بالإشكنازيّة : «تْسـافِنَت پـاْنِيَّخ» . وفي العِبريـة : צפן يعني : أخفى ، خبّأ ، ستر . أما פענח فيعني : حلّ ، فسّر ، فكّ المغاليق .

ثم خلع الملك خاتمه من إصبعه وجعله في يد يُوسيف ، وألبسه حُلّة ملكيّة وجعل على رأسه تاجاً وطوّق عنقه بسلسلة ذهبيّة . وأمر فَرْعُوه بإركاب يُوسيف في مركبته الثانية في أرض مصر بأجمعها . وتبعه الرّجال بالعزف والنّداء ، وكان يمضي وبصحبته حاشية كبيرة . فكان يقدُمه خمسة آلاف جندي وبأيديهم سيوف مسلولة تلتمع في نور الشّمس ، ثم يتبعه عشرون ألفاً . وكان أهل البلاد ، رجالاً ونساءً وولداناً ، يتفرّجون على الموكب من النّوافذ وأسطحة البيوت ، وحاز حُسن يُوسيف إعجاب عيون النّاظرين .

وكانت الزّهور تُنثر في طريقه حين يمشي ، ويُعطّر الجو بالأطياب وعَبَق البَلْسَم والبُخور . وكان يُعلَن ببيانات عن سُلطة يُوسيف في الأماكن البارزة ، ويُهدّد بالموت مَن لا يبذل أمامه فروض الطاعة . لأنّه كان يُعدّ من ضروب الإهانة للملك عدم تكريم نائبه الذي أقامه على مملكته . فكان النّاس يركعون أمامه ويصيحون : «عاش الملك ونائبه !» . أما يُوسيف ، فلمّا تربّع في عربته الملكيّة ، رفع طَرفه إلى السّماء وقال من أعماق قلبه : «هو الله يرفع الفقير من التّراب ، ومن الحَمأة يرفع المحتاج . يا ربّ الجيوش[1] אדני צבאות ، قد أفلح مَن آمن بك واتّكل عليك»[2] .

* * *

(1) اسم الله يرد في التُّوراه أيضاً بأشكال مغايرة ، سنبحثها في القسم الثاني من كتابنا . ومراراً ترد عبارة : إله الجيوش «إلوهيم صبؤوت» ، كما في مزامير داوِد (59 : 6) : «وأنت يارب إله الجيوش إله يسرَئيل» : ואתה יהוה־אלהים צבאות אלהי ישראל .

(2) هاتان الفقرتان الأخيرتان أكثرهما ليس في التُّوراه .

الفصل الخامس
مَجد يُوسيف ودخول يعقوب إلى مصر

وحدث مـن بعـد ذلـك أن يُوسيف رأى أسنات אסנת بنت فُوْطي فِرَع[1] פוטי פרע ، فكانت كدُرّة بين جميلات البلد ، فأحبّها واتّخذهـا زوجةً لـه . ولـم يكن يُوسيف تجاوز الثلاثين من عمره عندما تولّى هذا المنصب الرّفيع الكبير الشـأن . وابتنى لنفسه قصراً نفيساً تام المواصفات والملحقات ، فجاء على غاية الإتقان لدرجة أن ثلاث سنوات من الزّمـن لزمـت لإنجازه . وكـان الرّبّ مـع يُوسيف وضـاعف حكمته وفَهمـه ، وباركـه بطباع دمثة ونبيلـة فسرعان ما كسـب قلـوب أبنـاء البلاد ومحبّتهم .

وخلال سبعة أعوام ، كما كان تنبّأ يُوسيف ، ضاعف الرّبّ غلال مصر سبع مرّات . فعيّن يُوسيف مُقدّمين لجمع الوفر . وبنوا أهراءً ضخاماً كوّموا فيهـا القمـح خلال سبع سنوات الخير ، حتى بلغـت الكمّيـات المخزونـة حَـدّاً لـم يعد بالإمكـان إحصاؤه . وثابر يُوسيف ومقدّموه على الانتباه لدرء أهراء الحبوب عـن آفتـي العـثّ والعَفَن . وكذلك راح أهالي البلاد أيضاً يخزّنون الفائض من محـاصيلهم ، لكنهـم ما كانوا حريصين عليه ونابهين كفاية كما كان يُوسيف ومعاونوه .

أما امرأة يُوسيف فولدت له ابنين : مَنَشّيه מנשה وإفرايِم אפרים ، فعلّمهما أبوهما مُثابراً طريق الحق[2] . فاستمعا إلى كلامه ولم يحيدا عن طـرق التّهذيـب إلـى اليمين أو إلى اليسار . وشبّا فصارا فتيّين لامعين نابهين ، وكانا يلقيان من النّاس كل التشريف كما لو كانا من أبناء الملك ذاته .

---

(1) راجع التّوراه (تكوين – 41 : 45) : فوطي فِرَع كاهن أون כהן און .
(2) في سفر التكوين (41 : 51) أن يوسيف سمى بكره مَنَشّيه قائلاً : إن الله قـد أنسـاني جميـع شقائي وكلّ بيت أبي ، وسمّى الثاني إفرايم قائلاً : إن الله قد أنماني في أرض مذلّتي .

غير أن سنوات الخير السبع أتت إلى ختامها ، فأضحت الحقول مُمحلة وكفّت الأشجار عن حمل الثّمار ، وراحت المجاعة التي تنبّأ بها يُوسيف تُلقي بظلالها القاتمة وتهدّد بحلولها على الأرض التي كانت تُعرف بخصوبتها .

فلمّا فتح النّاس حواصلهم ، وجدوا مع أسفهم البالغ أن العثّ والعَفَن قد استغلاّ إهمالهم أيّ استغلال . فصاحوا بفَرْعُوه : «أعطنا طعاماً ، لا تدعنا نموت من الجوع أمامك نحن وأطفالنا ، أعطنا نرجوك من الوَفر المكدّس في أهرائك» .

فأجابهم فَرْعُوه : «لِمَ تتصايحون إليّ أيها المُهملون ؟ أما كان نبّهكم يُوسيف إلى المجاعة التي حلّت بنا ؟ فلمَ لم تستمعوا إلى كلامه وتطيعوا أوامره إليكم بأن تلزموا جانب الاقتصاد والحرص ؟» . قال النّاس : «وحقّ حياتك يا مولانا ، كما تكلّم يُوسيف قد فعلنا ، فرُحنا نجمع ذُرتنا خلال سنوات الخير ، ولكنّا لمّا حلّ فينا الجوع وأمحلت الأرض فتحنا صوامعنا فوجدنا العثّ قد أهلك المؤن التي كنّا آخذين في تخزينها» .

فلخشية الملك أن تكون استعداداتهم غير مُجدية في مواجهة آفة المجاعة ، أمر النّاس بالتّوجّه إلى يُوسيف ، وقال لهم : «أطيعوا أوامره ولا تعصوا كلامه» . فكرّر النّاس أما يُوسيف صياحهم طلباً للطعام ، كما كانوا فعلوا أمام فَرْعُوه . ولمّا سمع يُوسيف كلام النّاس وأدرك حاجتهم الملحّة للمعونة ، فتح أهراء الملك ، وراح يبيع المؤن للنّاس الجياع .

وراحت المجاعة تتفاقم وتزداد في أرض مصر ، وانتشرت في كنعان وأرض الفلسطينيين ، وفي الجانب الآخر من نهر الأردن . فلمّا سمع أهالي هذه البلاد بأن القمح متوفّر في مصر ، أتوا بأجمعهم إليها ليمتاروه ، مما ألجأ يُوسيف إلى تعيين العديد من المقدّمين لبيع القمح للحشد الهائل من النّاس .

وراح تفكير يُوسيف يتّجه إلى موطن أبيه ، وأدرك أن إخوته سيضطرون للمجيء إلى مصر لشراء الغذاء ، حيث أن المجاعة كانت شديدة في ديرتهم . ولذا قام بتوجيه الأوامر أنه لا يجوز لأحد ممن يرغب بشراء القمح أن يرسل خادمه بهذا الغرض ، بل على ربّ الأسرة الحضور شخصياً أو إرسال أبنائه . وأعلن أيضاً

بأن أمر الملك ونائبه ينصّ على أنه لا يجوز لأحد شراء القمح من مصر بغية بيعه والاتجار به في البلدان الأخرى ، إنما يقتصر حقّه على الحصول على القُوت القائم بأوَد أسرته وحسب . وكذلك فلا يحقّ لأي شارٍ ابتياع أكثر من حمل دابّة واحدة فقط من القمح .

وقام بتعيين حرّاس على مداخل مصر كلّها ، وكل من يمرّ عبر هذه المداخل كان ينبغي له تقييد اسمه واسم أبيه في سجلّ مخصّص ، ويتعيّن على الحرّاس جلب هذا السّجل في كل ليلة ليُوسيف كي يُراجعه . وخطّط يُوسيف لذلك كلّه بُغية أن يتثبّت من مجيء إخوته لشراء الغذاء . وتمّ تنفيذ هذه التعليمات بأسرها تماماً بحذافيرها .

فلمّا علم الآب אב يعقوب أن القُوت متوفّر للمبيع في مصر ، طلب إلى أبنائه السّفر إليها والتزوّد بمؤن غذائية ، حيث كانت المجاعة تتفاقم بشكل يُنذر بالخطر ، وخشي أن تعاني أسرته من عقابيلها . وأوصى يعقوب بنيه أن يدخلوا المدينة من مداخل عدّة ، حتى لا يُقابلوا بالرّفض بكمّية الشراء التي يرومونها ، ففعلوا ما أمرهم به .

وهكذا هبط بنو يعقوب إلى مصر ، وفي أثناء طريقهم فكّروا بأخيهم يُوسيف ، وراحت ضمائرهم تؤنّبهم على القسوة التي عاملوه بها ، فقال بعضهم للآخر : «ترانا نعلم بأن يُوسيف قد حُمل إلى مصر ، فالآن حينما نبلغ المدينة فلنبحث عنه ، فربما نقع على أخباره ، ونستردّه عندها من سيّده» .

هبط بنو يعقوب العشرة إلى مصر ، وكان بنيامين ليس معهم ، لأن أباه خشي أن يلحقه سُوء كما حصل لابن راحيل الآخر ، فأبقاه إلى جانبه في موطنه لم يبارحه . ودخل بنو الآب العشرة أرض مصر من عشرة مداخل مختلفة ، فدوّن الحرّاس الذين عند المداخل أسماءهم ، فأُرسلت مع سواها إلى يُوسيف في ختام النّهار . ولمّا قرأ يُوسيف الأسماء أمر بإغلاق الأهراء كلّها ما خلا واحداً ، وأمر أيضاً بحضور كل شارٍ أمام هذا الهُري لتقديم اسمه . وذكر أسماء إخوته قائلاً : «إن تقدّم أمامكم هؤلاء فقوموا بالقبض عليهم ، بأكملهم» .

فلمّا دخل بنو يعقوب المدينة التقوا ثانيةً ، وقبل أن يقوموا بشراء القمح قرّروا القيام ببحث مفصّل عن أخيهم . فزاروا جميع أماكن اللّهو العامّة ، وأماكن العبادة ، ولكن رغم متابعتهم البحث ثلاثة أيام لم يظفروا بطائل .

فلمّا انقضت الأيام الثلاثة ، ولم يظهر إخوة يُوسيف أمام الهُري ، تعجّب هذا الأخير لتأخّرهم ، وأرسل ستة عشر رجلاً من عبيده للبحث عنهم خفيةً في المدينة . فتمّ العثور عليهم بين ممثّلي المسارح المصريين ، وجُلبوا على الفور أمام نائب الملك .

كان يُوسيف جالساً على عرشه مُرتدياً حلّته الملكيّة ، وحوله مُقدَّموه ، لمّا مَثُل إخوته وركعوا أمامه إلى الأرض . فبُهروا للغاية لما رأوه أمامهم من هذا السّيد الباذخ صاحب الشّوكة ، بما عليه من حُسن وفخامة طلعة ، لكنهم لم يميّزوا فيه أخاهم .

فكلّمهم يُوسيف قائلاً : «من أين أتيتم ؟» ، أجابوا : «من أرض كنعان ، لكي نبتاع طعاماً ، فها هي المجاعة قد أثخنت في الأرض ، وقد علم عبيدُك أن القمح مطروح للبيع في مصر ، فقدمنا هنا لنمتار مؤناً لأنفسنا ومثلها لأهلينا» . لكن يُوسيف قال : «لا ، بل أنتم جواسيس ، وإلا ففيمَ دخولُكم المدينة من عشرة مداخل مختلفة ؟» ، أجابوا : «لا بل نحن سليمو القلب ، عبيدُك ليسوا قطُّ بجواسيس . بل عبيدُك إخوان بَنو رجل واحد ، وبأمره دخلنا المدينة مُنفصلين ، لأنه خشي أن مجيئنا معاً قد يلفت انتباهاً غير محمود» . لكن يُوسيف أصرّ : «بل أنتم جواسيس ، إنما جئتم لتجسّوا ثُغور الأرض . فكل امرئ يأتي لابتياع القمح يُتمّ عمله ويرحل ، أمّا أنتم فها لكم في المدينة ثلاثة أيام ، في الأماكن العامّة وبين الممثّلين . الأمر كما قلتُ ، أنتم جواسيس» .

أجابوا : «مَعاذ الله ، سيّدنا يسيء بنا الظنّ ، نحن اثنا عشر أخاً ، بَنو رجل في أرض كنعان ، يعقوب بن يصحاق ، حفيد أبرَهام العِبْري . هو ذا أخونا الصغير عند أبينا ، ونحن هنا عشرة ، والواحد مفقود لا ندري أين يكون . ظننا أنه ربما يكون في بلادك ، لذلك بحثنا عنه في الأماكن العامّة ثلاثة أيّام» .

سأل يُوسيف : «وما تُراه يفعل ابن يعقوب في هذه الأماكن العامّة ؟» . أجابوا : سمعنا أن اليشْمَعيليين قد باعوه في مصر ، ولمّا كان ذا مظهر بالغ الحُسن فقد وَقَر في ظنّنا أنهم قد يكونوا باعوه في أحد المسارح ، لذلك قصدنا تلك الأماكن راجين أن نعثر عليه ونستردّه» .

قال يُوسيف : «فلنفترض أنكم عثرتُم عليه ، وطلب فيه سيّده مبلغاً طائلاً من المال ، هلاّ كنتم حقاً مستعدّين لمثل هذه المطالب الفاحشة ؟» فأجاب الإخوة بالإيجاب ، وتابع يُوسيف : «لنفترض أيضاً أنكم عثرتُم عليه ، وأن سيّده رفض بيعه أو تسليمه إليكم بأي شرط كان ، فما أنتم فاعلون والحالة تلك ؟» .

أجابوا : «في هذه الحالة إن لم يُجد الرّجاء ولا بذل المال شيئاً ، سوف ننقذ أخانا بالقوّة . أجل ، ولو كلّفنا ذلك قتل سيّده والفرار به إلى بيت أبينا» . أجاب يُوسيف : «الأمر كما قلتُ إذاً ، ما أنتم إلا جواسيس ، فها أنتم جئتم تخطّطون بمؤامرات دنيئة لأذيّة سكان مدينتنا . لقد كنّا سمعنا وعلمنا كيف قتلتُم كل رجال شِكيم في أرض كنعان من أجل أختكم ، والآن تبغون معاملة رجال مصر بالطريقة ذاتها من أجل أخيكم . لكننا برغم ذلك كلّه سنمنحكم فُرصة لكي تُثبتوا حُسن نواياكم . فلترسلوا واحداً منكم إلى بيت أبيكم لتحضروا أخاكم الأصغر الذي كنتم ذكرتموه . فإن فعلتم ذلك علمتُ أنكم صادقون . ودُونكم ثلاثة أيام للتفكير بالأمر» .

وبناءً على أوامر يُوسيف ، تمّ احتجاز إخوانه في الحبس ثلاثة أيام .

بعد ذلك الحين اتّفق الإخوة على ترك واحد منهم بمثابة رهينة ، فيما يمضي الآخرون إلى كنعان للهبوط ببنيامين إلى مصر . ولذا قام مِنَشّيه بن يُوسيف باختيار شِمعُون كرهينة ، وتمّ الإبقاء عليه في الحبس .

وقبل أن يغادر الإخوة ، خاطبهم يُوسيف مرّة أخرى : «حَذارِ أن تنسوا أوامري ، فإن أحضرتم أخاكم إليّ علمتُ أنكم سليمو القلب ، ويكون لكم أن تتنقّلوا بحريّة في البلاد ، ولا أؤذي أخاكم بل يكون له حريّة الرّجوع معكم إلى بيت أبيكم بسلام» .

فركعوا إلى الأرض أمامه ، ورحلوا من أرض مصر . وفي أثناء رحلتهم إلى موطنهم توقّفوا بخان لإطعام حميرهم ، وفتح ليوي كيسه[1] ، وإذا به يعثر على الفضّة التي دفعها ثمناً للقمح في فم الكيس . فاستطار قلبه وأخبر إخوته بالأمر ، فبُهتوا هم الآخرون . ولمّا وجد كل واحد منهم فضّته عادت إليه ، صاحوا قائلين :

«ما فَعَلَ الله بنا ؟ أيستردّ الرّبّ منا الرّحمة التي بسطها لآبائنا ، إلى أبرَهام وإلى يصحاق وإلى يعقوب ، بأن يُسلمنا إلى أيدي أمير مصر فيهزأ بنا ويجعلنا أمامه أُلعوبة ؟» . فقال يهُوداه : «إنّه لحقّ ! أوَلَم نأثم[2] ونُخطئ أمام الرّبّ ؟ لقد بعنا أخانا ، لحمنا . فلمَ نتشكّى الآن من أن نِعَم الله التي أسبغها على آبائنا قد حُرمنا منها الآن ؟» .

وقال رَؤبين : «ألم أقل لكم لا تأثموا في الولد ؟ وأنتم لم تستمعوا لي ، فنحن مُطالبون بدمه . فيمَ قولكم إذاً : «أين هي تلك الرّعاية التي وعد الرّبّ بها آباءنا ؟» . الحقّ أننا بُئنا بالخُسران وضيّعنا حمايته» .

ثم قصّ الإخوة على أبيهم جميع ما نالهم في أرض مصر ، فقال لهم : «ما ذا الذي فعلتُم بي ؟ أرسل إليكم أخاكم يُوسيف للاستعلام عن أخباركم ، فلا أرى وجهه بعدها قطّ ، وتأتونني بقميصه المدمّى قائلين : «وحشٌ ضارٍ في البرّيّة افترس ابنك» . وشِمعون أوجّهه معكم لشراء الطعام ، فتقولون لي إنه محبوس في بلد لا رحمة فيه . ثم تبغون الآن أخذ بنيامين هو الآخر ؟ بيُوسيف وبنيامين تُنزلون شيبتي بحسرة إلى القبر . لا ينحدر ابني معكم» .

---

(1) عبارة الأصل : שק (سَق) كيس ، بينما في التُّوراه المعرّبة : جُوالق ، فارسيّة (جُوال) !

(2) استخدمنا هذه المُفردة (إثم ، يأثم ، أثيم) رغم أن لا علاقة لها بمجموعة اللغات المُصطلح على تسميتها بالسّاميّة ، وهي يونانيّة الأصل : ατιμια (اتيميّا) تعني : فُسق ، فُحش ، ذَنب . ويُشتق منها : ατιμος (اتيموس) : فاسق ، فاحش ، مُذنب . ولها في اليونانيّة اشتقاقات عديدة تدلّ على أصالتها فيها ، ثم إنها لا توجد في اللّغات السّاميّة قديماً بل دخلت العربية حصراً من اليونانية في زمن قديم (بالاحتكاك الثقافي واللغوي مع بيزنطة) فظُنّت فيها أصليّة . وفي العبرية : רשע (راشاع) : قاس ، شرير ، مُذنب . من فعل (راشَع) : أخطأ ، أساء ، أذنب . أما عبارة التّوراه فهي : חטא (خاطا) : أخطأ .

فقال رَؤبين : «حياة ولديّ أجعلها في يدك ، فإن لم نردّ إليك بنيامين سالماً آمناً ، تكون حياتهما تعويضاً للخسارة . لكن يعقوب عارضه قائلاً : «ولا حتى أنتم تهبطون مصراً من جديد ، بل تبقون هنا . وابني لا ينحدر معكم فيموت كما مات أخوه» .

فقال يهوداه لإخوته : «الآن لا تُلحفوا عليه بالطلب أكثر . بل دعوه حتى تنفد هذه المؤن ، فإن ألجأتنا الحاجة وعضّنا الجوع ترونه نزل عند رغبتنا» .

وحدث أنه عندما نفدت المؤن تقاطر الأحفاد حول يعقوب وتصايحوا به باكين : «أعطنا خبزاً !» . فتمزّق قلب يعقوب من المرارة لبكائهم ، واستدعى أبناءه فقال لهم : «ألستم تسمعون أصوات أبنائكم يبكون طلباً للطعام ؟ إنهم يصرخون بي باكين : «أعطنا خُبزاً» ، وليس لديّ ما أعطيه لهم . فأرجوكم اهبطوا مصراً وامتاروا لنا شيئاً من الطعام» .

فأجاب يهُوداه قائلاً لأبيه : «إن أرسلتَ معنا بنيامين مضينا ، وإلا فليس إلى ذلك سبيل . فملك مصر عاهل ذو بأس شديد ، لا نجرؤ على العبث معه . ونحن إن عُدنا إلى مصر وليس معنا أخونا الأصغر ، فإنه لَمهلكنا جميعاً . يا أبانا ليس في وسعنا أن نعصي هذا الملك ، فهو أعظم حتى من أبيمِلك الفلسطيني אבימלך הפלשתי . إنك لم ترَ ما رأيناه ، عرشه وقصره وحشود المقدّمين حوله ، ولم تتلمّس مثلنا حكمته وعلومه وفهمه . فقد باركه الله بمزايا فائقة ، وهو أعظم من كل الخلق قاطبة . لقد أنبأنا بأسمائنا ، وبما حدث لنا في سني شبابنا ، حتى أنه سأل عنك قائلاً : «أما زال أبوكم على قيد الحياة ؟ أأموره كلّها بخير ؟» ، وأنت لم تسمع عن سُلطته كما سمعنا ، فحكمه على النّاس ناجزٌ مُطلق ، فإن قال امضوا يمضون وإن قال تعالوا يأتون ، والنّاس رهن كلمته ، حتى بغير صوت سيّده فَرْعُوه . أوّاه يا أبي ، أرسل معنا الفتى ، فبدونه لا نستطيع المضيّ . وإن أبيتَ رأينا بأعيننا أولادنا يموتون من الجوع» .

فقال يعقوب متحسّراً : «لمَ أخبرتُم الرّجل أن لكم أخاً ؟ ألا بِئسَ وساءَ ما قد صنعتُم !» .

قال يِهُوداه : «سلّمني الفتى بيدي ، ودعنا نهبط مصراً ونبتاع القمح . فإن لم أُعده إليك آمناً فأنا مُذنب إليك طول حياتي . أطفالنا ينتحبون أمامك ، وليس لدينا ما نسدّ به رمقهم . فارحمهم وأرسل أخانا معنا . ألم تحدّثنا مراراً عن الرّحمة التي وعدك بها الله ؟ فإذاً هو يحفظ ابنك ويعيده إليك لم يمسسه ضُرٌّ . فلتدعُ الربّ من أجلك وتضرّع إليه أن يعطينا نعمةً وحظوة في عيني أمير مصر . وها نحن لو أننا ما مكثنا هنا طول هذه المدّة لكنّا الآن قد عُدنا بالطّعام . أجل ، كنّا عُدنا إليك مرّتين ، ومعنا ابنك سالماً آمناً» .

فأجاب يعقوب : «الرّبّ الإله يهبكم رحمةً في عيني ملك مصر ومُقدّميها . به آمنتُ وعليه اتّكالي . قوموا فامضوا إلى الرّجل ، ومعكم خذوا هدايا من أطيب فاكهة الأرض . الرّبّ يكون معكم ، وتعودون إلي بأخويكم بنيامين وشِمعُون» .

فقام بنو يعقوب وانحدروا ثانيةً إلى مصر . واصطحبوا معهم بنيامين ، كما أخذوا هدايا وكمية مُضاعفة من الفضّة . فودّعهم يعقوب قائلاً : «انتبهوا للفتى ، لا تُفارقوه لا في مصر ولا في أثناء الطريق» .

ولمّا رحلوا قَصَدَ حضرة الله القدير بصلاته داعياً : «يا ربّ ، يا إله السّماء والأرض ، أضرع إليك فلتذكُر عهدك إلى أبينا أبرَهام . وأضرع إليك أن تذكر حُسناك بيصحاق أبي ، فلأجلهما ترفّق بأبنائي ولا تُسلمهم لأيدي ملك مصر بالسّوء . أعدهم إلي ، أتوسّل إليك ، وأرجعهم سالمين مع أخويهم» . أما زوجات بني يعقوب وأحفاده ، فرفعوا هم الآخرون عيونهم وقلوبهم إلى السّماء بالبكاء قائلين : «خلّص يا ربّ آباءنا من ملك مصر» .

ووجّه يعقوب كذلك رسالة ، ليسلّمها أبناؤه ليدي يُوسيف ، وفيها[1] :

«من خادمك يعقوب بن يصحاق بن أبرَهام العِبْري . من أمير الله إلى الملك الحكيم ذي البأس صافِنَتْ فَعْنيَح ملك مصر ، سلامٌ لك» .

---

(1) هذه الرّسالة لا ذكر لها في نصّ التّوراه ، راجع سفر التكوين - الأصحاح 43 . ولدى المقابلة على نصّ التّوراه نجد في التّلمود عموماً زيادات تفسيرية كثيرة .

«يعلم سيدي الملك جيداً أن المجاعة قد أثخنت في أرض كنعان ، لذا قد وجّهتُ أبنائي إليك لشراء الطعام لقُوتنا . وقد كلّفتهم ألا يلجوا المدينة من المدخل ذاته ، لئلا يُثير دخولهم معاً انتباه الأهلين . فها قد أدّى التزامهم بأوامري إلى وقوعهم تحت ظنّك بكونهم جواسيس . فيا سيّدي ، أيعسر على رجل حصيف مثلك أن يستجلي الحقيقة من وجوه أبنائي ؟ لقد سمعتُ الكثير عن حكمتك وفهمك اللذين أبديتهما في تعبيرك لحُلمي فَرْعُوه ، وفي التنبّؤ بهذه المجاعة الشديدة . فكيف يجري إذاً أن تتّهم أبنائي ؟» .

«ها أنا مُحاطٌ بالأبناء ، وإني طعنتُ في السّنّ وشحّ نور عينيّ اللتين ما كفّتا عن ذرف الدّمع السّخين طوال عشرين عاماً حسرةً لفقد ابني يُوسيف ، وها أنا الآن أرسل إليك أخاه بنيامين كما أمرتَ . فإني لأرجوك يا سيّدي أن تترفّق به ، وتعيده إليّ مع إخوته ! إن جبروت الله طالما كان إلى جانبنا ، فهو يجيبُ صلاتنا ودعاءنا ولا يخيّب رجاءنا قطّ . فلتحمِ ابني القادم إليك ، والله ينظر إليك وإلى مملكتك بعين الرّضى والقبول . رُدّه إلي مع إخوته ، وكذلك شِمعون فلتردّه معهم سالماً» .

وهذه الرّسالة كُلّف بها يِهُوداه وسُلّمت إليه في يده .

وهكذا ، هبط بنو يعقوب مصراً ، ومعهم بنيامين والهدايا ، ووقفوا أمام يُوسيف . فأطلق يُوسيف شِمعُون من الحبس ، وجمعه بإخوته . وأخبرهم شِمعون بالمعاملة الطيّبة التي نالها مُنذ رحيلهم ، فقال : «لم أُقيَّد أو أُعامل كسجين ، لكنني أُخذتُ إلى دارة الحاكم فاستُقبلتُ بحفاوة كضيف» .

ثم أخذ يِهُوداه بنيامين وأحضره أمام يُوسيف ، فسجدا على وجهيهما أمامه إلى الأرض . وقدّم له الإخوة الهديّة التي أرسلها أبوهم إليه . فسألهم يُوسيف إن كان كل شيء على ما يرام بخصوص أولادهم وأبيهم الشيخ ، فأجابوه : «كلّهم في سلام» . ثم قدّم يِهُوداه رسالة أبيه إلى يُوسيف ، فتعرّف الأخير إلى خطّ أبيه ، وغلبته مشاعره فاستولت عليه ذكريات طفولته ، فما كان منه إلا أن انسحب إلى حُجرة جانبية وراح يبكي بمرارة .

ولمّا عاد إلى أمام إخوته ، تعلّقت أنظاره ببنيامين ابن أمّه ، وسأل : «أهذا أخوكم الصغير الذي ذكرتموه لي ؟» . ولمّا اقترب بنيامين منه ، وضع يُوسيف يده على رأس أخيه وقال : «يرأفُ اللهُ بكَ يا بُنيّ» .

ثم تملّك مشاعره وتجلّد وأمر مقدّميه بتقديم الطعام .

ثم لمّا صار الطعام جاهزاً أخذ يُوسيف بيده قدحاً[1] גביע ، وكان من الفضّة الخالصة مرصّعاً بحجارة كريمة ، فأمسكه بيده بحضور إخوته وقال : «أرى في هذا القدح أن رَؤبين هو بِكرُ أبيكم ، ولذا فهو يجلس أولاً ، ثم يليه شِمعُون فليوي فيهُوداه فيَسّاكَر فزَبُولون ، حسب التّرتيب الذي ذكرتُه تبعاً لأعمارهم . أما البقيّة فيتلونهم بحسب أعمارهم» . وأضاف قائلاً : «وأنا أعلم أن أصغر إخوتكم لا أمّ له وأنا أيضاً لا أمّ لي ، فلذا نقعد معاً سويّةً» .

فراح القوم يُبهتون لكلام يُوسيف مليّاً ، في هذا النّهار الذي أمضوه معه يأكلون ويشربون . ووضع يُوسيف حصّتين من الطعام أمام أخيه بنيامين ، فلمّا رأى ابناه إفرايِم ومِنَشّيه ذلك قدّما حصّتيهما أيضاً لبنيامين ، وقدّمت أسِنات امرأة يُوسيف حصّتها أيضاً . فكان لبنيامين خمس حصص من الطعام .

وأمر يُوسيف بإحضار الخمرة ، وأشار إلى إخوته بالشّرب والتبسّط ، فأبوا قائلين : «نحن لم نذُق الخمرة منذ أن فقدنا أخانا» . لكن يُوسيف ألحّ عليهم أن يشربوا ، وأجبرهم على ذلك وراح يُباسطهم . وسأل بنيامين : «ألك أبناء ؟» ، فأجاب بنيامين : «لعبدك عشرة بنين ، وقد أسميتُهم بأسماء تذكّرني بأخي الذي لم أرَه قطّ» .

في الصّباح صرف يُوسيف إخوته ، وطلب إليهم العودة إلى أبيهم بسلام . ولكن لمّا رحلوا ، نادى خَدَمه وأمرهم أن يتبعوهم ويُدركوهم ليُعيدوهم . فلمّا أدركهم خَدَم يُوسيف وقالوا لهم : «لمَ فعلتم هذا السّوء فسرقتم قدح سيّدنا ؟» ، سخط إخوة يُوسيف وأجابوا : «مَن يُوجَد القدح معه فليُقتَل ، ونحن أيضاً نكون لسيّدكم عبيداً» .

---

(1) في التُّوراه المعرّبة بالطبعة الكاثوليكية : جام ، والبروتستانتية : طاس . وهما فارسيتان !

غير أنّهم لمّا عُثر على القدح حيث أمر يُوسيف بوضعه ، في كيس بنيامين ، عادوا حزينين مكسوري الخاطر إلى حضرة يُوسيف . فكان نائب الملك جالساً على عرشه وحوله مُقدّمو دولته مجتمعون ، لمّا دخل إخوته ، فخاطبهم بجفاء قائلاً : «ما هذا الصنيع ال الذي صنعتُم ؟ لمَ أخذتُم قدحي الفضّي ؟ أهو بسبب أنكم لم تُفلحوا في العثور على ذلك الأخ الذي ذكرتموه في البلد ، فأخذتم القدح عوضاً عنه ؟ أجيبوا وأخبروني بمَ فعلتُم هذا الصّنيع» .

فتكلّم يِهُوداه قائلاً : «ما نقول لسيّدي ؟ بماذا نتكلّم وبماذا نتبرّأ ؟ قد كشف الله ذنب عبيدك ، وأرسل علينا هذه المحنة» . ثم قام يُوسيف ، فأمسك ببنيامين وأخذه إلى حجرة أخرى ، فدفع به فيها ثم أوصد الباب دونه . ثم أخبر الباقين بالعودة إلى ديارهم بسلام ، قائلاً : «أُبقي الذي وُجد القدح في حوزته ، وأنتم تعودون بسلام» .

فاقترب يِهُوداه من يُوسيف وقال : «يا سيّدي أتوسّل إليك أن يتكلّم عبدُك كلمةً على مَسمَع سيّدي ، ولا يشتدّ غضبُك على عبدك» ، فأجاب يُوسيف : «تكلّم» . فتابع يِهُوداه : «مُنذ البداية ، مُنذ اللحظة التي وضعنا فيها قدمنا بأرض مصر ، هزئتَ بنا . اتُّهمنا بأننا جواسيس ، وأُجبرنا على إحضار أخينا بنيامين إلى هنا . والآن ، ما زلتَ تستخدمنا كأُلعوبة لتسليتك . فليُصغ الملك السّاعة إلى كلامي ، وليُلق إليه بالاً ، وليسمح لأخينا بالعودة إلى أبيه معنا ، وإلا أهلكناك ، أنتَ وكلّ مُقدّميك المبثوثين حولك . أنت تعلم ماذا فعل أخَوان اثنان منّا بمدينة شكيم من أجل أخت لهما . فلتعلم أنهما ليسا مَن سينتقم لأخيهما بنيامين . بل ها أنا أقوى وأجلد منهما مجتمعين . لتتخلَّ عن عبثك السّقيم بنا وإلا صرعتُك أنت وحُرّاسك معاً . ألا تدري بالعقاب الذي أنزله الله بفَرْعُوه لمّا أساء إلى ساراي جدّتنا ؟ إلى يومنا هذا ما زال سكّان بلدك يحدّثون عن ذلك ! فحذارِ إذاً ، وإلاّ جازاك أنتَ أيضاً بإساءتك في استلاب أخينا بنيامين من أبيه . فالله لا ينسى العهد الذي قطعه لأبرَهام في حماية نسله وتشديد أعدائهم . لذلك فاسمع يا سيّدي إلى الكلام الذي أقولُ ! ذَر أخانا يرجع إلى أبيه ، وإلا كنتُ فاعلاً ما أقولُ . وحذارِ لستَ بالنّدّ لي ولا بغالبي أنت» .

فأجاب يُوسيف قائلاً : «فيمَ تماديكَ بهذا الفخر الأجوف ؟ فإن هي إلا كلمة واحدة منّي إلى مُقدّمي ، فيُهلكونك بلحظة واحدة أنتَ وإخوتك» . أجاب يِهُوداه : «أُقسم بحياة الله ، إن سحبتُ سيفي لأبدأنَّ بك أنت ، ثم لأختمنَّ بفَرْعُوه ذاته»[1] .

ردّ يُوسيف : «إنّ قوّتك ليست بمقدار تيهك ، فأنا نفسي أقوى منك ، وإن سحبتَ سيفك لأغمدنّه في جسدك . وبسيفك هذا سأُجهز عليك وعلى إخوتك أجمعين» .

فأجاب يِهُوداه : «يا سيّدي ، الله بيننا يشهد أنني لا أروم قتالاً . أعطنا أخانا واتركنا نمضي بسلام» .

فأجاب يُوسيف : «أُقسم بحياة فَرْعُوه ، إن أتى مُلوك كنعان بأسرهم وكرّروا أمامي مطلبك لما سلّمتهم أخاك . هيا فلتمضِ أنت وبقيّة إخوتك إلى أبيكم ، أما بنيامين فيكون لي عبداً . قد سرق قدحي وحُرّيته رهينة بيدي» .

أجاب يِهُوداه : «ما فائدة لقب الملك لامرئ مثلك إذاً ؟ دور الملوك فيها ما فيها من آنية الذّهب والفضة وأدواتها ، وها أنت ذا تجادل حول قدح تافه من الفضّة ، بعد أن جعلتَه أنت في كيس أخينا . مَعاذ الله أن يسرق أحد أحفاد أبرَهام شيئاً منك ، أو من أي ملك آخر ، كائناً مَن كان . فلتصمتْ الآن حول هذا الأمر لمصلحتك أنتَ ، وإلاّ شاع الأمر فيقول النّاس : «ها من أجل قدح فضّي يسير يختصم نائب ملك مصر مع قوم ، فيأخذ منهم أحدهم عبداً له» . من أجل سُمعتك أنتَ هلاّ كَفَفْت ؟» .

لكن يُوسيف اكتفى بتكرار ما كان قاله سابقاً : «امضوا ودعوا أخاكم عندي ، فالشَّرع يجعل منه عبداً لي . اذهبوا ، وخذوا القدح معكم» . تمنّع يِهُوداه قائلاً : «أبداً ، لن نتخلّى عن أخينا ولا من أجل ألف قدح ، أو لقاء أي مبلغ من المال يكون في تصوّرك» .

---

(1) ينبغي الإشارة إلى أن هذا النّقاش الحادّ كلّه لا يرد في التُّوراه ، بل ما فيها يقتصر على مُناشدة يهوداه ليُوسيف أن يسمح بعودة الابن لأبيه الشيخ ، رحمةً بهذا الأخير .

فأجاب يُوسيف مُسرعاً : «لكنكم تخلّيتم عن أخيكم وتركتموه ، بل ويعتموه بعشرين قطعة من الفضّة» . أصرّ يِهوداه : «رُدّ لنا أخانا . الله يشهد علي أنني ما رُمتُ معك قتالاً . دعنا نرحل بغير تناحُر . أوّاه ، ماذا نقول لأبينا إذ عُدنا بغير الفتى ؟ ستقتله الحسرة . أمّا نحن ، فما نقول ؟» .

قال يُوسيف : «قُولوا له إن الحبل لاحقٌ بالدّلو»[1] .

فصاح يِهُوداه : «ويلٌ ، ويلٌ للملك الذي يقول زُوراً وبُهتاناً» . فأجاب يُوسيف : «لا تتحدّثوا عن الزُّور والبُهتان . أفَلم تكذبوا على أبيكم فقلتم : «وحشٌ ضارٍ افترس يُوسيف ؟» ، ألم تبيعوه إلى المِديَنيّين بعشرين قطعة ؟ ألا فلتصمتوا ، اصمتوا وليعتريكم الخجل» .

صاح يِهُوداه مُهدّداً ومتوعّداً : «نارُ شِكيم تلتهب الآن في صدري . أنتَ وبلدك ستهلكون تحت جام غضبي» .

وفي تلك الأثناء خلال هذا الموقف ، كان يُوسيف وجّه مَنَشّيه ابنه لجلب الجنود إلى قصره ، فهُرعوا بأقصى سرعتهم ، بكامل سلاحهم وعُددهم متأهّبين للهجوم ، خمس مئة من الخيّالة ، وألفان من الرّجّالة ، وأربع مئة من الحرس الاحتياطي القُدماء . فأحاط هؤلاء يهدّدون ويتصايحون ببني يعقوب ، الذين ارتاعوا بشدّة وارتجفت أوصالهم خوفاً على حياتهم .

ثم قال يُوسيف ليِهُوداه : «أرجو أن تُطلعني ، لماذا أنتَ دون قومك كلّهم تعارك بضراوة من أجل الفتى ؟» ، أجاب يِهُوداه : «اعلمْ أنني قد ضمنتُ لأبينا بروحي عودة الفتى سالماً ، فقلتُ له : «إن لم أعُد به إليك فأكون مُذنباً إليك طول حياتي» . يا سيّدي ، دعني أجدُ نعمةً في عينيك . فلتذرني أردّ الفتى إلى أبيه ، أرجع مكانه عبداً لك[2] . أترى ؟ أنا أقوى منه وأكبر . دعني أكون عبدك بدلاً من بنيامين» .

---

(1) هذا يعني بحسب شروح التّلمود أن الحبل إشارة إلى يُوسيف والدّلو إلى بنيامين .
(2) هذا هنا فحوى الخطاب الأساسي الوارد في التّوراه (التكوين – 44 : 32-33) ، أما كل ما سبقه من خطاب تعنيف فيرد فقط في الحواشي التفسيرية من أجّداه التّلمود .

أجاب يُوسيف : «فليكُن ، لكن بشرط . ليذهب الفتى معك ، ولكن أحضر لي أخاه ، ابن أمّه الذي ذكرته ، فآخذه بدلاً من بنيامين . ألم تجعل نفسك ضماناً له أمام أبيك ؟ لذلك دعني آخذه ، وأما الفتى الذي حللتَ ضماناً له فيعود إلى بيته معك» .

فتقدّم شِمعُون وقال : «أوَلم نقل لك يا سيّدي عندما أتينا إليك أول مرّة أن هذا الأخ المفقود لم نعثر عليه ؟ فكيف ينطق سيّدى بهذا الكلام الباطل ؟ نحن لا نعلم للأسف إن كان هذا الأخ حيّاً أم ميتاً» .

قال يُوسيف : «افترضوا إذاً أني أناديه فيمثُل أمامي ، فهل تعطونه لي بدلاً من بنيامين ؟ وإذا به يرفع صوته صائحاً : «يُوسيف ! يُوسيف ! اظهر يا يُوسيف واجلس أمام إخوتك» .

فبُهت بنو يعقوب بشدّة لهذا الكلام ، وجمد الدّم في عروقهم فيما راحوا يحملقون برُهبة وعَجَب ليروا من أين يطلع عليهم أخوهم .

فقل لهم يُوسيف : «أين تنظرون ؟ ها هو ذا أخوكم أمامكم . أنا يُوسيف أخوكم الذي بعتموه إلى مصر . ولكن لا تخافوا ، تُراكم ما كُنتم إلا أداة في أيدي القَدَر ، فلإحياء النّفوس بعثني الله إلى هنا» .

فارتاع الرّجال للغاية ، وبخاصّة يِهودا الذي بُهت للكلام المُجفّل . أما بنيامين الذي كان في باحة الدّار الدّاخلية فقد سمعهم ، وهُرع إلى يُوسيف وألقى بنفسه على صدره وقبّله ، وراحا ينشجان بالبكاء . وكذلك تأثّر الإخوة الباقون تأثّراً بالغاً وتعجّب النّاس المُحيطون بهم ، وسرعان ما نميت أنباء هذا الحدث إلى قصر فَرْعُوه . وحَسُن ذلك في عيني فَرْعُوه ، فأرسل وفداً من كبار مُقدّميه للتّرحيب بإخوة يُوسيف ، ولكي يطلبوا إليهم باسمه أن يأتوا بعائلاتهم وأشيائهم ويقطنوا مصراً[1] .

---

(1) تعود الرّواية هنا لتتطابق مع نصّ التّوراه ، سفر التكوين – الأصحاح 45 . وحول أسماء أحفاد يعقوب بالتفصيل من أبنائه الاثني عشر وابنته الوحيدة ديناه راجع سفر التكوين – الأصحاح 46 .

أما يُوسيف فألبس إخوته ثياباً جديدة وأنيقة ، وقدّم لهم العديد من الهدايا الثمينة ، وأعطى كلّ واحد منهم ثلاث مئة قطعة من الفضّة . ثم أخذهم إلى فَرْعُوه وقدّمهم إلى الملك . فلمّا رأى فَرْعُوه مدى مَلاحة بني يعقوب سُرّت عينه بهم وقابلهم بإكرام عميم .

ولمّا آن أوان عودتهم إلى أرض كنعان ، أحضر يُوسيف إحدى عشرة عربة من عربات (عجلات עגלות) فَرْعُوه ، وأضاف إليها عربته الخاصّة ، من أجل راحتهم . ووجّه إلى أبيه بهدايا ثمينة ، وثياباً وتُحفاً لأبناء إخوته وأخته ، وكذا إلى زوجات إخوته . كما ورافق إخوته في رحلتهم حتى حدود مصر ، وودّعهم قائلاً :

«لا تتخاصموا يا إخوتي على الطريق . ما جرى قد تمّ بحكمة من الله ، فلم تكونوا أنتم سوى أداة وضعها القدر لإنقاذ الآلاف من النّاس من آفة المجاعة والجوع القاتل» . وكذلك أمَرَهُم بالترفّق في إبلاغ النّبأ العظيم الذي يحملونه إلى أبيهم ، مخافة أن يسارعوا في إبلاغه فيُصاب أبوهم العجوز بصدمة . وآب بنو يعقوب إلى أرض كنعان بفرحة غامرة وقلوب سعيدة .

وحدث أنهم لمّا شارفوا على أرض كنعان أن بعضهم قال للآخر : كيف نروي هذا النّبأ لأبينا ؟ ليس بإمكاننا إخباره فجأة أن يُوسيف ما زال حيّاً .

ولكن صادف عندما بلغوا بِئْر شيبع באר שבע أن سيرَح[1] שרח ابنة أشير أتت لتلقى أباها وعُمومها . وكان لسيرَح صوتٌ عَذب ، وتعزف على القيثارة . فابتدروها قائلين : «خُذي قيثارتك ، وجُوزي فاقعدي قُبالة أبينا ، وبينما أنتِ تعزفين فلتُغنّي ، واذكري في غنائك ابنه يُوسيف ، ودعيه بذلك الشكل يعلم أن يُوسيف حيّ[2]» .

---

(1) انظر التُّوراه ، تكوين – 46 : 17 . وفي التُّوراه المعرّبة : سيراخ ، باللفظ الإشكنازي ، بغير وجه ، مع أن الاسم ينتهي بحيث مُهملة (كالحاء العربية تماماً) .

(2) هذه الرّواية ليست أيضاً في التّوراه ، بل من أجَداه التّلمود . وفي هذا أمثلة حيّة حول كيفية نموّ الأجَداه على هامش التّوراه ، حتى غدت تكملة وتفسيراً لا ينفصم عُراه عن الكتاب الأم ، مع شروح وحواشٍ أدبية وأخلاقية لمرويات قصص الأولين .

ففعلت الصبيّة كما طُلب منها ، جلست قُبالة جدّها ، وراحت تُغنّيه أغنية جعلت تردّد فيها هذا المقطع :

«تُراه يُوسيف لم يمُت ، بل هو حيٌّ ،
عمّي المسلّط بأرض مصر بأسرها»

فسُرَّ يعقوب لغناء الصبيّة وعزفها ، ووقعت الفرحة في قلبه لسماع صوتها العذب ، فتبسّم لها وباركها . وفيما كان يحادثها وصل أبناؤه بالخيل والعربات ، فقام يعقوب ولاقاهم عند الباب ، فقالوا له : «معنا أنباء سارّة لأبينا . إن يُوسيف أخانا لا يزال حيّاً ، وهو مسلّط على أرض مصر كلّها» .

غير أن يعقوب بقي جامد القلب لم يتأثّر ، لأنه لم يصدّقهم ، حتى رأى الهدايا التي أرسلها يُوسيف ، وجميع علائم مجده . فالتمعت عيناه وانتعشت روحه في أعماقها ، وقال : «حَسبي أن يُوسيف ابني ما زال حيّاً . أمضي وأراه قبل أن أموت» .

وسمع أهالي بِئْر شيبع والدّيار المتاخمة بالخبر ، فقدموا وهنّؤوا يعقوب ، فصنع لهم مأدبة عظيمة . وقال : «سأهبط مصراً وأرى ابني ، ثم أعود إلى أرض كنعان ، كما قال الرّبّ لأبرَهام ، فيُعطي هذه الأرض لنسله» .

وجاءت كلمة الرّبّ ليعقوب قائلاً : «اهبط أرض مصر ، لا تخف ، فإني معك وإني لجاعلُك أمّةً عظيمة» . فأمر يعقوب بنيه وأهل بيتهم بالتجهّز لهبوط مصر معه ، كما تكلّم الرّبّ ، فقاموا ومشوا في طريقهم . وبعث يعقوب يِهُوداه في المقدّمة ، ليُعلن عن قدومه وليختار مكاناً لإقامته .

فلمّا علم يُوسيف بأن أباه في الطريق إليه ، جمع أصحابه ومُقدَّميه وجنود المملكة ، ولبسوا ثياباً فخمة بحليٍّ ذهبية وفضيّة ، وتسلّح الجنود بكامل عُدد الحرب ، وتجمّعوا فشكّلوا فرقة هائلة لاستقبال يعقوب على الطّريق ومُرافقته إلى مصر . وصدحت الألحان وعمّت الفرحة في البلاد ، وتجمهر النّاس والنّساء والأطفال على أسطحة الدُّور للفرجة على الاستعراض الرّائع .

كان يُوسيف لابساً ثوباً ملكياً ، مع تاج المملكة على رأسه ، ولمّا صار على بُعد خمسين ذراعاً من موكب أبيه ، ترجّل من عربته ومشي ليلاقي أباه . فلمّا رأى الأعيان والأمراء ذلك ، احتذوا حذوه فترجّلوا عن خيولهم وعرباتهم فمشوا معه .

فلمّا رأى يعقوب هذه الحاشية المذهلة تعجّب للغاية ، وسُرّ لذلك أيّما سرور ، والتفت إلى يِهُوداه فسأله : «مَن هذا الرّجل المتقدّم برأس هذه الكوكبة الرّائعة في الثوب الملكي ؟» فأجاب يِهُوداه : «هذا ابنُك» . ولمّا اقترب يُوسيف من أبيه ركع أرضاً أمامه ، فركع مُقدَّموه ليعقوب أيضاً . وركض يعقوب صوب ابنه فألقى بنفسه على عنقه وقبّله ، وبكيا معاً . وحيّا يُوسيف إخوته بشوق .

ثم قال يعقوب ليُوسيف : دعني أموتُ الآن بعدما رأيتُ وجهك ، وقد رأتك عيناي وأنتَ حيٌ ولك مجدٌ عظيم . ورافقت الفرقة يعقوب وأهل بيته إلى مصر ، وفيها أعطى يُوسيف آله أجود أراضيها حتى جُشِن[1] גשן .

وأقام يُوسيف في أرض مصر وأدار شؤونها بحكمة . وكان ابنا يُوسيف أثيرين للغاية عند جدّهما ، فلم يُبارحا بيته قَطّ . وعلّمهما يعقوب سُبُل الرّبّ ، ودلّهما على طريق السّعادة والسّلام في خدمة العليّ القدير . وأقام يعقوب وأهل بيته في جُشِن ، وتملّكوا أرضها وتكاثروا فيها إلى حدّ بالغ .

* * *

(1) في التُّوراه المعرّبة عن الترجمة السبعينية اليونانية ، بطبعتيها الكاثوليكية والبروتستانتية : جاسان . وهذا اللفظ العبْري أثبتناه (ولو دون تشكيل) ، فبأي وجه يُقرأ كما قرأوه ؟ أمنيتنا أن يدلّنا أحد على الآليّة العجيبة التي اشتغل وفقها اولئك التّراجمة !



الفصل السادس
موت يعقوب وابنائه - مُوشيه - الخلاص من مصر

أقام يعقوب في أرض مصر سبعة عشر عاماً ، وكانت مدّة حياته أجمع مئة وسبعة وأربعين عاماً . ومرض يعقوب مرضاً شديداً ، وإذ أمسى عجوزاً وضعيفاً أرسل إلى ابنه يُوسيف وقال له :

«ها أنا ذا أموت الآن ، فاسمع إليّ يا بُنيّ . لا ريب أن إله آبائك سوف يأتيك في الأيام القادمة ، ويردّ شعبه – كما آلى على نفسه – إلى الأرض التي أعطاها لكم ولنسلكم . لا تدفنوني في أرض مصر ، بل في مغارة مكفِلاه في حِبْرُون بأرض كنعان بجانب أهلي» .

وأرغم يعقوب بنيه على أن يُقسموا على دفنه كما طلب ، وقال لهم : «أعبدوا الرّبّ إلهكم ، وهو يُنجيكم من النّوازل كما أنجى آباءكم» . وطلب إليهم أن يأتوا بأبنائهم أمامه ، فباركهم وآباءهم أيضاً ، بحسب البركات المسطورة في الكتاب المقدّس .

وقال يعقوب لِيهُوداه : «أنتَ يا بُنيّ أقوى إخوتك كلّهم ، ومن صُلبك تقوم الملوك[1] . فلتعلّم أبناءك كيف يحمون أنفسهم من الأعداء والأشرار» . ثم عاود مخاطباً أبنائه[2] : «هكذا تحملونني بعد موتي إلى مرقدي في مغارة مكفلاه . وأنتم يا أبنائي مَن يحملني لا أبناؤكم . فليحمل يِهُوداه ويَسّاكَر وزَبُولون الزّاوية الشرقية من نعشي ، أما رَؤبين وشِمْعُون وجاد فيحملون الزّاوية الجنوبية ، وإفرايِم ومِنَشّيه[3] وبنيامين الزّاوية الغربية ، ودان وأشير ونَفتالي الزّاوية الشماليّة» .

---

(1) راجع وصاياه لباقي أبنائه في التّوراه ، التكوين – الأصحاح 49 .
(2) هذه الوصيّة لا ترد في التّوراه ، وتقتصر على أجَداه التّلمود .
(3) استُثني ابنا يُوسيف من شرط جدّهما يعقوب ، لسبب يأتي أدناه .

«أما ليوي فلا يحمل نعشي أو يُساعد في حمله ، لأن نسله يكونون حَمَلة تابُوت عهد الرّب[1] ארון ברית־יהוה في جيوش يسْرَئيل . ويُوسيف لا يُشارك في الحمل ، لأنه مَلِك ، بل يأخذ مكانه ابناه فيمشيان بالقرب من أخيه بنيامين . وكما أقول لكم فافعلوا ، ولا تُهملوا شيئاً من كلامي» .

«وسيحدث ، إن فعلتم كما آمركم ، أن الرّبّ يتجلّى لكم بالفَلاح ويُعطي السّلام لأبنائكم من بعدكم . والآن يا أبنائي فليُكرم بعضكم بعضاً ، ولتعيشوا معاً بوئام ، الأسرة تلقاء الأسرة . علّموا أبناءكم محبّة الله وطاعة وصاياه ، لكي تطول أيّامهم ، فالله يحفظ مَن يُعمل خيراً ويسلك سُبُل الصَّلاح كما أمَر» .

فردّ بنو يعقوب : «سنفعل يا أبانا كلّ ما تأمرنا به» .

فأجاب يعقوب : «الرّبّ يكون معكم إن لم تحيدوا عن سُبُله يميناً أو يساراً . وإني لأعلم أن مصاعب عظيمة ستصيبكم أنتم وأبناءكم وأبناء أبنائكم في أرض مصر هذه بالأيام القادمة . لكن فلتعبُدوا الرّبّ ، وهو يهيّء لكم سُبُل النّجاة . وإنه لَمُخرجكم من مصر حتى تعودوا إلى أرض آبائكم فترثونها ، وتُقيمون بها آمنين» .

ولمّا اختتم يعقوب كلامه هذا ، جذب قدميه إلى سريره ، وانضمّ إلى آبائه . فلمّا رأى يُوسيف أن أباه مات وقع على وجهه البارد وبكى بُكاءً مريراً ، وصاح بكل ما لديه من قوّة : «أبتاه ، أوّاه يا أبتاه !» . ومزّق أهل بيت يعقوب كلّهم ، أبناؤه وزوجاتهم وأبناؤهم ، ثيابهم ولبسوا مُسوحاً وحَثَوا على أنفسهم الرَّماد ، وناحوا على الآب الكبير . وكذلك ناح عليه المصريون الذين كانوا على معرفة به .

ثم أمر يُوسيف الأطبّاء بتحنيط جُثمان أبيه ، وأقام عليه الحداد ، مع أهل بيته وأقاربه وأصدقائه المصريين ، سبعين يوماً . وبعد مضيّ أيام الحداد هذه تقدّم يُوسيف من فَرْعُوه الملك وقال له : «أتوسّل إليك ، اسمح لي أن أمضي فأدفن أبي ثم أعود» . فأجاب فَرْعُوه : «امضِ بسلام فادفن أباك» .

---

(1) «تابوت عهد الرّب» (أرون بْرِيْت يهْواه) من المُصطلحات الدّينيّة البارزة لدى اليهود . انظر عنه سفر يِهُوشُوَع (المسمّى يشوع في الترجمة العربية) – 3 : 3–11 .

فقام يُوسيف وتجهّز مع إخوته لحمل جُثمان أبيهم إلى أرض كنعان ، كما أمرهم . وأصدر فَرْعُوه بياناً أمر فيه أبناء مصر جميعاً بتكريم يُوسيف عن طريق المُشاركة في جنازة يعقوب ، وتقديم آخر فروض الاحترام إليه . واستجاب أبناء مصر بأعداد كبيرة لرغبات الملك . وصعد مع يُوسيف وإخوته جميع عبيد فَرْعُوه وأعيان بيته ، وأعيان أرض مصر ، والأمراء والأشراف ، وكل مَن يَتبع لأهل بيت يُوسيف .

وحمل بنو يعقوب النّعش الذي رقد عليه جُثمان أبيهم ، كما أمرهم ، وقد جُعِل على النّعش صَولجان وتاج مُذهبان . وتبعت جيوش مصر جُثمان يعقوب ، مُشاةً وخيّالة ، ومعهم حرس فَرْعُوه الشّخصي وحرس يُوسيف أيضاً .

وحدث عندما بلغ موكب الجنازة بيدر أطاد[1] גרן אטד الذي في عبر نهر الأردنّ ، أنّهم توقفوا عنده وأقاموا مَناحةً ونَدَبوا نَدباً عظيماً . فلمّا سمع ملوك كنعان باقتراب موكب جنازة يعقوب ، توجّهوا للانضمام إليها ، تعبيراً عن حُزنهم ومحبّتهم للأب الرّاحل .

وكذلك قدم عيْسَو أخو يعقوب مع أبنائه ومَن يتبع إليه من رجال ، ثم تابعت الجنازة طريقها إلى حِبْرُون ، إلى مغارة مَكفِلاه . لكنّهم عندما وصلوا المغارة ، إذا بعيْسَو وبنوه وأتباعه واجهوا يُوسيف وإخوته قائلين : «لا يُدفنُ يعقوبُ ثمَّة ، فهذه المغارة لنا ولأبينا[2]» . فغضب يُوسيف وإخوته غضباً جَمّاً ، وقال يُوسيف لعيْسَو : «ما هذا الذي تقوله ؟ أوَلم يشترِ يعقوب أبي منك ، عقب موت يصحاق ، كلّ أملاكك في أرض كنعان حقّاً قبل خمسة وعشرين عاماً ، لقاء مبلغ طائل من المال ، لكي تكون ميراثاً لأبنائه إلى الأبد ؟ فكيف تقول الآن ما تقول ؟» .

فأجاب عيْسَو : «لم أبع ليعقوبَ شيئاً» . أجاب يُوسيف : «لدينا الصّكوك وعليها توقيعك الذي يُثبت أن ما نقوله لَهو الحقّ» . قال عيْسَو : «إذاً فلتروني هذه الصّكوك ، وكل ما كتبتْه يدي فأنا به مُلتزم» .

---

(1) انظر التُّوراه ، تكوين – 50 : 10 .
(2) في التُّوراه خلاف ذلك تماماً ولا يرد ذكر أي نزاع ، انظر سفر التكوين – 50 : 13 .

فاستدعى يُوسيف أخاه نَفتالي ، الذي كان بسرعة خطوه يسبق الأيِّل ، ولخفّة وَطئه كان بوسعه أن يجري فوق سُنبُلة القمح ذات الذّؤابة دون أن تنثني تحت وَطء قدميه . فقال يُوسيف لنَفتالي : «امضِ بسُرعة إلى مصر وأحضر لي الصّكوك المتعلّقة بالمغارة ، وكذلك الصّك الذي باع بموجبه حقّ بِكريّته لأبينا . هيّا أسرع وعُد بالعَجَل» .

فلمّا علم عيْسَو بأن نَفتالي قد مضى بهذه المهمّة توقف عن متابعة الشّعائر الجنائزيّة ، وراح يُوسيف وإخوته يحرسون جُثمان أبيهم ومَغارة الدّفن . ثم في اليوم التالي نشب قتال بين الفريقين ، عيْسَو وأتباعه من جهة ، ويُوسيف والعِبْريون ومَن تبع موكب الجنازة من مصر ، من جهة أخرى .

وكان من بين الفريق الثاني حُشيم[1] חשים بن دان الذي كان أبكمَ ، وكان مُكلّفاً بحراسة التّابوت الذي يضمّ جُثمان جدّه . ورغم أنه لم يكن طرفاً في النّزاع النّاشب ، فقد لاحظ أن أمراً غير اعتياديّ كان يجري ، فراح يستفسر بالإشارة ممّن يدنو منه لمَ لم يتمّ دفن الميت بعد ، فعلم بتدخّل عيْسَو وبتعطّل الشّعائر .

وحدث أنه عندما فهم ما جرى بالضبط استشاط غاضباً ، فسارع إلى وسط القتال وانفرد بعيْسَو ، فأطاح برأسه عن كتفيه بضربة واحدة . فانتصر بنو يعقوب على أعدائهم ، وقُتل من فريق عيْسَو أربعون رجلاً ، بينما لم يُمنَ الفريق الآخر بأيّة خسائر . وهكذا بموت عيْسَو تحقّقت صحّة مخاوف رِفقاه ، عندما قالت يوم نَوَى عيْسَو قتل يعقوب : «لئلاّ أثكلُكما في يوم واحد» (تكوين – 27 : 45) .

ثم تمّ دفن يعقوب في مغارة مَكفيلاه[2] ، وحضر بنو عيْسَو الدّفن . ومكث يُوسيف وإخوته في بيوتهم سبعة أيام نائحين ولا يزاولون أشغالهم المُعتادة . وبعد ذلك الحين ، رغم أنهم كانوا يقومون بأعمالهم اليوميّة استمرّوا على حدادهم اثني عشر شهراً ، فأضحى هذا منذ ذلك الحين عُرف اليهود عند موت الأقارب .

---

(1) هو الابن الوحيد لدان ، انظر التُّوراه ، تكوين – 46 : 23 . وليست الرّواية في التُّوراه .
(2) انظر التُّوراه (تكوين – 50 : 13) : «فحملوه إلى أرض كنعان ودفنوه في مغارة حقل المَكفِلاه التي اشتراها أبرَهام مع الحقل مِلك قَبر من عِفرون الحِثّي حذاء مَمرا» .

أما بنو عيْسَو المهزومون فقد هربوا مع إليفاز بن عيْسَو ، حاملين جُثمان عيْسَو معهم . أما رأسه فقد دُفن في حِبرُون حيث سقط ، لكنهم دفنوا جسده في جبل سِعير .

وحدث في السنة الثانية والثلاثين بعدما هبط بنو يسْرَئيل مصراً أن فَرْعُوه ، صديق يُوسيف ، قد مات . وكان يُوسيف آنذاك في الحادية والسّبعين من العمر . وقبل موته ، أمر فَرْعُوه ابنه الذي خَلَفَه في الحُكم أن يُطيع يُوسيف في جميع الأمور ، كما ترك مثل هذه التّعليمات مدوّنة . وسَرَّ ذلك شعب مصر ، لأنهم أحبّوا يُوسيف ووثقوا به تمام الثّقة . ولذا فخلال مدّة حُكم هذا الفَرْعُوه على مصر كانت إدارة البلاد تتمّ وفق إدارة يُوسيف ومشورته . وكان الرّبّ معه ، فكانت أعماله بأسرها موفّقة . وكانت حكمته تزداد يوماً إثر يوم ، وطاب لمِصر بأكملها أن تُبادره بالاحترام والتشريف . وحكم يُوسيف مصر ثمانين عاماً ، وأقام إخوته في جُشِن بسلام ونعموا بالوفرة وتكاثروا إلى حدّ بعيد ، وعبدوا الرّبّ وفق التّعاليم التي لقّنهم إيّاها يعقوب أبوهم .

وأقام يُوسيف بأرض مصر ثلاثاً وتسعين سنة ، فكان فيها بمثابة الأمير الحاكم مدّة ثمانين عاماً . ثم دنت منه الأيّام التي أحسّ فيها باقتراب يد الموت . فأرسل إلى إخوته وأبنائه أجمع ، فتحلّقوا حول سريره .

قال : «ها أنا ذا أموتُ ، لكن الرّبّ سيأتيكم لا ريب ويُخرجكم من هذه الأرض إلى الأرض التي أقسم إلى آبائكم أن يُعطيها لكم . والآن عندما يأتيكم العليّ القدير لذلك ويقودكم خارج مصر ، فأصعدوا عظامي من ها هُنا» .

وألزم يُوسيف بني يسْرَئيل بالقَسَم ، على أنفسهم وعلى نسلهم ، بأن يحملوا معهم عظامه عندما يصعدون خارجين من مصر .

ومات يُوسيف وهو ابن مئة وعشر سنين ، في السنة الحادية والسّبعين من بعد دخول بني يسْرَئيل مصر ، فحنِّط جسده ودُفن بعده في الأرض بقُرب ضفّة النّيل . وناحت مصر كلّها على يُوسيف سبعين يوماً ، أما إخوته فناحوا عليه سبعة أيام كما فعلوا ليعقوب أبيه .

ثم أخذ فَرْعُوه المملكة إلى يديه ، وحكم الشعب برُشد وبإيمان حَسَن .

وفي السنة ذاتها مات زَبُولون بن يعقوب ، بعُمر مئة وأربعة عشر عاماً . وبعده بخمس سنين مات شِمْعُون ، بعُمر مئة وعشرين عاماً . وبعد ذلك بأربع سنين مات رَؤبين ، بعُمر مئة وخمسة وعشرين عاماً . ومات دان في السّنة التالية عن مئة وأربعة وعشرين عاماً . ويَسّاكَر مات بعد سنة منه ، معمّراً مئة واثنين وعشرين . فتبعه أشير ، بعُمر مئة وثلاثة وعشرين . ورحل جاد في السنة التالية ، عن عُمر مئة وخمسة وعشرين عاماً . ويِهوداه في السنة التالية ، عن عُمر مئة وتسعة وعشرين عاماً . وعاش نَفتالي سنة بعدها ، فمات بعمر مئة واثنين وثلاثين عاماً . ومات ليوي في السنة التالية ، عن مئة وسبعة وثلاثين عاماً ، فعمّر إلى سنّ فاقت أعمار أخوته كلّهم[1] .

وبعد موت يُوسيف وإخوته ، شرع المصريون في إيذاء اليسْرَئيليين ، وراحوا من ذيّاك اليوم ينغّصون حياتهم ، إلى اليوم الذي خرجوا فيه أخيراً من أرض مصر . وحرموهم من الأرض الخصيبة التي أعطاها يُوسيف لهم ، ومن البيوت التي بنوها والدّور التي صنعوها لأنفسهم . وقَسَت أيادي المصريين باطّراد على الشّعب ، حتى أضحت حياتهم لا تُطاق .

وفي السنة الثانية بعد المئة بعد هبوط يسْرَئيل لمصر ، كان فَرْعُوه الملك وذاك الجيل بأكمله قد بادَ وانقرض ، فقام ملك جديد وشعب جديد لم يُدركوا يُوسيف أصلاً ، فملكوا البلد وحكموها .

وكان فَرْعُوه الأصغر هذا في التاسعة والأربعين من العُمر عندما تُوِّج ملكاً ، وكما جرت العادة عند تولّي عاهل جديد السّلطة ، مَثُل وزراؤه بين يديه ليُطلعوه على شؤون مملكته وقضاياها . فكلّمه هؤلاء قائلين : «هاهم أولئك الشّعب بنو يسْرَئيل قد أضحوا أكثر منّا عدداً ونفيراً . نتوسّل إليك مُرنا أن نُهلكهم بالتّدريج وإلا أربوا في البلد وأضحوا شَركاً لنا وحجر عَثرة في طريقنا . ولربما إن أصابتنا حربٌ ضمّوا قواهم إلى صفوف أعدائنا فيخرجوننا من وطننا» .

---

(1) ليس في التُّوراه (خروج - 1 : 6) هذه التفاصيل كلّها ، بل هذا من أجَداه التّلمود .

فأجاب الملك : «هذه هي نصيحتي ، وأريد منكم أن تلتزموها جيداً . إن قلعتي فيتوم ورعمسيس ليستا على قدر كافٍ من القوّة والتحصين ، وينبغي إعادة بنائهما بعناية كبيرة . فلنُعمل الحيلة ، انشروا باسمي بياناً يقول :

«مَرسوم من فَرْعُوه ملك مصر : على كل مواطن مُطيع أن يُشارك في إعادة بناء وتحصين قلعتي فِتُوم פתם ورَعَمْسيس רעמסס ، لكي نكون على أتمّ التّجهيز لأي عدوّ في زمن الحرب . وعلى كل مواطن الامتثال إلى هذا الأمر ، وله يُعيّن في كل يوم من الخزينة مُرتّب على ما ينجزه من عمل» .

«في البداية عليكم أن تمضوا أنتم أيضاً إلى العمل ، وسيحدث عندما يأتي اليسْرَئيليون للمشاركة معكم أنكم تدفعون لهم جُعالاتهم في كل يوم ، كما قد وعدنا . ثم شيئاً فشيئاً ، تستنكفون أنتم وباقي المصريين عن العمل ، إلى أن يقع تنفيذه على عاتق اليسْرَئيليين بمفردهم . ثم تُعيّنون عليهم مُشرفين مصريين ، وأخيراً عندما يأتون مُطالبين بأجرتهم ، تخبرونهم أنه من الآن فصاعداً عليهم أن يعملوا بغير أجرة . فإن أحجموا عن ذلك أو ثاروا ، كونوا مُتأهّبين فأرغموهم على العمل بالقوّة . أطيعوا كلامي بحذافيره ، وفي الختام أنتم المُفلحون . بهذا تتقوّى بلادنا ، وأمّا العمل الشّاق فيقلّل من القوّة العدديّة لهؤلاء النّاس» .

فأعجب هذا الرّأي المصريين إلى الغاية ، واتّبعوا ما جاء فيه بالتفصيل . فتمّ نشر البيان ، وامتثل لأوامره جميع اليسْرَئيليّين ، ما خلا بني ليْوي . وشارك في العمل أيضاً عديد من المصريين ، وكانوا ينالون جُعالاتهم اليوميّة ، بيد أنّهم كانو يُصرفون من العمل تدريجيّاً ، إلى أن بقي اليسْرَئيليّون بعد ثلاثة أشهر يعملون بمُفردهم . ثم عمد نُظّار العمل الذين عيّنوا عليهم إلى الإمساك عن دفع مُرتّباتهم لهم ، فلمّا أحجموا عن العمل أرغموهم على متابعته بالقوّة .

وهكذا فإن بني يسْرَئيل كلّهم ، خلا سِبط ليْوي منهم ، الذين عانوا من عَنَت المصريين ورفضوا العمل مقابل أجرة ، ثم ما عاد بالإمكان إجبارهم على العمل بغير رواتب ، تمّ دفعهم بالإكراه إلى هذا العمل ، فقوّوا حصون مصر كلّها بعمل الآجرّ وبفلاحة الأرض ، إلى أن ذكرهم الرّبّ وأنجاهم من البلد .

ولكن كلّما ازداد العبء على كواهل اليسْرَئيليين ، لاح أن أعدادهم كانت تتزايد بسرعة . وفي السنة المئة والخامسة والعشرين من دخول بني يعقوب أرض مصر ، رأى سكّان البلاد أن ما قصدوه من خلال اضطهادهم قد أخفق ، وذلك أن يسْرَئيل ما برح ينمو . ولهذا ، مَثُل الأعيان والحُكماء بين يديّ الملك وقالوا :

«أيها الملك فلتعش للأبد ! بحسب الرأي الذي أعطيتَنا بخصوص هذا الشّعب يسْرَئيل قد تصرّفنا ، لكنه مع ذلك لم يُجدِ فتيلاً . فكلّما شدّدنا عليهم الوطأة ، ازداد عددهم ونموّهم ، وأرض جُشِن الآن تعجّ بهم . فمن حكمتك نطلب ، نحن وشعبك أجمع ، الرأي في كبح هذا الشّعب وإنقاص عدده» .

فأجاب الملك : «هاتوا ما عندكم من رأي بخصوص الحيلة في هؤلاء ، فإني أودّ سماع آرائكم» .

أجاب أيوب[1] איוב ، وهو من نواحي أرض عُوز עץ ، وأحد مُستشاري الملك ، فقال : «إن كان يحسُن أمام الملك ، فإنّي أتجرّأ على الكلام . إنّ الرأي الذي قدّمه لنا الملك بخصوص هذا الشّعب كان صائباً ، والأسلوب الذي اتّبعناه في تنفيذه سنستمرّ عليه ، وما الرأي الذي أطرحه الآن ، بإذن الملك ، إلا إضافة إلى الرأي ذاته . فها نحنُ منذ سنوات عديدة ما برحنا نخشى وقوع حرب علينا ، كما أننا خشينا بالمثل أمر انتشار اليسْرَئيليين في البلاد وامتدادهم عبرها ، لئلاّ يخرجونا من أوطاننا . فالآن إن حَسُن أمام الملك ، فليَصدرْ أمرٌ ملكي وليتمّ تدوينه بين شرائع مصر ، لئلاّ يطاله نَقض أو تعديل . ولينصّ هذا الأمر على سفك دم كل الذُكران المولودين لهؤلاء العِبْريين . فإن اتبعنا هذا الرأي وقتلنا الذُكران أجمع ، لا نبقى نخشى خيانة هذا الشّعب في المُستقبل» .

وحاز هذا الرأي على قبول الملك ومُستشاريه وحكمائه ، ففعل الملك ما أوصى به أيوب . وتمّ إصدار بيان ونُشر عبر البلاد ، يقضي بسفك دم كل مولود ذكر يُولَد للعِبْريين .

---

(1) هو ذاته أيّوب صاحب السِّفر المعروف باسمه (وهو الثالث) من أسفار الكِتوبيم (أي القسم الثالث من الكتاب المقدّس لدى اليهود) ، وهو فيه مجرد صدّيق وليس نبياً .

وكان يعيش بأرض مصر رجل اسمه عَمْـرام עמרם ، بن قِهات קהת بن لِيْوي بن يعقوب . تزوّج هذا الرّجل بعمّته[1] يُوكِيد יוכבד بنـت لِيْوي ، فولـدت ابنةً سمّتها مِريَم[2] מרים ، لأنها وُلدت في الأيّام التي جعـل بهـا المصريّـون ينغّصـون حياة العِبْريين . ثم بعد ذلك ولدت ابناً ، فسمّته أهَرُون אהרן .

وحدث في السنة المئة والثلاثين من دخول يسْرَئيل أرض مصر أن فَرْعُـوه ملـك البلاد حَلُم بأنه كان جالساً على عرشه ، فلمّا رفع عينيه شـاهد أمامـه رجـلاً عجـوزاً يُمسـك بيـده ميزاناً كبيراً . فعلّق العجوز الميزان ، وأخـذ أعيـان مصـر جميعهـم وأمراءها ومُقدّميها ، فأوثقهم معاً وجعلهـم في إحـدى كفّتـي الميزان ، أمـا في الثانيـة فقد جعل خروفاً ، وإذا بالملك الحالم يرى الخروف الواحد يزن أكثر من خـيرة رجـال مصر بأسرهم .

أفاق فَرْعُوه ، وأرسل في طلب وزرائه فروى لهـم هـذا الحُلـم ، الـذي أصابـه بالخوف والتعجّب في آن معاً . فكان من بين سَحَرة مصـر رجـلٌ يعـدّه الملـك حكيمـاً أكثر من سواه ، اسمه بِلعام بن بِعُور[3] בלעם בן־בעור . فأرسل الملك في طلبـه ، وسأله تعبيراً للرّؤيا . أجاب بِلعام بن بِعُور : «إن شراً مُستطيراً سوف ينال من مصـر في الأيام التالية . سيولَد لبني يسْرَئيل غُلام ، يكون دمارُ مصر علـى يديه ، فيُهلـك شعبها ويخرُج بقومه منها . فيا سيّدي ومولاي الملك ، دونك الأمر ، ولتُهلك نسل يسْرَئيل ومصالحهم من الآن ، قبل أن تحلّ بلاياهم على أرض مصر» .

---

(1) انظر التُّوراه ، خروج – 6 : 20 . والزّواج في الدّين اليهودي مـن العـمّ أو الخـال أو العمّـة أو الخالة غير محرّم ، ونظنّـه كـان يشـيع بخاصّـة في سبط لِيْـوي ، لاختصاصـه بالرّياسـة الدّينية والحبرية العظمى لديهم . وممّـا يـروي الأقدمون عـن الطائفـة اليهوديّـة في مدينتنـا دمشق أنهم كانوا يؤكّدون مشروعيّة الأمر ، إلا أنهم يعدّونه ثقيـلاً ، ولهـم في ذلـك قـول مأثور : «يلّي بتاخُد عمّها ياكبر هَمّها ، ويلّي بتاخُد خالها يا شُغْلان بالها» !
قلنا : قد تعاف النّفس الزّواج بين الأقارب فكيف بالأصول ؟ لا ننسـى عجـوزاً چركسياً قدم الشام فسأل عريساً شاباً من جيرانه عن عروسه فقال : «هي بنتُ عمّي» . فـارتجف العجوز مستنكراً بلهجته الطريفة : «أستغيرُ الله» ! ولم تُفلـح جهـود آلـه في التسـكين من رَوعه ، حتى سافر قائلاً وهو يتعوّذ بمرارة : «أهل الشام لا يراعون محارم الله» !
(2) مِريَم اسم عِبري ، يتوافق مع : מריון ، أي : الثوريّة ، روح التمرّد والعصيان .
(3) انظر التُّوراه ، عدد – 22 : 5 ، وما يليها في أخبار بلعام ، لكن ليس فيها ما يرد هنا .

فاستفسر فَرْعُوه : «ماذا يسعُنا أن نفعل ؟ قد جرّبنا أكثر من حيلة فلم يُفلح منها شيء» .

أجاب بِلعام : «أرسل في طلب أخصّ اثنين من مُستشاريك ، فنتداول الأمر معاً . فأرسل فَرْعُوه في طلب مُستشاريه رِعُوئيل[1] רעואל المِدْيَني وأيوب ، ومَثَلا بين يديه» . فقال الملك : «قد سمعتما حُلمي وتعبيره ، فهلمّا أعطياني رأيكما . كيف لنا أن نهزم شعب يسرَئيل قبل أن يحلّ بنا شرّهم المُتربِّص ؟» .

أجاب رِعُوئيل المِدْيَني قائلاً : «أيها الملك ، فلتعش للأبد ! إن كان يحسُن في عينيك ، أيها الملك ، فكفّ عن تعذيب هذا الشعب ! إنهم أصفياء الله من سالف الأيّام ، ولم يقع قَطّ أن نجا مَن يضطهدهم من العقاب . لقد جوزي فَرْعُوه السّالف بما آذى ساراه ، كما جرى لأبيملك الفلسطيني للسبب عينه . كما نجا يعقوب من كمائن عيْسَو أخيه ولابان أيضاً . ولقد كان جدّك الأكبر يكرّم جدّهم الأكبر يُوسيف ، حيث أدرك مدى الحكمة التي خصّه بها الله ، والتي أنقذت شعب هذه الأرض من الموت جوعاً . لذا أيها الملك ، فلتُمط عنهم أذاك ودعهم يمضون من هنا إلى أرض كنعان ، مُقام آبائهم الأوّلين» .

فأسخطت كلمات رِعُوئيل المِدْيَني فَرْعُوه ، فطرده من مجلسه خائباً . فبارح رِعوئيل مصر في ذلك اليوم عائداً إلى موطنه ، حاملاً معه عصا يُوسيف .

ثم قال الملك لأيوب مُستشاره : «ما رأيُك بخصوص هؤلاء العِبْريين ؟» ، فأجاب أيوب : «أليس جميع سكّان مصر في يدي الملك ؟ فما تراه حسناً في عينيك فافعله بهم» .

ثم تكلّم بِلعام فقال : «إن أيّاً من هذه السُّبُل المُقترحة لخضد شوكة العِبْريين لن ينفع . فالنّار لا طاقة لها بهم ، إذ نجا أبرَهام من ضرامها . والسّيف فيهم لا يُفلح ، فيصحاق نجا من حدّه القاطع وافتُدي بكبش ذُبح عنه . كما لا يمكن إفناؤهم بالأشغال الشاقّة ، إذ عمل يعقوب ليلاً نهاراً في خدمة لابان وهو مع ذلك أثرى . فاستمع أيها الملك إلى الرأي الذي أسديه لك ! وبهذه الوسيلة فحسب

(1) ثم يغدو رعوئيل هذا يهودياً ويُسمّى يترو ، ويتزوّج موشيه من ابنته صِفُراه .

يكون بوسعك أن تتغلّب عليهم . فلتأمر بأن المواليد الذّكور المولودين لهؤلاء العِبْريين ينبغي طرحهم كلّهم في النّهر وإغراقهم ، إذ لم يسبق أن نجا أحد من أسلافهم من الموت غرقاً[1]» .

سرّ هذا الرّأي فَرْعُوه وأمراءه ، وتصرّف الملك بحسب كلام بلعام . فتمّ نشر بيان بالأمر ، وأوفد فَرْعُوه مُقدّميه عبر أرض جُشِن حيث يُقيم اليِسْرئيليّون ، ليتثبّتوا من أن كل المواليد الذُّكران كانوا يُطرحون في النّهر عند ولادتهم ، فيما تُترك الإناث على قيد الحياة .

وحدث في تلك المدّة أن مِريَم بنت عَمْرام ، أخت أهَرُون ، تنبّأت فقالت : «سيولد لأبي وأمّي ابنٌ آخر ، وهو يخلّص اليِسْرَئيليّين من يد المصريين» . فولُد لهما ابنٌ آخر كما قالت ، فلمّا رأته أمّه غُلاماً حَسَناً جميل الهيئة ، أخفتهُ ثلاثة أشهر في داخل مخدعها .

وكان التفتيش في تيك الأيّام شديداً على بيوت العِبْريين عن الأطفال الذّكور ، وتمّ استخدام عدّة وسائط لكشف الأماكن التي كان آباؤهم يخفونهم فيها . فكانت النّساء المصريات يحملن أطفالهن إلى بيوت جُشِن ويُلجئنهم إلى البُكاء ، فكان الأطفال المُخبّؤون يبكون لبكاء هؤلاء فتُكشف مخابئهم . وتُبادر النّساء إلى إخطار فَرْعُوه ، فيأتي المقدّمون للقبض على الطفل الذي يستميت أبواه في سبيل إنقاذه سُدىً .

وحدث أنه بعدما أفلحت يُوكيبِد في إبقاء ابنها مخبوءاً مدّة ثلاثة أشهر ، ذاع خبر ولادته بالطّريقة المذكورة ، فأخذته أمّه بسرعة قبل وصول المقدّمين ، وأخفته في صندوق תבת مصنوع من البَردي ، وخبّأته بعناية في القَصَب סוף الذي ينمو على حافّة النّيل . ووجّهت بابنتها مِريَم لتراقب الصّندوق على مبعَدة ، وتُبصر ما يكون من شأنه .

---

(1) بحسب ما جاء في التّلمود ، عُومل كلٌ من هؤلاء المستشارين الثلاثة بما هو أهل له . فرعوئيل (يترو) الذي رغب بتخليصهم وإراحتهم نجا من الهلاك واعتنق اليهوديّة . وأما أيوب فنال العقاب المذكور في السّفر المدعو باسمه . أما «بِلعام بن بِعور فقتلوه بالسّيف» (سفر العدد - 31 : 8) .

وكان يوماً حاراً وورطباً وكان الهواء ثقيلاً ، فأتى كثير من النّاس يتردون من الحرارة المُضنية في مياه النّيل الرّائقة . فجاءت بَتياه[1] בתיה ابنة فَرْعُوه بهذا الغرض وحولها جواريها ، فلما نزلت الماء صادف أن أبصرت بصندوق البَردي ، فرقّ قلبها للطفل وأنجتهُ من الموت .

وأُطلق العديد من الأسماء على هذا الطفل الذي نجا بأُعجوبة ، فسمتّه بَتْياه[2] «مُوشيْه» משה قائلةً : «لأني قد انتشلتُه» من الماء . بينما سمّاه أبوه «حِبر»[3] חבר لأنه اجتمع بأهله . أما أمّه فسمتّه «يقوتئيل»[4] قائلةً : «قد أمّلتُ بالله» . وسمتّه أخته «يارَد»[5] ירד قائلةً : «هبطتُ النّهر كي أرقبه» . أما أهَرُون أخوه فقد سمّاه «أبيْجِدُور» אבי־גדר ، لأن الله سَدّ به ثُلمةً في بيت يعقوب ، فالمصريون كفّوا مُنذ ذلك عن طرح الأطفال بالماء . وسمّاه جدّه «أبيسُوكو» אבי־סכו ، قائلاً : «ثلاثة أشهر قد خُبِّئ» . وسمّاه بنو يِسْرَئيل «شِمَعْياه بن نَتَنْيل»[6] שמעיה בן נתנאל ، لأن في أيامه سمع الله شكواهم وخلّصهم من أيدي ظالميهم .

وأضحى مُوشيْه بمثابة الابن من بَتْياه ابنة فَرْعُوه ، وكأنه طفل ينتمي رأساً إلى قصر الملك .

* * *

ثم حدث أن فَرْعُوه لمّا تبيّن أن رأي بِلعام لم يُجد ، بل راح اليِسْرَئيليّون على العكس ينمون ويتكاثرون أسرع حتى من ذي قبل ، فرض عليهم أشغالاً شاقّة إضافية ، وأصدر أوامر بأن أي رجل لا يفي بإنجاز عمله اليومي كاملاً يُدفن أولاده أحياءً في المبنى الذي يعمل فيه . واستمرّ هذا النّظام معمولاً به سنين عديدة .

* * *

(1) المعنى الحرفي لاسمها في العِبْرية : בת־יה (بَت – يَاه) : بنت الله .
(2) في العِبْرية فعل משה (ماشاه) يعني : انتشَلَ ، أنْقَذَ .
(3) في العِبْرية فعل חבר (حِبير) يعني : وَحَّدَ ، جَمَعَ ، ربَطَ .
(4) في العِبْرية فعل קוה (قَوَاه) يعني : أمّلَ ، رَجا ، تمنّى .
(5) في العِبْرية فعل ירד (يارَد) يعني : هَبَطَ ، نَزَلَ ، انحَدَرَ .
(6) معنى الاسم في العِبْرية : الله سمع – بن – الله أعطى .

وفي هذه المدّة ، عندما بلغ مُوشيْه سنته الثالثة ، كان فَرْعُوه جالساً إلى مائدة طعامه ، وإلى يمينه الملكة ويَتّياه إلى يساره ، وحوله ابناه وبِلعام وأمراء مملكته ، وكان مُوشيْه قاعداً في حضنه . فمدّ الطفل يده وجذب التّاج الملكي من رأس فَرْعُوه واضعاً إيّاه على رأسه .

فما كان من فَرْعُوه والقوم الذين حوله عندما رأوا ذلك إلاّ أن عدّوه أمراً ذا دلالة ، فسأل فَرْعُوه : «بِمَ يُعاقَب هذا الصبي العِبْري ؟» .

فقال بِلعَام بن بِعُور السّاحر : «لا تظنّنّ أن هذا الطفل فعل ما فعل بغير قصد لأنه صغير . فتذكّر أيها الملك الحُلم الذي عبّره لك عبدُك ، حُلم الميزان ! إن روح الفهم مغروسة منذ البداية في نفس هذا الطفل ، وهو يحتجن مملكتك لنفسه . فهذا كان يا مولاي أسلوب شعبه ، إنهم يدوسون بأقدامهم مَن أحسن إليهم ، ويَغصبون بالحيلة سُلطان مَن دَعَمَهم وحَماهم . فأبرَهام جدّهم السّالف خدع فَرْعُوه قائلاً عن ساراه : «هي أختي» . ويصحاق ابنه فعل الشيء ذاته . أما يعقوب فاستحوذ خلسةً على البَركات التي تخصّ أخاه بالأصل ، ثم رحل إلى بلاد النّهرين وتزوّج بابنتي خاله وانهزم بهما خفيةً ، آخذاً لنفسه قطعان مَواشٍ هائلة وممتلكات عظيمة . وكذلك باع بنو يعقوب أخاهم يُوسيف إلى ربقة العبوديّة ، ثم نال بعدها تشريف جدّك السّالف فعيّنه نائباً له بمصر ، ثم لما حلّت المجاعة بالبلاد جلب إليها أباه بآله كلّهم ليأكلوا من خيراتها ، فيما كان المصريون يبيعون أنفسهم طلباً للغذاء . والآن يا مولاي ، يقوم هذا الصبيّ مقلّداً أفعالهم . إنه يهزأ بك أيها الملك ، وبأعيانك وأمرائك ! لذلك فلتُهرق دمه ، ليتمّ هذا الآن من أجل مصلحة مصر في الأيام القادمة» .

رَدّ الملك على كلام بِلعام : «سننادي قُضاتنا أجمع ، فإن أدانوا الصبي بحُكم الموت أمرنا بإعدامه» .

فلمّا تجمّع القُضاة والحُكماء حسب أوامر الملك ، أتى يِترو יתרו [رِعُوئيل] كاهن مِديَن معهم . فروى لهم الملك فعلة الصّبي والمشورة التي أسداها إيّاه بِلعام ، طالباً آراءهم حول الشأن ذاته .

فقال يترو ، راغباً بإنقاذ حياة الصّبي : «إن حَسُن أمام الملك ، فليُقدَّم أمام الصبيّ طبقان ، في أحدهما جَمْر وفي الآخر ذَهَب . فإن مدّ الصبي يده قابضاً على الذّهب ، علمنا أنه عاقل مُدرك ، وعددناه قاصداً ما بدر منه تجاهك ، فيستحقّ بذلك الموت . أمّا إذا قبض على الجمر فليُبقَ على حياته» .

فوافق الملك على هذه المشورة ، وقُدِّم أمام مُوشيْه الطفل طبقان : في أحدهما ذهب وفي الآخر جَمر . فمدّ الصبي يده وأمسك بجمرة جعلها في فيه ، فأحرق لسانه وأضحى مُنذ ذلك الحين «بطيء النُّطق وثقيل اللّسان» ، كما هو مذكور في نصّ التُّوراه . ولكن هذا التّصرّف الصّبياني أنقذ حياة مُوشيْه[1] .

وشبّ مُوشيْه فصار فتىً حَسَناً في قصر الملك ، وكان يلبس ثياب الملوك ويحظى بتشريف النّاس ، وتلوح عليه مخايل الدّم الملكي . وكان يتردّد إلى أرض جُشِن يومياً ، مُلاحظاً العسف الذي كان يلقاه إخوته ، فلمّا استفسر منهم عن سبب إلزامهم بالعمل المرهق وتعرّضهم للظّلم ، دري بالأمور التي وقعت قبل مولده كلّها بما في ذلك جميع ما يتعلّق ببني يِسْرَئيل وجميع ما يتعلّق به شخصياً . ولما علم برغبة بِلعام بإهلاكه في طفولته ، جاهر بعداوته لابن بِعُور ، الذي بادر لخشيته من سُلطته وحظوته لدى ابنة الملك فهرب إلى الحبشة .

ورجا مُوشيْه ملك مصر أن يمنح أهل جُشِن يوم استراحة من أشغالهم في الأسبوع ، فوافق الملك على طلبه . وكان قول مُوشيْه له : «إن أجبرتَهم على الشّغل المستمرّ خارت قُواهم ، فمن أجل منفعتك ومصلحتك اسمح لهم بيوم واحد في الأسبوع على الأقل ، طلباً للرّاحة وتجديد العزائم» .

وكان الرّبّ مع مُوشيْه ، وذاع صيته عبر البلد كلّها . ولما كان في حوالي الثامنة عشرة من العُمر ، زار أباه وأمّه في جُشن ، ولما مضى حيث كان إخوته يشتغلون أبصر رجلاً مصرياً يضرب رَجلاً عِبْريّاً ، فقتل المصري وهرب من أرض مصر ، كما ترد الحادثة في نصّ التُّوراه .

---

(1) هذه الرّواية برمّتها لا ترد في التُّوراه ، فيما خلا ذكر أن مُوشيه كان ثقيل اللّسان ، راجع سفر الخروج – 4 : 10 .

وحدث في تلك الأيام أن الآشوريين ثاروا على قيقانوس ملك الحبشة ، الذي كانوا يدفعون له الجزية . فعيّن قيقانوس بِلعام بن بِعُور ، الهارب من مصر ، نائباً عنه في غيابه ، وزحف بجيش لَجب فأخضع الآشوريين ، وفرض عليهم أتاوات كبيرة .

أمّا ما كان من أمر بِلعام فإنّه خان الثّقة واحتجن السّلطة التي أوكل إليه الحفاظ عليها ، وحثّ شعب الحبشة على تنصيبه ملكاً عليهم بدلاً من قيقانوس الغائب . وقام بتحصين أسوار العاصمة ، وبنى قلعة عظيمة وحفر الخنادق والحُفر بين المدينة ونهر جيحون נהר גיחון ، الذي يحيط بكامل بلاد الحبشة .

فلمّا عاد الملك قيقانوس بجيشه تعجّب لرؤية التحصينات المبنيّة في غيابه ، فظنّ أن الشعب خشوا من هجوم يشنّه ملوك كنعان في خلال غيبته ، فعملوا على التجهّز له . ولكن عندما أُوصدت بوّابات المدينة في وجهه ، وصاح طالباً فتحها سُدىً ، اشتبك في حرب مع الموالين لبِلعام . واستطالت الحرب بين قيقانوس وبِلعام تسع سنين ، فمُني بها الأول بخسائر جسيمة .

ولمّا هرب مُوشيْه من مصر انضمّ إلى جيش قيقانوس ، وسرعان ما أمسى محبوباً للغاية من قبل الملك وأعوانه كلّهم .

ومرض قيقانوس فمات ، فدفنه جنوده قُبالة المدينة ، وأقاموا على جُثمانه صَرحاً نقشوا عليه ثَبت الأعمال الجليلة التي أتى عليها في حياته . ثم قال بعضهم للآخر : «ماذا نفعل ؟ تسعة أعوام مضت ونحن غائبون عن ديارنا ، فإن هاجمنا المدينة كرّة أخرى فمن المحتمل أن نُصدّ دُونها ثانيةً ، وإن مكثنا ها هنا فإن ملوك إدوم عندما يبلغهم موت قائدنا سيهاجموننا فلا يُبقون منا على أحد . خيرٌ لنا أن نُعيّن ملكاً آخر سوى قيقانوس» .

فقام الجيش بتنصيب مُوشيْه عليهم ملكاً وقائداً ، في السنة المئة والسابعة والخمسين من هبوط يِسْرَئيل مصر[1] .

---

(1) لا أثر لهذه الرّواية كلّها في التُّوراه . وهنا يلاحظ الدّارس مدى نموّ تراث الأجداد الشّفهي على هامش التُّوراه ، حتى غدا منها بمثابة التّكملة لا مجرّد التفسير .

ووجد مُوشيْه حُظوة في عينـي الـرّبّ ، وبثّ الجرأة في قلـوب جنـوده بكلامـه وبأفعاله . وهاجم القلعة بحملة قويّة ، مع نفخ الأبواق والعزيمة الصّادقة ، ففُتحت المدينة على يديه ، وصُرِع في المعركة من أعدائه ألف ومئة رجـل . غير أن بِلعـام بن بِعُور نجا بنفسه وهرب عائداً إلى مصر ، فغدا فيها واحـداً مـن السَّحَرة المذكوريـن في التُّوراه (الشّريعة) .

ونصّب الأحباش مُوشيْه ملكاً على عرشهم وجعلوا تاج المُلـك على رأسـه ، وزوّجوه بأرملة فيقانوس . لكـن مُوشـيْه تذكّر مع ذلـك تعـاليم آبائـه ، كيـف دفـع أبرَهام عبده إلى القَسَم بألاّ يجلب إحدى بنات الكنعـانيين لتكـون امـرأة ليصحـاق ، وكيف قال يصحاق لابنه يعقوب : «لا تأخذ لنفسك امرأة من بنات الكنعانيين ، ولا تصاهر أحفاد حام» . وعلى ذلك ، كانت أرملة فيقانوس زوجـة لُموشيْه مـن حيـث الاسم فحسب .

ولمّا أضحـى مُوشـيْه ملكـاً علـى الحبشـة ثـار الآشـوريّون مـن جديـد ، غـير أن مُوشيْه أخضعهم وفرض عليهم جزية سنويّة يدفعونها لحكّام الحبشة .

* * *

ثم حصل في السّنة المئة والثمانين من هبوط يِسْرَئيل لمصر ، أن ثلاثـين ألفـاً مـن قبيلة إفرايِم قاموا فتوزّعوا فرقاً وقالوا : إن الوقت الذي أعطاه الرّبّ لأبرَهام في عهد الأشطار (تكوين – 15 : 13) قد حـل[1] ، وسـنصعد خـارج مصـر . واتّكـل هـؤلاء على قواهم فغـادروا مصـر . لكنهـم لـم يـأخذوا معهـم أيّـة أقـوات ، مـا خـلا لـزوم مسيرة يوم واحد . ولم يأخذوا شيئاً سوى ذهب وفضّـة ، قـائلين : «سـنبتاع طعامـاً من الفلسطينيين» .

وفيما رحلوا صوب جَـت גת صـادفوا جماعـة مـن الرّعيـان ، فقـالوا لهـم : «بيعونا ماشيتكم ، فنحن جائعون» . غير أن الرّعيان أجابوا : «هـذه الماشـية حـلالٌ لنا ، لا نبيعها لكم» .

(1) يرد في ذلك العهد في التُّوراه : «فقال الرّبّ لأبرام : اعلَم يقيناً أن نسلك يكونون غُربـاء في أرض ليست لهم ، ويُستعبدون ويُعذّبون أربع مئة سنة» .

فاستولى رجال إفرايِم على الماشية بالقوّة ، فتصـايح الرّعيـان بقـوة ، وبلغـت صيحاتهم أسـماع أهـالي جَت ، فتجمهروا لتبيان الأمر . فلمّا علـم أبنـاء جَـت بالشكل الذي عومل به إخوانهم تسلّحوا وزحفوا لقتال المُسيئين ، فسقط الكثير من الطرفين . وفي اليوم التالي وجّه أهل جَت גת رُسُلاً إلى مُدُن الفلسـطينيين قـائلين : «هَلُمّوا فساعدونا على دحـر الإفرايميين ، الذيـن جاؤونـا مـن مصـر واستولوا على ماشيتنا وقاتلونا بغير سبب» .

فتقدّم الفلسطينيون بقوّة تعدّ حوالي أربعين ألفاً ، وهزموا الإفرايميين الذين كانوا مُرهقين وجائعين ، ولم ينجُ من الموت الذي أصاب قبيلة إفرايِم سوى عشرة أنفار . وهكذا عوقب رجال إفرايِم للصّعود من مصر قبل الوقت الذي عيّنه الرّبّ . وبقيت أجساد القتلى منهم في وادي جَت لم تُدفن ، وكانت عظامهم هي التي قامت تدبّ فيها الحياة ، في زمن يَحْزَقْئيل ، كما تروي نبوءته[1] .

وعاد هؤلاء النّاجون العشرة إلى أرض مصر ، فرووا لبني يِسْرَئيل ما حصل لهم .

في أثناء ذلك كان مُوشيْه يحكم الحبشة بالعدل والصّلاح . غير أن ملكة الحبشة أدونيت[2] אדנית ، وهي زوجة مُوشيْه بالاسم فحسب ، قالت للشعب : «لماذا يبقى هذا الغريب حاكماً عليكم ؟ أليس خيراً منه أن يُقام ابن قيقانوس على عرش أبيه ، وهو واحد منكم ؟» . بيد أن النّاس لم يرتضوا رغم هذا الرّأي بالتنكّر لمُوشيْه الذي أحبّوه ، لكنه عمد إلى التّنازل عن السّلطة التي منحوه إيّاها ، من تلقاء نفسه ، ورحل عن أرضهم . فقدّم له شعب الحبشة الكثير من العطايا الثمينة ، وودّعوه بغاية التكريم .

---

(1) راجع سفر يحزقئيل من أسفار نبيئيم أخرونيم – 37 : 1–11 ، حول إحياء الرّبّ للعظام البالية وهي رميم . وهو من النّصوص الهامة في هذا السّفر .

(2) المُفترض أن يكون اسمها باللغة الأمهرية السّاميّة السّائدة في الحبشة ، فإذا به هنا من الفرع الغربي للغات السّاميّة ! ففيها أدون هو السيّد أو الرّبّ (تحوّل في الميثولوجيا الإغريقية إلى أدونيس Αδονης) ، أما أدونيت فهي صيغة التأنيث من أدون . واليهود المتديّنون دوماً يتحاشون لفظ اسم الله الأعظم (יהוה) تنزيهاً له (إلا مرّةً في العام بيوم كِپور) فينطقونه حتى وإن ورد في نصّ التّوراه أمامهم : أدوناي אדני ، أي : سيّدي ، ربّي .

أما مُوشيْه الذي كان لا يزال خائفاً من العودة إلى مصر ، فقد رحل إلى أرض مِديَن[1] ، وتوسّد مكاناً قعد فيه قرب بئر ماء . وحدث أن وردت بنات رِعُوئيل (أو يِترو) السّبع هذا البئر للاستقاء لماشيتهنّ . فطردهنّ رُعاة مِديَن ، بغية إبعادهنّ حتى ترد ماشيتهم أولاً ، غير أن مُوشيْه تدخّل لمصلحتهنّ ، فعُدن إلى بيتهنّ مُبكرات وروين لأبيهنّ ما قد حدث . فأرسل رِعُوئيل في طلب مُوشيْه ، وروى له هذا الأخير كل ما جرى له منذ هروبه من مصر . وعاش مُوشيْه عند رِعُوئيل ، وحظيت في عينيه صِفُراه צפרה ابنة مُضيفه فتزوّجها .

* * *

وفي أثناء ذلك ، أصاب الرّبّ فَرْعُوه ملك مصر بالجُذام . وكان المرض شديد الوطأة ، فعانى الملك من آلام مُبرّحة لا توصف . واشتكى نُظّار العمل المعيّنين على اليِسْرَئيليين من أن هؤلاء باتوا كسالى يهملون عملهم .

قال الملك في نفسه : «إنهم يستغلّون مرضي» ، فأمر بتجهيز عربته وتجهّز للركوب بنفسه وتوبيخ العمّال ، وليتأكّد من عدم تهرّبهم من شغلهم .

وحدث أثناء ركوبه في درب ضيّق أن تعثّرت خيله وانقلبت به العربة ، فارتمى الملك على الطريق وداست عجلات العربة عليه . فتمزّق اللّحم الرّخو من جسمه وتكسّرت عظامه التي غدت بسبب المرض هشّة . فسجّاه عبيده على نعش وحملوه إلى قصره ، ولكن عندما مدّدوه على سريره علم الملك أن منيّته قد حلّت . فتجمّع كلّ من امرأته وأمراؤه ، وراحوا يبكون حول سريره فبكى فَرْعُوه معهم ، وطلب إليه مُقدّموه أن يُسمّى خليفته .

وكان لفَرْعُوه ابنان وثلاث بنات . وكان البكر ذا عقلية غير سويّة وشخصيّة متقلّبة ، بينما كان الآخر ، برغم ذكائه وتمرّسه بعلوم بلاده ، صاحب مخيّلة شرّيرة ودميم الخلقة وقزماً . وبرغم ذلك ، مال الملك إلى ابنه الآخر نظراً لذكائه الفائق ، ليكون هو من يليه في سُدّة الحكم .

---

(1) في أطلس أوكسفورد للكتاب المقدّس أن أرض مِديَن هذه تقع إلى الشرق مباشرة من خليج العقبة مواجه صحراء سيناء . راجع : *Oxford Bible Atlas*, p. 67 .

ولبث فَرْعُوه ثلاث سنين يعاني آلاماً قاسية مبرّحة ، ثم مات ودُفن في قصر الملوك ، لكنّه لم يجر تحنيطه لأن جسده كان بحالة رثّة من المرض إلى درجة لا تسمح بتجهيزه بالحنُوط .

وفي السنة السادسة بعد المئتين من دخول يِسْرَئيل مصر ، ارتقى الفَرْعُوه المذكور إلى عرش البلاد . وسَامَ بني يِسْرَئيل سُوء العذاب وزاد من أعبائهم ، فألغى يوم الرّاحة الذي كان أعطي لهم باسم أبيه ، متذرّعاً بانغماسهم في الكسل والبطالة خلال فترة مرض أبيه .

ورَزَح بنو يِسْرَئيل في قيود عبوديّتهم ، وصرخوا إلى الرّبّ . فسمع الرّبّ صُراخهم ، وذكر ميثاقه لأبرَهام ويصحاق ويعقوب .

ولاحظ كان مُوشَيْه أثناء إقامته عند رِعُوئيل المِدْيَني وجود عصا في حديقته ، فأخذها لتكون بيده عصا للمشي . وهي عصا يُوسيف ذاتها ، أخذها رِعوئيل معه عندما هرب من مصر . وكذلك كانت العصا نفسها التي أخذها آدام عندما خرج من جنّة عِدن . وكان ورثها نُوَح ، فأعطاها بعد ذلك لابنه شيْم . وتناقلت عبر أيدي نسلَ شيْم إلى أن صارت بمُلك أبرَهام . فلمّا ترك أبرَهام كل ممتلكاته الدّنيويّة ليصحاق كانت هذه العصا من بينها ، ولمّا هرب يعقوب من سخط أخيه إلى بلاد النّهرين حمل هذه العصا بيده ، ثم لمّا أقام بمصر أعطاها ليُوسيف ابنه .

* * *

وحدث بعد انقضاء عامين أن الرّبّ أرسل مُوشَيْه ثانيةً إلى فَرْعُوه لإحضار بني يِسْرَئيل من بلده . وتكلّم مُوشَيْه أمام فَرْعُوه بكل ما أمره به الرّبّ ، ولكن فَرْعُوه لم يُصغِ إلى كلامه . ولذا سُلّط جبروت الرّبّ على المصريين ، فأصاب فَرْعُوه ومُقدّميه وشعبه بآفات شديدة .

وعلى يدي أهَرُون ، بدّل الرّبّ مياه مصر إلى دم . فكان مَن يسحب الماء من ساقية جارية ينظر إلى دلائه فإذا بالماء صار دماً أحمر . وكان مَن يروم الشُّرب ويطفئ ظمأه يمتلئ فمه بالدّم ، ومَن يستعمل الماء في عمل الخبز يجد العجين ممتزجاً بالدّم في معجنه .

ثم راحت الأنهار تفيض بالضفادع ، فراحت تجوس في بيوت المصريين ، وفي طعامهم وفي مخادعهم . وبقيت ذراع الرّبّ مبسوطة بالسّخط على مصر ، فأصاب البلد بجائحة شديدة من القَمْل . فكان القمل على أجساد النّاس والحيوانات ، وعلى الملك والملكة وجميع شعب البلد[1] .

ثم سلّط الله على مصر وحوش الغابات الضارية ، فكانت تدخل المدن المأهولة وتُهلك الحرث والنّسل ، وتوقع رُعباً عظيماً في البلاد . وكثرت الحيّات والعقارب وكل أنواع الزّواحف والهوام ، ما خلا الفئران وابن مقرض ، وجميع أنواع القوارض والذّبّان والزّنابير وأصناف الحشرات ، التي ملأت أرض مصر واغتذت عليها .

ثم أرسل الله طواعين مُهلكة في الماشية ، فنفقت كلّها في ليلة واحدة ما هدا عُشرها . غير أن الماشية التي يملكها اليِسْرَئيليّون في جُشِن لم تتأثّر ، ولم يفقدوا منها رأساً واحداً[2] .

ثم غَدَت أجسام المصريين عليلة مؤذية المنظر ومليئة بالقُروح ، وأصابت لحومهم الالتهابات . ولكن غضب الرّب ما برح برغم ذلك يستعر عليهم ، ولبثت يده عليهم مرفوعة بالسُّخَط . فأرسل الله زَخّة بَرَد أتلفت الكُروم والأشجار والعُشب الأخضر والزّروع اليانعة ، أمّا من اجترأ من النّاس على الخروج من بيته ، والماشية المتروكة بلا مأوى ، فقد كان مصيره ومصيرها الموت تحت انهمار البَرَد القاسي . ثم اجتاحت البلد أسراب عظيمة من الجراد ، فأتلفت كل ما تركه البَرَد وأتت على كل نبت أخضر .

وبعد هذا كلّه ، اكتنفت الظُّلمة البلد بأسره ، ولثلاثة أيام وثلاث ليال عجز النّاس حتى عن رؤية أيديهم أمامهم . وخلال مدّة الظّلمة هذه أهلك الله مَن كان عاصي القلب من اليِسْرَئيليين ، والذين لم يكونوا طائعين لتنفيذ أوامره . وفعل الله ذلك في الظُّلمة حتى لا يبتهج به المصريّون .

---

(1) قابل على التُّوراه ، سفر الخروج - الأصحاح الثامن .
(2) قابل على التّوراه ، سفر الخروج - الأصحاح التاسع .

ثم بعد ذلك أمر الرّب مُوشيْه وأهَرُون بتحضير ذبيحة الفِصح פסח ، قائلاً : «وأنا أجتاز فوق أرض مصر وأقتلُ كلّ بِكر من النّاس والبهائم» . ففعل بنو يِسْرَئيل كما أُمروا ، وحدث في منتصف الليل أن الرّبّ اجتاز فوق البلد وضـرب كل بِكر في جميع أرض مصر ، من النّاس والبهائم[1] .

ثم كان صُراخٌ عظيم في جميع الأرض ، حيث لم يكن بيت إلا وفيه ميت . فقام فَرْعُوه وشعبه مـن شـدّة الخـوف والحـزن الجارف . ومَضَت بَتْياه بنت فَرْعُوه تبحث عن مُوشيْه وأهَرُون ، فوجدتهما في منزلهما يرتّلان تسبيحةً للرّبّ .

وخاطبت بَتْياه مُوشيْه قائلةً[2] : «ها أنا أطعمتُك طفلاً علـى ذراعـيّ وأحببتُك في قلبي منذ طفولتك ، فكيف تكافئ رعايتي وحبّي ؟ عليّ وعلى شعبي وعلى بيت أبي جلبتَ الكوارث والخراب» .

سأل مُوشيْه : «أأصابك شيء من الآفـات ؟ إن كـان الأمـر كذلـك فـأخبريني أرجوكِ» . فأجابت بَتْياه : «كلاّ» .

فتابع مُوشيْه : «ومع أنك بِكـر أمّـك ، فهـا أنـتِ الآن أمـامي علـى قيـد الحيـاة وعلى أتمّ حال . أريحي بالك ، فلن يلحق بك أيّ أذى» .

فأجابت بَتْياه : «فيـمَ تنفعني راحـة البـال إذ أرى الشـرّ المُستطير يُحيـق بـأخي الملك وبعبيده وآل بيته» .

أجاب مُوشيْه : «لأنهم لم يستمعوا إلـى صـوت الله ، ولذلـك حـلّ بهـم هـذا العقاب» .

ثم ظهر فَرْعُوه أمام مُوشيْه وأهَرُون ، وصاح بهما : «قوما ، خُذا إخوتكما ، مع مواشيهم وقطعانهم وكـلّ مـا لديهـم ، ولا تـتركوا شيئاً . اذهبـا ولكـن استغفرا الرّبّ من أجلي» .

---

(1) قابل على التّوراه ، سفر الخروج - 12 : 11-12 .

(2) ليس في التّوراه كذلك ، إنما أمر فرعوه لموشيه بأن يخرج بقومه من مصـر (الخروج - 12 : 21-22) . وخبر ابنة فرعوه يرد فقط عند ذكر عثورهـا على موشيه بـالنّهر ، أمـا اسـمها فينفرد به التّلمود . وفي تراث قصص الأنبياء الإسلامي : «آسيا امرأة فرعون» .

وأطلق المصريّون بني يِسْرَئيل لوجههم بثروات عظيمة وماشية وقطعان ، وأمتعة نفيسة ، تماماً كما وعد اربّ أبرَهام في رؤياه حول الميثاق بين الأشطار . ولم يُبارح بنو يِسْرَئيل مصر في تلك الليلة ، بأنهم قالوا : «لسنا أصحاب حَبائل وأسرار حتى نسير في عتمة الليل» . بل لبثوا حتى طلوع الفجر ، وأخذوا أواني من ذهب وفضّة ممّن كانوا يظلمونهم .

وأخذ مُوشيْه عظام يُوسيف معه ، وأخذ باقي الشعب معهم كذلك عظام بني يعقوب الآخرين .

وارتحل بنو يِسْرَئيل من رَعَمْسيْس إلى سُكُّوت[1] סכות . ولقد كان رحيل اليسرئيليين من مصر بعد مئتين وعشر سنين من دخولهم إليها ، بنحو ست مئة ألف رجل ، مع زوجاتهم وأطفالهم .

ولثلاثة أيام عقب رحيل اليِسْرَئيليين ، انهمك المصريّون بدفن موتاهم ، وبعد ذلك راحوا يقولون ، بعضهم للآخر : «إن مُوشيْه وأهَرُون قد قالا لفَرْعُوه : «نودّ الخروج إلى البريّة أيّاماً ثلاثة ، كيما نقدّم ذبيحةً للرّبّ إلهنا» ، فهلمّوا بنا الآن نقوم بُكرةً ونلحق بأعقابهم . فإن وجدناهم عائدين إلى مصر علمنا أنهم أصحاب ولاء لنا ، أمّا إن ألفيناهم غير ناوين على العودة أعدناهم بالقوّة»[2] .

وخرج جيش عظيم من المصريين في أعقاب اليِسْرَئيليين ، فأدركوهم وهم نازلون أمام فَم الحِيرُوت פי החירת ، حيث كانوا يُقيمون شعائر الرّبّ . فصاح بهم المصريون : «مضى على غيابكم عن مصر خمسة أيام ، وكنتم وعدتم بالعودة في ثلاثة أيام . أتراكُم لا تنوون الرّجوع ؟» .

فأجاب مُوشيْه وأهَرُون قائلين : «الرّبّ قد أمرنا أن نتابع طريقنا صوب اللأرض التي تدرُّ لبناً وعسلاً ، والتي أقسم لآبائنا أن يُعطيها لنا» .

---

(1) قابل على التّوراه ، سفر الخروج – 12 : 37 . واسم الموقع سُكُّوت نسبةً إلى مظلات (مُفردها في العبريّة : سكّاه סכה) أقامها يعقوب لماشيته (التكوين 33 : 17) ، ولها عيد يقع في 15–22 من شهر تشري ، يقيم اليهود به في ظلاّت تذكّرهم بمساكن أجدادهم أثناء إقامتهم بالتّيه في سيناء أربعين عاماً . وسنذكر هذا العيد بآخر الكتاب بالتفصيل .

(2) قابل على التّوراه ، سفر الخروج – 14 : 5 ، مع اختلاف في الرّواية .

فلمّا رأى المصريون أن اليِسْرَئيليين قد أزمعوا على الخروج عنهم ، شكّلوا قوّاتهم لقتال عبيدهم الآبقين . ولكن الرّبّ قوّى قلوب شعبه ، فانهزم أمراء مصر من وجوههم عائدين إلى بلدهم .

ولمّا دري فَرْعُوه بما حصل لهم ، وكَم منهم لقي مصرعه ، قال متأسّفاً : «ماذا صنعنا فأطلقنا هؤلاء العبيد من خدمتنا ؟ سوف نُحرم من خدمتهم لنا في صنع الآجرّ وتشييد حصوننا . ولمّا يصل الخبر إلى أتباعنا الذين يدفعون لنا الجزية سيثورون علينا ، ما لم نتّخذ إجراءات صارمة تجاه هؤلاء اليِسْرَئيليين ، إذ سيقول هؤلاء الأتباع : «إذا كان في وسع العبيد الثّورة عليهم ، فكم بالأحرى يكون من اليسير علينا كأمراء وحكّام أن نرمي عن أعناقنا نير عبوديّتهم ؟»» .

ولذلك جمع فَرْعُوه حُكماءه وسَحَرَته وأعيانه ، وتداولوا معاً فقرّروا أن يلحقوا بأرقّائهم ويستردّوهم . وأصدر فَرْعُوه بياناً يدعو كل رجل قادر على القتال أن يتأهّب للمسير ، وعلى هذا النّحو تجمّعت جيوش مصر .

ثم فتح فَرْعُوه خزائنه ووهب العطايا لكلّ رجل بحسب رُتبته ، وخاطبهم بنبرة منمّقة ومهيبة ، قائلاً : «إذا قامت الحروب ينال الجُند الغنائم ، لكنها تعود في الأصل إلى ملكهم بحسب الشرائع . غير أنني هذه المرّة سأقتسم الغنائم معكم . وتُحتّم الشرائع على تقدّم الجُند في المعركة على رأس القوّات لخوض القتال ، لكنني في هذه المرّة سأكون في المقدّمة وأنتم تتبعونني . وتأمر الشرائع أن يجهّز عبيد الملك مركبته ، لكن ها أنا ذا أجهّزها بنفسي» .

فسرّت كلمات فَرْعُوه الجنود ، فبادروا بحماس إلى تسليح أنفسهم بالسّيوف والرّماح والقسيّ والسّهام .

وكان اليِسْرَئيليون نازلين عند بحر القُلْزُم (أي البحر الأحمر) ים־סוף [1] ، فرفعوا عيونهم فإذا المصريّون منطلقون في أثرهم . فامتلأت قلوبهم رُعباً ، إذ كان البحر من أمامهم وعدوّهم من ورائهم ، فصرخوا إلى الرّبّ .

---

(1) قابل على التّوراه ، سفر الخروج – 15 : 22 . وفي العبرية ים־סוף (يَم سُوف) تعني : بحر القَصَب .

وحلّ بينهم نزاع شديد في الرّأي . فقسم المختلفون أنفسهم إلى أربع فرق ، وردّ مُوشيْه على كل واحدة منها بالشكل المُناسب[1] .

فأما الفرقة الأولى ، التي تتألّف من أسباط رَؤبين و شِمعون ويَسّاكَر ، فرغبوا أن يقذفوا بنفسهم في اليمّ ، لأنهم لم يروا أملاً بالنّجاة . غير أن مُوشيْه خاطبهم قائلاً : «لا تخافوا ، قفوا وانظروا خلاص الرّبّ الذي يُجريه اليوم لكم» .

أمّا أسباط زَبُولون ونَفتالي وبنيامين ففضّلوا الإياب إلى مصر . فقال لهم مُوشيْه : «كما رأيتُم المصريين اليوم ، لن تعودوا ترونهم إلى الأبد» .

أمّا أسباط يِهُوداه ويُوسيف فرغبوا بلقاء المصرين والاشتباك بالقتال معهم . لكن مُوشيه قال : «استمسكوا بأماكنكم ، الرّبّ يحارب عنكم ، وأنتم يلازمكم السّلام» .

أما الفرقة الرّابعة ، التي تتألّف من أسباط ليوي وجاد وأشير ، فقد تشاوروا على القيام بهجوم خاطف مُباغت على صفوف المصريين ، ظنّاً منهم أن ذلك قد يُصيبهم بالارتباك ويُضعفهم ، فقال لهم مُوشيْه : «لا تتحركوا ولا تخافوا ، بل حَسْبُكم أن تدعوا الرّبّ ليُنجيكم من أيديهم» .

ثم حدث بعد أن تكلّم مُوشيْه بهذه الكلمات أنه قام في وسط الشّعب ، ودعا الرّبّ قائلاً : «أتوسّلُ إليك يا ربّ يا إله الكون ، أن تُنجي هذا الشّعب الذي أخرجتَه من مصر . ولا تذر المصريين يغلبون فيقولون مُتبجّحين : «يدُنا قويّة»» .

فقال الرّبّ لمُوشيْه[2] : «ما بالُك تصرخ إليّ ؟ قُل لبني يِسْرَئيل أن يرحلوا» .

ومدّ مُوشيْه عصاه على البحر كما أمره الله ، فانشقّ الماء . وعبر بنو يِسْرَئيل في وسط البحر الأحمر على اليَبَس ، فلمّا عبروا انطبق الماء على المصريين ، ولم ينجُ من جيوشهم كلّها أحد .

---

(1) قابل على التُّوراه ، سفر الخروج – 14 : 11-14 ، مع اختلاف في الرّواية وفحوى النّقاش بين مُوشيه وربعه .
(2) يعود هنا التّقابل على نصّ التُّوراه ، سفر الخروج – 14 : 15 .

حينئذ سَبَّح مُوشيْه وبنو يِسْرَئيل للرّبّ هذه التّسبيحة فرحين وقالوا[1] :

«أُسبِّحُ الرَّبَّ بحقّ مجده العظيم
الفرَسَ وراكبه رَماه في البحر»

אשירה ליהוה כי־גאה גאה
סוס ורכבו רמה בים

* * *

(1) قابل على التُّوراه ، سفر الخروج - 15 : 1 ، وهذا مطلع ترنيمة تستغرق حتى الآية 19 . ثم يليها في الآيتين 20-21 : «ثمّ أخذت مِريَم النّبيّة أخت هارون الدّف في يدها وخرجت النّساء كلّهن وراءها بدفوف ورقص * فجاوبتهنّ مِريَم : سبّحوا الرّبّ لأنه قد تعظّم بالمجد ، الفَرَس وراكبه رَماهما في البَحر» . وتلفت الانتباه بالأخصّ هذه العبارة : «مِريَم النّبيّة أخت هارون» מרים הנביאה אחות אהרן !



القسم الثاني

نماذج لحواشي التِّلمود التفسيرية على التوراه

الفصل الأول
الخلاص من أرض مصر

«فهرب مُوشيْه من وجه فَرْعُوه ومكث بأرض مِدْيَن وقعد عند البئر»[1] .
ויברח משה מפני פרעה וישב בארץ־מדין וישב על־הבאר.

إن ثلاثاً من شخصيات التُّوراه البارزين قد قابلوا زوجاتهم للمرّة الأولى عند آبار ماء ، وهم تحديداً : يصحاق ، يعقوب ، مُوشيْه .

ففيما يخصّ يصحاق نجد : «وكان يصحاق راجعاً من طريق بئر الحَيّ الرّاءي» באר לחי ראי (سِفر التكوين – 24 : 62) . بالإضافة إلى ذلك كان إليعيزِر رسول أبيه قابل رِبْقاه عند البئر . أما يعقوب فأيضاً عند بئر قابل راحيل ، وقابل مُوشيْه بنات يِتْرو عندما وَرَدْنَ لسقاية ماشية أبيهنّ .

فطالما أن الرّبّ يمقُت الوثنيّة ، كيف بمُوشيْه يقصد بيت رجل وثني (يِتْرو) ؟

يقول الحاخامون إن يِتْرو كان قد أدرك ضلال سُبُله ، فاستعفى من منصبه ككاهن لأوثان مِدْيَن من قبل أن يأتيه مُوشيْه . ومن أجل ذلك نَبَذه النّاس هو وأهل بيته ، وقطعوا كل علاقاتهم بهم ، ولذلك السّبب أحجم الرّعاة عن العمل لديه ، فاضطرّت بناته لسقاية ماشيته ورعايتها .

---

(1) سفر الخروج – 2 : 15 .

يقول داوِد[1] النبي في مزاميره : «عيناه تنظران ، أجفانه تمتحن بني آدم» .

ويقول الرّابي ينّاي : «رغم أن ملكوته في السّماء ، فإن عينيه ناظرتان إلى الأرض . تماماً كالملك الذي بنى برجاً عالياً في بستانه وأقام فيه ، وقال لعمّاله : «عليكم بالعناية ببستاني على أحسن وجه ، فلتكن الممرّات نظيفة ولتنل الأشجار عناية لائقة بحيث تطرح ثماراً طيّبة . فمَن كان منكم مخلصاً في عمله نال مكافأة مُجزية ، ومَن أهمل أوامري سيلقى العقاب الذي يستحقّه وِفاقاً !» . فهذا العالم الواسع والفسيح ما هو إلا بستان ملك الملوك ، الذي أوكل به الإنسان لاتّباع أوامره وشرائعه ، وللحفاظ على مُتعة الطاعة . فمَن كان مخلصاً نال الثّواب ، أمّا مَن أهمل الثّقة الموكلة إليه فيلاقي ما يوافق أفعاله . ولذلك قال داوِد النّبي : «عيناه تنظران ، أجفانه تمتحن بني آدم» (المزامير 11 : 4)» .

الله يبحث عن الصّالحين ، كيف ؟ عن طريق الحكم على الكيفيّة التي يعاملون بها الرّعيّة الموكلة إليهم .

لقد جرّب الله داوِد بن يشّاي (النّبي) وفق هذه الطريقة . فداوِد قدّم للحملان عُشباً طرياً تغتذيه ، وللخراف الهرمة حشائش غضّة وعُشباً طرياً ، أما الخراف الفتيّة القادرة على المضغ فأعطاها العشب الذّابل ، فخصّ كلاً منها بحسب حاجتها وطاقتها . ولهذا قال الرّب : «إن داوِد القدير على القيام بأوَد القطعان الموكلة إليه بعناية لهو جدير برعاية قطيعي ، أي شعب يسرَئيل» . تماماً كما هو مكتوب[2] : «من بعد المُرضعات ، أتى به ليرعى يعقوبَ شعبَه» .

وكذلك أيضاً جرّب الرّب مُوشيْه . فأثناء غدوّه بماشية حَميه في البريّة شرد حَمَل عن القطيع وعَدا مُبتعداً . فما كان من الرّاعي الرّحيم إلا أن تبعه ، ووجده يروي ظمأه من نبع على طرف الطريق . قال مُوشيْه : «يا للحمل المسكين ، ما كنتُ أعلم أنك ظامئ» ، فلمّا فرغ الحَمَل من الشّرب حمله برفق بين ذراعيه وردّه

(1) اسمه في العبرية : דוד (ولفظه : داڤيد) ، والملاحظ أنه يرد كذلك بدقّة في رسم القرآن الكريم بواو واحدة (كما في رسمه الأصلي بالعبرية بحرف ו) . وسبق أن ذكرنا أن هذا لاعتبار القيمة العددية للأسماء وفق ما يُعرف بـ «علم الحرف» .

(2) مزامير داوِد – 78 : 71 .

إلى القطيع . فقال الله : «يا مُوشيْه الرّحيم ، إن كان حبّك ورعـايتك بهـذا القـدر لحيوان أعجم ، فكم سيكون أعظم تجاه بنـي جنسـك ! لـذا فإنك ستقود شـعبك بني يِسْرَئيل !» .

لماذا تجلّى الربّ لُموشيْه في العُلّيقة ؟ هذا لأن العُلّيقة وضيعة بين الأشجار ، وكذلك كان بنو يِسْرَئيل وضيعين بين أمم الأرض . وكما أن الورد ، أجمل الأزاهير ، ينمو بين الأشواك ، فإن من ضمن بني يسرئيل هناك الصّالح والطالح يدخلان معاً تحت العدّ . ومَن يدسّ يده في دغلة الأشواك قد يتمكّن من فعل ذلك دون أن يتأذّى ، ولكنه لا يستطيع أن يمدّها ثانيةً دون أن يجرحها العلّيق . فهكذا كان شأن بني يسرئيل . فلمّا دخل يعقوب مصر تمّ ذلك بسلام ودون أن يلحظه أحد أو يزعجه ، ولكن لّما خرج بنوه من البلد ، جرى ذلك بعلامات ومُعجزات وحرب . ولئلا يخطر في بال مُوشيْه أن قسوة المصريين قد كسرت شوكة بني يسرئيل نهائياً ، تجلّى الله له في شجرة عُلّيق مشتعلة وهي لا تحترق ، لكي يمثّل له وضع بني يسرئيل ومستقبلهم ، التّام والفائق ، برغم نار الظّلم .

«فقال الربّ إني قد رأيتُ ناظراً إلى مَذَلّة شعبي الذين بمصر»[1] .

عندما صرف أبرَهام هاجار ، ولّما بكى ولدها صارخاً إليها في طلب الماء بالبريّة ، ضَرَعت إلى السّماء قائلة : «أيها الآب الرّحيم ، لقد وعدتّني قائلاً : «سأضاعف نسلك» ، والآن ها هو ابني سيموت من الظمأ» .

وعند ذلك أجابها الملاك : «ما لَكِ يا هاجار ؟» ، إلخ .

فبحسب رأي الرّابي شمعون ، راحت الملائكة تحتجّ على العون المبذول ليشْمَعيل ، قائلةً لله : «إن لقي منك العَون اليوم فسوف يبادر بأذيّة شعبك بني يسرئيل في مُستقبل الأيام» . فقال الله : «كيف كان سُلوكه اليوم ؟» ، ولّما أجابت الملائكة : «كان صالحاً قويماً» ، أضاف الله : «فهو إذاً يُدان اليوم بحسب ما يبدر عنه اليوم» .

---

(1) سفر الخروج – 3 : 7 ، والترجمتان العربيتان عن السبعينية اليونانية غير دقيقتين ، على اعتبار عدم رجوعهما إلى النّص العبري .

وهكذا كان الأمر مع اليسرئيليين في مصر . فقد عرف الرّب ماذا سيصدر عنهم من أفعال في المستقبل ، فقال : «إني قد رأيتُ ناظراً» ראה ראיתי ، لا مجرّد «إني رأيتُ» ، بل «رأيتُ ناظراً» ، بمعنى يفيد أكثر من مجرّد النظر المحدود أو الملاحظة السريعة .

وقال الرّب لموشيْه : «أنتَ ترى أمراً واحداً ، أما أنا فأرى اثنين . فأنت تدري أن بني يسرئيل سيتلقّون الوصايا العشر عند جبل سيناء ، أما أنا فأعلم سلفاً بما سيقع بعد ذلك ، أي بضلالهم وصنعهم للعجل المسبوك . ولكنني برغم ذلك لست أدينُهم إلا بحسب سلوكهم الحالي . لقد سمعتُ صراخهم ، ورغم أنني أعلم أنهم سيتقوّلون عليّ بغير حق في البرّية ، فلسوف أستنقذهم . لقد وعدتُ جدّهم يعقوب قائلاً : «إني لرادُّك صعوداً» ، فالآن أردّ أبنائي صعوداً كما وعدتُهم ، وأجوزُ بهم إلى الأرض التي أعطيتها لآبائهم . لقد أتاني صراخهم وها هي ذي أيّام عبوديّتهم قد انتهت . لذا فامضِ . . . وأخرج شعبي ، بني يسرئيل ، من مصر . إنك أنت المكلّف بردّهم» .

فأجاب مُوشيْه : «لمّا هبط يعقوب إلى مصر ، ألم تقل له : «سأهبط معك إلى مصر ، وأنا بنفسي أردّك صعوداً كرّةً ثانية ؟» ، والآن تقول : «إمضِ أنت» . فكيف لي أن آتي بهم صعوداً ؟ وكيف أحميهم من قيظ الصّيف وقَرّ الشتاء ؟ ثم كيف لي أن أعيل جيشاً من ست مئة ألف إنسان ، بكثير من النساء والأطفال ، ومنهم من هو عاجز ومُقعد ، يلزمه رعاية فائقة وغذاء خاص ؟» .

أجاب الرّب : «الخبز غير المخمّر الذي يحملونه معهم يكفيهم طوال الثلاثين يوماً» .

ثم قال مُوشيْه : «فإن قالوا لي : «ما اسمه؟» ، بمَ أجيبهم ؟» .

فأجاب الرّب : «لي أسماء عديدة . فاسمي «الله الجبّار» (אל־שדי إيل شَدّاي) ، و «إله الجيوش» (אדני צבאות أدوناي صبَّؤوت) . فعندما أعاقب ذوي الضّلال أُدعى «إله الجيوش» ، وعندما أوبّخ المذنبين أدعى «الله الجبّار» . وعندما أُنزل الرّحمة على شعبي أُدعى «الأزلي» (יהוה يَهْواه) .

ثم قال الله لُموشيْه : «أنا هو الكائن ، وهذا اسمي إلى الأبد» .

وعَنى الله بذلك : «الكائن معهم في عبوديّتهم ، والكائن معهم في أسْرهم المقبل» .

ثم قال مُوشيْه : «لماذا عليّ أن أنبئهم بأسْرهم المُقبل ، طالما أنهم يعانون السّاعة ربقة العبوديّة ؟» .

فأجاب الله : «أحسنتَ القول ، لا تقل لهم عن مآسيهم المُقبلة» .

«فأجاب مُوشيْه وقال : «إنهم لا يصدّقونني» »[1] .

لقد أخطأ مُوشيْه بجوابه هذا ، لأن الله قد قال سلفاً : «لصوتك يُصغون» .

لذا قال الله : «ما تلك التي بيدك ؟» . وهذا كان توبيخاً ، بمعنى أنه بالعصا التي كانت بيده يستحق أن يُجازى على تشكّكه .

ولماذا صارت عصا مُوشيْه حيّةً ؟ لأنه تقوّل باطلاً في حقّ الرّب ، تماماً كما فعلت الحيّة في جنّة عِدِن גן־עדן .

قال شيخ عشيرة وثني للرّابي يوساه : «آلهتي أقوى وأعزّ سُلطاناً من آلهتك» . فسأله الحاخام : «وكيف يكون ذلك ؟» . أجاب الوثني : «ذلك لأنه لمّا تجلّى إلهك في العُلّيقة ستر مُوشيْه وجهه ، أمّا حينما أبصر الحيّة ، وهي إلهي ، هرب من وجهها» .

فأجاب الرّابي يوساه : «عندما يتجلّى إلهنا ليس بمقدورنا الهرب منه ، فهو كائن في السّماء وفي الأرض ، في البحر وفي البرّ ، أمّا إن هرب أحدٌ ما من الحيّة إلهك فبضعة خطوات يسيرة تُنجيه» .

وما هو مدلول الحيّة فيما يخصّ رجوع بني يسْرَئيل ؟ إن لفَرْعوه وجه شبه بالحيّة ، كما هو مكتوب : «الحيّة المُتحوّية» . فتماماً كلدغة الحيّة كانت عبوديّة فَرْعوه لبني يسرَئيل .

(1) سفر الخروج - 4 : 1 : ויען משה ויאמר והן לא־יאמינו לי .

قال الرّب لموشيْه : «إن فَرْعوه الآن مثله مثل حيّة ، بوسعك أن تُرديه بعصاك ، فيكون عاجزاً كخشبة . ومثلما تكون العصا عاجزة عن الأذى بغير معونة الإنسان وقوّته المحرّكة ، فهكذا يكون فَرْعوه عاجزاً عن الإيذاء» . ولذلك فقد قال : «مُدَّ يدك وأمسك بذنبها» .

ولماذا أُمِرَ مُوشيْه بدسّ يده في جيبه عندما جُعلت بيضاء من البَرَص ؟ ذاك لأن البُهتان والباطل يشيعان بالعادة في الخفاء ، كما هو حال الجيب المخبوء .

وكيف أن هذا التحوّل إلى البَرَص يمثّل إعتاق بني يسرَئيل ؟ كما هو الأبرص (المجذوم) يدنّس الإنسان النّقي السّليم ، فإن اضطهاد المصريين دنّس اليسرئيليين ، وكما أن اليد البرصاء عادت سليمة ، فإن الله قدّر تطهير شعبه .

وفي المعجزتين الأوليين اللتين أظهرهما الرّب لموشيْه ، عاد الشيئان إلى سيرتهما الأولى ، إنما في الثالثة ، وهي استحالة الماء إلى دم ، لم يعد الوضع إلى سابق عهده . وبذلك كان الله يُنذر بأن ذنب مُوشيْه الذي اقترفه في «مريباه» سوف لن يُغفر له .

وفي كل مرّة يُذكر فيها موت مُوشيْه في الكتاب المقدّس ، يُذكر أيضاً سبب موته قبل دخوله الأرض المقدّسة ، وهو معصيته في مريباه[1] מריבה . فما دعوى ذلك ؟

ذات يوم قام أهل الحكم بمعاقبة رجلين ، كان أحدهما اقترف جريمة بينما لم يرتكب الآخر سوى جناية بسيطة . فطلب الأخير أن يتمّ الإفصاح عَلَناً عن سبب عقوبته ، لئلا يختلط على النّاس أمر جنحته البسيطة مع الجريمة الأفدح منها . فهكذا كان شأن مُوشيْه . . قدّر الله له أن يموت في البرّية ، كما قدّر أيضاً أن يهلك ذلك الجيل بأجمعه (ما خلا يهوشُوَع وكاليب) . ولذلك ، لئلا يُصنّف مُوشيْه معهم كعاصٍ في وجه الرّب ، تمّ ذكر سبب عقوبته مُرتبطاً بمماته .

---

(1) سفر الخروج - 17 : 7 . ومعصيته أنه صرخ إلى الرّب لمّا خاصمه الشعب وطلبوا ماءً للشرب . ولذلك يرد في التّوراه : «وسمّي ذلك الموضع الامتحان والخصام» ، وفي النص العبري : ויקרא שם המקום מסה ומריבה ، و«مريباه» : الخصام .

«فقال مُوشيْه للرّب : «رُحماك يـا ربّ ، إنـي لستُ أُحسـن الكـلام» »[1] .
ויאמר משה אל־יהוה בי אדני לא איש דברים אנכי:

وكرّر الرّب أمره لُموشيْه لمدّة سبعة أيام ، لكن مُوشيْه بقي متردّداً في الإجابة وقال : «إنـي لستُ أُحسن الكـلام اليـوم» (فهـذا يـوم) ، «أمـس» (يومـان) ، «لا» (ثلاثـة أيـام) ، «مـا قبـل» (أربعـة) ، «ولا» (خمسـة) ، «ولا مُـذ» (سـتة) ، «خاطبتَ» (فهذه سبعة أيام) .

فقال الرّب : «لا تخشَ شيئاً ، حتى لو لـم تكن تُحسن الكلام ، أفَمَن إلاّي خلق كل الأفواه التي تُحسن الكلام ؟ أليس بمشيئتي أن أحوّل مَن يحسنون الكلام إلى بُلهاء ، وأُطلق بالفصاحة ألسنة البُلهاء ؟ فمشيئتي تقضـي أن تكـون أنت مَـن يُخاطب فَرْعوه» .

فأجاب مُوشيْه قائلاً : «هؤلاء مَن تريد رَدّهم أحفاد أبرَهام ، فمَن أدنى إلى المرء ، ابن أخيه أم ابن ابنه ؟ فلنُصرة لُوط ، ابن أخيـه ، أرسـلتَ ملائكـةً ، والآن لنُصرة أبنائه ، الذين يعدّون ست مئة ألف ما خلا النساء والولدان ، ترسلني أنـا . لأجل هاجار أرسلتَ خمسة ملائكة عندما هربت من وجه سيّدتها ساراه ، أمّا إلى ستين ألفاً من أبناء ساراه فلا تُرسل سواي ؟» .

يُخبرنا الرّبّانيّون أن مُوشيْه لم يكن محجمـاً عـن القبـول بهـذه المهمّـة بدافـع الخوف أو الارتياع من مشقّتها ، أو بدعوى معصية الله ، بـل لأنـه كـان يعتقـد أنهـا بالأحرى من حق أخيه الأكبر أهَـرُون . غير أن الله غضـب مـن مُوشـيْه ، ولذلـك منح حقّ الكهانة الدّينية التي كان يخصّه بهـا إلـى أهَـرُون ، قـائلاً : «أليـس أخـوك أهَرُون اللّيوي ؟»[2] : הלא אהרן אחיך הלוי . .

فعندما قال الله : «أخوك אחיך » ، كانت عبارة «اللّيوي הלוי » مُقحمة ، لأنه طالما كان مُوشيْه ليوياً ، فإن أهَرُون مثله بالضرورة أيضاً ، لكن مقصد الله مـن وراء ذلك هو ما يلي :

---

(1) سفر الخروج – 4 : 10 .
(2) يلاحظ هنا أيضاً خلل في الترجمة العربية للتّوراه عن السّبعينية اليونانية .

«كان في نيتي أن أجعلك أنتَ كاهني ، وأن يبقى أخوك على مرتبته ليويّاً ، ولكن بسبب إحجامك عن تنفيذ مشيئتي سيكون هو الكاهن وأنت اللّيوي» .

«وقال الرّبّ لأهَرُون : «امضِ للقاء مُوشيْه» »[1] ויאמר יהוה אל־אהרן לך לקראת משה .

وعبارة «مَن لي بكَ كأخ لي ؟» מי יתנך כאח לי ، هي إحدى التعابير الجميلة في أنشودة شلومو (الملك سليمان)[2] .

لكن أي أخ هو هذا ؟ ليس كما كان قَيِن لأخيه هَبِل ، فقد «قام قَيِن إلى أخيه هَبِل وقتله» . وليس كما كان يشمَعيل ليصحاق ، لأن يشمَعيل كان يكره يصحاق ، وليس كعيسَو ، لأن «عيسَو كان يكره يعقوب» . وليس أيضاً كإخوة يوسيف ، لأنهم «لم يستطيعوا أن يكلّموه بسلام» . وإنما هو أخ كأهَرُون لُموشيْه ، كما هو مكتوب : «فمضى (أهَرُون) ولقيه (مُوشيْه) في جبل الله وقبّله» (سفر الخروج - 4 : 27) .

«فمضى مُوشيْه وأهَرُون»[3] וילך משה ואהרן .

فأين كان الشيوخ ؟ نجد ذلك مكتوباً في التّوراه : «فأنت وشيوخ بني يسْرَئيل تأتون» . لقد مضى الشيوخ ، لكنهم جعلوا ينكصون شيئاً فشيئاً ، بداعي الفزع ، لذلك فبعد هذا تصبح العبارة المكتوبة ببساطة : «فمضى مُوشيْه وأهَرُون» .

* * *

(1) سفر الخروج - 4 : 27 .

(2) انظر نشيد الأناشيد - 8 : 1 . وهذا السّفر «شير هَشّيريم» من أصغر أسفار «الكتوبيم» ، يتألف من 8 فصول مطلعها : «نشيد الأناشيد لشْلومو» שיר השירים אשר לשלמה وتحمل معاني رمزية دينية على شكل قصائد تنشد الحبّ بين بني البشر والإله . وهي من الناحية الأدبية إحدى أجمل مقاطع كتاب اليهود المقدّس (تَنَخ) .

(3) سفر الخروج - 4 : 29 .

«كذا قال الله الأزلي»[1] ، إلخ כה־אמר יהוה . .

برأي الرّابي حيّا ، أنه جرى في ذلك الحين أن الملوك المجاورين جميعهم كانوا يتوافدون على فَرْعوه لأداء فروض الطاعة له وتقدمة العطايا ، وكان كل حاكم منهم يصطحب معه آلهته . وفيما كان مُوشيْه وأهَرُون واقفين قرب بوّابات القصر ، ظنّهما الحرّاس من بعض الوافدين لتقديم الولاء ، فأدخلوهما . فلمّا نظر إليهما فَرعوه ورآهما غريبين تصوّر أنهما إنما قصداه ببعض العطايا ، وتعجّب لِمَ لم يؤدّيا له التّحية كالآخرين . فتكلّم قائلاً : «ماذا تبغيان ؟» . فأجابا : «كذا قال الرّب : «أطلق شعبي» » ، إلخ .

فقال فَرعوه بإباء وسخط : «من هو هذا الرّب فأطيعه ، وأسمع لقوله فأطلق يسْرَئيل ؟ إنه لم يقدّم لي عطيّة ولا تجلّى لي . لا أعرفه ولا أطلق يسْرَئيل» . وتابع قائلاً : «ها أنا ذا سأرجع إلى سجلاتي المحفوظة وأنظر إن كان فيها اسم إلهكم . ها هنا أجد أسماء الآلهة كلّها ، آلهة آمون وآلهة مؤاب وآلهة زدين ، أما اسم إلهكم فلستُ أجده» .

فأجاب مُوشيْه : «إلهُنا إلهٌ حيّ» .

فقال له فَرْعوه : «أفتيٌّ هو أم عجوز ؟ كم يبلغ عمره ؟ وكم مدينة يحتل ؟ وكم بلداً غزا ؟ وكم من الزمن مضى لحكمه ؟» .

فقال مُوشيْه : إن جبروته[2] تملأ الكون . وهو أزلي قديم كائن قبل أن تُبصر هذا الدّنيا النّور ، وسيبقى على الدّوام بعد زوال هذه الدّنيا . وهو مَن أنشأكَ وخلقك ، ومن نَسَمة روحه تتنفّس وتحيا» .

فتابع فَرْعوه مُساءلته : «وماذا لإلهكما من مآثر ؟» . فأجابه رسولا الله : «صوت الله يمزّق شجر الأرز ، إنه هو مَن مَدّ السّموات ، وبَسَط الأرض مِهاداً ، وأرسى الجبال وحطّم الصّخر إلى حجارة . قوسُه من نار ونباله من شرر . هو مَن

---

(1) سفر الخروج – 5 : 1 .

(2) مصدر «الجبروت» في العبريّة يرد بصيغة : גבורה جبوراه ، بمعنى : بأس ، جرأة . أما صيغة גברות جبروت فهي تعني : رجولة ، من الآراميّة גברא جبرا ܓܒܪܐ .

أرسى الجبال والتّلال ، وأخرج المرعى ، فأنبتَ به فاكهةً وعُشباً . إنه مَن ينزع المُلك ممّن يشاء ويُعزّ مَن يشاء» .

فكان ردّ فَرْعوه : «قد أتيتُماني بالزُّور والباطل ، تقولان إن إلهكما هو ربّ الكون . . فلتعلما أن مصرَ مُلكُ يميني ، وأنني خالق نهر النّيل العظيم الذي يجري في أرجائها» (قارن ذلك بما في سفر يَحزَقْئيل : «نهري هو لي وأنا صنعتُه لنفسي» ، לי יארי ואני עשיתני ، يَحزَقْئيل - 29 : 3) .

فانبرى فَرْعوه إلى سَحَرَته سائلاً : «أسمعتُم بإلههما ؟» . فقال السَّحَرَة : «نعم ، سمعنا به ، إنه ابن الحكماء ، ابن مَلِك قديم من سالف الأيام» .

قال مُوشيْه : «أنتَ تسأل الآن : «مَن هو الرّب» ، ويأتيك زمان تقول فيه : «إن الله حَقّ» . تقول الآن : «أنا لا أعرف إلهكم» ، ويأتيك زمان تقول فيه : «ربُّ إني كنتُ في حقّك من الظالمين» » .

* * *

«وصادفوا مُوشيْه وأهَرُون . . . وجعلتُما في أيديهم سيفاً ليقتلونا»[1] .
ויפגעו את־משה ואת־אהרן ... לתת־חרב בידם להרגנו .

قال بنو يسرَئيل المُنهكون لمُوشيْه وأهَرُون : «أجل ، إننا كالحَمَل الذي اختطفه الذّئب من القطيع ، فراح الرّاعي يجاهد لفكاكه ، وكان مصيره التمزّق بين الاثنين ، وها نحن أولاء ما بينكما أنتما وفَرْعوه سنلقى حتفنا» .

«فرجع مُوشيْه إلى الرّب وقال : «يا ربّ لماذا ابتليتَ هؤلاء الشّعب ؟» »[2] .
וישב משה אל־יהוה ויאמר אדני למה הרעתה לעם הזה .

كان الرّب مُسبقاً قد حذّر مُوشيْه بأنه سيقسّي قلب فَرْعوه ، فيرفض السّماح لبني يسرَئيل بالخروج . ولذلك أجابه الله الآن : «الآن ترى ما أصنع بفَرْعوه ، لكنك لا ترى ما أصنع بممالك كنعان الثلاث» .

---

(1) سفر الخروج - 5 : 20-21 .
(2) سفر الخروج - 5 : 22 .

«وتجلّيتُ لأبرَهام»[1] إلخ ، וארא אל־אברהם .

قال الرّب لُموشيْه : «واهاً ثم واهاً على فناء الصّالحين ، واحسرتاه على الأخيار من السّلف الصّالح . لقد تجلّيتُ لأبرَهام وليصحاق وليعقوب بصفتي «الله الجبّار» (אל־שדי إيل شَدّاي) ، وليس باسمي «الأزلي» (יהוה يَهُواه) كما تجلّيتُ لك ، ومع ذلك لم يتذمّروا إزاء أوامري أو أفعالي . وقلتُ لأبرَهام : «قُم فامشِ في الأرض بطولها وعرضها ، فإني لك أعطيها» ، ولمّا ماتت امرأته لم يكن يبغي سوى قبر لها فاضطرّ لشرائه بماله ، ومع ذلك لم يتذمّر في وجهي أو يُبدِ أيّة شكوى قائلاً : «قد وعدتَ أن تعطيني هذه الأرض كلّها ، فها أنا ذا الآن علي أن أبحث عن رقعة صغيرة منها لأشتريها» . كما قلتُ ليصحاق : «أقم في هذه الأرض ، لأني لك ولذرّيتك أعطي هذه البلاد كلّها» ، فلمّا احتاج إلى بعض الماء لم يحصل عليه ، حيث أن رعاة جِرار اشتجروا مع رُعاته لمنعهم من حفر بئر . ومع ذلك لم يرفع يصحاق صوته في وجهي . وقلتُ ليعقوب : «الأرض التي تمكث عليها أعطيها لك» ، فلمّا أراد أن يضرب فيها قباءه اضطر أن يدفع مئة قَسيطاه[2] קשיטה ، غير أنه لم يتذمّر في وجه الرّب ، أو حتى أن يسألني عن اسمي ، كما فعلتَ أنت» .

«فكلّم الرّبّ مُوشيْه وأهَرُون ، وأوصاهما في بني يسْرَئيل وفَرعوه ملك مصر»[3] . . וידבר יהוה אל־משה ואל־אהרן ויצום אל־בני ישראל ואל־פרעה מלך מצרים .

كان لأحد الملوك بستان حَسَن وبهيّ جعل فيه غراساً من شجر ، كان بعضها مثمراً والآخر غير ذي ثمر . فقال له خدمه : «ما فائدة غرس الأشجار غير المثمرة ؟» ، فأجابهم : «الأشجار المثمرة وغير المثمرة نافعة على حدّ سواء ، فمَن لنا بالخشب لبيوتنا ولقوارينا ولأدواتنا إن لم تكن لدينا هذه الأشجار الصلبة التي لا تطرح ثمراً ؟» .

---

(1) سفر الخروج – 6 : 13 .

(2) القسيطاه (أو القشيطاه) عُملة قديمة تساوي ربع شيقل . انظر سفر التكوين – 33 : 19 .

(3) سفر الخروج – 6 : 13 .

فكما أن الصّالحين يمجّدون الرّب بنعمائهم ، فالأشرار أيضاً يمجّـدون الرّب عندما يقرّون بقولهم : «قد نلنا جزاءنا وفاقاً بما جَنَت أيدينا» .

ولمّا أبدى أهَرُون الآيات بعصاه ، ضحك منه فَرْعوه واستخفّ به قائلاً : «من عادة التجّار أن يحملوا بضاعتهم إلى حيث تكون مرغوبة ، فكيف تأتينا بمثل هذه المخاريق إلى مصر التي تعجّ بالسِّحر والسَّحَرة ؟» ، وأرسل في طلب بعض الصّبية ، فحوّلوا عصيّهم إلى ثعابين (תנינם) .

«فابتلعت عصا أهَرُون عصيّهم»[1] ، ויבלע מטה־אהרן את־מטתם .

لكن ابتلاع العصيّ لم يكن الآية الوحيدة ، بل إن عدم كبر حجم عصا أهَرُون منذ ذلك الحين قد أضاف إلى قيمة الآية .

* * *

(1) سفر الخروج - 7 : 12 .

الفصل الثاني
الآفات العشر

«كذا قال الرّب ، بهذا تعلم أنّي أنا الرّب . ها أنا ضاربٌ . . . ماء النّهر ، فأقلبه دَماً»[1] :

כה אמר יהוה בזאת תדע כי אני יהוה הנה אנכי מכה ... על־המים אשר ביאר ונהפכו לדם .

عندما يخطّط إنسان ليؤذي شخصاً أو أن ينتقم من عدوّ ، فهو يهاجمه بغتةً بغير إنذار . أما الله فليست هذه فعاله ، بل أنذر فَرْعوه بجميع الآفات التي أنزلها على مصر ، كي يتيح له فرصة ليتوب . فلماذا ضُربت المياه أولاً ؟ لأن المصريين كانوا يعبدون نهر النّيل ، وكان الرّب قال : «أضربُ الإله أولاً ثم شعبه» ، وينطبق على ذلك المثل القائل : «أضرب الآلهة أولاً ، فيرتعد الكهنة» .

الدّم

لماذا جازى الرّب المصريين بآفة الدّم ؟ لأنهم سفكوا دماء الأطفال الأبرياء ، ولذلك تحوّلت مياه أنهارهم إلى دم .

«ثم قال الرّب لموشيْه : «قُل لأهَرُون : «خُذ عصاك ومُدّ يدك على مياه مصر» »[2] ، קח מטך ונטה־ידך על־מימי מצרים .

---

(1) سفر الخروج – 7 : 17 .

(2) سفر الخروج – 7 : 19 ، وفي الترجمتين العربيتين : «على مياه المصريين» ، ظن التراجمة أن عبارة מצרים (مصرايم) بصيغة الجمع إنما تعني : المصريين ، بينما هي تسمية «مصر» الشائعة بالعبرية (جمع מצר الآرامية : الحدود والتّخوم) حتى اليوم . وثمّة مَن يرى أن العبارة تعني المجرى (مجرى النيل المتعرّج) ، ومثلها : المصران (الأمعاء) .

فلماذا لم يكن في وسع مُوشيْه أن يضرب النّهر ؟ ذلك لأن المياه حَمَته وحَرَسته عندما كان طفلاً عاجزاً يهجع في الصّندوق المصنوع من البَردي ، وترشدنا تعاليم الحاخامين إلى أن «البئر التي تستقي منها ماءك لا تقذف فيها الأحجار» .

الضّفادع

قد نميل إلى الاعتقاد أن الضفدع حيوان تافه ، لا شأن له في تقويم الكون . وهذا غلط ، فلكل كائن حي من وجوده غاية . والضفادع أضحت أداة لمعاقبة فَرْعوه ، فرغم أن نهر النّيل يفيض عادةً بالضفادع ، لم تكن تبتعد عن ضفّتيه . ثم قال الله : «أنتَ تقول : «النّهر هو لي» ، فالآن أريك أن حتى بيتك ليس لك ، فسوف تجوس به الضفادع ، وتبلغ حتى المعجن وتمكث في عجينك وتأكله» .

وسبّبت الضفادع للمصريين رَهَقاً أشدّ من مجرّد الخسائر المادّية التي أوقعتها ، من جرّاء أصواتها المزعجة ، ولذلك ورد في التُّوراه : «فصرخ مُوشيْه إلى الرّب في أمر الضفادع»[1] ، ויצעק משה אל־יהוה על־דבר הצפרדעים .

القمل

«قُل لأهَرُون . . . واضرب تُراب الأرض»[2] ، אמר אל־אהרן ... והך את־עפר הארץ .

فلماذا لم يضرب مُوشيْه بنفسه تُراب الأرض ؟

لأن مُوشيْه وارى في التّراب جثّة المصري الذي ألفاه يضرب رجلاً عبريّاً ، فأخفى التّراب فعلته . لذلك فإن الآفتين المتعلّقتين بالماء والتّراب تمّ إنزالهما على يد أهَرُون .

---

(1) سفر الخروج – 8 : 8 . وهذا التقسيم في التُّوراه المسوراتية بالأصل ، أما في الترجمة السّبعينية (وعنها الترجمات العربية) فترد في 8 : 12 ، بسبب إلحاق 5 آيات من الأصحاح الثامن بالأصحاح السابع فيها .
(2) سفر الخروج – 8 : 12 ، وفي الترجمتين الكاثوليكية والإنجيلية : 8 : 16 .

ولماذا تمّ تسليط هذه الآفة على المصريين ؟

هذا لأنهم أكرهوا اليسْرَئيليين على كنس الطرقات وعلى العمل في الآجرّ والملاط . ولذلك انقلب تُراب الأرض إلى قَمل[1] . وكان السَّحَرة غير قادرين على ابتداع القَمل ، لأنهم كانوا يعجزون عن تشبيه الأشياء التي تصغر حجماً عن حبّة الشّعير ، فلهذا قالوا : «هو إصبع الله»[2] אצבע אלהים הוא .

أسراب الوحوش

«بكّر في الغَداة» ، إلخ[3] ، השכם בבקר .

قال الله لُموشيْه : «هذا الرّجل يصرّ على معصيته ، برغم الآفات التي قد أنزلتها عليه . لذلك فقُل له إن الآفة الآتية ستكون أدهى من الأخريات كلّها مجتمعةً ، وقُل له أطلق بني يسرئيل» .

تجمهرت أسراب الوحوش[4] في البداية على بيت فَرْعوه ، لأنه كان أول مَن ظلم يسْرَئيل ، ثم على بيوت خدمه ، لأنهم احتذوا مثاله .

لماذا سُلّطت هذه الوحوش على المصريين ؟ هذا لأنهم كانوا يُلجِؤون اليسرئيليين إلى المخاطرة بأرواحهم في صيد الوحوش المفترسة .

ونرى أنه فيما ماتت الضّفادع بأرض مصر ، كان شأن الوحوش أنها رُفعت عن القوم ، فما هو وجه هذا الاختلاف ؟ هذا لأن الضفادع لا قيمة لها ، أما الوحوش فيمكن للمصريين أن ينتفعوا من فرائها .

---

(1) انظر سفر الخروج – 8 : 12 ، وفي الترجمة العربية عن السّبعينية : 8 : 16 . والقمل في العبريّة : כנם (كِنام) ، لكن في الترجمتين الكاثوليكية والإنجيلية للعهد القديم جُعلت العبارة بالعربية : البعوض . فكيف تراه يكون ذلك ؟ في العبرية عبارة أخرى مشابهة : כנימה (كِنيماه) : حشرات – هوام ، ولكن لماذا البعوض بالذّات ؟

(2) سفر الخروج – 8 : 15 ، وفي الترجمتين الكاثوليكية والإنجيلية : 8 : 19 .

(3) سفر الخروج – 8 : 16 ، وفي الترجمتين الكاثوليكية والإنجيلية : 8 : 20 .

(4) العبارة في العبرية : ערב (عارُب) أي : أسراب الوحوش ، أو خشرم الذّباب . فالطريف أنها في الترجمتين العربيتين : الذّبّان ! انظر سفر الخروج – 8 : 21–25 .

وَباء الماشية

لماذا سُلطت عليهم هذه المَهْلكة ؟

بُغية إظهار أن الآفات كانت موجّهة ضدّ المصريين فحسب ، لأنه كما تُنبئنا التُّوراه : «ومن مواشي بني يسرئيل لم يمت واحد»[1] . وحتى المواشي العائدة لأي عبري في حَوزة رجل مصري نَجَت ، وكذلك المواشي التي يشترك في مُلكها مصري ويسرئيلي في آن واحد .

القُروح

لماذا سلّط عليهم آفة القُروح ؟

لأنهم كانوا يجبرون اليسرئيليين على تنظيف دُورهم وأفنيتهم ، ممّا جعل دمائهم مُلتاثة تُنفط بالقُروح .

ولماذا كان السَّحَرة عاجزين عن الوقوف بين يدي مُوشيْه فيما يتعلّق بأمر هذه القروح والالتهابات ؟

لأنهم قدّموا المشورة بإلقاء كل صبي يولد لبني يسرئيل في مياه النّهر .

«وقسّى الرّب قلب فَرْعُوه»[2] ، إلخ ، ויחזק יהוה את־לב פרעה .

لمّا رأى الرّب أن الآفات الخمس التي كان قد أنزلها على فَرْعوه لم تؤدِّ به إلى التّوبة ، قال : «حتى لو شاء أن يتوب بعد ذلك ، فسأقسّي قلبه لكي ينال كامل جزاءه»[3] .

---

(1) سفر الخروج – 9 : 6 .
(2) سفر الخروج – 9 : 12 .
(3) هذا تفسير من أحبار التّلمود لما يرد في الآية 16 من الأصحاح التاسع من سفر الخروج : «غير أني لهذا أبقيتُك لكي أريك قوّتي ، ولكي يُخبَر باسمي في جميع الأرض» . ويلاحظ هنا التشابه الكبير مع رواية القرآن الكريم لقصة النبي موسى ﷺ وفرعون في سورة يونس – 92 : ﴿فاليوم نُنجّيكَ ببدنك لتكونَ لمَن خلفكَ آيةً وإن كثيراً من النّاس عن آياتنا لغافلون﴾ .

«ها أنا مُمطر غَداً مثل الآن»[1] ، إلخ : הנני ממטיר כעת מחר.

جعل مُوشيْه علامة على جدار بيت فَرْعوه ، قائلاً : «عندما تشرق الشمس يوم غد ، سيقع البَرَد في هذا الموضع ، لذا فابعث واجمع ماشيتك» ، إلخ .

مجدّداً تتجلّى لنا رحمة الله ، فهو حتى في أثناء غضبه لا يلبث على ميله إلى الأخذ بأسباب الرّحمة تجاه الأشرار ومواشيهم . وكان قصده من جائحة البَرَد إفناء المزروعات وليس الأرواح ، لذلك قام بتحذير الناس كيما يلجأوا بأنفسهم ومواشيهم إلى المنازل .

«ثم قال الرّب . . . مُدّ يدك نحو السّماء»[2] ، إلخ ויאמר יהוה ... נטה את ידך על־השמים .

ورغم أن «السّموات سموات للرّب» ، فإن «الأرض أعطاها لبني آدام» (المزامير - 115 : 16) .

قد يُصدر إمبراطور روما مثلاً مرسوماً يحرّم فيه على الرّومان زيارة سورية ويحرّم على السّوريين زيارة روما ، فكذلك عندما خَلَق الله الكون أعلن السّموات سموات الرّب ، ومنزلاً للرّبّانيين الأخيار .

«أما الأرض فقد منحها لأبناء البشر» ، ولذا فالمفترض أن تكون مكان إقامتهم . غير أن «ما شاء الله فعله فهو لا محالة كائن ، في السّموات والأرض ، في البحور وكل الأعماق» .

فلقد هبط إلى الأرض عند جبل سيناء ، وفي آن التكوين قال : «لتجتمع المياه إلى موضع واحد» ، فلمّا رأى ذلك أنه حَسَن ، حوّل البحر إلى يَبَس ، تماماً كما هو مكتوب : «وسار بنو يسرَئيل على اليَبَس في وسط البحر»[3] .

---

(1) سفر الخروج - 9 : 18 .
(2) سفر الخروج - 9 : 22 .
(3) سفر الخروج - 14 : 19 .

فبالطريقة ذاتها أعطى الله مُوشيْه الإذن بحكم السّموات ، وأن يمدّ يده نحوها ، وأن يُنزل عاصفة البَرَد على أرض مصر .

ولماذا عُوقبوا بالبَرَد ؟

لأنهم أجبروا اليسرئيليين على حراثة أراضيهم ، وبذر حبوبهم ، والعناية بأشجارهم ، وتأدية جميع الأعمال الوضيعة الثانويّة في فلاحة التّربة . لذلك أنزل الله عاصفة البَرَد هذه ليدمّر نتاج الأرض ، بحيث لا يتمكن المصريون من جني أي نفع من الجهد القسري لشعبه . فلمّا رأى الله أنهم لم يكترثوا بتحذيره ، وأهملوا إيواء مواشيهم في الملاجئ ، سبّب موت الماشية من جرّاء العاصفة .

وكانت كتل البَرَد كبيرة جداً ، كل منها بحجم رأس الطفل الرّضيع ، وعندما ترتطم بالأرض كانت تتفجّر ناراً وشرراً .

الجَراد

لماذا أنزل الله آفة الجراد على مصر ؟

لقد بَذَر اليسرئيليون الحقول بالحبّ ، فتمّ إنزال جائحة الجراد لتُهلك من الزّرع كل ما نجا من جائحة البَرَد .

كانت هذه الجائحة شديدة جداً لإرغام فَرْعوه على الإقرار : «لقد خطئتُ إلى الرّب إلهكما بأن لم أطلق بني يسرئيل» . «وإليكما (أي مُوشيْه وأهَرُون) ، إذ طردتُكما من بيتي» .

الظُّلمة

«لكن لجميع بني يسْرَئيل كان نورٌ في مساكنهم»[1] .

ולכל־בני ישראל היה אור במושבתם .

---

(1) سفر الخروج – 10 : 23 .

فلماذا لم يُكتَب : «كان نورٌ في أرض جُشِن ؟» .

لأنه حيثما كان اليسرَئيليّون كان ثمّة نـورٌ لهـم ، ولكـن للمصـري وإن كـان ماكثاً في حجرة واحدة مع اليسرَئيلي ، كانت ظلمةٌ حالكة .

موت الأبكار

«لا تعاود النّظر إلى وجهي»[1]، השמר לך אל־תסף ראות פני .

هذه كانت كلمات فَرْعوه[2]، عندما وقف مُوشيْه أمامه ليحذّره للمرّة الأخيرة من الهـلاك النّازل به ، إن هـو دام معارضاً خروج بني يسـرئيل مـن أرض مصـر . فأجاب مُوشيْه :

«نعم ما قلـتَ . لا أعـاودُ آتـي إليـك ، لكنـك تـأتي إلـيي ، وخدمُك وأنـتَ ذاتك تتوسّلون إليّ وتركعون ، طالبين رحيلي من البلد ، فأرحل» .

ولمّا خشـي بعـض المصريين مـن مغبّـة نبـوءة مُوشـيْه ، نـاموا ليلتهـا في بيـوت اليسرئيليين . لكن ضربة الموت أدركتهم ، فكان اليسرَئيلي يفيـق مـن نومـه فيلفـي المصري إلى جانبه جثّة هامدة .

وكانت النكبة في أرض مصر عظيمة . فتوجّه فَرْعوه إلى مُوشيْه وأهَـرُون ، وقال لهمـا : «قُومـا !» . فأجابا : «مـاذا يريـد فَرْعـوه منّـا ؟» ، فصـاح : «قُومـا السّاعة فامضيا» .

فمضـى اليسـرَئيليّون مـن أرض مصـر عشـية اليـوم الخـامس عشـر مـن شـهر نيسان ניסן ، وفي مثل هذه الليلة ذاتها لقي جيش سَنحَريب المُعسكِر أمام يروشَلايْم الهلاك على يدي الـرّب . فـاحتفل الملـك حزقيـاه وسـكّان المدينـة المُحـاصَرة بعيـد العبـور (الفصـح פסח) بحسـب أوامـر الله ، وطفقـوا يُرتّلـون الـتّرانيم والتّهـاليل (هَلّلويا) لاسمه المقدّس .

---

(1) سفر الخروج – 10 : 28 .
(2) سبق أن ذكرنا أن هذا هو وجه رسم الاسم في العبرية ، وليست المفردة مصرية بالأصل .

غير أن حزقياه كان يستولي عليه القنوط ، فقال :

«غَداة غدٍ قد تسقط المدينـة» . ولكـن إذا بهـم عندمـا استيقظوا في الصّباح يرون جيش الغزاة وقد تمدّد جنوده صرعى في مُعسكرهم .

قبل إنزال البليّة الأخيرة ، أنذر الله فَرْعوه ، كما هو مكتـوب : «وأقتـلُ كـلّ بكر في أرض مصر»[1] .

فلو شاء الله أن يفعل ذلك منذ البداية ، بدلاً من أن يجعله في خاتمة البلايـا ، لكان هذا في وسعه ، لكنه رغب في زيادة شدّة البلايا واحدة إثر الأخرى ، ولذلك قد أنزل أدناها وطأة في البداية .

«فإن الرّب يجتاز في أرض مصر فيضرب كلّ بكر»[2] .

يُحكى أن ملكاً أرسل ابنه إلى بلد بعيد ، فاستقبله شعب ذلك البلد بحفـاوة عظيمة ، وأحلّوه مكانة سامية ، ثم جعلوه حاكماً عليهم . فلمّا سمع أبوه بذلـك قال : «كيف أردّ لهم هذا التكريم ؟ سأطلق على هذا البلد اسم ابني» .

ثم بعد مضي فترة من الوقت ، أتته الأخبار من البلـد البعيـد ، بأن الشـعب قد خلعوا عن ابنه مكانته السّامية ، وجعلـوه عبداً . ولذلـك شنّ عليهـم الحـرب وخلّص ابنه .

ويوسيف هبط مصراً فجُعل عليها حاكمـاً . وكذلـك حظـي يعقـوب بشـأن عظيم ، وعند موته «ناح عليه المصريون سبعين يوماً» .

ولذلك ، سمّى الله مصر باسـم جنّة عِدن ، كمـا هـو مكتـوب في التّـوراه : «كجنّة الرّب مثل أرض مصر»[3] . ولكن عندما اضطُهد اليسرئيليون وحُوّلوا إلـى عبيد ، شنّ الله الحرب على مصر ، عبر البلايـا العشـر ، ومـن خـلال العاشـرة قـام بتخليص «ابنه» يسرّئيل من ربقة العبوديّة .

---

(1) سفر الخروج – 12 : 12 .
(2) سفر الخروج – 12 : 23 ، 29 .
(3) سفر التكوين – 13 : 10 .

وخلال الليل ، بينما كان العبريّون يُرنّمون التّهاليل لله ، أتى فَرْعوه إلى المكان الذي يسكن به مُوشيْه وأهَرُون ، فصاح : «قُم فاخرج» ، إلخ . ثم انتشر الشعب ما بين المصريين ، وراحوا يطلبون على وجه العارية أواني من الذّهب والفضّة . أما مُوشيْه فطلب ضريح يوسيف واصطحب عظامه ، بحسب الوصية التي انتقلت إليه .

«وكان عند انقضاء الأربع مئة وثلاثين سنة»[1] ، إلخ ויהי מקץ שלשים שנה וארבע מאות שנה .

فهذه السّنون تُحسب منذ أن تجلّى الله لأبرَهام في الرّؤيا المعروفة باسم : «عهد الأشطار»[2] ، وأخبره بأن ذرّيته ستكون «غُرباء في أرض ليست لهم» . لكنهم مع ذلك عاشوا بمصر مئتين وعشرة أعوام فحسب . وفي الشهر واليوم ذاتهما اللذين دخلوا فيهما مصر ، كان خروجهم . وفي ذلك التاريخ أيضاً تم إطلاق يوسيف من سجنه ، وفي السنوات التالية شهد حصول معجزات عديدة لصالح شعب الله .

وفي عهد الملك حزقياه نَجَت يروشَلايْم من غزو سَنحَريب ، وخلال فترة الأسر البابلي نجا من نار الأتون كل من شدرخ وميشخ وعَبد نَجُو[3] ، كما نجا دانيئيل سالماً من عرين الأسد .

* * *

(1) سفر الخروج – 12 : 41 .
(2) انظر حول هذا العهد : سفر التكوين – 15 : 13 .
(3) حول خبر ذلك انظر سفر دانيئيل ، الأصحاح الثالث .



الفصل الثالث
موت مُوشيْه

«ثم قال الرّب لُموشيْه : «هو ذا أيامُك قد قَرُبت لكي تموت» »[1]. ואמר יהוה אל־משה הן קרבו ימיך למות .

ترد الإشارة على موت مُوشيْه في التُّوراه عشر مرّات :

«هو ذا أيامك قد قَرُبت لكي تموت» . (تثنية الاشتراع 31 : 14) .
«ثم مُتْ في الجبل» . (تثنية الاشتراع 32 : 50) .
«لأني أموت» .
«لأنّي عارفٌ أنه بعد موتي» . (تثنية الاشتراع 31 : 29) .
«. . . فكيف بالحريّ بعد موتي» . (تثنية الاشتراع 31 : 27) .
«. . . بارك بها بني يسرئيل قبل موته» . (تثنية الاشتراع 33 : 1) .
«وكان مُوشيْه ابن مئة وعشرين سنة حين مات» . (تثنية الاشتراع 34 : 7) .
«وكان بعد موت مُوشيْه» . (يهوشُوَع 1 : 1) .
«مُوشيْه عَبدي قد مات» . (يهوشُوَع 1 : 2) .

كان مُوشيْه نفسه يظن أنه ارتكب ذنباً يسيراً يُمكن الصّفح عنه[2]، لأن بني يسرَئيل عندما أثاروا غضب الله عشر مرّات ، عُفي عنهم من خلال دعائه ، كما هو مكتوب في التُّوراه[3] : «فقال الرّب : «قد صفحتُ حَسَبَ قولِكَ» » . ولكنه عندما تيقّن من أنه لن يُصفح عنه ، توجّه إلى الله ضارعاً :

---

(1) سفر تثنية الاشتراع – 31 : 14 .
(2) راجع سفر الخروج – 17 : 7 ، وسفر تثنية الاشتراع – 32 : 51 ، حول معصية مُوشيْه وأهرون عند ماء الخصومة (مريباه) ، بأنه صرخ إلى الرّب لمّا خاصمه الشعب .
(3) سفر العدد : 14 : 20 .

«يا ملك السّموات ، إن شقائي ونَصَبي من أجل مصلحة يسْرَئيل شعبك واضح ومعروف أمامك . وتعلم كم جهدتُ لحثّهم على معرفتة طريقك ، وعلى الإيمان باسمك القدّوس وتطبيق شريعتك المقدّسة . يا ربّ ، فكما شاطرتُهم معاناتهم ونكباتهم ، هَل لي أن أشاطرهم فرحهم ؟ هاهو ذا أوان انتهاء محنهم قد حلّ ، وسيطؤون أرض البركة الموعودة ، وأنتَ قلتَ لي : «لا تعبر نهر الأردن هذا» . يا إلهي الأزلي ، العظيم والعَدل ، إن لم تُجز لي دخول هذه الأرض المباركة ، فاسمح لي على الأقل أن ابقى على قيد الحياة في هذه الدّنيا !» .

فأجاب الله مُوشيْه قائلاً : «فإن لم تمُت في هذه الدّنيا ، كيف لك أن تعيش في الحياة القادمة ؟» .

فانبرى مُوشيْه يقول : «إن لم تسمح لي بعبور هذا الأردن הירדן ، فدعني أحيا كبهائم الأرض التي تأكل من العشب وتشرب من الماء ، وتحيا وترى الدّنيا . فاجعلْ حياتي مثلها تماماً» .

فأجاب الله : «حَسْبُك ، لا تزد في الكلام معي في هذا الشأن» . (سفر تثنية الاشتراع 3 : 26) .

لكن مُوشيْه تضرّع مجدّداً يقول : «فدعني إذاً أعيش كالطيور ، التي تجمع قُوتَها في الصّباح ثم تعود في المساء إلى أعشاشها . لتكن حياتي مثلها تماماً» .

فقال الله ثانيةً : «حَسْبُك ، لا تزد في الكلام معي بهذا الشأن» .

فلمّا أيقن مُوشيْه أن أمر موته محتوم ، انبرى مُعلناً : «هو الصّخر الكامل الصَّنيع ، الذي كل طرقه حكمة ، إله الحَقّ العَدل المستقيم»[1] .

«فمات مُوشيْه هناك في أرض مُؤاب ، بأمر الرّب»[2] .

والكتاب المقدّس يشهد على تقوى مُوشيْه : «ولم يقُم من بعدُ نبي في يسرَئيل كمُوشيْه ، الذي عرفه الرّب وجهاً لوجه» . (تثنية 34 : 10) .

---

(1) سفر تثنية الاشتراع – 32 : 4 .
(2) سفر تثنية الاشتراع – 34 : 5 .

والسّموات بكت وأعلنت : «الرّجل الصّالح رَحَل ، وليس بين النّاس مستقيم» .

ولمّا بحث يهوشُوَع عن صديقه ومعلّمه فلم يجده ، انتحب بمرارة وصاح : «أعنّي يا ربّ ، فالصّالح لم يعد موجوداً !» .

وأعلنت الملائكة : «لقد قضى بعَدل الرّب» ، فأضاف بنو يسْرَئيل : «وبأحكام الرّب ليسرئيل» . ثم أعلنوا جميعاً : «سيأتي بسلام ، وفي سريره يرقد بأمان كل مَن سار في دروب صلاحه» .

فلتكن ذكرى العَدل القويم مُباركة .

* * *



الفصل الرابع
مَجِلَّت (ميثاق) إستير

وحدث عندما مات نِبوخَذْناصَّر נבכדנאצר، أن ابنه مِرودَخ الشرّير طالب بحكم المملكة . لكن الشعب رفضوا تعيينه حاكماً ، قائلين : «كان أبوك فيما مضى انتُزِع من طائفة بني البشر وأُجبر على أكل الحشائش والعُشب كبهائم الأرض لمدّة سبع سنين . ولمّا عددناه ميتاً نصّبنا في مكانه حكاماً ليتولّوا أمورنا ، فإذا به يعود ويحكم على هؤلاء الحكّام بالموت . فكيف لنا بعدُ أن ننصّبك ملكاً ؟ قد يكون من أمر أبيك كما كان في الأيام الخوالي ، فلعلّه يعود ثانيةً» .

فلمّا تكلّم الشعب على هذا النّحو مع مِرودَخ الشّرير ، مضى إلى قبر أبيه وانتزع منه جثّة الملك . وثبّت سلسلة حديدية حول قدميه ، وسحب جثّة أبيه عبر طرقات العاصمة ، ليُثبت للشعب أنه قد مات حقاً . كما هو مكتوب في سفر يشَعْياه : «أما أنت فطُرحتَ عن قبرك كفرع رِجس» (يشَعْياه – 14 : 19) .

عندها نصّب الشعب مِرودَخ الشرير ملكاً ، وقال دانيئيل للملك : «إن أباك نِبوخَذْناصَّر لم يفتح أبداً باب سجونه (أي أنه عندما كان يزجّ بشخص في السّجن كان حكمه عليه مؤبّداً) ، كما هو مكتوب : «الذي لم يُطلق أسراه من السّجن» (يشَعْياه 14 : 17) . فلمّا أُدين بنو يسرَئيل من الله بذنوبهم الكثيرة التي اقترفوها ، إذا بأبيك يأتي ويوقع الخراب بأرض يسرَئيل . لقد دمّر هيكلنا المقدّس ، وأرسل شعبنا أسارى ومنفيين إلى بابل . فكان من بينهم يهوياكين ملك يهوداه ، الذي قبع في السجن اثنين وثلاثين عاماً لأنه تقاعس عن تنفيذ أوامر الله . فالآن إنني لأرجوك أن تُطلق سراحه . لا تكُ قاسي الفؤاد ! تذكّر عقاب أبيك عندما طغى ويَغى ، وقال : «إنه لا ملك ولا حاكم سواي» ، كما هو مكتوب : «أصعد فوق مرتفعات السّحاب ، أصير مثل العليّ» » . (سفر يشَعْياه 14 : 14) .

فأصغى مِرودَخ الشرّير[1] إلى كلام دانيئيل ونفّذ أمر الله ، فأطلق يهوياكين יהויכין ملك سبط يهوداه ، وفتح أبواب السّجن للأسرى الآخرين ومنحهم حريّتهم . ونصّب يهوياكين ملكاً ، وألبسه أثواباً ملكية ، «وكان يأكل دائماً الخبز أمامه كل أيام حياته» (سفر الملوك الثاني 25 : 29) .

وانتقلت مقاليد المملكة من مِرودَخ إلى داريوش ملك مادي ، وكان ملك فارس أحَشْوِيرُوش[2] ابن داريوش ملك مادي . ومن بيت أحشويروش هذا طُردت وَشتي ابنة مِرودَخ الشرّير ابن نِبوخَذْناصَّر ، بسبب جُورها ، لأنها أجبرت النساء اليهوديّات على العمل في يوم شَبّات שבת (السَّبت) المقدّس .

وأحَشْوِيرُوش هذا هو ذاته الذي كان يأمر بتقديم النّبيذ الآتي من مئة وسبع وعشرين كُورةً على مائدة طعامه ، بحيث أن أهل هذه الكُوَر المئة والسبع وعشرين كانوا يشربون ، كلٌّ من نبيذ بلده وكُورته ، فلا يقربون بذلك شراباً غريباً أو ضاراً .

وكان أحَشْوِيرُوش ملكاً مجنوناً ، فقد أمر بأن : «فلتُطرد ملكتي ، أما أوامري فلا يجوز التقاعس فيها أبداً» . وفي أيام حُكم أحَشْوِيرُوش هذا تم بيع بني يسرَئيل بالفعل ، بغير قيمة مالية ، كما هو مكتوب : «مجّاناً بُعتُم» (سفر يشَعْياه 52 : 3) .

وفي أيام حُكم أحَشْوِيرُوش هذا تمّت الكلمات الواردة في متن التُّوراه : «في الصّباح تقول يا ليته المساء ، وفي المساء تقول يا ليته الصّباح» (سفر تثنية الاشتراع - 28 : 67) . وكان الملك أحَشْوِيرُوش هذا هو نفسه الذي صَرَف امرأته من أجل مصلحة صديقه ، ثم عاد فقتل صديقه من أجل مصلحة امرأته . فلقد طرد وَشتي امرأته تبعاً لنصيحة قدّمها له صديقه مهومان[3] ، ثم قتل صديقه هامان لمصلحة إستير امرأته .

---

(1) انظر حوله سفر يشعياه - 39 : 1 ؛ سفر يرمياه - 50 : 2 .
(2) هو الإمبراطور الأخميني كَيْخُسْرو الأول Xerxes I (486-465 ق . م) ابن داريوس الأول الكبير ، الذي أعاد تأسيس الإمبراطوريّة الأخمينية في فارس وميديا (مادي) .
(3) انظر مجِلّت إستير - 1 : 10 ، من أسفار الكتوبيم ، القسم الثالث من أسفار اليهود .

وحدث في أيام أحَشْوِيرُوش هذا أنه رغب بالجلوس على عرش شْلومو ، أي كرسي مُلك شْلومو الرائع الذي جُلب من يروشَلايْم إلى مصر على يد شاشق ملك مصر . ومن يده انتقل إلى سَنحَريب ملك آشور ، ثم منه عاد إلى حزقياه ، ليُؤخذ مجدّداً بيد الفَرْعوه نخوه ملك مصر . ثم استولى عليه نِبوخَذْناصَّر ملك بابل من مُلك فَرْعوه ، ولمّا افتتح قورُش ملك مادي بلاد فارس ، جُلب العرش إلى شُوشَن وآل إلى مُلك أحَشْوِيرُوش .

لكن أحَشْوِيرُوش أمر بصُنع عرش جديد له ، فأرسل الصنّاع إلى مدينة الإسكندريّة ، وبقوا يعملون له بعرشه مدّة سنتين . «وفي السنة الثالثة من مُلكه ، جلس الملك أحَشْوِيرُوش على كُرسي مُلكه ، وما عاد عرش شْلومو يُستعمل بعد هذا ثانيةً»[1] .

«كان رجلٌ يهودي في شُوشَن العاصمة[2] اسمه مُرْدَخاي»[3] ، איש יהודי היה בשושן הבירה ושמו מרדכי .

فلماذا سُمّي مُرْدَخاي باليهودي ؟ وهو ليس من سبط يهوداه ، بل من سبط بنيامين ؟ سُمّي يهودياً لأنه كان مُلتزماً بتقوى الرّب ، شأن كل مَن كان من سبط يهوداه . وكان مُرْدَخاي حفيد شِمعي ، الذي أبقى الملك داوِد على حياته عندما استجرّ على نفسه عقوبة الموت بشتمه لقوانينه . ذلك أن داوِد تنبّأ بالمعجزة التي ستقع من خلال مُرْدَخاي في المستقبل الذي كان آنذاك طيّ الغموض .

وربّى مُرْدَخاي ابنة عمّه هَدَسّاه أو إستير אסתר . وكانت تُسمّى «هَدَسّاه» הדסה (وهذا الاسم يعني «شُجيرة الآس») ، بسبب مزاجها الرّائق وطبيعتها اللطيفة ، اللذين يُشبّهان بالعَرف العُطري والبهاء الدّائم الخُضرة لشجرة الآس ، كما ورد في سفر يشَعْياه (55 : 13) : «عوضاً عن الشّوك ينبت سَرو ، وعوضاً عن القُرّاص يطلع آس» .

---

(1) اقتباس من مجلّت إستير – 1 : 3 .
(2) كلمة הבירה (هَبيراه) في العبرية تعني العاصمة أو القلعة ، لكن من غير الصّائب ترجمتها بالقصر كما في الترجمة الإنجيلية العربية للكتاب المقدّس : شوشن القصر .
(3) مجلّت إستير – 2 : 5 .

وتأويل هذه العبارة هو كما يلي : عوضاً عن هامان ، أي الشوك ، يزدهر السَّرو ، أي مُرْدَخاي . وعوضاً عن وَشتي ، المُشبّهة بالقُرّاص ، تتبوّأ إستير ، شُجيرة الآس ، مكانها على عَرش فارس .

كذلك فإن اسمها إستير אסתר ، قد تمّ انتقاؤه بعناية من اللغة الإغريقية : «إستاراه»[1] ، وهو يعني النّجم السّاطع . وأعمالها الصّالحة لم تنقطع طوال مدّة حياتها ، أما جمالها الفتّان فلم يكن يضارعه إلا محاسنها الرّوحيّة .

وقُبيل ولادة إستير مات أبوها ، وسرعان ما لحقت به الأم عندما تنشّقت الطفلة أنفاسها الأولى . فكان أن تبنّاها مُرْدَخاي ابن أخي أبيها ، وقام على تنشئتها كابنة له .

وبعد أن تزوّج الملك إستير كان متحرّقاً لمعرفة نَسَبها ، فسألها : «أين هم آلُكِ ؟ ها أنا ذا مُعدٌّ سماطاً فليحضروا عندي» . فأجابته إستير : «إنّك لملكٌ حكيم ، ولا ريب أنك تعرف أن أبوي ميتان ، فأرجوك يا سيدي لا تُحزن قلبي بهذه الأسئلة» .

«ثم كان أن عمل الملك راحةً للشّعب من دفع الضرائب السّنوية ، وأعطى عطايا «تليق بمقدرته» إلى كل أعيان دولته ، مُعلناً أنها تقدمات تُعطى على «شرف إستير» » .

وكان يتوخّى من خلال ذلك أن صدى هذا الإجراء واسم إستير سينتشران عبر الأمم ، فيصل بذلك إلى معرفة شعبها» . فلمّا أخفقت هذه الخطّة ، دعى بكل العَذارى الحَسَنات المنظر من مختلف الكُوَر مجدّداً ، وهو يحسب أن الغيرة قد تدفع إستير لإخباره عن أسلافها ، لكن ذلك لم يُجدِ فتيلاً . ولم تنبس إستير ببنت شفة عن حقيقة جنسها وشعبها[2] .

---

(1) في اللغة اليونانية : Αστηρ (أستير) أو Αστρο (أسترو) ، ومثلها في اللاتينية : Asteris ، والفرنسية : Astre ، والإيطالية : Stella ، والإسبانية : Astra . كذلك في الإنكليزية : Star ، والألمانية : Stern . لاحظ شبه الاسم مع «عشتار» Astartae .

(2) سبب ذلك أن مُرْدَخاي كان أوصاها بالتكتّم على يهوديّتها ، مجلّت إستير – 2 : 20 .

«وفي تلك الأيام ، بينما كان مُرْدَخاي جالساً في باب الملك ، غضب بِغْتان وتِرِش»[1] ، إلخ .

قال الرّابي يُوحَنان : «يُحلّ الله الغضب في قلوب العبيد على أسيادهم لتحقيق العدل ، وكذلك يحلّ الغضب في قلوب الأسياد على عبيدهم للغاية عينها أيضاً . والمثال الأخير يتمثّل في تاريخ يوسيف ، كما هو مكتوب : «وكان معنا في الحبس غُلام عبري»[2] ، أما المثال السابق فيتمثّل في واقعة بِغْتان وتِرِش ، حاجبيّ الملك .

«فعُلم الأمر عند مُرْدَخاي»[3] ، ויודע הדבר למרדכי .

تكلّم الحاجبان بلغة غريبة ، وهما يظنّان أن مُرْدَخاي لا يفهم ما يقولان . غير أن مُرْدَخاي كان من بعض أعضاء مجلس السّنهدرين סנהדרין[4] ، رجلاً متعلّماً ، فكان يفهم ما يقولان تماماً .

قال أحد الحاجبين للآخر : «مُنذ أن تزوّج الملك إستير لم نعد ننعُم لا براحة ولا بسلام ، فقد صارت حركة الذّهاب والمجيء مُرهقة ، وسيكون خيراً لنا أن نقضي على حياته» .

فوافقه الآخر على رأيه ، لكنه أضاف : «ولكن كيف لنا أن نفعل ذلك ؟ أنا في نوبة حراسة ولا يمكنني المغادرة» . فقال الأول : «إذهب ، وأنا أقوم بأمر حراستي وحراستك معاً» .

ولذلك كُتب في متن الكتُوبيم : «ففُحص عن الأمر ووُجد صحيحاً» ، أي أن أحد الحاجبين وُجد متغيّباً عن موقعه .

---

(1) مجلّت إستير - 2 : 21 .
(2) سفر التكوين - 41 : 12 .
(3) مجلّت إستير - 2 : 22 .
(4) السّنهدرين : مجلس قوامه 71 من الحاخامات ، كان يقوم بمهمّة المحكمة العليا والهيئة التشريعية ، له هيئتان : السّنهدرين الأكبر סנהדרין גדולה (71 عضواً) ، والسّنهدرين الأصغر סנהדרין קטנה (23 عضواً) . وراجع ما كنا كتبناه عنه في المقدّمة كعنصر رئيسي في الهيكلية الدّينية اليهودية ، بحسب تشريع التلمود .

«بعد هذه الأمور»[1] ، אחר הדברים האלה . فأيّة أمور هي ؟

أي بعد أن خَلَق الله العلاج من قبل أن يوقع الجراح ، وبعد أن أنقذ مُرْدَخاي حياة الملك من قبل أن يتم إعلان الأوامر القاضية بإهلاك شعبه .

بعد هذه الأمور عظّم الملك هامان ابن هَمداتا الأجاجي ، ورفّعه إلى مرتبة سامية في المملكة . لكنه لم يُرفّع إلا لتحلّ عليه التّهلكة . وكان مصيره كمصير الخنزير في مَثَل الحصان والفلو والخنزير .

كان لدى رجل حصان وفِلْو وخنزير ، وكان يكيل للأولين مقداراً محدّداً من العليق في كل يوم ، فكان ما ينالانه لا يزيد ولا ينقص ، أما الخنزير فيُترك له الحبل على الغارب ليأكل كما يحلو له . فما كان من الفلو إلا أن قال للحصان : «كيف يكون ذلك ؟ أعدلٌ ما يجري ؟ نحن نكدّ مقابل طعامنا ، بينما يتقلّب هذا الخنزير العديم النّفع في الملذّات . يحقّ لنا أن نظفر بمقدار ما يناله هو من طعام» . قال الحصان : «رُويداً ، وسترى سبب ذلك قريباً بهلاك الخنزير» .

فلمّا حلّ الخريف تم ذبح الخنزير . قال الحصان : «أرأيتَ ؟ لم يكونوا يقدّمون الطعام للخنزير ليأكل على هواه ويشبع ، بل لتسمينه وذبحه» .

كان هامان من ذريّة عيْسَو مُباشرةً ، فأبوه هَمَداتا كان ابن سَرارخ ، وهذا بدوره ابن قوزاه ، ابن إفلوتَس ، ابن يوسيف ، ابن يوسيم ، ابن پيدوم ، ابن ماديه ، ابن بلاتكان ، ابن إنتمروم ، ابن هَريدوم ، ابن شِجَر ، ابن نِجَر ، ابن پَرمَشتاه ، ابن قَيزَتاه ، ابن أجاج ، ابن سُمكي ، ابن أمالِك ، وأخيراً ابن إليفاز وهو بكر أبناء عيْسَو .

«لماذا تتعدّى أمر الملك ؟»[2] ، מדוע אתה עובר את מצות המלך .

قال عبيد الملك الذين ببابه لمُرْدَخاي : «لماذا ترفض الجثوّ لهامان ، ضارباً بأوامر الملك عُرض الحائط ؟ ألسنا نجثو له ونسجد ؟» .

(1) مجلّت إستير – 3 : 1 .
(2) مجلّت إستير – 3 : 3 .

أجاب مُرْدَخاي : «إن أنتُم إلا حَمقى ، أجـل . . لا عقـل لكـم . اسـمعوا لي : أيجوز تعظيـم من كان فانياً ، مصيره إلى التُّراب ؟ أيجـوز لـي أن أجثو لابن امرأة ، أيّامه معدودة ؟ في صغره يبكي وينتحب كالطفل ، وفي شيخوخته يتملّكه الأسى والتحسّر ، وأيامه مُفعمة بالسّخط والغضب ، وفي النّهايـة يكـون مآلـه إلـى التّراب . أيجوز لي أن أجثو لمَن كان مثله ؟ لا ، بل أسجد لله الأزلي ، ذي البقـاء والخلود . لمَن يتوسّد عـروش السّموات ويُمسـك الدّنيـا في راحـة كفّه . بكلمته يستحيل الضّياء إلى ظُلمة ، وبأوامر يشعّ النّور في أحلك الدّياجير ، بحكمته خلق الدّنيا ، وأرسى تخوم المحيطـات ، فإليه يـؤول خَلـق المـاء ، العَـذب منـه والمـالح ، وهو يأمر الأمواج المتلاطمة بقوله : «اسكني ، لا تزيدي عن هذا الحدّ في الحركة ، كيما تبقى الأرض جافّة لأجل شعبي» . فله وحده ، خالق الكون ومدبّره ، أجثو وأسجد» .

وحنق هامان على مُرْدَخاي ، فقـال لـه : «يـا لـك من عنيـد ! أفلـم يجـثُ جدّك لجدّي ؟» .

أجاب مُرْدَخاي : «وكيف ذلك ؟ مَن من جـدودي جَثا لجـدّك ؟» . فقـال هامان : «يعقوب جدّك ، جَثا لأخيه عيْسَو ، وهو جدّي السّالف» .

أجاب مُرْدَخاي : «لـم يكن الأمر كذلك ، لأنني من نسل بنيامين ، ولمّا جثا يعقوب لعيْسَو لم يكُ بنيامين قد وُلد بعدُ . ولـم يجـثُ بنيـامين لأحـد حتـى سَجَدَ نسله في الهيكل المقـدّس ، عندمـا حلّـت روح الله في بوّاباتـه المطهّـرة ، واتّحـد معـه جميع بني يسرَئيل . ولذا فلستُ جاثياً لهامان اللئيم» .

«في الشهر الأول ، أي شهر «نيسان» ניסן في السنة الثانية عشرة كانوا يُلقون فُوراً פור (أي قُرعة) أمام هامان»[1] . فكان يُلقي الفُـور «من يوم إلى يوم» . أولاً اختار اليوم الأول من الأسبوع لأجل إهلاك اليهود ، لكنـه فيمـا بعـد قـال : «لا ، فالنُّور قد خُلق في ذلك اليوم ، وهذا قد يوافقهـم . وفي اليوم الثـاني خُلقَـت جنّة عِدِن ، مـع كـل الأعشـاب والشّجر ، وفي اليـوم الرّابـع خُلقـت الشّمس والقمـر

---

(1) مجلّت إستير – 3 : 7 .

والنّجوم ، وكذلك جميع جيوش السّماء ، وهذا أيضاً يوافقهم . في اليوم الخامس خُلقت طيور السّماء ، وبينها الحَمام ، الذي استخدمه اليهود قُرباناً ، ولذا فهو لا يلائم إبادتهم . وفي اليوم السّادس خُلق آدام وحَوّاه ، أما اليوم السّابع فهو يوم «شَبّات» שבת (السَّبت) المقدّس لديهم ، الذي فيه العهد بينهم وبين الله» .

ثم جرّب طالعه بعد ذلك مع الشّهور . ففي شهر «نيسان» (أبريل) تم إطلاقهم من عبوديّتهم بمصر ، ووقعت أثناء ذلك عدّة معجزات لصالحهم . أما في شهر «إيّار» אייר (مايو) فكان نزول المَنّ מן للمرّة الأولى من السّماء ، وفي ذلك الشهر أيضاً كانت هناك خمس آفات على وشك الوقوع . وخلال شهر «سيوان» סיון (يونيو) تلقّوا الوصايا العشر ، وعيّدوا لبضعة أسابيع . فلا واحد من هذه الشهور يلائم إذاً . ثم كان أن وقعت القُرعة التالية على شهر «تمّوز» תמוז (يوليو) ، غير أنه في ذلك الشهر دُمّرت أسوار يروشَلايْم ، فظنّ هامان أن ذلك قد يُحتسب بمثابة الجزاء الكافي لأي من ذنوبهم في غضون هذا الشهر ، فعدل عنه وألقى القُرعة ثانيةً . ووقعت القُرعة التالية على شهر «آب» אב (أغسطس) ، ولكن في ذلك الشّهر كان موتان الجيل الأخير من الأجيال المحكوم عليها بالتّيه أربعين عاماً . كان زمن جزائهم قد انقضى عندها ، وفي ذلك الشّهر ذاته كلّم مُوشيْه الله وضَرَع إليه قائلاً : «أرني عزّتك» . فلهذا هو شهر معظّم لليسرئيليين ينبغي عدم اختياره لإفنائهم .

الشهر التالي كان «إيلول» אלול (سبتمبر) ، وفي هذا الشهر كان الصّعود الثالث لمُوشيْه إلى جبل الله ، ليتلقّى الألواح الحجرية الثانية . وكذلك خلال هذا الشهر تمت عمارة أسوار يروشَلايْم ، كما هو مكتوب في سفر نحمياه 6 : 15 : «وكمل السّور في الخامس والعشرين من شهر إيلول» .

أما شهر «تشري» תשרי (أكتوبر) فلن يكون ملائماً لهذا الغرض ، لأن يوم الدّينونة حينما يخشع بنو يسرئيل جميعهم في الصّلاة يقع ضمنه . وكذلك فلا يوافق الشهر التالي «حشوان» חשון (نوفمبر) هذا المخطط ، لأنه فيه أُطلقت مياه الطوفان على الأرض وتمّ إنقاذ نُوَح وأهل بيته . وخلال شهر «كسليف» כסלו

(ديسمبر) أُرسيت أسس الهيكل . وفي «طيبت» טבת (يناير) حاصر نِبوخَذْنـاصَّر يروشَلايْم ، وهذا أيضاً كان بمثابة جزاء كاف لذلك العهـد . وكذلـك خـلال هـذا الشـهر أحلّـت الأسـباط الأحـد عشر السّـلام مـع سـبط بنيـامين . وكذلـك فشـهر «شباط» שבט (فبراير) لم يقع فيه أي ذنب يستحقّ سخط الله تجاه شعبه . لكنه لّما أتى على شهر «آدار» אדר (مارس) انبرى قائلاً : «ها قد نلتُك الآن ، كسمكة من البحر» (حيـث أن طالع كوكـب الشـهر تمثّلـه سـمكتان) . ففـي هـذا الشـهر مـات مُوشيْه مؤدّي الشّريعة ، فعدّه هامان شهراً رديء الطالع لبني يسرَئيل . لكنه نسـي أيضاً أن مُوشيْه وُلد أيضاً في «آدار» ، في اليوم السابع من الشهر .

«فقال هامان للملك أحَشْويْروش»[1] : ויאמר המן למלך אחשורוש

«ثمّة شعب متشتّت ومتفرّق في بـلادك ، غـير أن سـننهم مغـايرة للأمّـة التي يعيشون فيها . فهـم لا يختلطون بنا أو يشـاركوننا حياتنـا ، وهـم لا يـتزوّجون مـن بناتنا ، ولا يعطون أبناءنا زوجات من بناتهم . وهم لا يسـهمون في بنـاء الدّولـة ، لأن لهم أعياداً كثـيرة يقعـدون فيهـا ويتقاعسـون عـن الحركـة . وهـم يخصّصـون السّاعة الأولى من كل يوم للصّلاة : «اسمع يا يسرَئيل ، الرّب واحدٌ أحَد» . وفي السّـاعة الثانيـة أيضـاً يرتّلـون الـتّرانيم ، وكثـيراً مـن الوقـت يضيّعـون في الصّلـوات والتّسابيح . وفي اليوم السـابع من كل أسبوع يحتفلون بـ «يوم شَبّات» ، ويمضـون نهاره في كُنُسهم يقرأون في توراتهم وكتب نبيّهم ، وكذلك في لَعنك أيهـا الملـك . وهم يُدخلون أبناءهم في عَهـد الجسـد[2] عندمـا يبلغـون اليـوم الثـامن مـن العمـر ، ويداومون على كونهم شعباً مختلفاً عـن سـواهم إلـى الأبـد . وفي شـهر «نيسـان» يحتفلون بعيد يسمّونه «عيد العبور» (الفصح) ، ينبذون فيه الخميرة مـن بيوتهـم ، وينبرون قائلين : «كما ننبذ الخميرة من بيوتنا ، ليُنبذ هذا الملك اللئيم من أمامنا» . ولهم الكثير من مواسم الصّوم والأعياد ، يقومون فيها جميعاً بلَعنك أيها الملـك ، ويَدعـون عليـك بـالموت وبسـقوط مملكتـك . فهـا قـد قـام مـرّة مـا ملـكٌ ، هـو نِبوخَذْناصَّر ، فدمّر هيكلهم وخرّب مدينتهم العظمى يروشَلايْم ، وساق السّـكان

(1) مجِلّت إستير – 3 : 8 .
(2) المقصود بذلك سنّة الختان ، راجع سفر الخروج – 21 : 4 .

منها إلى المنفى . ومع ذلك ، بقي غرورهم وأَنَفَة نفوسهم على حالهما . واعلم كذلك أن أسلافهم هبطوا مصراً ، وعدّتهم سبعون رجلاً ، ولمّا صعدوا منها كانوا يعدّون ست مئة ألف بالتّمام والكمال ، هذا ما خلا نساءهم وأطفالهم . وبين هذه الأمّة ثمّة رجال من كبار التجّار ، يتعاطون البيع والشراء ، لكنهم لا يعملون سُنن الملك ولا المملكة . فما الجدوى من وجود مثل هؤلاء القوم متفرّقين عبر بلاد مملكتك ؟» .

وتابع هامان قائلاً : «فإن حَسُن في عيني الملك ، فليكتب أمراً بأن يُهلكوا ويُبادوا من بيننا» .

فأجاب أحَشْويروش : «ليس بوسعنا أن نفعل ذلك . فإلههم لم يتخلّ عنهم ، ولقد تغلّبوا على أقوام هم أعظم منا شأناً وأقوى يداً . لا يمكننا الأخذ بمشورتك في هذا الشأن» .

لكن هامان بقي مواظباً على الإلحاح بالشكاية على اليهود تجاه الملك ، بُغية حثّه على إهلاكهم بالكلّيّة . وأخيراً ، قال أحَشْويروش : «طالما أنك ألحفتَ عليّ إلى هذا الحدّ حول هذا الشأن ، فسأدعو وزرائي ومستشاريّ وحكمائي ، وأطلب رأيهم» .

فلمّا استُدعي هؤلاء بين يدي الملك ، طرح عليهم الأمر وسألهم : «ما هو رأيكم الآن ، أنُهلك هذه الأمّة أم لا ؟» .

فأجاب الحكماء بالإجماع قائلين :

«لو أن بني يسرَئيل تمّ اجتثاثهم من الوجود فستزول الدّنيا ذاتها بالكلّيّة ، لأنه على فضل بني يسرئيل والشريعة المنزّلة عليهم تقوم الحياة الدّنيا[1] . أفلم يُخصّ هذا الشعب بالقُربى من الله (النّسّابة) ؟ «لبني يسرَئيل الشعب القريب

(1) في هذه النّصوص الجدليّة المُصاغة بطريقة توفيقية نموذج حيّ لعملية النسج النصّي ، لنَسْب القُدسية والأفضليّة لشعب ما دون سواه . وهذا ما نراه بحذافيره في التراث الديني لكافّة الشعوب دون استثناء ، ويسمّيه البعض : فنّ صناعة المقدّس . ومثل هذه النّصوص من أجَداه التّلمود تحمل بجلاء لمسات المفسّرين المُضافة إلى التّوراه .

إليه»[1] . وليس هذا فحسب ، فهم يُسمّون أيضاً أولاد الرّب كما هو مكتوب : «أنتم أولادٌ للرّبّ إلهكم» בנים אתם ליהוה אלהיכם (التثنية 14 : 1) . فمَن ذا الذي يُفلت من سخطه إن هو رفع تجاه أولاده يداً ؟ لقد جُوزي فَرْعوه بسبب سلوكه ضدّهم ، فكيف لنا نحن أن ننجو من هذ الجزاء ؟» .

فقام هامان وأجاب على كلامهم قائلاً :

«إن الإله الذي تسبّب بموت فَرْعوه وجيوشه قد شاخ ودبّ إليه الضّعف ، وقواه خارت وذَوَت . أولم يدمّر نبوخَذْناصرٌ هيكله وساق شعبه إلى المنفى ؟ فلماذا لم يحُل دون ذلك إن كان على كل شيء قديراً ؟» .

وعن طريق مثل هذه المساجلات والنّقاشات ، تمكّن هامان من تبديل آراء الحكماء ومشوراتهم ، فتمّ له كتابة المراسيم القاضية بإجراء المذبحة ، حَسَب ما أمر به .

فلمّا علم مُرْدَخاي كل ما عُمل[2] ، شقّ ثيابه ولبس مِسحاً وحثا على نفسه الرّماد ، وناح مُرتاعاً ، وقال : «ويلٌ لنا ، ويلٌ لنا على هذا المرسوم الشّديد . ولا حتى نصف شعبنا ينجو ، لا ولا ثلثه أو ربعه ، إنما المفروض اجتثاثه بأكمله . ويلٌ لنا ، ويلٌ لنا !» .

فلمّا أبصر اليسرئيليّون نُواح مُرْدَخاي وسمعوا كلامه ، عقدوا اجتماعاً يضمّ حشداً كبيراً من النّاس ، فخاطبهم مُرْدَخاي بما يلي :

«أنتم يا بني يسرئيل ، أيها المُختارون من أبينا الذي في السّموات ، ألستم تعلمون بما قد جرى ؟ ألم تسمعوا بالمرسوم الصّادر في حقّنا ، بأن هامان والملك قد أمرا بإهلاكنا من وجه الأرض ؟ ليست لنا الآن روابط وديّة نعتمد عليها ، ولا أنبياء يدعون لنا ، ولا مدينة نلجأ إليها . بل نحن قطيعٌ بلا راعٍ ، ونحن كسفينة في البحر بلا ربّان ، وكأيتام بلا أب ، أجل ، كرُضّع فقدوا أمّهم» .

---

(1) مزامير داود – 148 : 14 .

(2) انظر مجِلّت إستير – 4 : 1 . وهناك بالطبع زيادات كثيرة من أجَداه التّلمود على أسفار الكتوبيم ، لذا يحسُن متابعة النّص هنا على متن الأسفار اليهودية (تَنَخ) .

ثم حَمَلوا تابوت العهد الذي به تُـودَع صُحُف الشريعة ، في شـوارع مدينـة شُوشَن ، ووشّحوه بألوان الأسى والحداد . وفتـح مُرْدَخـاي الصُّحُف وراح يقـرأ هاتين الآيتين من سفر تثنية الاشتراع (4 : 30) : «عندما ضُيِّق عليك وأصابتك هذه الأمور كلّها في آخر الأيام ، ترجع إلى الرَّب إلهك وتسمع لقوله (31) لأن الرَّب إلهك إلهٌ رحيم» ، **בצר לך ומצאוך כל הדברים האלה באחרית הימים ושבת עד־יהוה אלהיך ושמעת בקלו : כי אל רחום יהוה אלהיך .**

وقال مُرْدَخاي : «يا شعب بيت يسرَئيل ، لنحذو حذو أهل نينوى ، عندما أُرسل يوناه بن أميتاي ليُنادي بانقلاب عاصمتهم[1] . فلقد قام الملك عن عرشـه ، واستبدل أثوابه الملكية بمُسوح ورماد ، ونادى بصـوم . ولـم يـذُق بشر ولا بهيمة ولا ماشية ولا قطيع طعم الزّاد أو ينالوا شربة ماء . «فلمّـا رأى الله أعمالهم أنهـم رجعوا عن طريقهم الرّديئة ، نـدم الله على الشرّ الـذي تكلّـم أن يصنعه بهـم فلـم يصنعه» (سفر يُوناه 3 : 10) . فلننذُر نحن أيضاً صوماً على سبيل الاستغفار ، فإذا نجا هؤلاء وهم وثنيّون ، فما بالنا نحن أبناء أبرَهام ، أليس حريّاً بنا دون سوانا أن نتوب عن طرقنا الرّديئة ونؤمن بمغفرة إلهنا الرّحيـم ؟ ألا تراجعـوا . . تراجعـوا يا آل بيت يسرَئيل عن طرقكم الضالّة ! فعلامَ تموتون ؟»[2] .

فلمّـا أتم كلامـه هـذا ، خـرج مُرْدَخـاي إلى المدينـة وصَرَخ صرخـةً عظيمـةً مُرّة[3] .

فكان بيت يسرَئيل مملوءاً رُعباً من أمر الملك . واجتاح الأسى عتبـة دار كـل يهودي ، وأناخ جوّ من الكَدَر على كل كُورَة .

---

(1) راجع سفر يوناه من أسفار النبيين المتأخرين ، 3 : 1-4 . والنبي يُوناه بن أميتاي هـذا يرد اسمه في تراثنا الإسلامي : النبي يُونس (كما في الإغريقية : يوناس Ἰωνᾶς) ، بينمـا يرد في الترجمتين العربيتين للأسفار اليهودية : يُونان . فما هي الحكمة من تصحيـف اسمه ، وهو في العبرية «يُوناه» : «יונה בן־אמתי ؟ هذا الأمر بحاجة إلى بحث ، والسّبب نـراه في اشتهار الترّجمة اليونانية السّبعينية وحدها للتّوراه إبّان تنزيل القرآن الكريم .
(2) هذا كلّه زيادة على متن مجِلّت إستير ، من إضافات أجَداه التلمود .
(3) عودة إلى نصّ متن مجِلّت إستير - 4 : 1 .

وكان أن قام أحدهم بزيارة صديق فارسي له والتمس منه أن يستخدم نفوذه لإنقاذ حياته وحياة أسرته ، قائلاً : «أنا وامرأتي وأولادي نكون لك عبيداً ، لكن أنقذ حياتنا» .

فأجاب الفارسي : «وكيف لي أن أفعل ذلك ؟ إن الأمر الملكي ينصّ على أن أيّ فارسي يؤوي يهودياً سيلاقي حتفه معه» .

فرحل اليهودي بقلب كسير ، وهو يقول : «كيف تُراها ستحقّق إذاً كلمات التُّوراه (الشريعة) القائلة : «فتُباعون هناك لأعدائك عبيداً وإماءً وليس مَن يشتري» ؟» (سفر التثنية – 28 : 68) .

في كل يوم كان الشعب يحسبون مرور الوقت بقولهم : «بقي لليهود في هذه الحياة من الوقت كذا وكذا» ، وهكذا تحقّقت آية أخرى من التُّوراه : «وتكون حياتُك معلّقة قُدّامك وترتعبُ ليلاً ونهاراً ولا تأمن على حياتك ، وفي الصّباح تقول : يا ليته المساء ، وفي المساء تقول : يا ليته الصّباح ، من ارتعاب قلبك الذي ترتعب ، ومن منظر عينيك الذي تنظر» (سفر التثنية – 28 : 66–67) . ومع مرور كل يوم كان النّواح يتزايد والأمل يلوح ذاوياً أكثر فأكثر .

إن فقدنا قريباً أو صديقاً عزيزاً ، فإن أسانا يكون في بادئ الأمر شديداً ، لكنه مع مضيّ كل يوم يفقد وطأته إلى أن نحوز العزاء والسّلوى . لكن كم كان الأمر مغايراً في حكاية اليهود المُدانين بالموت ! ففي كل يوم كان العويل يشتدّ ، لأن كل يوم يمضي كان يقرّبهم من ساعة هلاكهم .

ولقد كان عمل أحَشويروش بتوكيل خاتمه إلى هامان ذا مفعول أشدّ وأبلغ في إذكاء مشاعر التّوبة لدى شعب يسرَئيل من كلام أنبيائهم الثمانية والأربعين . فلقد نها الأنبياء شعب يسرَئيل عن عبادة الأوثان وحثّوهم على ضرورة الاستغفار لكن كلامهم مع ذلك لم يلاق آذاناً مُصغية[1] ، أمّا عند انتقال خاتم الملك إلى هامان ، سرعان ما خشعت الأفئدة إلى سماع نداء التّوبة المجلجل .

(1) في تاريخ اليهود القديم بأسفار التُّوراه والنبيئيم والكتوبيم سلسلة متّصلة من الانكفاء عن طريق العبادة ، يعقبها ظهور نبي يُنذر عذاباً وخراباً ، ويقع ذلك لتعقبه رحمة .

لكن القدر كان يبيّت لهامان جزاءً وِفاقاً . وثمّة قولٌ مأثور للربّانيين : «إن سقط حجر على إبريق فإن الإبريق ينكسر ، وإن سقط الإبريق على الحجر فإن الإبريق ينكسر أيضاً» . في الحالين كليهما يكون مصير الإبريق الدّمار ، فهذا أيضاً شأن أعداء يسرئيل ، لأنه حتى عندما يضلّ بنو يسرئيل عن جادّة الصّواب ، فإن مَن يُسخّرهم الله لعقابهم يلقون هم أيضاً جزاءً أليماً ، كما جرى في حالة نِبوخَذْناصّر وتيطُس وهامان ، إلخ .

«فدخلت جواري إستير وحجّابها وأخبروها (بحُزن مُرْدَخاي) . . . فدَعَت إستيرُ هَتاخ ، وأعطته وصيّةً إلى مُرْدَخاي لتعلم ماذا ولماذا . . . فأخبره مُرْدَخاي بكل ما أصابه»[1] .

ثمّة حُلم حلم به مُرْدَخاي في السنة الثانية من ولاية الملك أحشويروش ، تذكّره الآن ورواه لهَتاخ : «كان هناك زلزال هزّ الدّنيا ، وظلمة وعواصف عظيمة أرعبت الكائنات . كان هناك وحشان هائلان يخوضان قتالاً مُميتاً ، فأدّت جَلَبة الصّراع إلى إصابة الأمم بالارتجاف من الرُّعب . وفي وسط الأمم كان ثمّة شعبٌ صغير ومستضعف ، وكانت الأمم الأخرى تضمر له الشرّ وتتمنّى زواله من وجه الدّنيا . وحلّ يأسٌ عظيم على هذا الشعب ، فصرخوا إلى الله بقوّة طالبين النّجدة والحماية . ثم انبجست عين ماء صغيرة ما بين الوحشين المتقاتلين ، وراح حجمها يتعاظم إلى أن لاح بكبر البحر واتّساعه ، حتى بَدَت وكأنها ستُحيق بالمعمورة . ثم أشرقت الشمس بنورها الوضّاء على الأرض ، وإذا بالأمّة المُستضعفة تنعم بالسّلام وتقيم بأمان ، أما الأمم الأخرى العظيمة فقد تلاشت أطلالها وخرائبها حولها» .

وكان قد روى هذا الحُلم من قبل لإستير ، فعاد الآن وأرسل للملكة عن طريق رسوله يقول : «دُونكِ فلتذكري الحُلم الذي كنتُ رويتُه لكِ في طفولتك . فلتقومي ، ولتضرعي إلى الله وتلتمسي منه الرّحمة ، ثم فلتمثلي أمام الملك وخاطبيه بجرأة في قضية شعبك وأسلافك» .

(1) مجلّت إستير – 4 : 4-7 .

وأرسل إلى إستير فوق ذلك يقول : «لا تخيّل لك نفسك الأمور فتقولي : «الملك اختارني ملكةً له ، ولهذا لستُ بحاجة أن أدعو بالرّحمة لبني يسرَئيل» . فإلى المنفى ستُحملين كبقيّة الشعب ، وهذا الأمر القاضي بإهلاك البعض يقضي أيضاً بإهلاك الجميع . لا تفتكري في نفسك أنك تنجين دون جميع اليهود . ولتعلمي أن خطيئة جدّك الأكبر شاؤول هي السبب في محنتنا اليوم . فلو كان أطاع كلام صموئيل لما كان وُلد من ذرّيته هامان الشّرير الذي يتبع عائلة عماليق . ولو أن شاؤول قتل أجاج ، لما كان ابن هَمَداتا اشترانا بعشرة آلاف طالِن فضّي (وَزنة) ، ولما كان الرّب أسلم بني يسرَئيل إلى أيدي الظالمين . لكن مُوشيْه دعا الرّب من أجل يسرَئيل ، ويهوشُوَع أزعج عماليق . لذا ، فقومي وادعي أمام وجه أبيكِ في السّموات ، فإن الله الذي أنزل حكمه العادل بعماليق سيفعل الأمر ذاته بنسله الشرّير . من الثلاثة ظالمين لبني يسرَئيل ينحدر نَسَب هامان : فأولاً عماليق ، الذي كان أول من حارب يسرَئيل ، والذي لاقى الهزيمة على يدي يهوشُوَع . وبعده سيسرا ، الذي بَسَط يداً حديديّة على أسلافنا ولاقى جزاءه على يد امرأة ، هي يائيل . وأخيراً جُليات ، الذي تحدّى جُند يسرَئيل فأذلّه ابن يشّاي . لهذا ، لا تكفّي عن الدّعاء والضراعة ، إذ أن الله ما برح يستمع للواعج القلب التوّاب ، وكرماً لأسلافنا سوف يُبسط علينا رحمته . فلقد خلّصهم من أعدائهم لمّا انقطعت بهم السُّبُل . لهذا فاضرعي ، ولا تظنّي أنك وحدكِ من بين شعبكِ جميعه ستؤولين إلى السّلامة» .

وفي اليوم الذي أمر فيه مُرْدَخاي إخوانه بالصّوم والخضوع أمام الله ، تلا الضّراعة التالية :

«يا إلهنا وإله آبائنا ، الجالس بعَرش العزّ ! يا ربّ الكون ، أنتَ تعلم أنني لم أكُ بسبب التكبّر والاستعلاء أحجمتُ عن الركوع أمام هامان ! إنني لا أخشى إلا إيّاك ، وأغار على مجد حضرتك ، فلذا لا يجوز لي أن أقدّم تشريفك لبشر من لحم ودم ، إلى مخلوق من مخلوقاتك . يا الله ، نجّنا من يده ودع قدميه تقعان في الأُحبولة التي نصبها لنا ! ودع العالم يعرف يا مخلّصنا ، بأنك لم تنس العهد الذي يشدّ من أزرنا ويقوّينا في شَتاتنا» .

«ولكن مع ذلك أيضاً ، متى كانوا في أرض أعدائهم ما أبيْتُهم ولا كرهتهم حتى أبيدَهم وأنكُث ميثاقي معهم ، لأني أنا الرّبّ إلههم»[1] .

فلمّا تلقّت إستير رسالة مُرْدَخاي ، أمرت هي أيضاً بصوم ، وأبدلت حُللها الملكيّة بمُسوح ورَماد حزن ، وطأطأت برأسها أمام الرّب ، بهذا الدّعاء المخلص : «يا إله يسرَئيل ، منذ بدء الأيام حكمتَ الكون ، وكل هذه الدّنيا وما فيها خلقتها يد قُدرتك . فإليك تضرع أمَتُك بالرّجاء ! إني وحيدة يا الله ، لا أب لي ولا أم ! وحالي كما المعوزة ، تدور بالكدية من باب إلى باب ، فها قد قصدتُ باب رحمتك ، من شبّاك إلى شبّاك في بيت أحَشويروش[2] . فمنك وحدك يُرتجى العَون والخلاص . يا أب مَن لا أب له ، كُن إلى يمين اليتيمة ، أتوسّل إليك ، أعطها رحمةً ونعمةً في عيني أحَشويروش ، لعلّه يتأثّر فيعطيها سؤلها في شأن حياة شعبها . «ليكن كلام فمي وابتهال قلبي مقبولاً أمامك يارب ، يا صخرتي ومخلّصي . آمين» » .

«وحدث في اليوم الثالث»[3] ، ויהי ביום השלישי . .

بعد أن كانت إستير صامت ثلاثة أيام ، قامت في اليوم الثالث من الرّماد الذي اتّشحت به ، وخلعت عنها مُسوحها ، وتزيّت بحُللها الملكية البهيّة ، مُرتدية أروع حليّها المصنوعة من الذّهب والأوفير والجواهر النّفيسة ، وتهيّأت للمثول بين يدي الملك . غير أنها قبل ذلك ، بصوت ملؤه الأسى والجيشان ، توجّهت مرّة ثانية إلى العليّ القدير خفيةً تدعو :

«يا إله أجدادي أبرَهام ويصحاق ويعقوب ، ويا إله بنيامين ، إليك أتوجّه وإيّاك أدعو ! أدعوك قبل أن أطالب زوجي أحَشويروش الملك متوسّلةً من أجل شعبك بني يسرَئيل ، الذين ميّزتهم عن باقي الأمم ، والذين أعطيتهم شريعتك المقدّسة . شعبك المختار يا الله ، الذي يسبّح اسمك في كل يوم ثلاث مرّات ،

(1) تضمين من سفر اللّيويين – 26 : 44 .
(2) كان من عادة اليهود قديماً أثناء الدّعاء أن يقفوا قرب شبّاك ويتطلّعوا إلى السّماء . وذلك مدوّن في سفر دانيئيل (6 : 11) : «وكُواه مفتوحة في عُلّيته نحو يروشَلايِم» .
(3) مجلّت إستير – 4 : 4-7 .

قائلين : «قُدّوس قُدّوس قُدّوس ربّ الجيوش ، مَجدُه ملء الأرض كلّها»[1] ، קדוש קדוש קדוש יהוה צבאות מלא כל־הארץ כבודו . فكما نجّيتَ حَنَنْياه وميشائيل وعَزَرياه من الأتون المُستعر[2] ، ودانيئيل من أشداق الأسود ، نجّنا الآن من الأعداء الذين يتربّصون بنا لإهلاكنا . أرجوك أن تعطني نعمةً في عيني سيدي الملك . من خلال خطايانا يا ربّ يحقّ علينا العقاب ، أجل ، نحن من تسري في عروقنا دماء أبرَهام ، ولكن ممّا لا ريب فيه أن الأبناء ينبغي ألا يتحمّلوا خطايا الآباء ! فإن أثرنا سخطك ، ما هو ذنب أصحاب الطّوايا الحسنة والصّغار الرّضّع أن يُدانوا مثلنا بالموت ؟ أوّاه ، فلتذكر كرامة أبرَهام في شأن خلاصنا ! عشرة مرّات عرضته أمام التّجربة ، فبقي على إيمانه الحقّ بك . فلتحمِ أبناء خُلصائك المحبوبين أبرَهام ويصحاق ويعقوب ، وأمِطْ عنهم الأذى الذي أحاطهم به هامان» .

وانثالت إستير تبكي وتنشُج بمرارة ، وعجز لسانها عن النُّطق بالكلمات التي احتبست في شفتيها . فقالت في نفسها : «أمّا الآن فأذهب إلى الملك . أوّاه يا ربّ ، فاجعل ملائكة الرّحمة تسبق خطواتي ، واجعل بركة أبرَهام تتقدّمني ، وكرامة يصحاق تشدّ من عُودي المرتجف . اجعل لُطف يعقوب في فمي ، ونقاء يوسيف في نُطق لساني . وكما استمعتَ إلى صوت يُونْاه عندما ناداك ، استمع الآن إلي . يا الله ، يا مَن تُدرك أبصاره أدنى خفايا القلوب ، اذكُر كرامة الصّالحين الذين عبدوك بالتّقوى والإيمان ، وبشفاعتهم لا تردّ رجائي الآن خائباً . آمين» .

واصطحبت إستير معها اثنتين من خادماتها اللتين كانتا بانتظارها ، ودخلت بلاط الملك . وكانت تتكئ إلى ذراع الواحدة منهما ، فيما تتبعها الأخرى وهي تُمسك بهُدب ثوبها ، لئلا يمسّ قماشه الموشّى بالذّهب أديم الأرض . وكتمَت إستير حزنها في حنايا قلبها ، بينما لاح على مُحيّاها بريقٌ وَضّاء ، وعلى إهابها سيماء بهجة .

---

(1) سفر يشعياه – 6 : 3 .
(2) انظر خبر ذلك في سفر دانيئيل ، الأصحاح الثالث .

وحدث عندما أبصر الملك بها واقفة في البلاط أنه استشاط غضباً لما رآها تتجاوز الأنظمة والأعراف . فنظرت إستير ، ولمحت شرر الغضب في عينيه ، فارتاعت بشدّة ، وهَوَت على خادمتها التي تتكئ عليها . فلمّا رأى الله انهيارها أشفق على ما تعانيه هذه اليتيمة ، وأعطاها نعمةً في عيني الملك . فسُرعان ما زال الغضب عن محيّاه ، وقام من كرسيّه ، وتقدّم نحو إستير واعتنقها وقبّلها . طوّق بذراعه عنقها ونظر إلى عينيها ، فلمّا أبصر فيهما الارتياع قال : «ما لك يا إستير الملكة ؟ ممّ تخشين ؟ أنظمتنا ليست تسري عليكِ ، فأنتِ محبوبتي ، لِمَ لم تكلّمي عندما وقعت عيناكِ عليّ ؟» .

فأجابت إستير : «لأنني يا سيّدي عندما نظرتُ إليك ، ارتعدتُ من روعة سُلطانك وهيبة مُلكك» .

* * * * *

كانت لإستير ثلاث غايات من وراء دعوة هامان إلى الوليمة مع الملك :

فأولاً : لم تكن ترغب بجعل هامان يظن بأنها كانت على علم بمَفسدته ، وبأنها كانت تتربّص به ، وهو ما كان سيشكّ به فيما لو علم بأن هَتاخ قد سعى برسائل بينها وبين مُرْدَخاي .

وثانياً : كانت ترغب ، في سبيل إنجاح خطّتها ، بأن تشعل نار غيرة الملك من هامان . فمن حيث المنطق سيسأل نفسه لماذا تقدّمت إلى دعوة هامان وحده ، مُفردةً إيّاه عن باقي الأمراء ومُقدّمة إيّاه عليهم .

وثالثاً : لئلا يضع بنو يسرئيل كل ثقتهم بما تفعل ، ويتّكلوا كلّياً عليها . والمقصد من ذلك هو إيجاد أسباب إضافية لهم ليضعوا ثقتهم كلّها بالرّب وحده دون سواه .

«فقالت له زِرِش زوجته وكل أحبّائه : «فليعملوا خشبةً» ، إلخ»[1] .

ותאמר זרש אשתו וכל־אהביו יעשו־עץ . .

---

(1) مجلّت إستير – 5 : 14 .

تقول زِرِش لهامان : «ليس بمقدورك أبداً الانتصار على مُرْدَخاي بالوسائل التي تمّ تجريبها مُسبقاً ضدّ شعبه . فليس بوسعك أن تقتله بسكّين أو سيف ، لأن يصحاق أُنجي من مثلهما ، وليس بوسعك أن تُغرقه ، لأن مُوشيْه وبني يسرَئيل مشوا بأمان عبر البحر . أما النّار فلن تحرقه ، لأنها فشلت في ذلك مع حنَنْياه ورفاقه ، والوحوش كذلك لن تفترسه ، حيث نجا دانيئيل من براثن الأسود ، ولا يمكن لزنزانة أن تحتويه ، لأن يوسيف خطا إلى المجد عبر بوّابة سجن . وحتى لو حرمناه حاسّة البصر لا يمكننا الانتصار عليه ، لأن شِمْشُون أُعمي بصره وبرغم ذلك أهلك آلافاً من الفلسطينيين . ولم يبق أمامنا سوى وسيلة واحدة ، هي أن نشنقه» .

فحسب هذه المشورة عمل هامان المشنقة بارتفاع خمسين ذراعاً . وبعد أن فرغ من نصب آلة الموت المخيفة هذه ، قَصَدَ مُرْدَخاي ليتأمّل في انتصاره الوشيك عليه . فألفى اليهودي في بيت المدراش وحوله تلامذته متحلّقين ، وكانت أعطافهم متّشحة بالمسوح ، وكانوا آخذين في البكاء للكلام الذي راح معلّمهم يخاطبهم به .

قال هامان : «غداً أُهلك هؤلاء الأولاد أولاً ، ثم أشنق مُرْدَخاي على المشنقة التي عملتُها» . وبقي في المدرسة ورأى أمّهات التلاميذ يحضرن لهم طعامهم ، لكنهم جميعاً أحجموا عن الأكل ، وقالوا : «بحياة معلّمنا مُرْدَخاي ، سوف لن نذوق طعاماً أو شراباً ، بل صائمين نموت» .

«في تلك الليلة طار نوم الملك»[1] בלילה ההוא נדדה שנת המלך.

راح أحَشويروش يتخيّل أن هامان كان عشيقاً لإستير ، لأنه وحده من بين الأمراء بأسرهم دُعي إلى وليمتها . فلمّا غفا حلم بأنه يرى هامان وبيده سيف مُصلت يطلب قتله ، فاستيقظ مرتعباً وعجز عن النّوم من جديد . لذا فقد قام ودعا كاتبه شِمْشي ، الذي كان من أقارب هامان ، وأمره بفتح أخبار الأيام في فارس ومادي ، وبأن يقرأ له منه .

(1) مجلّت إستير – 6 : 1 .

وكانت أول صحيفة فتح شِمْشي الكتاب عندها تضمّ بياناً لواقعة ما أخبر به مُرْدَخاي عن خيانة حاجبي الملك بِغْتان وتِرِش ومجرى قصّتهما . فتحاشى الكاتب قراءة هذه القصّة ، وكان على وشك أن يتحوّل إلى موضع آخر من الكتاب ، فلاحظ الملك فعله ، وأمره بأن يقرأ من الصّحيفة التي صادف فتحها أولاً .

«فقال هامان للملك : «للرّجل الذي يسرّ الملك أن يكرمه فليأتوا باللباس الملكي» ، إلخ»[1] .

لمّا سمع الملك هذا الرّأي من هامان استحالت شُكوكه إلى يقين ، وفكّر في نفسه : «إنه يريد أن يرتدي لباسي الملكي ، ويضع تاجي على رأسه ، ثم يعمد إلى إهلاكي ويحكم بدلاً مني» .

ثم قال الملك لهامان : «أحضر من خزائني السّلطانية الثّوب الأرجواني المصنوع في الحبشة ، الثوب المرصّع بالحجارة الكريمة ، وعلى زواياه الأربع سلسلة ذهبية ، وأحضر كذلك الحليّ التي لبستُها في يوم تتويجي ، وقبّعتي المصنوعة في الحبشة ، وردائي الملكي المطرّز بلآلئ أفريقيا . ثم اذهب إلى إصطبلاتي وخذ منها أكرم جواد لدي ، وألبس مُرْدَخاي اليهودي الأثواب ، وأركبه الجواد» .

فأجاب هامان : «ثمّة عديد من اليهود في شُوشَن اسمهم مُرْدَخاي ، فأيّهم ينبغي تكريمه ؟» .

أجاب الملك : «ما قلتَه عمّن يُسرّني أن أُكرمه ، افعله لِمُرْدَخاي اليهودي المُقيم في باب الملك ، ذاك الذي تكلّم بخير لصالح الملك وأنقذ حياته» .

فلمّا سمع هامان هذا الكلام جمد الدّم في عروق قلبه ، وبَهَتَ لون وجهه وغارت عيناه ، وعجز لسانه عن النّطق ، ثم بمشقّة قال : «أيها الملك ، كيف . . كيف بوسعي أعرف أي مُرْدَخاي تقصد ؟» .

أجاب الملك : «قد قلتُ لك ، المُقيم في بابي» .

---

(1) مجِلّت إستير – 6 : 7–8 .

قال هامان متعجّباً : «لكنه يكرهني ، يكرهني ويكره أسلافي ، أعفني من تكريمه وأنا أدفع لخزانتك عشرة آلاف طالِن فضّي» .

أجاب الملك : «حتى ولو أعطيتُ هذه العشرة آلاف طالن لمُرْدَخاي ، وأعطيتُه أيضاً بيتك ليحكم عليه ، فإن التكريم الذي تكلّمتَ عنه[1] ينبغي لك أن تؤدّيه له» .

قال هامان متوسّلاً : «أبنائي العشرة يجرون قدّام عربتك ، ويكونون لك عبيداً ، بمجرّد أن تُلغي هذا الأمر» .

فأجاب الملك : «حتى وإن أضحيتَ أنت وزوجتك وأبناؤك العشرة عبيداً لمُرْدَخاي ، فلا بدّ أن ينال هذا التكريم أيضاً» .

لكن هامان بقي مستمراً في توسّله : «ولكن مُرْدَخاي ليس سوى رجل بسيط من رعايا الملك ، فلتعيّنه حاكماً لمدينة أو كُورة أو محلّة ، ليكن هذا مبلغ تكريمه» .

فأجاب الملك مجدّداً : «حتى وإن عيّنتُه حاكماً على كُوَر مملكتي كلّها ، وإن أوكلتُ إليه حكم كل مَن يرتهن بطاعتي في البحر والبرّ ، فلا بدّ أن يؤدّى إليه أيضاً هذا التكريم الذي قلتُ به . فإن مَن تكلّم في مصلحة ملكه ، وحافظ على حياة الملك ، لا ريب أنه مُستحقٌّ لكلّ ما يتعلّق بمَن يُسرّ الملك أن يُكرمه» .

فتابع هامان : «ولكن ماذا عن الرّسائل التي تم توجيهها إلى كُوَر مملكتك كلّها ، والآمرة بإهلاكه هو وشعبه ؟» .

فابتدر الملك قائلاً : «رُويدك مَهلاً ، حتى وإن تمّ تنفيذها فلا بدّ من تكريم مُرْدَخاي على النّحو الذي وصفتَ . حَسْبُك يا هامان ولتكفّ عن النّقاش ، كما تكلّمتَ فافعل بالعَجَل ، ولا يسقط شيء من جميع ما قلتَه» .

---

(1) حول كلام هامان هذا راجع مجلّة إستير – 6 : 6–9 . وملّخص ذلك أن الملك لما قرّر أن يكرم مُرْدَخاي عدوّ هامان ، سأل هامان من غير أن يُطلعه على ذلك : «ماذا يُعمل لرجل يُسرّ الملك بأن يُكرمه ؟» فظنّ هامان أنه هو المقصود بالتكريم ، فراح يستفيض في كلامه بما يوافق ما في نفسه ، وإذا بما يتمنّاه يكون من نصيب عدوّه .

فلمّا ألفى هامان أن كل محاولاته لم تُجد نفعاً ، أطاع أوامر الملك بقلب مرير . فقصد مُرْدَخاي بالأردية والجواد المُزركش ، وقال : «قُم يا مُرْدَخاي الصّالح ، يا سليل أبرَهام ويصحاق ويعقوب ، قُم من مُسوحك ورَمادك ! فها هي ذي فاقت قيمة وزناتي الفضّية كلّها ، وها هو ذا إلهك بسط رحمته عليك . قُم يا مُرْدَخاي وألقِ عنك مُسوحك ورَمادك ، وارتدِ هذه الحلل الملكية»[1] .

فعندها أجاب مُرْدَخاي : «يا لهامان اللئيم ! قد آن لك الأوان لتأكل العلقم وتشرب المرّ ، يا ابن عماليق» .

ردّ هامان : «تعال ، فارتدِ الثياب وامتطِ الجواد ، فأوامر الملك ينبغي أن تُطاع» .

ودَهَن هامان مُرْدَخاي بالأطياب النّفيسة ، وزيّاه بالأردية الملكيّة ، وأركبه متن جواد الملك ، بحسب كلامه هو وأوامر أحَشويروش . ثم تمّ تشكيل حاشية موكب ، فخُصّص سبعة عشر ألف جندي لمرافقة مُرْدَخاي وقُسموا إلى كوكبتين : إحداهما تسبقه والأخرى تتبعه ، أما هو فيسير في الوسط على جواد يمسك بعنانه هامان . وفيما كانوا يعبرون بطرقات شُوشَن ، راح الجنود ينادون : «هكذا يُصنع للرّجل الذي يُسرّ الملك بأن يُكرمه» .

فلمّا رأى اليهود هذا الموكب العظيم ، ومُرْدَخاي يُكرم في وسطه ، تبعوه وراحوا يردّون على هتاف الجنود قائلين بأعلى صوت : «هكذا يُصنع للرّجل الذي يعبد الملك الذي خلق السّموات والأرض ، ومَن رغب الله بتكريمه» . ولمّا رأت إستير قريبها متزيّياً على هذا النّحو ، شكرت الرّب وحمدته .

وقالت : «مع صاحب المزامير أقول : «المُقيم المسكين من التّراب ، الرّافع البائس من المزبلة ليُجلسه مع أشرافٍ ، مع أشراف شعبه» » (113 : 7–8) .

---

(1) مثل هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن عدوّ ، ومجرّد عملية فاحصة سريعة بعلم النّقد النصّي text-critique تدلّ على مدى عمق الأسلوب التّوفيقي المصطنع في هذه الحواشي الهَجَدائية . وهذا الأمر إن تمّ تعميمه على باقي روايات الأسفار «المقدسة» لخرجنا بما هو أكثر وأهم ، ولعدنا إلى نظرية : «صناعة المقدّس» .

وكذلك حَمَدَ مُرْدَخاي الرّب فقال : «حولّتَ نَوحي إلى رَقص ، حَلَتَ مِسحي ومَنطقتني بالسّرور . إيّاك أمجّد يا ربّ ، إذ رفعتني ولم تسمح لأعدائي أن يظفروا بي» (المزامير 30 : 12) .

وقام هامان بخدمة مُرْدَخاي بأربعة صنوف من الخدمة : فأولاً ، كان له حلاّقاً ، فقد حلق له وضمّخه بالطيّب . وثانياً ، كان له خادماً شخصياً ، فقد تولّى خدمته في الحمّام . وثالثاً ، كان له سائساً ، فقد أخذ بعنان الجواد الذي يركبه مُرْدَخاي . ورابعاً ، كان له مُنادياً ، فقد راح يهتف أمامه : «هكذا يُصنع للرّجل الذي يُسرّ الملك بأن يكرمه» .

«وقَصّ هامان على زِرِش زوجته ، إلخ»[1] .

لم يتلقّ هامان سوى تعزية يسيرة من خواصّه ، وقالت زوجته : «إنك تسقط سقوطاً ، لأن مَن حاولوا إحراق حَنَنْياه وميشائيل وعَزَرياه في الأتون المُستعر هلكوا أنفسهم في اللّهب ، فحذارِ إنك لساقطٌ قدّام هذا اليهودي سقوطاً» .

ولمّا رأى عبيد الملك أن هامان راح يفقد مكانته ، بدأوا هم الآخرون ينقلبون عليه . وأخطر حَربوناه חרבונה الملك بأن هامان يبيّت مؤامرات على حياته هو شخصياً . فقال هذا المتملّق : «إن كنت لا تصدّقني فأرسل إلى بيته ، وفيه ستعثر على مشنقة قائمة ارتفاعها خمسون ذراعاً ، نصبها لمُرْدَخاي ، لأنه تكلّم بالخير نحوك وأنقذ حياتك» .

فقال الملك لمُرْدَخاي : «اذهب فأحضر عدوّك هامان وعلّقه على المشنقة ، وافعل به ما يحلو لك» . فترامى هامان على مُرْدَخاي ورَجاه أن يتمّ الإجهاز على حياته بالسّيف ، غير أن مُرْدَخاي لم يُصغ إليه سمعاً . وقال هذا الأخير : «مَن حَفَر لامرئ حُفرةً حُقّ عليه أن يقع فيها . ومَن دحرج حجراً على امرئ ، فعليه ألا يتشكّى إن انقلب الحجر عليه فهصَره»[2] .

---

(1) مجلّت إستير – 6 : 7-8 .
(2) من الضّرورة بمكان متابعة هذا النّص بالقصة الأصلية في مجلّت إستير من أسفار الكتويم اليهودية ، بغية ملاحظة آلية تطوّر نسيج القصّة واستجازة قولبتها توفيقياً .

وتمّ تحرير رسالة تحمل ختم الملك ، بُغية إبطال الأمر الصّادر مُسبقاً ضدّ اليهود[1] :

«إلى كل المرازبة والولاة والأهلين في جميع بلدان مملكتنا ، سلام . إن حكومتنا لا يمكن أن تزدهر ما لم يتم توحيد شعوبها ، ولذا فنريد أن نراكم جميعاً تعيشون بوئام أخوي . ليتعامل كل شعوب بلدان مملكتنا سواسيةً كأمّة واحدة ، وليضمروا المودّة والإحسان للأمم الأخرى والأديان الأخرى أجمع ، وليكرموا جميع ممالك الأرض المحبّة للسّلام . وإن مَن يعمد إلى تضليل الملك بإخباريات شرّيرة تتعلّق بأي شعبٍ من شعوبنا ، ويعمل على استصدار الإذن بإبادة أشخاص مسالمين ومطيعين للقانون ، فهو مستحقٌّ للموت ، وسيلقاه حتماً . فليهلك مثل هؤلاء ، وليعش الباقون في وئام تحت ميثاق سلم لا تنفصم عُراه ، مضاعَف المتانة لا يدبّ إليه وَهن ولا كلال . ولا يجوزنّ السّماح بإهانة أي شعب .

«أما إستير فهي إنسانة صالحة وعالية الشأن ، وهي ملكتنا ، ومُرْدَخاي هو أحكم أهل عصره ، بريء من الذّنوب هو وشعبه على حدٍّ سواء . ومن خلال مشورة هامان ابن هَمَداتا ، كان صدر مرسومنا السّابق ، وهو الآن لاغٍ وباطل . وعلاوة على ذلك ، فنحن نرسم بأن لليهود الحقّ في أن يقوموا ويحموا أنفسهم ، ويثأروا لأنفسهم ممّن يرفع في وجههم يداً للشرّ .

«إن خالق السّموات والأرض قد أنزل هذه الكلمات على قلوبنا وأفواهنا ، وعلى ذلك نُصدرها ونرسُم بها بحسب دساتير فارس ومادي» .

* * *

---

(1) قابل ذلك على الأصحاح الثامن من مجلّت إستير .

الفصل الخامس
الملك شلومو الحكيم

«أرأيتَ الرجل الذي يُجدُّ في عمله ؟ إنه أمام الملوك يقف ، ولا يقف أمام الوضيعين» (سفر الأمثال – 22 : 29) .

חזית איש מהיר במלאכתו לפני־מלכים יתיצב
בל־יתיצב לפני חשכים׃

في هذه الآية يشير شلومو שלמה إلى نفسه . فقد بنى هيكل الرّب المقدّس في سبعة أعوام ، بينما استغرق أربعة عشر عاماً في تشييد قصره . لكن هذا ليس بسبب أن قصره كان أكثر نيافة أو أرفع شأناً في ريازته من الهيكل ، بل لأنه كان مُجداً أكثر في عمله على إقامة بيت الله ، بينما ترك بناء بيته لما يُتاح له من الوقت ومن الظروف .

ثمّة أربع حالات مُقارنة ما بين الآباء والأبناء يمكن تدوينها :

أولاً : رجل صالح يخلّف ابناً صالحاً .
ثانياً : رجل خبيث يخلّف ابناً خبيثاً .
ثالثاً : رجل خبيث يخلّف ابناً صالحاً .
رابعاً : رجل صالح يخلّف ابناً خبيثاً .

وحول كلٌ من هذه النماذج بوسعنا أن نجد دليلاً من الكتاب المقدّس ، وعلى كل واحد منها يمكن أن نضع مَثَلاً وقصة مأثورة .

فحول الأب الصّالح والابن الصّالح ، نجد الآية التالية (سفر المزامير 45 : 17) : «عِوضاً عن آبائك يكون بنوك» . ويمكن لنا أن نضيف مثال شجرة التّين الطيّبة التي طرحت ثماراً لذيذة .

وحول الأب الخبيث والابن الخبيث لدينا في سفر العدد 32 : 14 : «فهو ذا أنتم قد قُمتُم عوضاً عن آبائكم تربية أُناسٍ خُطاة» .

وثمّة مَثَل قديم يقول : «الخبيث لا يخلّف إلا خبيثاً» ، وكذلك تنطبق عليه القصّة المأثورة عن الحيّة التي تلد أُفعواناً .

وفي النّموذج الثالث ، يخلّف الأب الخبيث ابناً صالحاً ، كما هو مكتوب في الكتاب المقدّس : «عوضاً عن الشّوك ينبت سَرو»[1] . وإلى ذلك يمكن أن نضيف القصّة المأثورة عن الوردة التي تتفتّح براعمها على شُجيرة التّوت البرّي .

وأخيراً ، الأب الصّالح ذو الابن الخبيث ، كما هو مكتوب : «فعِوَض الحنطة لينبت شوك» (سفر أيوب 31 : 40) . ولدينا كذلك القصة المأثورة عن شجرة الدرّاق البهيّة التي أنبتت ثماراً مُرّة .

أما شْلومو[2] فكان ملكاً ابن ملك ، ابن حكيم لأب حكيم ، ولد صالح لأب صالح . وكل أحداث حياة الملك داوِد وجميع مزاياه ، لها ما يماثلها في حياة شْلومو .

فلقد حكم داوِد דוד أربعين عاماً ، كما هو مكتوب : «والزّمان الذي مَلَك فيه داوِد على يسرئيل أربعون سنة»[3] . أما عن شْلومو فمكتوب : «ومَلَكَ شْلومو في يروشَلايْم على يسرَئيل كلّها أربعين سنة» . وكان داوِد يعبّر عن نفسه عن طريق «الكلام» ، كما هو مكتوب : «وهذا كان آخر كلام داوِد» . فكذلك كان شْلومو يعبّر عن نفسه بواسطة «الكلام» : «كلام قُهِلِت קהלת (الجامعة ، أي شْلومو) ابن داوِد» (سفر الجامعة – 1 : 1) .

قال داوِد : «كل شيء باطل» ، كما هو مكتوب : «إنّما باطلاً يضجّون» (سفر المزامير – 39 : 7) . فاستخدم شْلومو في كلامه العبارة ذاتها «الباطل» : «باطل الأباطيل ، قال قُهِلِت (الجامعة)» (سفر الجامعة – 1 : 2) .

---

(1) سفر يشَعْياه – 55 : 13 .
(2) نذكّر مجدّداً أننا آثرنا رسم أسماء شخصيات التّلمود بصورتها العبرية كما وردت فيه .
(3) سفر أخبار الأيام الأول – 29 : 27 .

وكتب داوِد أسفاراً ، هي تحديداً أسفار المزامير الخمسة ، وكذلك كتب شْلومو ثلاثة أسفار : سفر الأمثال ، وسفر الجامعة[1] ، ونشيد شْلومو .

وألّف داوِد أناشيد : «وكلّم داوِد الرَّب بكلام هذا النّشيد» (سفر صموئيل الثاني – 22 : 1) . فكذلك ألّف شْلومو نشيداً كما يرد في مطلعه : «نشيد الأناشيد الذي لشْلومو»[2] .

وكان هو الملك الحكيم الذي وردت الإشارة إليه في سفر الأمثال 16 : 23 : «قلبُ الحكيم يُرشد فمه ويزيد شفتيه علماً» . بمعنى أن قلب الحكيم مليء بالمعرفة والفهم ، لكن ذلك كلّه يخرج إلى النّاس عن طريق الكلام الخارج من فمه . ومن خلال نُطق شفتيه لأفكار عقله (أو قلبه) فهو يزيد في معرفة النّاس . فإن كان لامرئ ما دُرّر وجواهر نفيسة ، وخبّأها عن الناظرين ، لما التفت أحدٌ إلى قيمتها ، لكنه إن أظهرها للنّاس فإن شأنها يشتهر ، وتزداد متعة تملّكه لها .

فلدى تطبيق هذا التشبيه على وضع شْلومو ، نرى أن الحكمة عندما كانت حبيسة في صدره لم يدرك قيمتها أحد ، لكنه عندما قدّم للملأ كتبه الثلاثة[3] ، اطّلع النّاس على قدراته العظيمة . «وكلام شفتيه يزيد في معرفة شعبه» ، وكان صيته رفيعاً إلى حدّ أن أيّ مَن واجه شكاً في تفسير فقرة توراتيّة كان يقصد الملك من أجل التفسير الصّحيح .

ولقد رفع الملك شْلومو مستوى التربية ليس على مستوى المعارف المقدّسة فحسب ، فلقد تفوّق ودرّس في علوم الفلسفة الطبيعية ، والجسم البشري ، وعلم النبات ، والزّراعة ، والرّياضيات بكافّة فروعها ، وعلم الفلك ، والكيمياء ،

---

(1) اسم هذا السفر في الكتاب اليهودي المقدّس (تنخ) : سفر قُهِلِت ספר קהלת ، تُرجم في النسخ المعرّبة إلى عبارة : سفر الجامعة ، وراح التّراجمة يتعجّبون من هويّة كاتب السّفر الذي يسمّي نفسه «قُهِلِت بن داوِد» ، ويعربون عن غموض التسمية وصاحبها . قلنا : بكل بساطة ، ليس «قُهِلِت» هذا سوى لقب لشْلومو بن داوِد نفسه ، ومعناه في العبرية : الرّابطة والجامعة ، كنايةً تعني هنا : لسان حال الجماعة ، النّاطق باسمها .

(2) هو السِّفر الرابع من أسفار الكتوبيم .

(3) هذا الأمر جديد على دارسي الثقافة الإسلامية ، فمَن كان يدري أن للملك النبي سُليمان الحكيم ابن داوِد ﷺ ثلاثة كتب : الأمثال – قُهِلِت (الجامعة) – نشيد الأناشيد ؟

وبالإجمال في جميع الدّراسات النّافعة . ودرّس كذلك فنون البلاغة وقواعد الشّعر . كما كان مُفرداً في فنّ النَّظم اللفظي من جِناس وحساب جُمَّل .

«وعدا عن كون قُهِلت حكيماً ، كان دائماً يعلّم الشعب»[1] ، ויתר שהיה קהלת חכם עוד למד־דעת את־העם .

فإذا كان ما يقوله الآخرون يجتذب اهتمام النّاس ، فكم كانوا بالأحرى يُنصتون لشْلومو ، وكم كانوا يستوعبون كلامه بسهولة أكبر !

يمكن لنا أن نصوّر أسلوبه في التّدريس بهذه التشبيه التالي : كان ثمّة سلّة بغير عروتين ، مليئة بأحسن الثّمار ، غير أن صاحبها ما كان قادراً على حملها إلى بيته من جرّاء تعذّر حملها ، إلى أن تقدّم رجل حكيم عندما رأى المعضلة فجعل للسلّة مقبضين ، فصار يمكن حملها بسهولة بالغة . فهكذا كان شْلومو يميط المصاعب عن طريق التلاميذ .

وكذلك قام الرّابي هُونا بتصوير الأمر بشكل آخر : «كان هناك فيما مضى بئر ماء فيه أعذب الماء وأنقاه ، غير أنه كان عميقاً للغاية بحيث أن النّاس كانوا غير قادرين على بلوغ الماء ، إلى أن تقدّم رجل ذو حكمة فأخذ دلواً وربط به حبلاً تلو الآخر إلى أن صار الجميع بما يكفي لبلوغ الماء . فهكذا كان شأن تدريس شْلومو أيضاً . فإن التُّوراه بئر للحقيقة ، غير أن تعاليمه أعمق من فهم البعض . بيد أن شْلومو راح يطرح القصص والأمثال الموافقة لاستيعاب الجميع ، ومن خلالها أمكن الحصول على معرفة يسيرة لقوانين الشريعة» .

وروى الرّابي شِمعون بن حَلَفتا القصّة المأثورة التالية : «كان لبعض الملوك وزير ، وكان الملك متعلّقاً به كثيراً ويطيب له كثيراً أن يعامله بالتّكريم . ويوماً ما قال لوزيره الأثير : «دُونَك ، فلتتمنَّ أمنية ، وكل ما هو بوسعي فأنا لك باذلُه» . ففكّر هذا الوزير : «إن طلبتُ من الملك ذهباً أو فضّةً أو جواهر ، أعطانيها كلّها ، وحتى إن رغبتُ بتكريم أرفع أو منصب أكثر سموّاً نلتُه دونما تثريب ، لكنني أطلب منه يد ابنته ، فإن مَنَحَني هذا السُّؤل حُزتُ الباقي جميعه»» .

(1) سفر الجامعة – 12 : 9 .

فلمّا تراءى الرّب لشْلومو في جِبعُون גבעון ، وقال له في حُلمه : «اسأل ماذا أعطيك ؟»[1] ، فكّر شلومو : «إن طلبتُ ذهباً أو فضّة أو جواهر أعطانيها الرّب ، لذا سأطلبُ الحكمة ، فإن أوتيتُها حُزتُ كلّ شيء دونَها» . ولذلك أجاب : «أعطِ عبدَك قلباً فهيماً» .

فعندها قال الرّب : «من أجل أنكَ سألتَ لنفسك حكمةً ، ولم تسأل غنىً أو سُلطاناً على مُبغضيك في حياتك ، يكون لك الحكمة والمعرفة ، ومن خلالهما تحوز الغنى والسُّلطان»[2] .

«فاستيقظ شْلومو ، وإذا هو حُلمٌ»[3] ، ויקץ שלמה והנה חלום . فراح يتلفّت في الحقول ، فسمع أصوات البهائم : نهيق الحمار ، وزئير الأسد ، ونُباح الكلب ، وصياح الدّيك ، فإذا به يفهم كل ما يقول واحدها للآخر .

ولو أن ثوراً ذُبح وفُصِّل ، كان له إقامته من جديد ، بشرط ألا تكون الأوتار قد قُطّعت ، لكن إن تمّ فصلها تلزم الأربطة لإيثاق الجسد ببعضه . وطالما حافظ شْلومو على نقائه من الذّنوب كانت دعواتُه تُستجاب بما يحبّ ويرضى ، أما عندما كان يُجانب سبيل الحقّ ويعمل الشرّ ، فإن الرّب كان يقول له : «لا أنزع عنك المُلك في أيامك من أجل أبيك داوِد عبدي » .

قال شْلومو : «باطل الأباطيل ، الكلّ باطلٌ كالظلّ» . ظلٌّ من أي نوع ؟ إن ظل البُرج أو الشجرة يمكث ظلاً لفترة من الوقت ، ثم يتلاشى ، غير أن ظلّ الطير يطير فلا يبقى طيرٌ ولا ظلٌ[4] . ولقد قال داوِد : «أيامُنا كظلٍّ عابر» ، وقال الرّابي هُونا : «أيّامنا تجوز منّا بسرعة ، كظلّ طير يطير» .

---

(1) سفر أخبار الأيام الثاني - 1 : 7 .
(2) سفر أخبار الأيام الثاني 1 : 11-12 . «رأس الحكمة مخافة الرّب» (مزامير 111 : 10) . وفي القرآن الكريم : ﴿ومَن يؤتَ الحِكْمةَ فقد أُوتيَ خيراً كثيراً﴾ (البقرة - 269) .
(3) سفر الملوك الأول - 3 : 15 .
(4) مَن يقرأ سفر الجامعة وما به من حكم ورؤى فلسفية ، يجد فيه انعكاساً جلياً لفكر فلسفي غنوصي . هذا الفكر نجد له مضارعاً عرفانياً فيما بعد في تراثنا الصّوفي الإسلامي ، ومن الممكن عقد مقارنة في التشابه بين الأسلوب البلاغي لهذا السّفر القديم ، وروائعة الإمام المتصوف محمّد بن عبد الجبّار النّفري : «المواقف والمخاطبات» .

ويعبارة «باطل» يعبّر شلومو عن المراحل السّبعة من حياة الإنسان . فالطّفل يشبّه بالملك ، الذي يستقلّ مركبته الصغيرة ، ويتلقّى من الجميع القُبل والإعجاب والمديح . أما الطفل في سنته الثالثة أو الرّابعة فيشبّه بالخنزير ، المُغرم بالأقذار والذي يمرّغ نفسه في طعامه . والولد ابن العاشرة متولّع بالأردية ، أما الشاب فيتأنّق في شكله ويبحث عن زوجة . والرجل المتزوّج كالكلب الباحث عن قُوته وقُوت عياله ، أما العجوز فيشبّه بالقرد .

«وأعطى الله شلومو حكمةً»[1] ، ויתן אלהים חכמה לשלמה .

عندما كان شلومو عازماً على بناء الهيكل ، طلب إلى ملك مصر مَدّه بالرّجال لمؤازرته في العمل . فبعد أن استشار فَرْعوه عرّافيه ، انتقى الرّجال الذين يقع مماتهم في غضون السنة ذاتها . فلمّا بلغوا يروشَلايِم ردّهم الملك الحكيم على الفور ، وأرسل مع كلّ منهم كَفَناً ، وأوصاهم أن يقولوا لسيّدهم : «إن عجزت مصر عن توفير الأكفان لموتاها ، وترسلهم لهذا الغرض إليّ ، فها هم أولاء ، الرّجال وأكفانهم معاً ، خُذهم وادفن موتاك» .

كان شلومو أكثر حكمة من كل النّاس ، وأكثر حتى من آدام ذاته الذي سمّى حيوانات العالم بأسره ، وحتى على نفسه أطلق اسماً قائلاً : «من تُراب الأرض اتُّخذتُ ، فإذاً يكون اسمي آدام אדם» . قال الرّابي تَنحُوم : «أين هي حكمتُك وفهمُك ، أيها الملك شلومو ؟ إن كلامك لا يناقض نفسه فحسب ، بل ويناقض أيضاً كلام داوِد أبيك» . إذ قال : «ليس الأمواتُ يُسبّحون الرّب» (المزامير – 115 : 17) ، أما أنت فقلت : «فغبطتُ أنا الأموات الذين قد ماتوا منذ زمان ، أكثر من الأحياء الذين هم عائشون بعد» (سفر الجامعة – 4 : 2) . وأنت أيضاً قلتَ : «فإن الكلب الحيّ خيرٌ من الأسد الميت» (سفر الجامعة – 9 : 4) .

غير أن هذه التناقضات البادية من الممكن تفسيرها بيُسر ، قال داوِد : «ليس الأمواتُ يُسبّحون الرّب» ، بمعنى أننا علينا أن نتدارس شريعة الله إبّان حياتنا ، لأن ذلك مُحال بعد انتهائها . وقال شلومو : «فغبطتُ أنا الأموات الذين قد ماتوا منذ

---

(1) سفر الملوك الأول – 5 : 9 في التُّوراه المسوراتية ، وفي الترجمة السبعينية : 4 : 29 .

زمان» فعندما أذنب بنو يسرَئيل في البرّيّة ، دعا مُوشيْه من أجلهم ، فلم يُستجب دعاؤه ، لكنه لمّا قال : «اذكر أبرَهام ويصحاق ويسرَئيل عبيدك» ، إذا به يلاقي قبولاً فورياً . ولذلك ألم يكن كلام شْلومو طيباً عندما قال : «فغبطتُ أنا الأموات الذين قد ماتوا منذ زمان» ؟ فهاكَ مثالاً آخر : قد يسنّ ملكٌ شرائع ، لكن عديداً من أتباعه قد يهملونها . وأحياناً فإن هذه الشرائع حتى وإن تمّ تطبيقها بصدق خلال حياة مَن سنّها ، لربّما تضحي لاغية أو تصير قديمة بعد موته . أمّا مُوشيْه فقد سنّ عديداً من الشرائع الصّارمة ، التي طُبّقت عبر الأجيال كلّها . لذلك ، أصاب شْلومو عندما قال : «فغبطتُ أنا الأموات» .

ولقد شرح الرّابي يهودا ، باسم الرّاب ، هذه الآية بشكل أتمّ فقال : «ما هو معنى الآية التالية : «اصنع معي آيةً للخير فيرى ذلك مُبغضيّ فيَخْزَوا» (المزامير – 86 : 17) . وقال داوِد لله إثر خطيئته مع بَتْشَبَع[1] : «يا مالك الكون ، اغفر لي خطيئتي» . فأجاب الرّب : «قد غفرتُ لك» . ثم قال داوِد : «أعطني آيةً في حياتي» ، غير أن الله قال : «لا بحياتك ، بل في حياة شْلومو ابنك أعطيها» . لذلك ، عندما كرّس شْلومو الهيكل ، رغم أنه دعا بتقوى تامّة ، لم يُستجب له حتى قال : «أيها الرّب الإله ، لا تردّ وجه مسيحك ! اذكر مَراحم داوِد عبدك» (سفر أخبار الأيام الثاني – 6 : 42) . وعندها ، استجيب له فوراً ، لأنه في الآية التالية نقرأ : «ولمّا انتهى شْلومو من الصّلاة نزلت نارٌ من من السّماء وأكلت المحرقة والذّبائح ، وملأ مجدُ الرّبّ البيت» . وبعد ذلك أُخزي مُبغضو داوِد جميعهم ، بأن يسرَئيل كلّها علمت بأن الله قد غفر لداوِد ذنبه . أولَم يتكلّم شْلومو إذاً بخير عندما قال : «فغبطتُ أنا الأموات» ؟ ولأجل هذا السبب ، نقرأ في تتمّة الفصل : «وفي اليوم السابع والعشرين من الشهر السابع ، صَرَف الشعب إلى خيامهم فرحين وطيّبي القلوب ، لأجل الخير الذي عمله الرّب لداوِد ولشْلومو وليسرَئيل شعبه»[2] .

---

(1) هي بَتْشَبَع بنت إلِيْعام زوجة أوريا الحِثّي ، التي تزوّجها الملك داوِد بعد أن دفع زوجها إلى الموت في الحرب ، فأنجبت له ابنه شْلومو . انظر سفر صموئيل الثاني – 11 : 3 .
(2) سفر أخبار الأيام الثاني – 7 : 10 .

قال شْلومو : «فإن الكلب الحيّ خيرٌ من الأسد الميت» .

في شرح هذه الآية ، قال الرّابي يهوداه باسم الرّاب : «ما هـو معنى الآيـة : «عرّفني يا ربّ نهايتي ومقدار أيامي كم هي ، فأعرف متى أنا زائل» » (سفر المزامير - 39 : 5) .

«قال داوِد لله : «عرّفني يا ربّ نهايتي» ، فأجـاب الله : «قـد حكمـتُ لكـلّ امرئ بأن تكون نهايته طيّ الكتمان في مُستقبل الأيام» . فقال داوِد : «فمـا مقـدار أيامي ؟» . أجاب الله مجدّداً : «ليس لامرئ أن يعلم مقدار أيامه» . تابع داوِد : «أحب أن أعرف متى أنا زائل» ، فأجاب الله : «تموت في يوم شَبّات» .

«فتوسّل داوِد قائلاً : «دعني أموت في اليوم التـالي» ، غير أن الله أجاب : «لا ، فعندها تؤول المملكة لشْلومو ، ولا ينبغـي لحُكـم امرئ أن يـأخذ مـن حُكـم امرئ آخر ولو بمقدار شعرة» . قال داوِد : «فدعنـي أمـوتُ إذاً في اليـوم السّابق ، لأن يوماً واحداً في دار الحقّ لديك خـيرٌ مـن ألـف يـوم في أي مكـان» ، فقـال الله : «يومٌ واحـد تُمضيه في دراسـة شريعتي خيرٌ وأكثر قبـولاً مـن ألـف قُربـان محرقـة يُقدّمها شْلومو ابنك» .

«كـان مـن عـادة داوِد أن يمضـي كـل شَـبّات في دراسـة التُّـوراه (الشّـريعة) وتعاليمها ، فكان مُنشغلاً على هذا النّحـو في يـوم شَبّات الـذي كـان مُقـدّراً لـه أن يكون الأخير . وكان خلف قصر الملـك بُسـتان ، فسمع داوِد جلبـة فيـه ، فمشـى ليستبين سببها . وما كاد يلج أرض البستان حتى وقع إلى الأرض ميتاً .

«كان سبب الجلبة في البُستان هو نُباح كـلاب الملـك ، التـي لـم تنـل في ذلـك اليوم طعامها . فأرسل شْلومو رسالة إلى مَجمع الرّبانيين يقول فيها : «أبي يتمدّد ميتاً في بُستانه ، فهل يجوز رفع جُثمانه في يوم شَبّات ؟ وكـلاب أبـي تتوسّـل طلباً لطعامها ، فهل من اللائق تقطيع اللّحم لها اليوم ؟» فورد الرّدّ التالي من المجمـع : «جُثمان أبيك لا يجوز أن يُرفع اليوم ، لكن فلتقدّم للكلاب لحمها» . فلذلك قال شْلومو : «الكلب الحيّ خـيرٌ مـن الأسـد الميـت» ، فشـبّه علـى وجـه الصّـواب ابـن يشّاي (داوِد) بملك الغاب» .

كان شْلومو المُنتَجَب من قِبَل الرّب ، الذي أطلق عليه ، على لسان النّبي ناتان : «يديدياه» ידידיה (حبيب الله) . وسُمّي «شْلومو» שלמה (سَلام) لأن في أيامه عَمّ السّلام ، كما هو مكتوب : «وسَكَن يهوداه ويسرَئيل آمنين» (سفر الملوك الأول – 5 : 5)[1] . كما سُمّي أيضاً «إيتيئيل» אתיאל (الله معي) لأن الله كان في عونه .

ولمّا جلس شْلومو على عرش أبيه داوِد ، خافته أمم الأرض كلّها ، وأصغت أمم الأرض كلّها بلهفة إلى كلامه الحكيم .

بعد ذلك ، عُمل لشْلومو عَرش خاص على يد حيرام ، وهو ابن أرملة من صيدا . كان هذا العرش مكسواً بذهب أوفير ، ومطعّماً بجميع أنواع الأحجار الكريمة والنّفيسة . وكان يُوصل إلى كرسي العَرش بست درجات عريضة . وكان يحرس الجانب الأيمن من الدّرجة الأولى ثور مصنوع من الذّهب الخالص ، والجانب الأيسر أسد من المعدن الثمين ذاته . وعلى يمين الدّرجة الثانية يقوم دبّ من الذّهب أيضاً ، وعلى اليسار حَمَل ، بما يرمز إلى عيش الأعداء معاً بسلام . وعلى يمين الدّرجة الثالثة وُضع جَمَل ذهبي ، وعلى اليسار نسر . وعلى يمين الدّرجة الرابعة كان هناك أيضاً نسر ناشر جناحيه ، وعلى اليسار طائر جارح وكل ذلك من المعدن الثمين ذاته . وعلى الدّرجة الخامسة إلى جهة اليمين قطّ ذهبي يجثم في مكانه ، وإلى جهة اليسار دجاجة . وعلى يمين الدّرجة السّادسة صورة لصقر ، وإلى جهة اليسار حمامة ، وعلى أعلى الدّرجة حمامة تقبض على صقر بمخالبها . ولقد تمّ تشكيل هذه الحيوانات لترمز إلى العهد الذي تتّحد فيه الكائنات المتغايرة الطبائع في سلام ووئام ، كما هو مكتوب في سفر يشَعْياه (11 : 6) : «فيسكن الذّئب مع الخروف» .

وبأعلى العَرش علّق شمعدان من الذّهب ذو سبع شُعَب ، مزيّن بالورود والحُلي والطاسات والملاقط ، وعلى الشُعَب السبع نُقشت أسماء الأسلاف الكهنة السبعة : آدام ، نُوَح ، شيم ، أبرَهام ، يصحاق ، يعقوب ، أيوب .

---

(1) هذا في النسخة المَسوراتيّة العبرانية ، أما في الترجمة السبعينية فموضعه في 4 : 25 .

وعلى النَّسّق الثاني من شُعَب الشّمعدان نُقشت أسماء السّبعة الصّالحين في الدّنيا : ليوي ، قِهات ، عَمْرام ، مُوشيْه ، أهَرُون ، إلداد ، ميداد[1] . وفوق ذلك كله تدلّى إناء ذهبي مملوء بزيت الزّيتون الصّافي ، نُقشت عليه أسماء : عيلي עלי كاهن الرّب الأكبر ، وابنيه حافني חפני وفنحاس פנחס[2] ، وعلى الجانب الآخر أسما ابني أهَرُون : ناداب נדב وأبيهو אביהוא[3] .

وإلى الجهة اليمنى من العَرش وُضع كرسيّان ، أحدهما لكاهن الرّب الأكبر والآخر لنائب الكاهن الأكبر . وإلى الجهة اليسرى ، من الأعلى إلى حدّ الأرض واحد وسبعون كرسياً جُعلت مقاعد لأعضاء السّنهدرين .

ولقد جُعل العرش على دواليب ، بحيث يمكن نقله بيُسر حيثما شاء له الملك أن يكون .

وأعطى الرّب شْلومو القُدرة على فهم طبيعة وخصائص الأعشاب البرّيّة وأشجار الأحراج ، كما هو مكتوب : «وتكلّم عن الأشجار ، من الأرز الذي في لُبنان إلى الزّوفا النّابت في الحائط . وتكلّم عن البهائم وعن الطير ، وعن الدّبيب وعن السّمك» (سفر الملوك الأول – 5 : 13)[4] .

وقيل إن شلومو حكم العالم بأسره ، ويُستدلّ على ذلك بهذه الآية : «وكان شْلومو مُتسلّطاً على جميع الممالك . . . وكانوا يقدّمون الهدايا ويخدمون شْلومو كل أيام حياته» (سفر الملوك الأول – 5 : 1)[5] .

وراحت جميع الممالك تهنّئ شْلومو كخير خَلَف لداوِد أبيه ، الذي طبّقت شهرته الأمم ، كلّها ما خلا واحدة هي مملكة شِبا ، التي عاصمتها قِطوره .

---

(1) هذه أسماء سلسة نسب مُوشيْه وأخيه أهَرُون ابني عَمرام بن قِهات بن ليوي بن يعقوب بن يصحاق بن أبرَهام . أما إلداد وميداد فهما رجلان كانا يتنبّآن أثناء تيه سيناء . انظر حول ذلك سفر العدد – 11 : 26 .

(2) انظر سفر صموئيل الأول – 1 : 3 .

(3) انظر سفر الخروج – 6 : 23 .

(4) هذا في النسخة المسوراتية من التّوراه ، وهو في السبعينية : 4 : 33 .

(5) هذا في النسخة المسوراتية من التّوراه ، وهو في السبعينية : 4 : 21 .

فأرسل شْلومو إلى هذه المملكة رسالة يقول فيها :

«مني أنا ، شْلومو الملك ، سلامٌ لك ولحكومتك . ليكن معلوماً لديكِ أن الله القدير قد مكّنني من حُكم العالم بأسره ، بما فيه من ممالك بالشّمال والجنوب والشرق والغرب . فها هم قد جاؤوني مهنّئين ، كلّهم ما عداكِ أنتِ .

«فأرجو منكِ أن تأتي أنتِ أيضاً ، ولتخضعي لسُلطاني فينالك مني تكريمٌ عظيم . لكن إن تمنّعتِ تراني أفرض عليك الإقرار بسُلطاني بالقوّة .

«إليكِ يا ملكة شِبا מלכת־שבא تُوّجه هذه الرّسالة بسلام ، مني أنا الملك شْلومو بن داوِد» .

فلمّا تلقّت ملكة شِبا[1] هذه الرّسالة ، أرسلت متعجلّة في طلب أعيانها ومُستشاريها لطلب مشورتهم حول كيفيّة الرّدّ اللازم .

تكلّم هؤلاء بنوع من الاستخفاف حول الرّسالة ومَن أرسلها ، غير أن الملكة لم تكترث لكلامهم ، بل أرسلت مركباً يحمل لشْلومو هدايا كثيرة تتضمّن عدّة معادن ، وجواهر وأحجاراً كريمة . واستغرقت الرحلة مدّة عامين حتى وصلت هذه الهدايا إلى يروشَلايْم ، وذكرت الملكة في رسالة أوكلتها إلى مقدّم الرّكب : «بعد أن تتسلّم رسالتي ، آتي إليك بنفسي» . وبعد عامين من ذلك بلغت ملكة شِبا يروشَلايْم .

فلمّا سمع شْلومو بأن الملكة كانت قادمة ، أوفد بِناياهو بن يهوياداه قائد جيشه ليلاقيها . فلمّا رأته الملكة ظنّت أنه الملك ، فترجّلت من عربتها .

فسأل بِناياهو : «لماذا تترجّلين من عربتكِ ؟» ، فأجابت : «ألستَ صاحب الجلالة الملك ؟» .

فقال بِناياهو : «لستُ سوى مقدّم من رجاله» .

(1) نعرفها في تراثنا الإسلامي ببلقيس ملكة سَبَأ ، واسم «بلقيس» لا يرد أصلاً في سفر الملوك ولا حتى في التّلمود . وفي القرآن الكريم (النّمل – 22) لا إشارة له ، بل مصدره التراث الشفاهي لقصص الأنبياء ، المستند إلى الإسرائيليات والأساطير المحلّية .

فالتفتت الملكة إلى وصيفاتها وقالت لهنّ : «إن كان هذا مجرّد واحد من المقدّمين ، وهو بهذه الهيئة النّبيلة والفارهة ، فكم بالأحرى يكون عظيماً سيّدُه الملك !» .

واصطحب بِناياهو بن يهوياداه ملكة شِبا إلى قصر الملك . وكان الملك تهيّأ لاستقبال ضيفته في قاعة كانت جدرانها وأرضها منزّلة بالزّجاج ، فخُدعت الملكة في البداية بمنظرها وتوهّمت أن الملك إنما كان جالساً في الماء[1] .

ثم لمّا اختبرت الملكة حكمة شلومو[2] ، وخبرت عظمته ، قالت :

«لم أصدّق الأخبار حتى جئتُ وأبصَرَت عيناي ، فهو ذا النّصف لم أُخبَر به . طُوبى لرجالك وطُوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائماً السّامعين حكمتك . ليكن مُباركاً الرّب إلهك ، الذي جعلك على كُرسي يسرَئيل لتجري حُكماً وبِرّاً»[3] .

فلمّا تناهت كلمات ملكة شِبا إلى أسماع الممالك الأخرى ، تعاظمت هيبة شلومو في نفوس أفرادها ، وأضحى أعظم وأرفع شأناً من ملوك الأرض جميعاً بحكمته وغناه .

وكان مولد شلومو في سنة 2912 للخليقة ، وقد حكم على يسرَئيل أربعين سنة . هذا ومَضَت ما بين عهد حُكم شلومو وزمن خراب الهيكل أربع مئة وثلاث وثلاثون سنة .

* * *

(1) من المهم جداً عقد دراسة مقارنة نقدية بين التّراث الرّوائي اليهودي (في أجداه التّلمود والمدراش) ، وبين سير الأقدمين وقصص الأنبياء في تراثنا الإسلامي .
(2) امتحنته بمسائل ، كما هو مذكور في سفر الملوك الأول ، الأصحاح العاشر .
(3) انظر سفر الملوك الأول – 10 : 7 .

القسم الثالث

تعاليم الحاخامات
ونُبَذ من تراجم حياتهم

الفصل الأول

الرَّابي يهوداه هَنَّاسي «الرئيس»
רבי יהודה בן־שמעון (הנשיא)

كان الرّابي يهوداه المقدّس – المعروف أحياناً باسم «الرّابي» اختصاراً لعلوّ شأنه – قد تلقّى تعليمه في مجامع دينيّة عدّة ومن جميع مصادر المعرفة المتنوّعة المُتاحة للطالب ، منذ نُعومة أظفاره . وكان الرّجل ذا ثروة طائلة ، فلمّا ترقّى إلى شرافة منصب الرّئيس أو الكاهن ، أنفق طرفاً كبيراً من ثروته على الفقراء وإعالتهم . وكانت مرجعيّته بين أبناء عصره تفوق كلّ من سبقه ، فحاز على احترامهم ومحبّتهم معاً ، وكان يُقال إنه لم يجتمع لأحد منذ عصر مُوشيْه النّبي ما اجتمع له من معارف غزيرة وعميقة وسُلطة مرجعيّة وسموّ مكانة . ولقد كان أيضاً ، كما كان مُوشيْه ، يتحلّى بالتّواضع ويتجنّب الأبّهة ومظاهر السّلطة .

وكان يجعل كرسيه بالقرب من باب مجلسه ، لكي يوفّر على مستمعيه أمر القيام له عندما يمرّ بينهم ، وهو نوع من تكريم كان يمارسه غيره من الكهنة . ومن خلال نفوذه لدى أنطونيوس ، كان يُسمح لشعبه بدراسة الشريعة علناً ، كما حازوا جملة من الامتيازات كانوا في السابق محرومين منها ، وحصانة من العديد من إجراءات القمع التي كانوا يعانون منها في السابق . وفي خلال المدّة التي شغل بها منصبه الرّفيع بالفضل وفيض العطاء ، قام بجمع شروحات الرّبانيين السّابقين وأطروحاتهم ، مما يؤلّف في يومنا الحاضر مجموعة «المشناه» משנה .

يُحكى أن الإمبراطور أرسل مرّة للرّابي يهوداه جوهرة ألماس ثمينة ، طالباً منه عربون صداقة بالمقابل . فأرسل إليه الرّابي رُقعة «مِيزُوزاه» מזוזה[1] . فقال الإمبراطور : «يا صاحبي إن هديّتك زهيدة القيمة بالقياس إلى العطيّة الثمينة التي أرسلتُها إليك» .

أجاب الرّابي : «إن ثمّة فارقاً كبيراً ما بين هديتي وهديتك ، حيث أن ما أعطيتني إيّاه عليّ أن أحافظ عليه وأحترز لئلا يُسرق مني ، أمّا ما أرسلتُه إليك فهو يحافظ عليك ويحميك ، تماماً كما هو مكتوب : «إذا ذهبتَ تهديك ، إذا نمتَ تحرُسك»[2]» .

ورغب الرّابي يهوداه بأن يتزوّج أرملة الرّابي إليعزَر ، فأرسل إليها رسولاً يحمل طلب الخطبة ، فكان جوابها له كما يلي : «أيجوز أن يُضحي الوعاء المخصوص من قبل بالشؤون المقدّسة مُستعملاً الآن لأجل أمور أدنى اعتباراً ؟» مُلمحةً إلى أن الرّابي إليعزر بن شمعون كان أسمى شأناً من الرّابي يهوداه . فكان لجوابها نفس فحوى المَثَل السّائر : «أيحقّ للرّاعي تعليق أوانيه حيث يعلّق صاحب البيت نفائسه ؟» .

فلمّا تلقّى الرّابي يهوداه هذا الجواب ، أرسل برسالة أخرى إليها يقول : «أصبتِ ، كان زوجك أكثر مني علماً ، غير أنني على الأقل أجاريه بالفضل» . أجابت الأرملة : «ما زلنا مختلفين ، لا أدري إن كان زوجي أكثر علماً من الرّابي يهوداه ، لكنه كان يفوقه بالصّلاح» .

ولكن هل كان الرّابي إليعزر حقاً يفوق الرّابي يهوداه بعلمه ؟

جرت العادة في المدارس أن أهل العلم من مدرّسين وربّانيين كانوا يجلسون على كراسي مرتفعة ، بينما يقعد التلاميذ على مقاعد واطئة على الأرض . فلمّا كان الرّابي شمعون بن جَمْليئيل والرّابي يهوشُوَع بن قَرحا وبعض الرّبانيين

---

(1) الميزوزاه هي رُقعة من الرّق تكتب عليها مقاطع من التُّوراه (سفر التثنية 6 : 4-10 ؛ 11 : 13-22) ، وتُوضع كحرز على ساكفة باب البيت ، تبعاً لإرشادات التّوراه .

(2) سفر الأمثال – 6 : 22 .

الآخرين المشهورين جالسين على الكراسي ، كان الرّابي إليعيزر بن شمعون والرّابي يهوداه جالسين قرب الأرض . فرغب الرّابي شمعون بن جَمْليئيل ، وهو والد الرّابي يهوداه ، بأن يجعل لابنه سمة تمييز ، فحثّ المدرّسين على رفعه إلى أحد الكراسي . ولمّا تمّ ذلك ، تكلّم الرّابي يهوشُوَع قائلاً : «مَن كان له أبٌ يتكلّم عنه يحيا ، أما مَن لم يكن له فليفعل ما بوسعه ويموت» .

فلمّا سمع الرّبّانيون هذا القول قاموا برفع الرّابي إليعيزر بن شمعون أيضاً ، غير أن الرّابي إليعيزر ألفى نفسه مُزدرىً ومُهملاً ، لأن الكلام المذكور صدر قبل رفعه ، فقال : «هل الرّابي يهوداه خيرٌ مني ؟» .

ومنذ ذلك اليوم لم يشعر بأيّة مودّة تجاه الرّابي يهوداه . وكان فيما سبق يساعد هذا الأخير في تحضير المسائل المطروحة أمام المدرسة ، لكنه الآن راح يستخفّ بأسئلة يهوداه قائلاً : «إنها لا تستحق عناء المناقشة» .

كانت هذه المعاملة شديدة العَنَت على مشاعر الرّابي يهوداه ، فاشتكى لأبيه أمر الإهانات التي كان يتعرّض لها . فقال هذا الأخير : «لا تبتئس يا بُنيّ ، ولا تغضبنّ من كلام إليعيزر . فهو أسد ابن أسد (رجل فائق العلم ابن رجل فائق العلم) ، بينما أنت أسد ابن ثعلب (أي أنك أنت عالم ، لكن أباك ليس بذاك) ، ولذا فهو خيرٌ منك» .

ولعل هذا هو السبب الذي دفع الرّابي يهوداه ليقول : «ظهر في هذه الدّنيا ثلاثة رجال كانوا مثالاً للحلم والتّواضع : أبي ، وأبناء بيتيرا ، ويُوناتان بن شاؤول» .

أما ابنا بيتيرا فقد تخلّيا عن رئاسة الكنيسة الكبرى כנסת הגדולה «كْنيست هَجَدُولاه» لصالح هِلّيل لكونه رجلاً فائق العلم ، ولهذا تواضعا له . أما يُوناتان بن شاؤول فقال لداود : «أنت تحكم على يسرئيل وأنا أكون نائبك» ، فهذا وجه تواضعه . وكذلك الرّابي شمعون بن جَمْليئيل ، إذ سمّى نفسه ثعلباً .

هذا ولقد عانى الرّابي يهوداه للغاية من آلام الجسد ثلاثة عشر عاماً قبل موته ، ولمّا شعر بدنوّ نهايته دعا بأبنائه إليه وكلّمهم بما يلي :

«أطيعوا كلام والدتكم يا أبنائي ، واذكروا تعاليم الله العليّ . وحافظوا على قنديل مُضاء في حجرتي ، واجعلوا يوسيف الأوفني وشمعون الإفرايمي ، خادميّ الوفيين في حياتي ، يحضران كذلك مراسم موتي . أما الآن يا أبنائي ، فدعوني للمرّة الأخيرة أرى حكماء يسرئيل» .

فلمّا جاء الحكماء ، بحسب طلبه ، قال : «لا تعملوا لي خُطباً أو تأبيناً في المدن . بل افتحوا أبواب مدرستي ، وتابعوا مهامكم المقدّسة فيها ثلاثين يوماً بعد موتي . ورغم أن ابني شمعون رجل حكمة وفهم ، فأنا أرغب بأن يكون خليفتي ابني جَمْليئيل . وليجلس حَنيناه بن حاماه في الكرسي الثاني بعد الرئيس . وإنّي لمحزون لعدم قدرتي على دراسة شريعة الرّب بعد اليوم» .

وبعد ذلك ، رفع يديه إلى السّماء وقال :

«يا ربّ يا إله الكون ، أنت تعلم إن كنتُ عملتُ بإخلاص بهاتين اليدين من أجل مجدك ، لتحصيل العلم بشريعتك ! فليكن مقبولاً لديك يا مالك الكون أن أرقد الآن بسلام !» .

وفي يوم موت الرّابي ، أعلن الرّبانيّون عيداً ويوماً للصّلاة على روح رئيسهم المحبوب . وحرصوا كذلك على ألا يتسبّب نبأ موته بتعطيل عبادتهم ، فظلّوا يصلّون حتى أتتهم إشارة من بيت الرّابي ، فقد شعروا جميعهم بهدّة ، وكأن طامّة أصابتهم ، فكفّوا عن الصّلاة .

وتمّ دفن الرّابي يهوداه عشيّة يوم شَبّات (السّبت المقدّس) ، فمات معه التّواضع ومخافة الله بين النّاس .

وقيل إن الرّابي كان لديه خادم أغنى من الإمبراطور[1] . ولقد حاز على ثروته من بيع فضلات إصطبلات الرّابي ، ممّا يعطي فكرة عن عدد المواشي التي كان الرّابي يهوداه يمتلكها .

* * *

---

(1) مثل ذلك يُعقل ؟ وهل ينبغي لرجال الدّين تكريس جهودهم لتحصيل الثروات ؟

الرّابي شمعون الصّالح
רבי שמעון הצדיק

كان الرّابي شمعون يقوم بمنصب الكاهن الأكبر خلال فترة عهد الإسكندر الظافر ، حوالي عام 3000 [1] . ولم ير بنو يهوداه من داع لمحاربة هذا الملك المقاتل ، ولمّا قدم إلى سورية في طريقه إلى مصر ، بعد انتصاره الأول على جيش الفُرس ، انضمّوا إلى المملكة التي قدّمت له فروض الطاعة .

فقام شمعون الصّالح ، كممثّل عن الأمّة ، بالتوجّه إلى ساحل البحر لتحيّة الفاتح ، وهو يرتدي ملابسه الحبريّة ، ويحيط به لفيف من الكهنة والأعيان بكامل أبّهة أثوابهم .

فتقدّم الإسكندر فوراً إلى الكاهن الأكبر وحيّاه بحرارة ، فلمّا عبّر ضبّاطه عن دهشتهم لهذا الترفّق أخبرهم الإسكندر بأن هذا الكاهن بهيئته وصفاته بعينه ، وهو يرتدي هذه الثياب التي عليه بذاتها ، قد تراءى له في منام وبشّره بالنّصر في حروبه .

وقام شمعون باصطحاب الإسكندر إلى الهيكل ، فلمّا هَمّ بالدّخول قال : «ليكن مُباركاً ربُّ هذا البيت» . ولقد تملّكه الإعجاب بروعة البناء ، وعبّر عن رغبته بأن يُجعل له تمثال يُنصب على سبيل التذكار ، ما بين الرِّواق والمذبح . فأعلمه شمعون بأنه ليس من المسموح نصب أي تمثال أو صورة ضمن جدران المعبد ، لكنه وعده بغية تخليد ذكراه بأن جميع الولدان الذكور المولودين في شعبه بذلك العام سيُسمّون بالإسكندر . وعلى هذا النّحو حصل الرّبّانيون المسمّون بالإسكندر على أسمائهم .

وأقام الإسكندر على مودّته للكاهن الأكبر ، وبشفاعته منح اليهود حرّيتهم الدّينية وأعفاهم من ضرائب الجزية في خلال السنة السّبتيّة (آخر كل سبع سنين) ، كما دخل اليهود في جيش الإسكندر ، وأسهموا في فتوحاته .

---

(1) هو الإسكندر الأكبر ملك مقدونيا والفاتح الشهير (356-323 ق.م) . والتاريخ المذكور حسب التقويم العبري الذي يُصطلح عليه أنه يبدأ ببداية الخليقة .

لكن هذه العلاقات لم تستمرّ للأسف بعد موت الإسكندر . ففي غضون النّزاعات التي استحرت بين قوّاده والتي أعقبت ذلك ودامت عقدين من الزّمان ، عانى الشّعب اليهودي التّباريح . فقام جيش أنتيگونوس وابنه ديميتريوس بإهلاك الحقول الزّراعية الخصيبة كلّها ، وقوّضوا السّلام المقدّس ، وملأوا أهالي مقاطعة اليهوديّة יהודה (باللاتينية Judaea) بالرّعب والفزع .

وكان أن اجتيحَت يروشَلايْم في يوم شبّات . أما أسوارها الهائلة وتحصيناتها التي لا تُرام منذ أيام نحمياه ، فقد تمّ ثانية اختراقها وكسر صمودها ، وفُتحت المدينة على مصراعيها أمام أعدائها .

ولقد عاش الرّابي شمعون ليشهد بأمّ عينيه هذه الأحداث ، وخضعت ثقته بالله ومحبّته لشعبه إلى محنة أليمة . لكن إيمانه مع ذلك لم يتزحزح أبداً . فقام بتدعيم الهيكل ، ورمّم أركانه المتضرّرة ، وأرسى أسس المحاكم الخمس . كما قام بتوسيع خزّان المياه في الهيكل ، للاحتراز من العوز في أيام الحصار ، ومنذ ذيّاك الحين أضحت للهيكل مؤونته الكافية من المياه ، وفي هذا إشارة تتعلّق بمناخ يروشَلايْم وطبيعة تربتها .

وكذلك لم يُغفل شمعون الشؤون الرّوحية لشعبه . فلم يتركهم يتوهّمون أن قوّتهم وأمنهم إنما كانا يستندان فقط إلى العوامل الدّنيوية . بل كان متذكّراً تماماً لتعاليم أسلافه : على ثلاثة أمور يقوم خلاص يسرَئيل : «على طاعة أوامر الشريعة ، وعلى تقوى الله المتمثّلة بالبركة المتأتّية من العبادة في الهيكل ، وعلى أعمال الخير والصّدقة» .

هذا وإن الحروب والاضطرابات العديدة التي عصفت بالفترة التي عاشها ، كانت حافلة بالشّرور المتعدّدة والفائضة ، فراح ذوو النّفوس الفائقة التّقوى ، كما في عهود الأنبياء ، ينزعون إلى الاعتزال عن الدّنيا ، وتكريس أنفسهم لله عبر «نذر النّذير»[1] .

---

(1) النّذير נזיר في اليهوديّة شخص يلتزم صوماً وتبتّلاً معيّناً ، غايته تطهير النَّفس عن طريق إقصائها عن الشهوات . راجع ما يرد عنه في سفر العدد – 6 .

بيد أن الرّابي شمعون لم يقرّ ذلك ، وراح يعترض عليه بعدّة طرق . غير أنه مع ذلك أتى على استثناء في إحدى الحالات ، وهي حالة راع شاب وسيم ، ألفاه مُخلصاً حقاً في رغبته . فلمّا أتاه هذا الأخير ، راغباً أن يضحي نذيريّاً استجوبه الكاهن الأكبر على النّحو التالي :

«ما الذي يدعوك ، وأنت بهذا الصّبا والوسامة ، وبتلك الذّوائب الحريرية المُنسدلة ، إلى إخفاء هذا الجمال كلّه وإلى اتّضاع ما يُبهج عيون النّاظرين ؟» .

فأجاب الشاب : «ذلك لأن ذوائبي المنسدلة كادت توقعني في الخطيئة من أجل الباطل وحسب . لقد رأيت انعكاس صورة وجهي في جدول صافٍ ، وإذا بميل جارف لعبادة الرّب يستولي عليّ ، فها أنا ذا أرغب في الحال بتكريس شعري للرّب ، عن طريق نذر النّذير» .

فما كان من شمعون إلا أن قبّل الرّاعي الشاب ، وقال له : «ليته كان لله في يسرَئيل عديد من النّذيريين مثلك» .

ولقد اشتهر الرّابي شمعون بحفظه الدقيق لأحكام الشريعة ، وبخدماته كرئيس وعضو في المجلس الأعلى ، وبالأسلوب الفعّال الذي قوّى به الحماس الدّيني للشعب ، كما أسهم في أعمالهم ومؤسّساتهم جميعها .

ولقد شغل منصب الكاهن الأكبر مدّة أربعين عاماً ، وأعلن بنفسه دنوّ موته باستكمال واجباته في يوم الغفران יום כפור (يوم كِپور) . فكان لدى دخول قُدس الأقداس في هذا اليوم المقدّس من كل عام ، معتاداً على رؤية طيف يلبس ثياباً بيضاء ، كان يُحصي عليه أعماله خلال تنفيذ مهام منصبه . ففي هذا اليوم بالذّات لم يره ، وعَدّ ذلك بمثابة النّذير على موته . وبالفعل مات بعد مضي سبعة أيام على اليوم المقدّس .

ولقد كرّمته الأجيال باعتباره الأقدس بين النّاس ، وكان ثمّة تأكيد جازم على حصول آيات الكرامات الإلهية خلال مدّة حياته بلا توقّف . غير أن أحفاده تخلّوا عن الدّين اليهودي بالكليّة ، وكانوا مثالاً حيّاً لتلك الأفعال التي استجرّت على يسرَئيل الخراب في عهد أنطيوخوس إيپفانِس .

وحصل بعد موت شمعون بمدّة قصيرة ، وعلى ضوء الانحلال الذي تفشّى في الشعب ، أن الأتقياء قرّروا أن استخدام اسم الله الأقدس ينبغي أن يكون حكراً على الكهنة فحسب . وتمّ استبدال الحروف الأربعة للاسم المقدّس نفسه[1] ، الذي بقي يُنطق فقط على لسان الكهنة عندما كانوا يختتمون صلاة الأضحية اليوميّة ، فيتلفّظون بالمباركة للشعب ، وكذلك على لسان الكاهن الأكبر في يوم الغفران .

الرّابي يشمعيل ، الكاهن الأكبر
רבי ישמעאל כהן הגדול

كان الرّابي يشمَعيل واحداً من أبرز وأرقى آباء الأدب التّلمودي . وكان صافي العقيدة ، سامي الفكر ، ذا شروح جليّة ودقيقة . ولقد قضى شهيد العَسف الرّوماني ، فكانت هذه النّهاية تتويجاً للحقيقة والمصداقيّة لأعمال حياته ومقولاته كلّها .

إن كان ثمّة خلود تاريخي وخلود للرّوح ، فإن الرّابي يشمعيل قد حاز الأول وكان راسخ الإيمان بالثاني . إن مَن يظن أن عقيدة خلود الرّوح هي نتيجة لأباطيل الإنسان الذي يدّعي لنفسه أفضليّة مُتخيَّلة على باقي الكائنات ، ومَن يظن أنها مبدأ خيالي قديم في التاريخ لا يمكن دونه لمحاكم الشريعة أن تتثبّت من نزعة الإنسان الطبيعية لفعل الشرّ ، لا يمكنه أبداً السموّ إلى جرأة الاستشهاد وشرفه . أما بالنسبة للرّابي يشمَعيل ، فإن الإدراك العام ومبادئ الفطرة تثبت صحّة هذا المُعتقد .

فأولاً : ما من ذرّة من المادّة في وسع الكون بأسره يمكن أن تضيع ، فكيف يمكن إذاً لروح الإنسان أن تتلاشى ، وهي تؤلّف العالم بأسره في فكرة واحدة ؟

ثانياً : في الطبيعة بأسرها ، ليس الموت سوى عملية تحوّل ، وأما مع الرّوح فهو المدخل إلى مملكة جديدة وأكثر سموّاً .

---

(1) ذكرنا أن اسم الله الأعظم في العبرية : יהוה ينبغي لليهود عدم التلفّظ به إلا مرّة في السّنة (يوم كِپور) تعظيماً له ، ويُستعاض عنه بلفظ : אדני (أدوناي) : ربّي ، مولاي .

ثالثاً : إن أفكارنا ومشاعرنا ، النّابعة أصلاً من الرّوح ، ليست ذات طبيعة دُنيويّة .

كذلك فإن الرّابي يشمَعيل دافع بحماسة عن عقيدة التخيير لدى الإنسان . قال الرّابي : «عندما يدخل امروٌ درب الحقّ والعدل ، فإن الله يكون في عونه ، لكنه عندما يختار طريق المعصية فإن الله يقول : «أمَا وقد أعطيتُك العقل وحرّيّة الإرادة ، فامضِ إذاً لما تشاء» ، وهذا كشأن البائع الذي يخدم الزّبون الذي يشتري بضاعة وأشياء مفيدة ، أما الذي يطلب الزّفت أو الكبريت فيقول له : «إمضِ فاحمله بنفسك» » .

وهنا يسأل كثير من النّاس : «فلماذا إذاً يسمح الله بوقوع كل ذلك القدر من الفساد والشرّ ؟» ، يجيب الرّابي يشمَعيل : «هذا ليس من فعل الله ، بل منكم ، فأنتم بالذّات مصدر الشّرور الأخلاقيّة والدّاعمون لها . فإن كان حقلٌ ما مُمرعاً بالأعشاب الضارّة ، هل يتذمّر الفلاّح إلى الله ؟ لا ، بل ليلُم نفسه على إهماله وكسله . أما مَن يمتلك حسّاً قويماً صادقاً ، فهو يُقرّ بأن فضائله إنما تعود إلى عمله هو ، وأما المُسرف على نفسه فهو لا يعرف إلا أن خطيئته هي له فحسب ، فواهاً له . إن عبارة «للتقيّ الصّالح يأتي العون من العُلى» هي التي كانت تشدّ من أزر أجدادنا الأتقياء ، وهي التي ينبغي أن تقوّي نفوسنا» .

وكذلك فإن تعريفه للإثم[1] أيضاً هو أعلى وأسمى من الأفكار المشوّشة للعديد من اللاهوتيين .

إن الإثم بمثابة الحاجز في القلب ، وهو عجز عن الشعور والإدراك بكل ما هو نبيل وأصيل وعظيم ، وعن المشاركة في الخير . إن كان للمرء أن يتحرّر من ربقة الآثام ، فينبغي أن يكون عقله وقلبه مفتوحين لتأثير الإشراق . وينبغي لذلك خضد وطأة أهواء النّفس ، والتّطهّر من التّحامل والأثَرة والتّيه .

أما مَن يحلو له ترديد الرأي المغلوط بأن الدّين اليهودي يعدّ الله غير متسامح وحقود ، فيكفيه أن يتلو توصيف الرّابي يشمَعيل لفضائل يوم الغفران :

---

(1) سبق أن ذكرنا أن عبارة «الإثم» مأخوذة عن الإغريقية ، لكننا نُوردها لاشتهارها .

«إن مَن يعصي أمراً واجباً لله ، ثم يتوب ، تجوز له المغفرة للتوّ» .

«إن مَن يأتي أمراً محرّماً ثم يتوب ، يُغفر له في يوم الغفران» .

«إن مَن يقترف ذنباً جزاؤه الطرد أو القتل ، يجوز أن يُغفر له عن طريق المعاناة . وأما مَن يدنّس اسم الله فلا عقوبة له إلا الموت» .

وما هو تدنيس اسم الله ؟ هو كما يرى الرّابي عمل مَن يقترض ثم لا يردّ ما اقترضه ، فهو مقترف لهذا الذّنب . يقول الرّابي أبايا : «فِعلُ الرّجل الذي يأتي ذلك ، فلا يكون اسم الله مكرّماً في فمه» .

ويقول الرّابي يُوحَنان : «هو فِعلُ مَن يحقّر نفسه» .

لكن لماذا يكون عصيان الأوامر الواجبة من الممكن التكفير عنه بسهولة ، كما يُظنّ عموماً ، وهي بهذه الأهميّة البالغة ؟ يقول الرّابي إن الذّنب الذي يُقترف في حق النّاس أشدّ في عيني الله ممّا يُقترَف في حقّه هو .

الرّابي مئير
רבי מאיר

«كل ما يفعله الله حَسَن جداً טוב מאד» .

إن الرّابي شمعون بن إليعيزر يعمد إلى استخدام عبارة «حَسَن جداً» للإشارة إلى النّوم . فيقول : «ينام الإنسان ، ثم في بضعة ساعات يستعيد قوّة جديدة» . والرّابي صموئيل بن نَحمان يقول : «إن الدّافع الذي يحثّ الرّجل إلى النساء «حَسَن جداً» ، لأنه من خلال ذلك تُشيّد البيوت وتؤلّف الأُسر» . وكان من رأي الرّابي هَمّونا أنه ما من معنى أكثر فاعليّة يمكن نسبه إلى عبارة «حَسَن جداً» كما هو الحال فيما يتعلّق بالثأر ، والرّابي شمعون بن لَكيش ينسبها إلى الحُكم السّياسي ، أما تعاليم الرّابي مئير فتنصّ على أن موت الإنسان «حَسَن جداً»[1] .

(1) التّلمود يحفل إلى الغاية بذكر المسائل الفقهية والمطارحات الجدلية الكلاميّة ، وهنا لم نعمد إلى الإطالة في مثل ذلك ، لأنه فوق حدود طاقة القارئ .

إن غاية الدّين اليهودي ليست التّفرقة العُنصريّة وإنما توحيد البشـريّة[1]، وذاك كان أحد أعظم المبادئ التي قامت عليها حياة الرّابي مئير .

وفيما يتعلّق بنصّ الآية القائل : «ليطيـع الإنسـان الشّريعة ويعيـش فيهـا» ، يقول : «إن النصّ المقـدّس لا يحـدّد اليسرئيليين ، ولا اللّيويـين ولا الكهنـة ، إنمـا النّاس عموماً ، ولذا فإن الشخص الأمي الذي يطيع الشريعة يكون على حدّ سواء مثل الكاهن الأكبر» .

وفضلاً عن ذلك قال : «إمشِ أمام الجميع بتواضع ورِفق ، لا أمام من يتّبـع دينك فحسب ، بل أمام الجميع» .

وكان الرّابي مئير عالماً لا يُجارى في حقل القصص الرّمزيّة ، ويُقال إنـه كـان يحفظ حول الثّعلب وحده ثلاث مئة قصّة . ومن هذه القصـص لـم يصلنـا سـوى ثلاث نُبَذ فقط .

«قال بعض الثّعالب لدُبّ : «تعال بنا نذهب إلى ذاك المطبخ ، فهم يقومـون بالإعداد ليوم شَبّات ، وسيكون بوسعنا أن نحصـل علـى الطعـام . فتبـع الـدّبّ الثعلب ، لكن لكبر حجمه قُبض عليه ونال جزاءً مريراً . فلغضبه من جـرّاء ذلـك نوى أن يمزّق الثّعلب إرباً ، بحجّة أن أسلاف الثعلب كانوا مرّة قد سرقوا طعامـه ، ومن هنا أتى القول الأول : «الآباء يأكلون الحُصْرُم ، والأبناء يضْرَسون» .

«قال الثّعلب : «لا ، بل امضِ معي يا صاحبي العزيز ولا داعي لنتشـاجر ، سآخذك إلى مكان آخر حيث نجد الطعام دون ريب» . ثم أخذ الثعلب الـدّبّ إلـى عين ماء ، حيث كان ثمّة دلوان مربوطين معـاً بحبـل ، علـى هيئـة ميزان . وكـان الوقت ليلاً ، فأشار الثعلب إلى إلى انعكاس صورة القمر على الماء ، قائلاً : «ثمّة جبن طيّب ، فلننزل ونتناوله بكل متعة» . ودخل الثعلب الدّلو أولاً ، لكن بما أنـه كان خفيفاً للغاية بالمقارنـة مـع وزن الـدّبّ ، أخـذ معـه حجـراً . ولكـن حالمـا قفـز الدّب إلى الدّلو الآخر رمى الثعلب بالحجر ، فإذا به يرتفع ، بينما غاص الدّب إلى قعر البئر» .

---

(1) ليس هذا بصحيح أبداً ، بل إن مبدأ اليهوديّة يضع اليهود فوق بقيّة البشر كلّهم .

فهنا يجعل مقولته الثانية : «الصّالح ينجو من الأزمات ، ومكانه يقع الشرّير» . وعلى كل امرئٍ أن يُعاني ممّا جنته يداه من ذنوب ، وبما كسبته نفسه من خطايا . وإنّ مَن يتّبع نجوم اللّيل ومراتع الفجور مصيره الهلاك دون ريب ، أما الصّالح وإن كان يحمل حجراً (ذنباً) ، فبوسعه أن ينتبذه قبل فوات الأوان ، وينجو من الموت .

كان إليشاع بن أبوياه العتيق (عبد روماني أُعتق) ، الملقّب باسم «أخير» אחר (الآخَر - الكافر) ، رجلاً ذا علم راسخ ، وكان واحداً من أساتذة الرّابي مئير ، وكانا مراراً ما يتساجلان في شؤون المقاطع التّوراتيّة .

وكان النّاس غير راضين عن معاشرة الرّابي مئير له[1] ، فدعوه لذلك باسم «أخيريم» אחרים ، وهي كلمة مؤلّفة من أحرف مئير وأخير . غير أن الرّابي مئير كان يُحيلهم إلى المثل القائل : «أصغِ بأذنك إلى كلام الحكماء ، ولكن وجّه قلبك إلى ما في فكري» .

كان الرّابي مئير يأكل التّمر وينبذ النّوى ، ومرّة صادف شجرة رمّان ، فلمّا أكل الثّمر كان يرمي القشر . غير أن أبناء جيله ما كانوا يفهمونه .

وفي إحدى المناسبات قال أخير للرّابي مئير : «لماذا تُشبّه الشريعة بالذّهب والزّجاج ؟» .

أجاب الرّابي مئير : «لأنها عزيزة المنال كما هو الذّهب عزيز في المعادن ، لكنها عُرضة للنسيان بالسّهولة ذاتها التي ينكسر بها الزّجاج» .

أجاب الآخر نقلاً عن الرّابي عقيبا : «لا ، بل السبب هو ما يلي : عندما يتكسّر الذّهب والزّجاج يمكن أن يُصهرا معاً ويشكّلا بهيئات جديدة . فكذلك هو شأن طالب الشريعة ، رغم أنه قد يقترف عدّة خطايا يبقى منه أمل» .

وكان الرّابي مئير يؤثر عمل الخير على الدّوام ، وعناية الإنسان بنفسه كما بالآخرين . وكان يؤكّد على أن «الغني بالفعل هو مَن يتمتّع بغناه» .

---

(1) لأن إليشاع ارتدّ في آخر عمره عن اليهوديّة ، كما سيرد في الفصل الثالث أدناه ص 305 .

أما الآية الواردة في سفر ملاخي (2 : 6) : «وأرجَعَ كثيرين عن الإثم» ، فقد فسّرها على أن المعني بها هو أهَرُون ، أول مَن ولي منصب الكاهن الأكبر ، الذي كان له من المكانة بحيث أن مجرّد ذكر اسمه ، أو التفكير بالكيفيّة التي قد يعتبر بها عملاً ما فيما لو كان حاضراً ، كان يكفي لمنع الكثيرين من الوقوع في الخطيئة .

في إحدى المرّات قال رجل وثني للرّابي مئير : «هل يُعقل أن الله ، الذي تؤكّد أن جلالته تملأ الكون الفسيح ، يمكن أن يتكلّم من بين ضلعي تابوت الحَرَم المقدّس ؟» .

فللإجابة على هذا السؤال ، حمل الرّابي مئير أمام الوثني مرآتين ، فرأى السّائل في كلّ واحدة منهما صورته . قال الرّابي : «الآن ، في كل مرآة قد صَغُر حجم جسدك ليتلاءم مع مقياس المرآة . أفيكون مثل هذا الأمر إذاً مستحيلاً على الله ؟ إن الدّنيا هي بمثابة مرآته الكبرى ، والحَرَم المقدّس مرآته الصغرى» .

أما بخصوص التعليم ، فكان الرّابي مئير يقول دائماً : «علّم تلامذتك بشكل مختصر» . وكان يقول أيضاً : «لتكن تطبيقاتك موجزة» ، وكانت نصيحته للآباء هي : «عَلّم ابنك حرفةً قويمة» .

أما حكمتُه المفضّلة فكانت : «كُن مصمّماً على معرفة طُرُقي ، وكُن نابهاً على أبواب الشريعة ، واحترز على شريعة قلبك . وليكن نُصب عينيك الخشية مني ، واحمِ فمك من الوقوع في الذّنب ، طهّر نفسك ونزّهها عن كل إثم وذنب ، فيكون الله إذاً معك» .

ومن خلال عبارة : «كُن نابهاً على أبواب الشريعة» ، يبيّن الرّابي مئير أن على كل دارس أن يتتلمذ على ثلاثة مدرّسين على الأقل ، ولكلمة «أبواب» معنى أو مفهوم خاص . فعلى سبيل المثال ، عندما يمرّ شخص بباب بيت أمضى فيه شهر العسل ، أو بباب دار عدل حُكم عليه فيها أو تمّت تبرئته ، أو بباب بيت قام فيه باقتراف ذنب ما ، فكم من الخواطر المختلفة والمشاعر والذكريات ستجول في خاطره . فبالوطأة ذاتها ينبغي أن تنطبع في ذهنه أوقات تدارسه للشّريعة .

يُسمّى اليسرَئيليّون «أبناء الله» ، والرّابي مئير لم ينِ يقدّم هذه الرّابطة البنويّة بوصفها الحقيقي ، مُترعاً إلى الثّمالة كأس السّعادة العائليّة ، ومظهراً إيّاهـا لأعين الشعب . ولقد قـال : «النّبي يِرِمْياه يسمّينا «بَنون جاهلون» ، وفي سفر التّثنية يُشار إلينا بعبارة «هذا الجيل الشّرّير» ، لكننا على أي حال ووجه نبقى نحن «أبناء الله» » .

هذا ولقد كانت امرأة الرّابي مئير طيّبة وصالحة كزوجها .

كان بجوار الرّابي يقطن بعض أتباع الدّين اليهودي ممّن يتبعون أعراف الإغريق ، فكان الرّابي يتبرّم منهم كثيراً وكاد لشدّة غيظه أن يدعـو الله ليهلكهم ، غير أن بِرُورْياه ברוריה امرأتـه قالت : «لا تنس تعاليم دينك . لا تـدعُ بموت المذنبين ، بل بأن تزول الذّنوب ذاتها ولا يبقى ثمّة مجال لدوامها» .

وخلال غياب الرّابي عن بيته في إحدى المرّات ، مات اثنان من أبنائه . فما كان من أمّهما إلا أن كتمت حزنها ، وانتظرت عودة الأب ، فقالت له :

«يا زوجي ، منذ مُدّة سُلّمت إليّ جوهرتان فائقتا القيمـة ، برسم الأمانة . واليوم إذا بمن ائتمنني عليهما يطلبهما ، فقمتُ بتسليمهما إلى يديه !» .

قال الرّابي مُثنياً : «هذا والله حقّ ، ينبغي لنا دوماً أن نـردّ بكـل رضا وأمانة كل ما يوضع في أمانتنا» .

بُعيد ذلك ، سأل الرّابي عن ابنيه ، فما كان من الأم إلا أن أخذت بيده ، واصطحبته برفق إلى حجرة الموت . فتفرّس مئير بولديه ، ولمّا أدرك حقيقـة الأمر انفجر يبكي بمرارة ولوعة .

«لا تبكِ يا زوجي الحبيب» ، قالت الزّوجة النّبيلة ، «ألـم تقل لـي إن علينا أن نردّ برضا عندما يُطلب منّا كلّ ما وُضع في أمانتنا ؟ فالله أعطانا هاتين الجوهرتين وتركهما معنا لبعض الوقت ، فابتهجنا بحيازتهما ، لكنه سُبحانه الآن طلب ما هو له ، فليس لنا إلاّ السّمع والطّاعة بغير تذمّر» .

* * *

هِلّيل هَنَاسي
הלל הנשיא

كان هِلّيل «رئيس يسرَئيل» سَليل عائلة بارزة ، فكـان أبـوه مـن سِبط بنيـامين بينما كانت أمه تنتمي لنَسَب مباشر للملك داوِد . وعاش قبـل حوالـي مئـة عـام من دمار الهيكل الثاني ، وسُمّي هِلّيل البابلي لكونه وُلد في بابل .

كـان الرّجـل في الأربعين مـن عمـره قبـل أن يـبرح مدينتـه الأم كيمـا يشـرع في دراسة الشّريعة ، فواظب على الدّراسة على شمَعْياه وأبطـاليون مـدّة أربعـين عامـاً ، ثم منذ ذلك الحين حتى موته ، بعد أربعين عاماً ، كان رئيس المدرسة .

وخلال مدّة حياته كتلميذ ، كان هِلّيل مراراً يعاني العُسر في متابعة دراسـاته . وثمّة حكايـة مشـهورة عنـه حـول ذلـك ، أنـه في إحـدى المرّات عندمـا كـان لا يملـك القسط الذي يطلبه البوّاب للدّخول إلى المدرسة ، قام بتسلّق عتبة النّافذة رغبةً منه في الاسـتماع إلـى المحـاضرة عـبر مصراعـي النّافذة . وصـادف أن الثّلـج كـان يهطـل ، ولفت انتباه التّلاميذ إلى حدّ بالغ أن هلّيل اكتسى بالثّلج تماماً دون أن يُلقي إلـى ذلـك بالاً ، حتى أنه فقد الحسّ من جرّاء البرد . ولقـد انتبـه إليـه أولئـك الذيـن في الدّاخـل بسبب حلول العتمة باكراً في الحجرة ، فقـاموا بحملـه إلـى الدّاخـل وعملـوا علـى ردّ وعيه إليه .

هذا ولقد تمّ ارتقاء هِلّيل إلـى رئاسـة المدرسـة علـى نحـو مُبهـر . فلقـد حلّـت عشيّة عيد الفصح في يوم شَبّات (السّبت المقدّس) ، وكان كـبيرا الحاخـاميم في مدينـة يَرُوشَلايم (أورشليم) آنذاك هما ابنيّ بيتيرا ، فسُئلا في شأن الفتوى حـول مشـروعيّة وصحّة إعداد وجبة عجل الفصح ضمـن يـوم شَبّات . ولمّا عجـز الاثنـان عـن حـلّ المسألة ، قيل لهما بأن ثمّة رجلاً من بابل ممّن درسوا على الحبرين الشـهيرين شِـمَعياه وأبطاليون هو الآن في المدينة ، وبوسعه مسـاعدتهما في الأمـر . فتـمّ اسـتدعاء هِلّيـل فأجاب على المسألة بكل حكمة وجلاء ، ممّا جعل ابني بيتيرا ينبريـان قـائلين : «و الله إنك لأجدر منّا وأقدر على تولّي منصبنا هـذا» ، ومـن خـلال وسـاطتهما تمّ انتخـاب هِلّيل رئيساً للمدرسة في عام 3728 للخليقة .

وكان هِلّيل رجلاً رائق المزاج وطيّب السّريرة ، لكنه سرعان ما واجه خصماً حادّ المزاج وعجولاً هو شَمّاي[1] . قام شَمّاي بتأسيس مدرسة سمّاها בית שמאי (بيت شَمّاي) ، فاشتجرت بينها وبين مدرسة «بيت هِلّيل» בית הלל المساجلات الفقهية بشكل حاد ودائم ، ولكن في الغالبية العُظمى من الحالات كانت الأسبقيّة في السِّجال العلمي لصالح هِلّيل وتلامذته .

وكان عدد تلاميذ هِلّيل ثمانين ، أبرزهم يهوناتان بن عُوزيئيل .

في إحدى المرّات أتى مُلحد إلى شَمّاي الرّابي ، وسأله بطريق الهزء أن يلقّنه مبادئ العقيدة اليهوديّة في خلال الفترة التي يمكنه الوقوف فيها على قدم واحدة . فما كان من شَمّاي إلا أن استشاط غضباً ، وانتهره طارداً إيّاه ، فذهب الرّجل عندها إلى هِلّيل ، الذي ابتدره قائلاً :

« «ما تكره لنفسك لا تفعله لغيرك» . هذا هو جوهر الشّريعة ، وأمّا ما عداها فلا يعدو أن يكون تفسيراً لها» .

هناك كثير من التّلامذة الأغبياء يطرحون أسئلة تدعو إلى الغيظ . سأل أحدهم : «كم قانوناً يوجد للشريعة ؟» .

أجاب هِلّيل : «اثنان ، القانون الشفهي والقانون المكتوب» .

قال التّلميذ : «فأنا أؤمن بالأخير ، لكن لماذا علي أن ألتزم الأوّل ؟» .

فعندها سطّر هِلّيل الأبجدية العبرية على صحيفة ، وأشار إلى الحرف الأول منها ، وسأل التّلميذ : «ما هو هذا الحرف ؟» .

قال التّلميذ : «ألف» .

قال هِلّيل : «حَسَن ، فما التّالي ؟» ، وأشار إليه .

«بيت» .

«حَسَن أيضاً ، فما أدراك أن هذا «ألف» وذاك «بيت» ؟» .

«هذا ما أخذناه عن معلّمينا وأسلافنا» .

---

(1) أنشأ شَمّاي مدرسته لحكماء اليهود (الكَتَبة) في أورشليم بالقرن الأول الميلادي ، وكان ألدّ أعداء فرقة الفَريسيّين التّلموديين التي يتزعّمها هِلّيل ، فلهذا يتّهمونه بالتّشدّد .

قال هِلّيل : «فإذاً ، كما ارتضيت ذلك بالإيمان ، عليك أن ترتضي بقانون الشريعة» .

وكدليل على تفكير هِلّيل العملي ، وعلى تفهّمه الواسع لحاجات عصره ومتطلّباته ، هاك هذه القصّة المعبّرة :

بحسب شرائع التُّوراه ، ينبغي توفية الدّيون جميعها في السّنة السَّبتيّة (آخر سبع سنين) שנה שמטה «شَناه شميطاه» ، كما هو مكتوب : «في آخر سبع سنين تعملُ إبراءً ، . . . ممّا أقرضَ جاره» ، إلخ (سفر التّثنية - 15 : 1-2) . فهذا القانون ، المقصود به الحدّ من تفاوت الثّروة ، والموائم للحاجة التي سُنّ من أجلها في بعض الأحوال ، كان في عهد الملك هيرود مصدراً للإشكالات . فكان الغنيّ يُحجم عن إقراض أمواله لمَن هم بأمسّ الحاجة إليها ، خوفاً من فقدانها جرّاء شروط هذا القانون الشّرعي . فلدرء هذا الضّرر قام هِلّيل ، دون أن يعمد مباشرة إلى إبطال شُرعة التّحديد الإلزامي ، بسنّ حاشية تقضي بأن من حقّ الدائن أن يستصدر إقراراً ممضياً نظامياً قبل السنة السَّبتية ، يكفل له حقّه باسترداد ديونه المتراكمة في أيّ وقت يراه مناسباً . فكان هذا التّشريع مفيداً لكلّ من الغني والفقير على حَدّ سَواء ، وأضحى قانوناً سارياً بإجازة الحاخامات له .

وكانت وفاة هِلّيل حوالي العام 3764 للخليقة .

الرّابي «راشي»
רבי רש״י

«راشي» اسم مُركّب من الحروف الأولى لعبارة : «رابي شْلومو يِصْحاقي» רבי שלמה יצחקי (الحاخام شلومو بن يصحاق) ، ولقد وُلد حوالي عام 1040 للميلاد في تروا Troyes بفرنسا . ولمّا كان صبيّاً كان تحصيله الدّراسي متألّقاً ، فأجاد في أشدّ العلوم تعقيداً بغيرما عناء ، وحاز إلى جانب تمرّسه الكبير في الفيلولوجيا ، والفلسفة ، والطبّ ، والفَلَك ، والقانون المدني ، على براعة تامّة في حقول المعارف التّوراتيّة والتّلموديّة الرَّحبة .

ولقد شرع راشي في كتابة تفاسيره على أسفار التُّوراه في سنّ غضّة للغاية ، فأكملها كما يُقال في سنّ الثالثة والثّلاثين . لكنه قبل أن يطرحها على الملأ ارتحل سبع سنين ، ليزور جامعات إيطاليا واليونان وألمانيا وفلسطين ومصر ، ويستجمع لصالح الأجيال القادمة كلّ ما يمكن جمعه لعلاّمة مُتقن مثله ، ذي عين مدقّقة ، وذهن متّقد موهوب ، وعقليّة باحثة دؤوبة .

ولدى عودته إلى فرنسا ، نشر راشي تفسيره لأسفار الكتاب المقدّس ، في كتاب لم يتمكّن أحدٌ بعده أبداً من تجاوزه بالقيمة ، وما زال إلى العصر الحاضر يُنشر مُرفقاً بالنّسخ العبرية من الكتاب المقدّس (تُوراه ، نبيئيم ، كتوبيم) . كما ألحق به بعد برهة من الزّمن تفسيراً لثلاثة وعشرين مَبحثاً من مباحث التَّلمود[1] .

وما لبث كثير من كتبه لم يُنشر قَطّ ، فيما نُشر بعضها الآخر وأُزجي أمام الملأ ، فمنها كتابٌ في الطبّ ، وقصيدة بعنوان : «توحيد الله» . وتوفّي راشي (عام 1105 م) وله من العمر خمسة وسبعون عاماً ، عن ثلاث بنات ، كانت إحداهن (يُوكيِد) أمّ الرّابي صموئيل بن مئير ، الذي اضطلع بتحرير أعمال جدّه وأضاف إليها أشياء .

أضحت عبقريّة راشي ونفسه الرّئيفة وعلومه الزّاخرة مضرب الأمثال لدى الأجيال التّالية ، وغدا بطلاً للعديد من الأساطير من النّوع الذي كانت العقول في تلك الأيام السّالفة متعطّشة للاعتقاد بها والمُبالغة فيها .

يُروى أن أحد ملوك البلاد دعاه في إحدى المرّات ، وقال له : «لقد جهّزتُ مئة ألف عربة ومئتي سفينة ، وأرغب في احتلال بيت المَقدِس . وطالما أن جنودي وضبّاطي يتفوّقون بفنونهم القتاليّة وشجاعتهم على الذين يحتلّونها الآن ، فما تراه لي من حظوظ الفَلاح ؟»[2] .

أجاب راشي : «لَتستولينّ على القُدس ، وتحكُمنّها ثلاثة أيام ، لكنك عائدٌ إلى هذه المدينة ومعك ثلاثة جياد وبقدرها من الرّجال على متنها» .

---

(1) تُعرف إلى اليوم باسم : شروح الحاخام راشي . راجع مقدّمتنا لهذا الكتاب .
(2) الحاكم المذكور هو گودفروا دي بويّون Godefroi de Bouillon ، احتل القُدس 1099 م .

فابتدره الملك قائلاً ، والغيظ من نبوءته يأخذ منه كل مأخذ : «إذاً فإيّاك أن تراني راجعاً بأربعة جياد ، لأنني إن عُدتُ ولو بجواد واحد فقط أكثر ممّا تقول ، سوف أطرح لحمك لطيور السّماء» .

ودامت الحرب أربع سنين[1] . وعاد هذا الملك أدراجه وليس معه من جيشه كلّه سوى أربعة خيّالة ، وفيما كانوا يعبرون بوّابات المدينة سقط حجر فقتل جواداً مع راكبه على الفور . فأعاد ذلك إلى الأذهان كلام راشي ، ولكن عندما طلبه الملك ، ألفى أن الشيخ خلال غيابه قد بارح عالم الأحياء .

ويُزعم أن كرسي راشي الذي كان في المدرسة ما زال موجوداً إلى اليوم .

وكان راشي يُعرف أيضاً باسم «يَرحي» ירחי ، المشتقّ من اسم المدينة التي كان يعيش فيها (Lunel) ، حيث أن اسم «يَرِيَح» ירח في العبرية يعني القَمَر ، كما هو اسم *lune* في الفرنسية ، والذي يقابل اسم المدينة .

نجد في تعاليم التّلمود : «الصّالح لا يموت» ، وكذلك : «ما أسعد مَن الذي يجد ضالّته في الحكمة ، ويحوز نعمة الفهم» .

الرّابي مُوشيه بن مَيمُون
רבי משה בן־מימון

يُعدّ الرّابي مُوشيه بن مَيمُون[2] (أو «رَمبَم» רמב"ם ، اختصاراً لعبارة : رابينو مُوشيه بن مَيمُون) أحد أعظم علماء التّفسير اليهودي ، وهو فوق ذلك من سُلالة الرّابي يهوداه جامع المشناه . وُلد في مدينة قُرطُبة Cordova بالأندلس في 30 آذار من عام 1135 للميلاد . كان أبوه مُسناً بعض الشيء عندما تزوّج ، ويُروى أنه دخل الحياة الزّوجيّة عن طريق حُلم تراءى له مرّات متتالية بأنه يتزوّج ابنة جزّار يُقيم في حيّه ، وكانت تلك هي المرأة التي تزوّجها بالفعل .

(1) بدأت الحملة الصّليبية الأولى عام 1095 م وسقطت القُدس 1099 م ، ومات راشي 1105 م .
(2) انظر كتاب إسرائيل ولفنسون : «موسى بن ميمون ، حياته ومصنّفاته» ، القاهرة 1936 .

كان مُوشيْه الابن الوحيد الذي أنجبته هذه المرأة ، ثم ما لبثت أن توفّيت عقب ولادته . والتزم أبوه بالحِداد على رحيلها لحوالي العام ، ثم عاد فتزوّج من جديد ، ورُزق من هذا الزّواج الثاني بعدّة أبناء .

لم تبدُ على مُوشيْه في صغره مخايل النّجابة أو حبّ العلم ، وهذا ما أحزن قلب أبيه كثيراً . وأخفقت جميع المحاولات لحثّه على متابعة التّحصيل ، فراح إخوته ينعتونه بلقب «صبي الجزّار» ، كنوع من الغَمز على بلادته ، وفي نهاية المطاف استبدّ الغضب بأبيه فطرده من منزله .

راح مُوشيْه يرتحل في البلاد ، بغير مُعين أو رفيق ، فصادف ربّانيّاً متفقّهاً في الدّين ، فأعجب بحكمته ومعرفته أيّما إعجاب ، إلى حدّ أنه قرّر أن يدرس مُجدّاً إلى أن يُضاهي هذه الدّرجة الرّفيعة من العلم .

بعد مضيّ عدّة سنوات ، أُعلن عن تعيين واعظ جديد ليُلقي خُطبة الصّلاة في كنيس قُرطُبة بأحد أيّام شبّات . وراحت الأخبار والأقاويل تنثال حول علومه الغزيرة وفقهه العميق وفصاحته البليغة ، حتى تملّك الشوق الجميع للاستماع إلى مَوعظته . ولمّا حلّ يوم شبّات ، واستمع النّاس إلى الخُطبة ، وجدوا فيها مادّةً وحُسن إلقاء وصدقاً وتأثيراً تفوق كل ما كانوا عهدوه من قبل ، وكم كانت دهشة ميمون الأب وأبنائه عندما ألفوا أن الرّجل الذي كانوا توّاقين للتّشرف برؤيته ما كان غير قريبهم الطريد .

كان أول تفسير وضعه مُوشيْه بن ميمون على متن «المِشناه» ، واختتمه بهذه العبارة : «أنا مُوشيْه بن ميمون ، شرعتُ في تأليف هذا التّفسير لمّا كنتُ في الثالثة والعشرين من العمر . وفرغتُ منه في سن الثلاثين بأرض مصر» .

وكان أن هرب مُوشيْه بن ميمون إلى قاهرة مصر من الأندلس ، لتفشّي التعصّب والاضطّهاد بها ضدّ اليهود . فدرس فيها اللغتين الإغريقيّة والكلدانيّة ، وأتقنهما بعد سبع سنين من المثابرة . وذاع صيته في البلد ، فأقرّ له الجميع بمكانته العلميّة الرّاسخة وعلومه العامّة ، ولم يقتصر اعتبار مؤلّفاته على أبناء دينه ، بل تعدّاهم إلى جميع أهل العلم والمعرفة في عصره .

ويُقال إن ملك مصر قد عيّنه واحداً من بين مجموعة أطبّائه[1] . وكان رجال العلم في المملكة آنذاك يُقسمون إلى سبع مراتب ، ولكلّ مرتبة موقع يوازيها بالقُرب من عرش الملك في المناسبات الرّسميّة . وإذ عَدّ الملكُ مُوشيْه بن ميمون متفوّقاً على الجميع بمراحل ، فقد خصّه بموقع متفرّد . لكن مُوشيْه أبى ذلك لتواضعه ، فيما استَشْرَت الغيرة ببقيّة الأطباء من جرّاء موقعه السّامي ، ولمّا كانوا عاجزين عن أذيّته عَلانيةً ، فقد جهدوا للطّعن به في الخفاء .

أصيب الملك بمرض شديد ، فأشرف مُوشيْه على علاجه . وما كان من الأطبّاء إلا أن استغلّوا ذلك ، فوضعوا السّمّ غيلةً في جُرعة الدّواء الذي أعدّه له مُوشيْه ، وأخطروا الملك بأن هذا الأخير متآمر على قتله . ولإثبات صحّة كلامهم قاموا بطرح بعض المُركّب لكلب ، فما لبث أن مات .

حلّ الحزن والدّهشة بالملك ، أما مُوشيْه الذي عقدت المفاجـأة لسانه فبُهت ومكث عاجزاً عن الكلام .

قال الملك : «الموت جزاء كلّ مَن يتربّص بمليكه لاغتياله ، فاختر كيف تُلقّى جزاءَك» .

طلب مُوشيْه ثلاثة أيام للتفكير ، فأعطاه الملك ما طلب . وخلال هذه المدّة أعدّ تركيباً خاصاً ، وأوصى تلامذته بتجهيزه واستعماله بحسب إرشاداته ، عندما يؤتى به إلى بيته فاقداً الرُّشد . ثم مَثُل أمام الملك ، ورغب إليه بقطع أوردته . غير أن الشريان الأساسي بقي بمنأى عن مدية الجلاّد ، كما توقّع مُوشيْه ، وكانت النتيجة بالتالي كما رسمها . فبعد تعافيه هرب من مصر ، ولجأ إلى كهف ، حيث ألّف كتابه الشهير «يَد حَزَقاه»[2] יד חזקה (اليد القويّة) ، الذي يتألّف من أربعة عشر فصلاً ، ترمز إليها كلمة «يَد» יד التي تبلغ قيمتها العددية 14 أيضاً .

---

(1) بعد سنة 1160 م نزحت أسرة ميمون من قُرطُبة إلى فاس في المغرب ، ومنها أبحرت في حوالي عام 1165 م إلى عكّا فمصر واستقرّت في مدينة الفسطاط . وفيها مارس مُوشيْه الطبّ وذاع صيتُه ، فعيّن طبيباً خاصاً للسّلطان النّاصر صلاح الدّين الأيّوبي ، ثم ابنه الملك الأفضل نُور الدّين أبي الحَسَن علي .

(2) المعروف أن «يَد حَزَقاه» هو ذاته كتاب «مشنيه تُوراه» الوارد ذكره أدناه .

قام مُوشيْه بن ميمون بتبسيط قواعد التّلمود والمرويّات الشفهيّة ، فيسّرها لأفهام الجمهور . كما ألّف مرجعاً شاملاً بعنوان : «مشنيه تُوراه» משנה תורה (أي الشريعة الثانية) ، كان الكتَبَة يتهافتون على استنساخه وانتشر انتشاراً عظيماً . وكذلك وضع عدّة مباحث فلسفيّة موجّهة ضدّ الإلحاد ، ومركّزة على إثبات أن الله خلق الدّنيا من العَدَم . ثم لمّا بلغ الرّجل الخمسين من العمر ، أتحف النّاس بمؤلّفه الأكبر الموسوم بـ : «مُوريه نَبوخيم» מורה נבוכים (دلالة الحائرين) باللّغة العربيّة ، نقله إلى العبريّة الرّابي يهوداه الحَريزي وذيّل عليه .

توفي مُوشيْه بن ميمون في سنّ السبعين ، فدُفنت عظامه في القاهرة بمصر[1] ، وبكاه اليهود وأبناء الأمم الأخرى على حدّ سواء . وكان الحُزن عليه بيروشَلايْم شديداً ، وتمّت إقامة صَوم צום ، وفتحت الكُنُس أبوابها حيث تمّت قراءة مقاطع من التُّوراه (سفر اللّيويين 25 : 12 حتى آخره) ، مع الأصحاح الخامس من سفر صموئيل الأول ، كجزء من صلاة ذلك اليوم[2] .

الرّابي امنون من ماينتْس
רבי אמנון איש־מינתץ

أثناء ولاية أحد أساقفة ماينتْس[3] ، كان يعيش في المدينة رجل يهودي يُدعى الرّابي أمْنون . وكان ينتمي إلى أسرة رفيعة القدر وله مزايا شخصية عظيمة ، كما كان غنيّاً ويحترمه كلّ من الأسقف وبقيّة النّاس . كان الأسقف كثيراً ما يُلحّ عليه بترك اليهوديّة واعتناق المسيحيّة ، لكن دون أدنى جدوى . ثم في بعض الأيام من جرّاء الضغط عليه أكثر من المُعتاد ، ولكي يتملّص من إلحاح الأسقف ، قال على عَجَل : «سوف أفكّر بالأمر ، وأعطيك جواباً خلال ثلاثة أيام» .

---

(1) ينقل محمد بحر عبد المجيد (اليهود في الأندلس ، ص 90) أنه أسلم قبل موته ودُفن بطبريّا فكُتب على مقامه : «دُفن في هذا القبر مُوشيه بن ميمون الطّريد المحروم الكافر» !!

(2) وممّا يقول عنه اليهود : מאת משה לאת משה לא קם כמשה «من مُوشيْه (النّبي) إلى مُوشيه (بن ميمون) لم يظهر كمُوشيْه» .

(3) ماينتس Maintz مدينة بجنوب غرب ألمانيا ، تقع على نهر الماين قبالة مدينة ڤيسبادن .

لكنه بمجرّد أن خرج عن الأسقف شعر بغصّة في قلبه ، وراح ضميره يؤنّبه بشدّة على إبدائه ، ولو على هذا النّحو المُصطنع ، أدنى شك بخصوص الدّين القويم . فبلغ بيته والأسى يتملكه ، ولمّا قُدّم له اللّحم أبى أن يأكل ، ولمّا أتى أصحابه لزيارته واستفسروا عن سبب كآبته ، رفض ما أبدوه من مُواساة ، قائلاً : «تراني أنزل قبري باكياً على هذا الكلام» . وفي اليوم الثالث ، فيما كان لا يزال يتحسّر على تنازله الأرعن ، أرسل إليه الأسقف ، فرفض تلبية دعوته .

وعقب أن رفض تلبية دعوة رُسُل الأسقف مراراً ، صدر إليهم الأمر أخيراً بالقبض عليه ، وإحضاره بالقوّة بين يديّ الأسقف .

قال الأسقف : «أمنون ، لماذا لم تحضر إليّ كما وعدتَ ، لتخبرني عن قرارك فيما يخصّ طلبي ؟» .

أجاب أمنون : «ذَرني أتفوّه بعقوبتي بنفسي على هذا الإهمال . فها هو لساني الذي تفوّه بهذا الكلام الأرعن المتشكّك ، فليُقطع . لقد كذبتُ عليك ، فإنني لا أنوي أبداً التفكير بعرضك» .

قال الأسقف : «لا ، سوف لن أقطع لسانك ، بل إن قدميك اللتين أحجمتا عن القدوم إليّ سوف تُقطعان ، وباقي أعضاء جسدك العنيد سوف تُعذّب أيضاً وتُعاقب» .

وتحت أنظار الأسقف وبأمره ، تمّ قطع أصابع قدمي الرّابي أمنون كلّها ، وبعد أن تمّ تعذيبه بشدّة أُرسل إلى بيته بعربة ، وإلى جانبه أعضاؤه المبتورة .

وتحمّل الرّابي أمنون كل ذلك بمُطلق الرّضا ، ولديه كامل الأمل والثّقة بأن هذا العذاب الدّنيوي سوف يلتمس له المغفرة لدى الله .

كانت بقيّة حياته بالطبع عقب ذلك رهن أيّام معدودة . وحَلّ عيد رأس السنة «رُوش هَشّناه» ראש השנה ، وكان لا يزال على قيد الحياة ، فرغب بأن يُحمل إلى الكنيس . وتمّ نقله إلى بيت الله ، وخلال أداء الصّلاة رغب بالسّماح له بتلاوة دُعاء . فكان كلامه ، الذي تبيّن أنه الأخير ، كما يلي :

«إنني لأُسبّح بالقداسة التّامة لهذا اليوم ، فهو مُذهل وجليل . إنّ ملكوتَك يا ربّ يتجلّى فيه ، وإنّ عَرشُك مُقامٌ على الرّحمة ، وعليه تستقرّ بالحقّ . أنت الحَكَم الذي يُجازي ، ولا يخفى على علمك أيّ شيء . فأنت الشاهد والكاتب والُمقرّ والمدوّن ومتذكّر كل شيء بالحقّ ، حتى مَن نَحسبُهم دُفنوا قديماً في الماضي . أنتَ تفتح الكتاب المسطور ، وتأمر بنفخ الشُّوفار שופר (الصُّوْر) ، فترتعد حتى الملائكة ، فتصيح عالياً : «يوم الدّين بنا قد حَلّ» ، ففي الدّينونة ليست الملائكة عن الخطأ بمعصومة» .

«كلّ مَن دخل الحياة الدّنيا أمامك يجُوز ، تماماً كما يجعل الرّاعي القطيع الذي يعدّه يمرّ تحت صخرته ، فإنّك يا ربّ تأمر كل روح حيّة بالمرور أمامك . أنت تعدّ ، وأنت تتفقّد ، وتُعيّن نواقص كل مخلوق بحكمك وأمرك» .

«في رأس السنة يُكتب وفي يوم الغُفران يُقرّر . أجل ، كل أوامرك تُسجّل ، مَن يحيا ومَن يموت . أسماء مَن يلاقون حتفهم بالنّار ، أو بالغرق ، أو بالسّيف ، أو بالجوع ، أو العطش ، أو بالطّاعون ، كلّها مدوّنة لديك . وكل مَن يلاقون الأمان ، وكل مَن يلاقون النّقمة . وكلّ مَن يلاقون العذاب ، وكل مَن يُباركون بالدّعة . وكلّ مَن يُقدّر لهم النّعمة ، ومَن يحلّ بهم البلاء . ومَن سيكونون من الأغنياء ، ومَن من الفقراء ، ومَن يُعزّون ومَن يُذلّون . غير أن التّوبة والدُّعاء والإحسان يا ربّ ، قد تُبعد كل مصيبة مُقدَّرة !» .

فلمّا اختتم هذا البيان ، الذي صاغه للاعتراف بذنبه وبعدالة الجزاء الذي أصابه ، خمدت أنفاس الرّابي أمنون ، ومات على نحو لائق في بيت الله ، ما بين بني يسرَئيل المتجمّعين فيه .

لتبقى تقوى الرّابي أمنون ذكرى عطرة في بني يسرَئيل[1] ، وليجهدنّ كلٌّ منا أن يحتذيها بالخير ، آمين .

* * *

(1) عاش أمنون في القرن العاشر ، وقصّته ترد بكثرة لتربية النّاشئة في المدارس اليهوديّة .

الفصل الثاني

تعاليم الحاخاميم

فضيلة الإحسان

حسب أمثال السَّلَف الصّالح ، يُعدّ الإحسان من الركائز التي يستند إليها العالم . فيقولون : «بقاء العالم يقوم على فضائل أشياء ثلاثة : الشّريعة ، توحيد الله وعبادته ، والإحسان الفعّال» . وأسفار الشّريعة الخمسة (التُّوراه) تبتدئ وتختتم بإحسان ، كما هو مكتوب : «وصَنَعَ الرّبّ الإله لآدم وامرأته أقمصة من جلد وألبسهما» (التكوين - 3 : 21) ، وكذلك : «ودَفَنَهُ - أي الله -» (تثنية - 34 : 6) . وإن تأديّة معروف أو فضل تجاه إنسان تتبدّى في الإحسان إليه دون أي توخٍّ أو رغبة بالحصول على مقابل ، ويمكن تأديته في حالتين : التكرّم بفضل على شخص ليس له علينا فضل سابق ، أو تأدية خدمة أو فضل لشخص رغم كون ذلك يترتّب عليه استجرار قدر من المشقّة علينا ومن الكسب له أكبر ممّا يستحقّ . والرّحمة المذكورة في أسفار التُّوراه هي ما يُقدّم دون مقابل ودون رفض من طرف الشخص الممنوحة إليه . والصَّدَقة كذلك نوع من الإحسان ، لكنه يوجّه فقط إلى الفقراء والمحتاجين ، أما الإحسان ذاته فيمكن توجيهه على حدّ سواء إلى الفقير والغني ، وإلى ذي الشأن والوضيع . حتى أن بوسعنا أيضاً أن نمارس الإحسان تجاه الأموات بأن نحضر شعائر جنازتهم ، وهذا هو عين الرّحمة والصّدق . فإن تكرّمنا على امرئٍ ما ، من الممكن عبر توالي الأيام أن يقوم بردّ الجميل ، أما الإحسان تجاه الأموات فهو منتهى الرّحمة ، إذ أنه غير قابل للردّ . وفي ثلاثة أمور يكون الإحسان خيراً من الصَّدَقة : فقد يتمّ تأدية الإحسان عن طريق المال ، أما الإحسان فبالمال أو بغيره . والصَّدَقة موجّهة للفقير فحسب ، أما الإحسان فللفقير والغنيّ . والصَّدَقة تتمّ للأحياء ، أما الإحسان فللأحياء والأموات .

«خلف الرّبّ إلهك تمشي» . فكيف يكون بإمكاننا أن نمشي خلف الله ؟ إن ذلك يكون من خلال اتّباع صفاته واحتذاء أفعاله . الله كَسَى جسد الإنسان العاري ، كما هو مكتوب : «وصَنَعَ الربّ الإله لآدم وامرأته أقمصةً من جلد وألبسهما» ، فلذا علينا أن نفعل الأمر ذاته . والله عادَ المريض : «تجلّى الله له في غياض ممْرا» (وذلك بعد ختانه مباشرةً) ، ولذا فعلينا أن نفعل الأمر ذاته . والله عزّى النّائح بحِداد «وحدث بعد موت أبرَهام أن الله بارَك ابنه يصحاق» ، ولذا فعلينا أن نفعل الأمر ذاته . والله دَفَنَ الميت ، كما هو مكتوب : «ودَفَنَهُ - أي الله -» ، ولذا فعلينا أن نفعل الأمر ذاته . وإن حضور جنازة الميت وتشييع جُثمان إخواننا الرّاحلين إلى مثواهم الأخير ، لهو عمل خير لكلّ من الحيّ والميت ، أي للرّوح الرّاجعة إلى بارئها وللمشيّعين على حدّ سواء .

قال الرّابي يهوداه : «إذا انتحب شخص ما وناح على نحو زائد لوفاة أحد أقربائه ، فإن حزنه يُضحي نوعاً من التّذمّر على مشيئة الله ، وهذا ما يؤدّي به إلى أن ينوح قريباً على وفاة عزيز آخر» . بل علينا أن نتقبّل أمر الله ، ونقول كما قال أيوب : «الرّب أعطى والرّب أخذ ، فتبارَك اسمُ الرّبّ»[1] .

وحُسن الضيافة صفة أخرى من صفات عمل الخير . لقد قيل عن أبرَهام : «وغَرَس حديقةً» . فهذه ليست حديقة عادية بالمفهوم الذي نعرفه ، وإنما هي نُزُل ضيافة . وفتح أبرَهام بيته لعابري السّبيل ، وقدّم لهم القُوت بكل كرم . وكان لمّا يشكره الضيوف على أريحيته يجيبهم : «لا تشكروني ، إذ أنني لست مالك هذا المكان ، بل اشكروا الله خالق السّموات والأرض» . وبهذه الطريقة أشاع اسم الله بين الوثنيين . ولذلك أعطانا مثالاً في كرم الضّيافة علينا أن نحتذيه ، كما هو مكتوب في أمثال الأجداد : «فليكن بيتُك مفتوحاً كملجأ ، وليلاقي الفقير مأواه بين جدرانه بكرم وطيب» . فعندما يدخل أولئك بيتك فتلقّاهم بعين السّماح وعاجل ببذل خبزك وملحك أمامهم . فلعل الفقير يكون جائعاً ، ويحجم مع ذلك عن طلب الطعام .

---

(1) الترجمة العربية من سفر أيوب (1 : 21) : «الرّبّ أعطى والرّبّ أخذ ، فليكُن اسم الرّبّ مباركاً» . ولا نجد من داعٍ للالتزام بنصّها ، بل يمكن الخروج بما هو خير منها .

وحتى إن كان ثمّة كثيراً من المزعجات التي تورّق ذاتك ، فعليك أن تخفي شؤونك عن ضيوفك ، وعليك أن تواسيهم إن كانوا بحاجة إلى الكلم الطيّب ، ولكن لا تُلق بمشاكلك الخاصّة أمامهم . وتذكّر كم تصرّف أبرَهام بلُطف أمام الملائكة الثلاثة وهو يحسبهم من بني البشر ، وكم عاملهم بحُسن الضيافة ، قائلاً : «يا أسيادي إن كنتُ وجدتُ نعمةً في أعينكم فلا تتجاوزوا عبدكم ، إلخ» (سفر التكوين – 18 : 3) . عليك أن تكون على الدّوام ودوداً ، وعندها إذ تدعو الله يستجب لك .

والله يعرف إن كان القلب الذي يتّجه إليه بالدُّعاء قد أدّى إليه كل ما بوسعه من إمكانات . فخلال المدّة التي كان فيها الهيكل قائماً ، كان الله يتلقّى بالنّعمة ذاتها قربان التّقدمة ممّن يقدّم حفنة من الطحين أو ثور أضحية . ولذا فالآن أيضاً تُعدّ تقدمة الفقير مقبولة بالدّرجة ذاتها التي تُقبل بها أقصى تقدمة يمكن للغني أداؤها ، إذا كان القلب صافياً منحازاً إلى الرّبّ .

قيل إن الرّابي طَرفون טרפון ، رغم كونه غنياً للغاية ، ما كان محبّاً للصّدقة بالنّظر إلى إمكاناته المادّيّة . فيوماً ما ، قال له الرّابي عقيبا עקיבא : «ألعلّك تودّ أن أستثمر لك مالاً في تجارة العقارات ، على نحو مُربح للغاية ؟» . فأجاب الرّابي طَرفون بالقبول ، وجلب للرّابي عَقيبا أربعة آلاف دينار ذهباً ، لتُنفق على ذلك . فما كان من الرّابي عَقيبا إلا أن قام على الفور بتوزيع هذا المبلغ على الفقراء . وبعد مضي مدّة من الوقت ، صادف الرّابي طَرفون المذكور الرّابي عَقيبا ، فسأله عن موضع العقار الذي ابتاعه له . فاصطحب عقيبا صديقه إلى المدرسة ، وأراه صبياً صغيراً راح يقرأ لهما المزمور رقم 112 ، إلى أن بلغ الآية التاسعة : «فَرَّقَ أعطى المساكين ، بِرُّه قائمٌ إلى الأبد» .

«هناك» ، قال عَقيبا ، «مُلكُك مع داوِد ملك يسْرَئيل ، الذي قال : «فَرَّقَ أعطى المساكين» » . سأل طَرفون : «فلماذا فعلتَ ذلك ؟» .

أجاب عَقيبا : «ألا تدري بأن نَقديمون بن جُوريُّون جُوزي لأنه لم يُعطِ بحسب ما يملك من إمكانات ؟» .

أجاب الآخر : «أجل ، ولكن لِمَ لم تقل لي ذلك ؟ ألم يكن بوسعي أن أفرّق ما لدي بغير مساعدتك ؟» .

«لا» ، قال عَقيبا ، «فهي فضيلة أعظم عندما يُعطي المرء شخصاً آخر ليفرّق عنه ، بدلاً من أن يفرّق هو بذاته» .

فمن خلال هذه القصّة نتعلّم بأن مَن لم يقدّم الصَّدَقة بحسب إمكاناته سوف يلقى جزاءه وِفاقاً .

في مرّة من المرّات ، كان الرّابي يُوحَنان بن لَكّاي راكباً بظاهر يروشَلايْم ، وكان تلامذته يتبعونه . فشاهدوا امرأة فقيرة تتبّع الحَبّ الذي يسقط من أفواه وجوالق ماشية تَرعى ، تعود للعرب . فلمّا أبصرت بالرّابي ، خاطبته بهذه العبارة المقتضبة : «يا رابي أغثني !» ، فأجاب : «يا ابنتي ، ابنة مَن أنتِ ؟» .

أجابت : «أنا ابنة نَقديمون بن جُوريون» .

فسأل الرّابي : «كيف ؟ ماذا جرى لمال أبيكِ ؟ ذاك المال الذي نِلتِه نِحْلةً يوم زواجكِ ؟» .

قالت : «آه ، أليس ثمّة مَثَلٌ في يروشَلايْم يقول : «المال يعوزه الملح» ؟»[1] .

فتابع الرّابي كلامه : «ومال زوجكِ ، ما جرى له ؟» .

«الآخر تبع الأوّل» ، أجابت المرأة ، «قد أضعتُ الاثنين» .

فالتفتَ الرّابي إلى تلاميذه وقال : «أذكُر عندما أمضيتُ عَقد زواجها ، أن أباها نَحَلَها صَداقاً يبلغ ألف ألف دينار ذهباً ، كما كان زوجها بالإضافة إلى ذلك رجلاً غنياً» .

ورقّ قلب الرّابي للمرأة ، وتصدّق عليها ، وبكى لحالها . وقال : «يا بني يسرَئيل ، طُوبى لكم ما دُمتُم تنفّذون وصيّة الرَّبّ ، فلا يطالكم شرّ . وأمّا إن توانيتُم عن الالتزام بأوامره ، فالبهائم خيرٌ منكم» .

---

(1) أي أن الملح يلزم لحفظ اللحم ، وبغيره يفسد . فكذا الصّدقة للمال بمثابة الملح للّحم .

ومَن يستنكف عَن أداء الصَّدَقة يقترف ذنباً عظيماً ، وهذا ما برهنته قصّة حياة الرّابي ناحُوم . كان ناحُوم ، مهما أصابه من صُروف الدّهر ونكباته ، معتاداً على القول : «هذا كلّه لخير أراده الله» . ولمّا أسنّ أمسى ضريراً ، وبُترت يداه ورجلاه ، وكان جذعه مبتلىً بالقُروح الأليمة . قال له تلاميذه : «ألستَ امرء صلاح وتُقى ، فما دعوى بلواك ؟» .

أجاب : «تَرَون ، هذا ما استجررتُه على نفسي ولم أُظلَم . ففي بعض الأيام كنت مُرتحلاً صوب بيت نسيبي أبي امرأتي ، ومعي ثلاثون جحشاً محمّلاً بالمؤن والخيرات ، فصاح بي رجل من قارعة الطريق : «يا رابي أغثني !» ، فقلت له ليتريّث ريثما أُنزل حمولة الجحاش . فلمّا تمّ الأمر وفرغتُ من تنزيل الأحمال عن دوابي ، ألفيتُ لشقوتي وبلواي الرّجلَ سقط وهلك لشدّة الجوع والإعياء . فارتميتُ على جثّته ورحتُ أنتحبُ بمرارة ، وقلتُ : «العينان اللتان لم ترقّا لحالك ليكُن مصيرهما العَمى ، واليدان اللتان تلكّأتا عن معونتك ليكُن مصيرهما البَتر ، مع الرّجلين اللتين أحجمتا عن إغاثتك» . وفوق ذلك ، لم أكتفِ حتى دعوتُ بأن يُصاب بدني كلّه بالقُروح الأليمة . والرّابي عَقيبا قال لي : «واهاً لي وويلاً إذ أراك في هذه الحال !» ، لكنني قلتُ له : «بل ليُسعدك أن تراني في هذه الحال ، لأنني من خلالها أرجو أن يُغفر لي ذَنبي ويُمحى ، وأن تبقى حسناتي في ميزان أعمالي ، لكي أحوز نعمة الحياة الأبديّة في الآخرة» » .

* * *

عندما أبصر الرّابي يَنّاي رجلاً يهب الصَّدَقات في مكان عام ، قال : «كان خيراً لك ألا تُعطي على الإطلاق ، من أن تُعطي الصَّدَقات بهذا الشكل العَلَني وتعرِّض الفُقَراء للذُّلّ والمَهانة . فخيرٌ للمَرء أن يتلظّى في نار مُوقدة من أن يتسبّب في مَذَلّة النّاس» .

ويصرّ الرّبّانيون ويؤكّدون على أن علينا أن نتجنّب قَصر عمل الصَّدَقة على شعبنا فحسب ، لأن شريعة مُوشيْه تحضّ على الرِّفق بالغُرباء المقيمين بين ظهرانينا وإكرامهم . وحتى البهائم لم تُغفَل في دُستوره الفائق الرّحمة .

قال الرّابي يهوداه : «لا يجلسنّ أحدكم إلى طعامه ، حتى يطمئنّ إلى أن جميع الحيوانات العائدة إلى رعيّته قد نالت قُوتَها» .

وكان الرّابي يُوحَنان قال بأنه يحسُن في نظر الله أن نكون طيّبين وكُرماء تجاه الغُرباء ، بالدّرجة ذاتها التي يحسُن بها في نظره أن نبكّر في الفجر لدراسة شريعته ، وذلك لأن الخصلة السّالفة ليست إلا تطبيقاً مَحضاً لشريعته . وقال كذلك : «مَن كان رَفيقاً بأبناء قومه تُغفَر له ذُنوبُه» .

وكان كلّ من هذا الرّابي والرّابي أبّا قالا بأن من الخير إقراض الفقراء بدلاً من إعطائهم ، لأن ذلك يعصمهم عن الشعور بالمهانة من فقرهم ، وهو بالحقّ أسلوب معونة لهم أكثر إحساناً . والربّانيّون يُرشدون على الدّوام بأن الرِّفق هو أكبر من مجرّد إعطاء الحَسَنات ، ذلك بأنه يضمّ كَلِماً طيّباً يفوق بكثير قيمة الدَّعم المادّي المُجرَّد .

فضيلة التّواضُع

نجد في الكتاب المقدّس عدّة أمثلة على مدى رضا الخالق عن خلقه عندما يتمثّلوا فضيلة التّواضع وخَفض الذّات . ولقد كان أسمى أجدادنا شأناً هم أولئك المنزّهون بالكلّيّة عن الغُرور والخُيَلاء .

فأبرَهام ، النّقيّ السّريرة ، كان يُدرك تماماً أنه لم يكُ سوى شيء من تُراب الأرض ، ولمّا خاطبه أبناء حِتّ بلقب «رئيس من الله»[1] سجد لهم .

وها هما مُوشيْه وأهَرُون ، رئيسا شعب يسرَئيل ، يقولان : «وما نكون نحن ؟» . وبدلاً من أن تستبدّ الغيرة بمُوشيْه عند سماعه بأن رجلين كانا يتنبّآن[2] في المخيّم ، إذا به يقول بتواضع جَمّ : «يا ليت كلّ شعب الرَّبّ كانوا أنبياء» (سفر العدد - 11 : 29) .

---

(1) انظر سفر التكوين - 23 : 6 .

(2) هذان هما إلداد وميداد اللذان تنبّآ أثناء تيه سيناء . انظر سفر العدد - 11 : 26 .

ولمّا راح داوِد يكرّس لخدمة الله الأشياء الثمينة التي جمعها لأجل الهيكل ، قال بكل تقوى : «ومن يدك أعطيناك» (أخبار الأيام الأول 29 : 14) .

ومن الله الأزلي العظيم ذاته نتعلّم التّواضع ، فمن على جبل سيناء اختار تنزيل وصاياه ، وهذا الجبل ليس أعلى الجبال على الإطلاق . وكذلك خاطب مُوشيْه لا من شجرة سامقة بل من شُجيرة واطئة . ولـمّا كلّم إلياهو[1] ، جعل الرّياح تثور ، والأرض تتزلزل ، والنّار تستعر ، أما بالنسبة إليه فقد اختار «صَوتاً مُنخفضاً خفيفاً» (سفر الملوك الأول 19 : 12) .

قال الرّابي هُونا : «مَن كان الغُرور يملأ قلبه فهو مُذنب كالوثني» .

وقال أبيرا : «مَن كان مغروراً فجزاؤه الاتّضاع» .

وقال حِزِقياه : «دُعاء المغرور قاسي القلب وصَلاته لا تُسمع» .

وقال الرّابي آشي : «مَن يُقسّي قلبه بالغُرور ، فإنما يُوهي به عقله» .

وقال الرّابي يَهوشُوَع : «التّواضع خير من التّضحية» ، لأنه أليس مكتوباً : «ذبائح الله هي رُوحٌ مُنكسرةٌ ، القلبُ المُنكسر والمُنسحق يا الله لا تحتقره»[2] ؟

فضيلة تقوى الله

قال ابن الرّابي هُونا : «مَن كان لديه علمٌ بشريعة الله دون أن يخافه ويتّقيه ، فهو كمن أوكلت إليه المفاتيح الدّاخلية لخزنة مال ، دون المفاتيح الخارجية» .

وقال الرّابي ألكسندر : «مَن كانت لديه حكمة دنيوية وكان لا يخشى الرّبّ ، هو كمَن ينوي بناء بيت ثم لم يكمل سوى بابه ، لأنه كما كتب داوِد الملك في المزمور 111 : «رأسُ الحكمة مَخافة الرّبّ» .

(1) النبي إلياهو يُدعى أيضاً : «إيليّا» ، وهو في التّراث الإسلامي : «إليـاس» ﷺ ، بالصّيغة اليونانيّة للاسم : Ελιας . ونذكّر دوماً أن مردّ ذلك أن التّوراه الشائعة في عصر تنزيل القرآن الكريم كانت باليونانية حصراً ، أي التّرجمة السبعينية السكندريّة .

(2) سفر المزامير - 51 : 17 .

عندما كان الرّابي يُوحَنان[1] مريضاً ، زاره تلاميذه وطلبوا منه مُباركته . فقال الرّابي بصوته المُحتضر : «أدعو لكم بأن تخافوا الله كما تخافون البشر» . فقال التّلاميذ : «مَه ! ألا يجدر بنا أن نخاف الله أكثر من البشر ؟» .

أجاب الحكيم : «إنه لمن دواعي سروري أن أرى أعمالكم تدلّ على أنكم تخافون الله بهذا المقدار حقاً . فعندما تأتون شيئاً إمْراً فإنكم تتحرّون ألا تكون عين بشر قد اطّلعت عليكم ، إذاً فعليكم أن تتحرّوا الأمر عينه وتخشوا الله الذي يطّلع على كل شيء ، وفي كل مكان ، وفي كل زمان» .

ويقول أبّا إن بإمكاننا إظهار مدى خشيتنا لله من خلال معاملاتنا بين بعضنا . فيقول : «فلتخاطبوا النّاس باللّين والرِّفق ، واعملوا على قمع الغضب ، واجنحوا إلى السِّلم وتحرّوه أينما ثقفتموه مع إخوانكم ومع النّاس أجمعين ، وبهذه الواسطة تكسبون تلك «النّعمة والفهم الحَسَن في عيني الله والنّاس» ، اللّتين نالهما شلومو بكل جدارة» .

كان الرّابي يُوحَنان سمع الرّابي شمعون بن يُوحاي ، وهو يصوّر على شكل قصّة هذه الآية من سفر يشَعْياه : «لأني أنا الربّ مُحبّ العَدْل ، مُبغض المُختلِس بالظُّلم»[2] .

يُروى أن ملكاً استورد إلى مملكته بضاعة ما ، يضع في العادة عليها رسوماً ، فأمر عُمّاله عندما يجتازون بدار المكوس أن يتوقّفوا ويدفعوا الرّسوم المُعتادة . فلمّا استبدّت بهم الدّهشة ، خاطبه خُدّامه بهذا الكلام : «مولاي ، هذه البضائع كلّها تعود إلى مُلك جلالتكم ، فلماذا يتعيّن أن يُدفع عنها ما سيؤول بالنّتيجة إلى خزانتكم ؟» .

أجاب الملك : «هذا لأنني أودّ حمل التجّار المسافرين على أن يتعلّموا من وراء العمل الذي آمركم الآن بتنفيذه كَم أن الكذب والمخادعة خصلتان مَقيتتان مبغوضتان في عينيّ» .

---

(1) أي الرّابي يُوحَنان بن زكّاي ، مؤسّس مركز السَّنْهَدرين في يَبنى بعد خراب الهيكل 70 م .
(2) سفر يشَعياه – 61 : 8 .

فكذلك هو الأمر فيما يخصّ معاملة الله العظيم لنا ، على اعتبارنا كحُجّاج زائرون في هذه الحياة الدّنيا . فرُغم أن كل ما نملك يعود بالأصل إليه ، فهو يزيده ويُثمره باستمرار ، بُغية زيادة سعادتنا الدّنيوية المؤقّتة . ولذا فإن تصوّر أحدٌ ما أن من الممكن خداع النّاس بُغية تقديم الهبات لله ، ممّا هو حصراً له ، يكون مصيره التّقريع في نصّ الكتب المقدّسة ، حيث أن الله العادل يُدين هذا الفعل ، ويعدّه شائناً .

من خلال ذلك نستطيع أن نستنتج مثلاً ، أن سُعف النّخل المسروقة لأجل استعمالها في تنفيذ الشّعائر المنصوص عليها في عيد «سُكّوت» (المَظالّ)[1] ، هي غير مُلائمة للاستعمال شرعاً ، بسبب الطريقة المشبوهة وغير المشروعة التي تمّ عبرها الحصول عليها .

قال الرّابي إليعزَر : «مَن كان الصّلاح والاستقامة يوجّهان أعماله كلّها ، فليكن على يقين بأن يتتبّع مثال الله في إحسانه الغير محدود . لأننا نقرأ عنه (تبارك اسمه) : «يحبّ العدل والاستقامة»[2] ، أي امتلأت الأرض من رحمة الرّبّ»[3] . ولكن هل نظنّ أن اتّباع مثل هذا المنهج أمر يسير هيّن ؟ بالطبع لا ! إن فضيلة الإحسان لا يمكن التوصّل إليها إلا ببذل جهود عظيمة . ومع ذلك ، فهل يصعب على مَن كان يضع تقوى الله نُصب عينيه أن يحصل على هذه المزيّة ؟ لا ، بل يمكن تحصيلها بيسر لمَن كانت أعماله كلها تنبع عن تقوى الله ومَخافته .

«الشيبةُ تاجُ نعمة ، مادامَت على طريق البِرّ»[4] . هكذا علّمنا شلومو في أمثاله . ومن خلال ذلك ، كان عدّة ربّانيين طعنوا في السّنّ قد سألهم تلامذتهم عن السبب المحتمل الذي نالوا بموجبه هذه البُشرى على الكرامة الإلهيّة . فأجاب الرّابي نِحوماه حول ذلك بما يخصّ نفسه ، بأن الله قد أنعم عليه بإدراك ثلاثة مبادئ ، تمثّلها وجهد في السّير عليها لإصلاح شأنه .

(1) سيرد ذكر هذا العيد في آخر الكتاب .
(2) سفر المزامير – 11 : 7 .
(3) سفر المزامير – 33 : 5 .
(4) سفر الأمثال لشلومو بن داود الملك – 16 : 31 .

فأولها : أنه لم يعمد البتّة إلى رفع مقامه على حساب اتّضاع جيرانه . وهذا الأمر مُستحسَن وفق المثال الذي وضعه الرّابي هُونا ، لأن هذا الأخير حينما كان يحمل على كاهله مجرافاً ثقيلاً ، صادفه الرّابي حُوانا بن حَنيلاي ، فلمّا شعر بالعبء المُضني والحاطّ من شأن هذا الرّجل الرّفيع القدر ، أصرّ على مساعدته في حمل الآلة لتخليصه من عبئها . غير أن الرّابي هُونا رفض ذلك قائلاً : «لو كانت هذه صنعتُك الأساسية لربما تركتُك تفعل ، ولكنني بالتأكيد سوف لن أدع أحداً يقوم بأمر ، إن قمتُ أنا به بنفسي قد يُنظر إليه على أنه وضيع» .

وثانيها : أنه لم يأوِ البتّة إلى نوم ليله وفي قلبه أيّ حقد على أحد ، على نحو العادة التي يتّخذها مار سُطرا ، الذي يتلو الدّعاء التالي قبل نومه : «يا ربّ اغفر لمَن أساء إليّ !» .

وثالثها : أنه ما كان بخيلاً ، بل يقتدي مثال أيوب الصّالح ، الذي يروي الحكماء عنه أنه كان يرفض أخذ ما يتبقّى له من مال حينما يبتاع شيئاً .

وثمّة رابي آخر ، اسمه أيضاً نِحوماه ، أجاب الرّابي عَقيبا بأنه يظنّ نفسه قد أُنعم عليه بحياة مديدة لأنه في خلال وظيفته الرّسميّة قد وضع نُصب عينيه عدم قبول الهدايا ، متمثّلاً في ذلك ما كتبه شلومو : «ومَن يكره الهدايا يعيش»[1] . ومن مزاياه الأخرى برأيه عدم تحامله على مَن يسيء إليه ، متمثّلاً كلام رابّا : «مَن كان مُتسامحاً حيال عثرات النّاس ، عامله الدّيّان الأكبر بالرّأفة» .

وقال الرّابي زيرا إن نعمة بلوغ سنّ الشيخوخة بالنّسبة إليه ، بفضل الله ، هي نتيجة سلوكه في حياته . فلقد كان يعامل أهل بيته بالرّأفة والرّفق ، وكان يُمسك عن تقديم رأيه على مَن يفوقه بالحكمة ، وكان يتجنّب ترديد كلام الله في الأماكن غير المنزّهة عن النّجاسة . وكان يشتمل بالتّفلّين طوال النّهار ، ليتذكّر على الدّوام واجباته الدّينيّة . ولم يكن يتّخذ المدرسة ، حيث تُدرّس العلوم المقدّسة ، مكان راحة للنّوم مثلاً ، لا بشكل عارض ولا مُعتاد . وهو لم يبتهج قطّ بموت أحد ، ولم يُسمِّ أحداً باسم يعافه هو أو آله الذين ينتمي إليهم .

---

(1) سفر الأمثال لشلومو بن داود الملك – 15 : 27 .

فريضة إكرام الأبوين

يضع الكتاب المقدّس الأبوين بمنزلة موازية لمنزلة الله العليّ ، من حيث الاحترام والتكريم . وتنصّ الوصايا العشر على مبدأ : «أكرم أباك وأمّك» ، كما جاء أيضاً في متن الكتاب : «أكرم الله من مالك» . وكذلك فإن «فخَف الآن من أبيك» ، و«تخافوا الربّ إلهكم» هما من الوصايا الإلهية ، بينما نرى أن جزاء الابن العاقّ الذي يبادر بالخطيئة إما إلى أبويه الأرضيين أو تجاه الأب الأعظم للكون هو الجزاء عينه ، تماماً كما هو مكتوب : «مَن يلعن أباه وأمّه فجزاؤه القتل» ، وأيضاً : «كلّ إنسان يجدّف على الله بالباطل يحمل وِزر موته على عاتقه» .

ويقول الربّانيّون : «للإنسان ثلاثة رفاق في حياته : الله ، وأبوه ، وأمّه» . والله يقول : «مَن يُكرم أبويه فقد أكرمني ، كما لو كنت معه مُقيماً» .

قال الرّابي يهُوداه : «إن طُرُق الإنسان معروفة ومكشوفة . كالأمّ تلاطف طفلاً بالكلمات الرّقيقة والأساليب الحنونة ، فتكسب التّكريم والمحبّة . ولذلك فالكتاب المقدّس يقول : «أكرم أباك» ، قبل عبارة «أكرم أمّك» . وأمّا بخصوص الخشية ، فبما أن الأب هو مُلقِّن الابن ومَن يعلّمه الشّريعة ، فالكتاب المقدّس يقول إذاً : «ليخشَ كلّ إنسان أمّه» ، قبل عبارة «أبيه» » .

سُئل الرّابي أوّلاً مرّةً : «فما هو إذاً مدى هذا التّكريم الواجب إيلاؤه تجاه الأبوين ؟» .

فأجاب : «اسمعوني فأروي لكم كم تمّ إيلاء هذا الواجب من قِبَل رجل وثني ، هو داماه بن نِتينا . كان الرّجل تاجر جواهر ، فرغب الحاخامون يوماً بابتياع جوهرة منه لأجل الثّوب الحبري (الإيفود אפוד) الخاصّ بكبير الكهنة . فلمّا وافوا منزله ألفوا مفتاح الخزنة التي يحتفظ فيها داماه بالجوهرة مودعاً مع أبيه ، وكان آنذاك نائماً . ورفض الابن رفضاً قاطعاً إيقاظ أبيه للحصول على الجوهرة ، رغم أن الحاخامين النّافدي الصّبر عرضوا عليه فيها ثمناً أعلى بكثير ممّا طلب . وفضلاً عن ذلك ، لمّا أفاق أبوه فسلّمهم الجوهرة ونقدوه الثّمن الباهظ الذي بذلوه ، اقتطع منه الثّمن الأول وردّ البقيّة قائلاً : «لا أتكسّب على حساب كرامة أبي» .

ليس بمقدور الإنسان دوماً أن يحكم على أعمال النّاس ، وحول موضوع إظهار الاحترام تجاه الأبوين من الأبناء ، قد لا يتمكّن عامّة النّاس من فهم حقيقة الأمر . فعلى سبيل المثال ، لربّما يقدّم بعض الأبناء أطيب الطعام لوالديه ، ومع ذلك يحقّ عليه حكم الابن العاقّ ، بينما قد يُلجئ ابن آخر أباه إلى العمل الشاق ويستحقّ برغم ذلك الثّواب . فكيف يكون ذلك ؟

يُحكى أن رجلاً وضع طعاماً لذيذاً أمام أبيه ، وطلب إليه أن يأكل منه . فلمّا فرغ الأب من طعامه قال : «أي بُنيّ ، قد هيّأتَ لي ألذّ طعام ، فمن أين نلتَ هذه الأطايب ؟» .

فأجاب الابن بازدراء : «كُل كما تأكل الكلاب أيها العجوز ، وكفاك تطرح الأسئلة» .

فاستحقّ هذا الابن عقوبة العقوق .

ويُحكى أن رجلاً كان طحّاناً وكان أبوه يُقيم معه ، في فترة كان يُجبر فيها من لا عمل له أن يعمل بضعة أيام لصالح الحكومة . فلمّا شارف الوقت الذي ينبغي فيه طلب هذه الخدمة من العجوز ، قال له ابنه : «اذهب فاعمل بدلاً عني في الطاحون ، وأنا أمضي لأعمل من أجل الحكومة» .

وكان الابن قال ذلك بسبب أن مَن كان يعمل لأجل الحكومة كان يتعرّض للضّرب إن وُجد عمله غير مُرضٍ ، فراح يفكّر : «خيرٌ لي أن أعرّض نفسي لاحتمال الضّرب من أن أضع أبي تحت هذا الخطر» . فلذلك ، استحق ثواب الابن «الذي يُكرم أباه» .

ويؤكّد الرّابي حيّا على أن الله يفضّل التّكريم المبذول للأبوين على التّكريم المبذول له شخصياً . ويقول : «مكتوبٌ : «أكرم الرّبّ من مالك» ، فكيف يكون ذلك ؟ عبر بذل الصّدَقات ، وفعل الخير ، ووضع الميزوزاه على عضائد بيتك ، وأن تنصب ظلّة لنفسك في عيد السُّكّوت ، وما إلى ذلك . وهذا كلّه في حال كنتَ قادراً ، أما إن كنتَ فقيراً فإن الاستنكاف عن ذلك لا يُحتسب عليك بمثابة الذّنب أو الإهمال . غير أنه مكتوبٌ أيضاً : «أكرم أباك وأمّك» ، فهذا الواجب

مفروض على الغنيّ والفقير على حدّ سَواء لُزوماً . وحتى إن لزمكم الأمر لتأمين أوْدهما بتعاني الكدية (التسوّل) من باب إلى باب ، فافعلوا» .

وقال الرّابي أبّاهو : «قد اتّبع وَلَدي أبيني هذه الوصيّة كما ينبغي لها حقّ الاتّباع» .

كان لأبيني خمسة أبناء ، لكنه لم يكن يسمح لأيّ منهم بفتح الباب لجدّهم أو القيام على حاجاته عندما يكون هو ذاته في البيت . وكما كان يودّ منهم أن يكرموه هو في حياتهم ، كان يتعامل بالإكرام مع أبيه . في إحدى المرّات طلب منه أبوه كأس ماء ، فلمّا مضى لإحضارها غلب النّوم أباه فغفت عينه ، ولمّا عاد أبيني إلى الغرفة ، بقي واقفاً إلى جانب أبيه والكأس في يده إلى أن أفاق هذا الأخير وشرب الماء .

يسأل الربّانيّون : «ما هي الخشية ؟» و «ما هو الإكرام ؟» .

اخشَ أمّك وأباك ، بعدم الجلوس في مقعديهما وعدم الوقوف في مكانيهما وبالانتباه الشّديد لكلامهما وبعدم مقاطعة حديثهما . وكن مُضاعف الحذر من انتقاد أو محاسبة آرائهما وتناقض أفكارهما .

أكرم أباك وأمّك بالقيام بحاجاتهما ، وبتقديم الطعام والشّراب لهما ، وألبسهما ثيابهما واربط لهما حذائيهما ، في حال كانا عاجزين عن أداء ذلك وحدهما .

سُئل الرّابي إليعيزَر عن مدى الإكرام الواجب أداؤه تجاه الأبوين ، فأجاب : «خيرٌ لك أن تطرح مالك كلّه في البحر من أن تُغضبهما» .

وقال شمعون بن يُوحاي : «كما أن ثواب مَن يُكرم أبويه عظيم ، فكذلك هو عظيم عقاب مَن يهمل هذه الوصيّة» .

إن كل وصيّة في الكتاب المقدّس تحدّد مدى الثّواب الحاصل عن القيام بها ، فحول هذه الوصيّة بالذّات يُقال لنا : «لكي تطول أيامك على الأرض» ، ومغزى طول الأيام ليس في هذه الدّنيا فحسب ، بل وفي الآخرة أيضاً .

«الرّبّ خلقني أوّل طريقه» (سفر الأمثال – 8 : 22) . هذا يعني أن الله خلق الشّريعة قبل أن يخلق الدّنيا . فعديد من الحاخاميم جعلوا حياتهم سوداء كالغُراب الأسحم ، ومعنى ذلك أنهم يقسون على أنفسهم كما تقسو أنثى الغُراب على فراخها ، من خلال الدّراسة المستمرّة ، آناء اللّيل وأطراف النّهار .

قال الرّابي يُوحَنان : «أفضل الدّراسة هي التي تتمّ في اللّيل ، عندما يسود السّكون ، كما هو مكتوب : «وباللّيل تسبيحهُ عندي صلاةٌ»[1] .

وقال الرّابي لَكيش : «ادرسوا في النّهار وفي اللّيل ، كما هو مكتوب : «وفي نامُوسه يلْهَجُ نهاراً وليلاً»[2]» .

وقال الرّابي حُونان من مدينة صِفُوري[3] צִיפּוֹרִי : «يمكن لنا تشبيه دراسة الشّريعة بكومة كبيرة من التّراب ينبغي إزالتها . فالجاهل يقول : «هذا مُحال ! لا طاقة لي بنقل هذه الكومة الهائلة ، لذا سوف لن أبذل جهداً للمحاولة» ، أمّا مَن أوتي حكمةً فيقول : «سوف أنقل بعضها اليوم ، والمزيد غداً ، والمزيد بعد غد ، وعلى هذا النّحو بمضيّ الوقت أكون قد نقلتها بكاملها» » .

فهكذا هو شأن دراسة الشّريعة ، ترى التّلميذ الكسول يقول : «يستحيل عليّ أن أدرس الكتاب المقدّس . فكم هذا الأمر صعب : خمسون أصحاحاً[4] في سفر التّكوين ، وستّة وستّون في سفر بِشَعْياه ، ومئة وخمسون مزموراً ، إلخ . إن هذا فوق طاقتي بكثير» . غير أن التّلميذ المُجِدّ يقول : «سأدرس ستة أصحاحات في كل يوم ، وعلى ذلك تراني بمرور الوقت قد استوفيته بأسره» .

ونجد في سفر الأمثال (24 : 7) هذه العبارة : «الحِكَم عالية عن الأحمق» .

---

(1) سفر المزامير – 42 : 8 .
(2) سفر المزامير – 1 : 2 .
(3) مدينة بالجليل الأعلى (صَفّورية) نافست طبريّة كمركز ديني للجليل ، وصارت مدّة مقراً للسّنهدرين ، أقام بها يهوداه هَنّاسي . من أشهر التّنائيم فيها : يوحَنان بن نُوري .
(4) عبارة الأصحاح ترجمة عربية اعتمدها تراجمة التّوراه لتسمية فصول الأسفار .

ويصوّر الرّابـي يُوحَنـان هـذه الآيـة مـن الكتـاب المقـدّس بتفّاحـة تتدلّـى مـن السّقف . فالأحمق يقول فيها : «ليس بوسعي نيل هذه الثّمرة ، فهي عالية جداً» ، أما النّبيه فيقول : «إنه ليمكن الحصول عليها بوضع درجة فوق أخرى حتى تصـير في متناول اليد» . ويقول الأحمق : «وحده النّبيـه بوسـعه دراسـة الشّـريعة بأكملهـا» ، فيجيبه النّبيه : «ليس عليك فرضاً لازياً أن تدرسها بأكملها» .

ويصوّر الرّابي ليفي هذا الأمر بالقصّة التالية :

مرّة في الماضي استأجر رجل خادمين ليقوما بملء سلّة بالماء . فقال أحدهمـا : «لماذا عليّ أن أتابع هذا العمـل غير المُجـدي ؟ فمـا إن أصبّ الماء في الجهـة الواحـدة حتى يتسرّب في الجهة الأخرى ، ما هو جدوى ذلك ونفعه ؟» .

أما العامل الآخر ، الذي كان حكيماً ، فقال : «إن جـدواه ونفعـه يكمنـان في المكافأة التي نتلقّاها على عملنا فيه» .

فهكذا هو شأن دراسة الشّريعة . قال بعضهم : «ماذا تنفعني دراسة الشّـريعة طالما أن علي دوام المتابعة فيها وإلا نسيت ما تعلّمت ؟» ، غير أن آخـر أجـاب : «الله يُجزينا بالإحسان على نيّتنا التي في قلبنا ، حتى وإن كنا ننسى» .

وكان الرّابي زِعيرا قال إن أي حرف من كلمات الشّريعة قد لا نأبه له ، يكـون من شأنه في حال نقصه إبطال الشّريعة بأسرها . ففي سفر تثنية الاشـتراع نقـرأ (17 : 16) : «ولا يُكثّر له نساءً لئلا يزيغَ قلبُه» . ولقد انتهك شلومو هذه الوصيّـة ، وقـال الرّابي شمعون إن الملائكة قد رأت فعلته الضالّة فخاطبت الـذّات الإلهيّـة قائلـة : «يا مالك الكـون ، إن شـلومو قـد جعـل مـن شـريعتك كمثـل قـانون معـرّض للتّحريـف والنّقص . فلقد انتهك ثلاث وصايا ، هـي بـالتّحديد : «لا يُكـثّر لـه الخيـل» ؛ «ولا يُكثّر له نسـاء» ؛ «وفضّـةً وذهبـاً لا يُكـثّر لـه كثيراً» » . فعندهـا أجـاب الـرّبّ : «إن شلومو هالكٌ لا مَحالة من على وجه الأرض ، هو ومئة شـلومو آخـر يـأتون بعـده ، وبرغم ذلك فإن أدنى حروف الشّريعة لا يحول ولا يزول» .

* * *

كان من عادة الرّبانيين مراراً أن يستشهدوا ، بأسلوب المعنى المجازي ، بعدّة مقاطع من متن الكتاب المقدّس ، ومن بينها افتتاحيّة الأصحاح الخامس والخمسين من سفر يشَعْياه : «أيّها العطاش جميعاً هَلُمّوا إلى المياه ، والذي ليس له فضّة تعالوا اشتروا وكُلوا ، هَلُمّوا اشتروا بلا فضّة وبلا ثمن خَمراً ولبناً» .

فهذه الأشربة الثلاثة ، التي يُدعى النّاس إلى الحصول عليها بهذا النّحو ، تُعدّ لدى حاخامات بني يسرَئيل ممثّلة للشّريعة .

سأل أحد الرّبانيين : «لماذا يُشبَّه كون الله بالماء ؟» .

على هذا السّؤال تمّ تقديم الجواب التالي : «كما أن الماء يجري من الأعلى (أي الجبل) ، ليصير إلى مكان مُنخفض (البحر) ، فهكذا هو شأن الشّريعة ، إذ أنها يُوحى بها من علياء السّماء ، ولا يمكن استحواذها إلا لَمن كانت نفسه سَمحةً مُتواضعة» .

وسأل رابي آخر : «لماذا رُبطت كلمة الله بالخَمر واللّبن ؟» . فكان الجواب عليه : «بما أن هذه الأشربة لا يمكن حفظها في أوانٍ ذهبيّة ، بل حَصراً في أوانٍ من الفخّار ، فكذلك إن هذه العقول هي خير الأوعية والمكامن لعلوم الشّريعة ، وهي العقول التي توجد عادةً في الأجساد البسيطة غير المتكلّفة» .

لذا ، على سبيل المثال ، فإن الرّابي يهوشُوَع بن حَنَيْناه ، الذي كان بسيطاً للغاية في مظهره ، حاز على حكمة ومعرفة عظيمتين ، وكان من بين الكلمات المفضّلة لديه هذه : «رغم أن الكثيرين قد أظهروا مقداراً عظيماً من المعرفة ، بغضّ النّظر عن فتنتهم الشّخصيّة ، فلعلّهم لو كانوا أقلّ وسامةً ربما بلغ تحصيلهم العلمي شأواً أبلغ وأبعد» .

وثمّة سبب آخر لتشبيه كلمة الله بالأشربة المذكورة آنفاً ، وهي أنها بحاجة إلى رعاية وانتباه ، لئلاّ تُهرق أو يصيبها الفساد ، فعلى النّحو ذاته نرى أن معرفتنا بالكتاب المقدّس والتّراث الشفهي تحتاج إلى رعاية دائمة ، لئلاّ تضيع .

* * *

كما وتُشبَّه الوصايا بمصباح ، وتُشبّه شريعة الله بالنُّور . فنرى أن المصباح يفيض بالضّوء طالما كان فيه زيت وحسب ، وكذلك فإن مَن يلتزم بالوصايا يتلقّى ثوابه أثناء أداء هذه الوصايا . وأما الشّريعة فهي نُور دائم مُستديم لا ينقطع ، وهي حرزٌ وحصن دائمان لِمَن يتدارسها ، كما هو مكتوب :

«إذا ذهبتَ [فإن الشّريعة] تهديكَ ، إذا نمتَ تحرُسكَ ، وإذا استيقظتَ فهي تُحدِّثُكَ»[1] .

وتأويل ذلك يكون على النّحو التالي : إذا ذهبتَ تهديكَ (أي في هذه الحياة الدُّنيا) ؛ إذا نمتَ تحرسُكَ (أي في القبر)[2] ؛ وإذا استيقظتَ فهي تُحدّثكَ (أي في الحياة الآخرة) .

يُحكى أن مُسافراً اجتاز في رحلته بغابة في ليلة مُظلمة مُوحشة ، فكان يسير بوَجَل شديد ، إذ أنه كان يخشى من قطّاع الطُّرُق الذين كانو يجوسون الدّرب الذي يجتازه ، كما كان يخشى من أن تزلّ به قدمه فيسقط في حُفرة أو شفير لا يظهران للعيان في طريقه ، وكذلك كان يخشى من الوحوش المفترسة التي كان يعرف بأنها تحوم حوله . وبطريق المُصادفة ، عثر الرّجل على مشعل من خشب الصّنوبر ، فأشعله ، فوفّر له ضياؤه ارتياحاً كبيراً . وهكذا لم يعد يخشى مخاطر الوقوع في أشواك العَوْسَج أو تزلّ به قدمه في هاوية ما ، لمّا صار بوسعه أن يرى أمامه . غير أن فزعه من قطّاع الطُّرُق ومن الوحوش بقي يؤرّقه ولم يُبارحه إلى أن انبلج الفجر وطلعت الشّمس . ومع ذلك فقد بقي غير واثق من اتجاهه إلى أن خرج من الغابة وبلغ مُفترق الطُّرُق ، فعاوده إذّذاك الاطمئنان .

---

(1) سفر الأمثال – 6 : 22 .

(2) في فقه الشّريعة اليهوديّة ما يُعرف بعذاب القبر (في العبرية : חבוט הקבר حِبُوط هَقّبِر) كما هو الحال في العقيدة الإسلامية . وهنا نجد الكثير من تداخلات أحاديث عذاب القبر وأشراط قيام السّاعة ، في التّراث الشّفهي المُقحم على الحديث الشّريف . ومصدر هذه المرويات كلّها (المتعارف عليها بالإسرائيليّات) هو حتماً من أجَداه المدراشيم والتّلمود ، وجُلّ ما دخل منها التّراث الإسلامي كان عن طريق 3 شخصيات يهوديّة دخلت الإسلام بُعيد عهد الرّسول ﷺ لتبثّ فيه ما ليس منه : كَعْب الأحبار (كعب بن ماتع الحِمْيَري من يهود اليمن) ، ووَهَب بن مُنبّه ، وعبد الله بن سلام .

فأما الظُّلمة التي كان الرّجل يسير فيها ، فهي كناية عن نقص المعرفة الدّينية . وأمّا المشعل الذي عثر عليه فهو يمثّل وصايا الله ، التي أرشدته إلى سواء السّبيل حتى بلغ نعمة ضياء الشّمس ، التي تمثّل بدورها كلمة الله المقدّسة ، أي كتابه . وبرغم ذلك ، طالما كان الرّجل ما يزال في الغابة (أي الحياة الدّنيا) ، لم يكن ينعم تماماً براحة البال ، فبقي قلبه معتلاً ضعيفاً ، وكان عُرضةً للضّلال عن الطريق القويم . لكنه عندما يبلغ مُفترق الطُّرُق (أي الموت) ، يكون بوسعنا أن نعدّه رجلاً صالحاً بالحقّ ، ونبري قائلين[1] :

«الصّيتُ خيرٌ من الدُّهن الطيِّب ، ويوم الممات خيرٌ من يوم الولادة»[2] .

* * *

قام الرّابي يُوحَنان بن بِرُوقا والرّابي إليعيزَر بن حِسْمَا بزيارة معلّمهما ، الرّابي يُوساه ، فقال لهما :

«ما هي أخبار المدرسة ؟ وماذا يجري فيها ؟» .

فأجابا : «لا كلام لنا ونحن تلميذاك ، فأنتَ مَن يتكلّم وما علينا نحن إلا الإصغاء» .

أجاب الرّابي يُوساه : «بغضّ النّظر عن ذلك ، لا يمضي يوم بغير حصول أمر ذي شأن في المدرسة . فمَن كان يُحاضر فيكم اليوم ؟» .

أجابا : «الرّابي إليعيزَر بن عازُورْياه» .

«فما كان موضوع بحثه ؟» .

---

(1) هنا مثال حيّ على أسلوب الجدليّة الماورائيّة الغيبيّة التي ينتهجها أكثر شُرّاح التّراث القديم في تقديم الخطاب الدّيني ، بمحاولة الرّبط التّلقائي بين واقع الحياة ومتون الدّين ، مُعتبرين أن ما يفسّرونه إنّما هو الخلاصة الوافية في توافق علوم العقل والنّقل . ولا ريب أننا اليوم في مطلع القرن الحادي والعشرين بتنا بحاجة مُلحّة إلى خطاب ديني عصري مُستنير أكثر انسجاماً مع ثورة المعلومات ، ليطرح حلولاً جادّة لمشاكل الإنسان والمجتمع ، لا أن يكون مجرّد قناع لتمرير مصالح «الدّيوك الرّوميّة» وأحلافهم من أهل الحكم والبزنس .

(2) سفر قُهِلت (الجامعة) – 7 : 1 .

أجاب أحدهما : «قد اختار هذه الآية من سفر التّثنية[1] : «تجمع الشّعب جميعاً ، الرّجال والنّساء والأطفال» ، وشَرَحَها على النّحو التالي :

« «الرّجال يأتون للتّعلّم ، والنّساء للاستماع ، فلماذا الأطفال ؟ لكي ينال مَن يحضرهم ثواباً على تعويد أبنائهم على مخافة الرّبّ» .

«وشَرَحَ آيةً من سفر قُهِلت (الجامعة) : «كلام الحكماء كالمناسيس وكأوتاد مُنغرزة [هي كلمات] أرباب الجماعات ، قد أُعطيَتْ من راعٍ واحد»[2] .

«فقال : «لماذا يُشبَّه كلام الحُكماء بالمناسيس (المهاميز) ؟» . هذا لأن المنخس يُجبر الثّور على شقّ الثّلم مستقيماً ، والثّلم القويم يطرح غذاءً وافراً لحياة الإنسان . فهكذا هي شريعة الله تُبقي قلب الإنسان قويماً ، لكي يُنتج عملاً صالحاً يبقى لحياته الأبديّة . ولكن لئلا تقول : «فإن كان المنخس قابلاً للتّحريك ، للزم أن يكون ذلك شأن الشّريعة» ، يرد أيضاً في متن الكتاب : «كأوتاد» ، وكذلك «كأوتاد مُنغرزة» ، لئلا يخطر لك مسألة أن الأوتاد المدقوقة في الخشب تتلاشى عن النّظر في كل ضربة تدقّها ، وأنه بالتالي من خلال هذا التّشبيه يمكن اعتبار شريعة الله عُرضة للتّلاشي أيضاً . كلا ، بل هي كوتَد مُثبّت أو مغروس ، كما هي الشّجرة المغروسة لتطرح ثماراً وتُنتج وَفْرةً» .

«وأما «أرباب الجماعات» فهم مَن يتجمّعون معاً لدراسة الشّريعة . ومراراً ما تنشب الجدالات الخلافيّة بينهم ، فربما تقول في نفسك : «بين حشد هذه الآراء المختلفة كيف لي أن أركن إلى دراسة للشّريعة ؟» ، فالجواب مكتوب في متن الأسفار المقدّسة : «قد أُعطيَتْ من راع واحد» . فمن إله واحد أُوحيت الشرائع كلّها . لذا فعليك أن تجعل أذنيك كالمُنخُل ، وأن توطئ قلبك لتحصيل هذه الكلمات بأجمعها» » .

فقال الرّابي يُوَاش : «طُوبى لجيلٍ تعلّم على يديّ الرّابي إليعزَر» .

* * *

---

(1) لم يتبيّن لنا نصّها في سفر التثنية ، فترجمناها كما جاءت في النّص أمامنا .

(2) سفر الجامعة – 12 : 11 .

عبّر حاخامو المَجمَع الدّيني في يَبْنه[1] יבנה عن احترامهم للبشر بأسرهم ، سواءٌ أكانوا من علماء الشّريعة أو من الجُهّال ، على هذا النّحو :

«أنا مخلوق من عباد الله وكذلك هو جاري ، قد يميل هو إلى الفلاحة في الحقل ، وأفضّل أنا حرفة في المدينة . أقوم في الصّباح الباكر لمصالحي الشّخصية ، ويقوم هو باكراً لتدبير مصالحه الخاصّة . وطالما كان غير راغب بانتهاك حقوقي ، فعليّ أن أحرص على عدم القيام بما من شأنه الإضرار بمصالحه . هل يمكنني أن أتخيّل أنني أقرب إلى الله إن كانت مهنتي تدعو إلى تحفيز مسألة تعلّم الشّريعة ، فيما كانت مهنته ليست بذاك ؟ كلا ، فسيّان ما ننجزه من عمل صالح ، كبيراً كان ذلك أم صغيراً ، يجازينا الله بالثّواب بحسب ما لنا من صالح النيّات» .

ويقدّم أبابّيه هذه النّصيحة الأثيرة لديه :

«. . . وليكن أيضاً ليّن الأخلاق ميّالاً إلى إحلال مشاعر الودّ والتّراحم بين النّاس ، فإن فعل ذلك يكسب لنفسه محبّة كلٌ من الخالق والخليقة» .

وكان الرّابي رابّا دوماً يقول إن حيازة الحكمة ومعرفة الشّريعة تؤدّيان بالضّرورة إلى التّوبة والمبادرة إلى صالح الأعمال . ويقول : «لأنه لا جدوى من تحصيل معرفة عظيمة والتبحّر في شّرائع التّوراه والتّلمود ، ثم التّصرّف بغير احترام تجاه الأبوين ، أو تجاه مَن كانوا أكبر بالسّنّ أو بالمستوى العلمي» .

«رأسُ الحكمة مخافة الرّبّ ، والفَطِن هو مَن يمتثل لأوامر الله»[2] .

وقال رابّا : «الكتاب المقدّس لا يُنبئنا بأن دراسة أوامر الله هي ما يدلّ على حُسن الفهم ، بل إن تنفيذها هو الأصل . لكن علينا أن نتعلّم قبل أن نكون أهلاً للتّطبيق ، ومَن يفعل في حياته خلاف تعاليم الله العليّ خيرٌ له لو لم يولد» .

* * *

(1) يَبْنه (يَفْنه بالإشكنازيّة) أو يُبنى جنوبي يافا واللُّد ، اشتهرت بمجمعها الدّيني اليهودي بعد خَرابَ الهيكل 70 م ، أقام فيها يُوحَنان بن زكّاي مركزاً للسّنهدرين ، كما أقام جَمليئيل يشيڤا כרם ביבנה . دعاها الرّومان يامنيا Jamnia ، والصّليبيون إيبلان Ibelin .

(2) مزامير داوِد – 111 : 10 .

«الرّجل الحكيم يبدو في أدنى فعاله عظيماً ، والأحمق يظهر في أعظم فعاله وضيعاً» .

سأل تلميذ يوماً معلّمه : «ما هي عين الحكمة ؟» ، فأجاب المعلّم : «هي أن تحكم على الأمور بعقل متحرّر ، وأن تفكّر بذهن صافٍ ، وأن تحبّ جارك» . وأجاب معلّم آخر : «نهاية الحكمة أن تعرف ذاتك» .

«إيّاك والغرور وغَلَبة التّيه النّاجميَن عن رُتبة التّعلّم ، وروِّض لسانك على نُطق عبارة : «لا أدري»[1]» .

إن كرّس امرؤٌ ما نفسه للدّراسة ، وأصبح عليماً بما تقرّ به أعين معلّميه وقلوبهم ، وبقي برغم ذلك متواضعاً عند تبادله الحديث مع النّاس الأقل ذكاءً ، وأميناً في معاملاته ، وصادقا في أعماله اليوميّة ، فإن النّاس يقولون في حقّه : «طُوبى للأب الذي سمح له بدراسة شريعة الله ، وطُوبى للمعلّمين الذين ثقّفوه على دروب الحقّ ، فما أجمل طرقه ، وما أحقّ أعماله بالتّقدير ! ألا عن أمثاله ينصّ الكتاب المقدّس بالقول : «قال لي : أما أنت يا يسرَئيل عبدي يا يعقوب الذي اخترتُه !»[2]» .

ولكن إن كرّس امرؤٌ ما نفسه للدّراسة ، وأضحي عليماً ، فازدرى مَن كانوا أدنى منه ثقافة وعلماً ، وكان غير أمين في تعاملاته مع أقرانه ، فالنّاس في حقّه يقولون : بؤساً للأب الذي سمح له بدراسة شريعة الله ، وبؤساً لمَن ثقّفه ، فكم هو مستهجن سلوكه ، وكم هي طرقه كريهة ممجوجة ! ألا عن مثل هذا تنصّ التّوراه بالقول : «بادَت الأممُ من أرضه»[3]» .

* * *

(1) لهذه المقولات أشباه في أدبنا العربي بصدر الإسلام ، كما في مجاميع الجاحظ الأدبيّة : «مَن حاز «لا أدري» حاز نصف العلم» ، وأيضاً : «يظلّ الإنسان عالماً ما طَلَبَ العلم ، فإذا ظنّ أنه عَلِمَ فقد جَهِل» .

(2) سفر يشَعياه – 41 : 8 .

(3) سفر المزامير – 10 : 16 .

عندما تقف النّفوس قبالة كرسي الحُكم الذي لله ، يُسأل الفقراء والأغنياء والفُسّاق ، كلاً على حِدة ، عن عُذرهم في عدم دراستهم للشّريعة . فإن تعلّل الفقير بفقره يتمّ تذكيره بهِلّيل[1] ، فرغم أن تحصيل هِلّيل المالي كان ضئيلاً فهو كان يُنفق نصفه ليدفع رسم الدّخول إلى المدرسة .

وعندما يُسأل الغنيّ ، فيجيب بأن شؤون تجارته وثروته قد ألهتْهُ عن تحصيل العلم ، يُجاب بأن الرّابي إليعزَر كان يملك ألف حُرْج وألف سفينة ، ومع ذلك تخلّى عن متّع الثّروة كلّها ، وراح يرتحل من مدينة إلى أخرى بحثاً عن مسالك الشّريعة وتفاسيرها .

وعندما يتحجّج الفاسق بأن الشّهوات قد أغوته وحرفته صوب طريق الرّذيلة ، يُسأل إن كانت الغواية التي تعرّض لها أكثر ممّا تعرّض له يُوسيف ، أو إن كان امتُحن بشكل أشدّ وأبلغ ، في السّرّاء والضّرّاء .

ولكن برغم أننا مأمورون بدراسة شريعة الله ، علينا ألا نجعل منها عبئاً ثقيلاً ولا أن نُهمل في سبيل الدّراسة أي واجب أو ساعة ترفيه مشروع . سأل تلميذ في إحدى المرّات : «لماذا تُعدّ عبارة «والحنطة تجمعُها في وقتها»[2] واحدة من وصايا التّوراه ؟ أليس جمع النّاس لمحصولهم من الحنطة أوان نُضجها أمراً بديهياً ؟ وعلى ذلك تكون الوصيّة غير ذات جدوى» .

فأجاب الرّبّانيّون : «ليس الأمر بذاك ، فلربّما كانت هذه الحنطة تعود إلى رجل أهمل عمله من أجل الدّراسة . إن العمل مُقدّس ومُكرّم في عيني الله ، فهو لا يشاء بأن يُحجم الرّجال عن أداء واجباتهم اليوميّة ، حتى وإن كان ذلك من أجل دراسة شريعته» .

* * *

(1) تقدّم ذكر هِلّيل هَنّاسي في هذا الفصل ، ص 239 ، فليُنظر .
(2) راجع ما يُشابه ذلك في سفر راعُوث ، الأصحاح الثاني .

احمد الله على النّعماء كما تحمده على الضّرّاء . وعندما تسمع بوفاة أحد ما فقُل : «تباركَ الدّيّان العادل» .

الدُّعاء والصّلاة هي السّلاح الوحيد لبني يسرَئيل ، وهو سلاح توارثوه عن آبائهم ، سلاح مُجرّب في آلاف المعارك . وحتى لمّا تكون أبواب الدُّعاء مُوصدة في السّماء ، فإن أبواب الدّموع تبقى مفتوحة .

فنقرأ (في سفر الخروج - 17 : 11) أنه في الحرب مع عماليق ، عندما كان مُوشيْه يرفع يده يغلب يسرَئيل . فهل كان ليد مُوشيْه تأثير على الحرب ، للبدء بها أو إيقافها ؟ لا ، وإنما حينما كان بنو يسرَئيل يشخصون بأبصارهم للأعلى بقلوب كسيرة إلى الآب الأكبر في السّماء ، لم يكن يتسنّى لأي مكروه أن ينال منهم .

«فصنع مُوشيْه حيَّة من نُحاس ووضعها على الرّاية ، فكان متى لدَغت حَيّة إنساناً ونظر إلى حيّة النُّحاس يحيا» (سفر العدد - 21 : 9) .

فهل كان لحيّة النُّحاس القُدرة على القتل أو على منح الحياة ؟ لا ، بل حينما كان بنو يسرَئيل يرفعون أبصارهم إلى الآب الأكبر في السّماء ، كان هو يمنحهم الحياة .

يسأل الأنبياء : «هل يستمتع الله بلحوم الأضاحي ودمائها ؟» .

لا ، فهو لم يقيّدهم بالأوامر بقدر ما كان يهبهم من النَّفَحات . إذ يقول : «لأنفسكم وليس لي ما تقدّمون» .

كان لبعض الملوك ابنٌ ، ألفاه يعمه يوميّاً في القصف والعربدة مع رفاق السّوء ، ولا يأكل ولا ويشرب إلاّ معهم . فقال الملك : «كُل على خُواني ، كُل واشرب يا بُنيّ كما يحلو لك ، ولكن ليكن ذلك على خُواني وليس مع رفاق السّوء» .

كان النّاس يحبّون تقديم القرابين ، وكانوا يقدّمون أضاحيهم لآلهة غريبة ، لذا قال الله لهم : «إذا ضحّيتُم ، فأحضروا قرابينكم هذه إليّ» .

ينصّ الكتاب المقدّس بأن العبد العبري الذي يحبّ عبوديّته تُخرز أذنه على ساكفة الباب[1]، فلماذا ؟

لأن هذه الأذن سمعت من جبل سيناء هذه الكلمات : «لأنهم عبيدي ، لا يُباعون بيع العبيد»[2]. عبيدي ، وليس عبيد عبيدي ، لذلك فاخرز أذن مَن يحبّ عبوديّته ويرفض الحرّية الممنوحة إليه .

إن مَن يقدّم قرباناً كاملاً يُجازى عليه بأعطية كاملة ، ومَن يقدّم قربان مَحرقة ينال جزاء قربان المحرقة ، غير أن مَن يُخضع نفسه ويتواضع لله وللبشر ينال ثواباً عظيماً كما لو أنه قدّم قرابين الدّنيا كلّها .

* * *

إن إله أبرَهام يكون في عون مَن يُحدّد مكاناً معيّناً للصّلاة للرّبّ .

قال الرّابي هينا : «عندما يموت مثل هذا الرّجل يقولون في حقّه : «قد مات رجل تقيّ ومتواضع ، كان يتّبع مثال أبينا أبرَهام» » .

فكيف لنا أن نعرف أن أبرَهام قد حدّد مكاناً معيّناً للصّلاة ؟

«وبكّر أبرَهام في الغد إلى المكان الذي وقف فيه أمام الرّبّ»[3] .

قال الرّابي حِلبُو : «علينا ألاّ نتعجّل عندما نكون على وشك مغادرة مكان للعبادة» .

وقال الرّابي أبايِيه : «هذا فيما يتعلّق بمغادرة مكان للعبادة ، لكن علينا قطعياً أن نُسارع عندما نتوجّه إلى مثل هذا المكان ، كما هو مكتوب : «لنعرف فلنتتّبع لنعرف الرّبّ»[4]» .

---

(1) انظر حول ذلك ما يرد في سفر التثنية – 15 : 16-17 : «ولكن إذا قال لك لا أخرج من عندك ، لأنه قد أحبّك وبيتك ، إذ كان له خيرٌ عندك * فخُذ المخرز واجعله في أذنه وفي الباب ، يكون لك عبداً مؤبّداً ، وهكذا تفعل لأمَتِك أيضاً» .
(2) سفر اللّيويين – 25 : 42 .
(3) سفر التكوين – 19 : 27 .
(4) سفر هُوشِيَع – 6 : 3 .

وقال الرّابي زَيد : «عندما كنتُ أبصر الرّبّانيين يخفّون إلى المحاضرة وهم يرغبون بالحصول على مقاعد مناسبة ، كنتُ أفكّر في نفسي : «إنهم لينتهكون بذلك حُرمة يوم شبّات» ، غير أنني عندما سمعتُ الرّابي طَرفون يقول : «على المرء أن يُسارع دوماً إلى تطبيق وصايا الله» حتى في يوم شبّات ، كما هو مكتوب : «وراء الرّبّ يمشون ، كأسدٍ يُزمجر»[1] ، سارعتُ أنا أيضاً لأبكّر في الحضور إلى المدرسة» .

وهذا المكان الذي تكون فيها صلاتنا إلى الله أبلغ وأدنى إلى قبوله هو بيته ، كما هو مكتوب :

«لتسمع الصّلاة التي يصلّيها عبدُك أمامَك في هذا الموضع»[2] ، إشارة إلى إقامة الصّلاة في بيت الله .

وقال رابين بن عاداه : «ما مصدر السَّنَد على العُرف الشّفاهي بأنه متى اجتمع عشرة رجال للصّلاة في بيت الله ، تنزّلت عليهم الذّات الإلهيّة ؟

«في متن الكتاب المقدّس مكتوب : «الله قائمٌ في مَجْمَع الله»[3] . وحول مسألة شرط كون عدد «الجماعة»[4] (أو حَشد المُصلّين) ينبغي ألاّ يقلّ عن عشرة رجال ، فنتبيّنها من خلال كلام الله إلى مُوشيْه بخصوص الجواسيس الذين تمّ إرسالهم لاستطلاع أرض كنعان[5] . فلقد قال : «حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشّرّيرة ؟»[6] . هذا ولقد كان عدد الجواسيس يبلغ اثني عشر رجلاً ، ولكن لمّا كان يهوشُوَع وكالِب صادقين ومؤمنين ، فإن عدد «الجماعة الشرّيرة» اقتصر بالتالي على عشرة أنفار» .

---

(1) سفر هُوشِيَع – 11 : 10 .
(2) سفر الملوك الأول – 8 : 29 ، من صلاة شلومو الاحتفالية بتدشين الهيكل .
(3) مزمور لآساف ، سفر المزامير – 82 : 1 .
(4) مصطلح الجماعة في العبرية : עדה (عِيْداه) ، والمفهوم موجود في فقه العبادات الإسلاميّة حول شرط قيام صلاة الجماعة وصلاة الجمعة . ورغم أنه قد لا تكون ثمّة علاقة مباشرة بين المفهومين ، فمن المهم عقد مقارنة بينهما ضمن إطار مصادر اليهوديّة والإسلام .
(5) انظر حول ذلك سفر العدد – الأصحاح 13 .
(6) سفر العدد – 14 : 27 .

ويتابع السّؤال : «وما هو مصدر السَّند على العُرف الشّفاهي القائل بأنه لَمّا يقوم ولو رجل واحد بدراسة الشّريعة ، تتنزّل عليه الذّات الإلهيّة ؟» .

لأنه مكتوب[1] : «في كلّ الأماكن التي فيها أصنعُ لاسمي ذكراً ، آتي إليك وأباركُك» .

* * *

هناك أربع من شخصيات التُّوراه تَلَوا أدعيتهم بغير تَدَبُّر أو تفكير ، ومع ذلك أبرّ الله ثلاثة منهم ، بينما خاب الرّابع . وهم : إليعيزَر خادم أبرَهام ، وكاليب بن يِفُنّه ، وشاؤول بن قيش ، ويفتاح الجلعادي .

أما إليعيزر فقد دعا : «ليكن أن الفتاة التي أقول لها : «أميلي جَرّتك لأشرب» ، فتقول «اشرب وأنا أسقي جِمالك أيضاً» ، هي التي عيّنتها لعبدك يصحاق» (سفر التكوين – 24 : 14) .

فهَب أن عبدةً قامت بأداء المطلوب كما دعا إليعيزَر ، أكان أبرَهام ويصحاق يرضيان ؟ غير أن الله أبرّ بمُراده ، وجرى أن «رِبْقاه كانت خارجة» .

أما كاليب فقد دعا : «الذي يضرب قرية سيفِر קרית ספר ويأخذها أعطيه عَكْساه עכסה ابنتي امرأةً» (سفر القُضاة – 1 : 12) .

فهل كان جاهزاً لإعطاء ابنته لعَبد أو لوثني ؟

غير أنّ الله أبرّه ، فكان أن «أخذها عاتنيئيل بن قناز עתניאל בן־קנז ، أخو كاليب כלב الأصغر منه ، فأعطاه عَكْساه ابنته امرأةً» .

وأما شاؤول فقال : «فيكون أن الرّجل الذي يقتله (أي جُليات) يُغنيه الملك غِنىً جزيلاً ويعطيه بنته» (سفر صموئيل الأول – 17 : 25) .

فنرى أنه خاض الرّهان ذاته الذي خاضه كاليب ، فأبرّه الله أيضاً ، وتمكّن داوِد بن يَشّاي من تحقيق ما دعا به .

---

(1) سفر الخروج – 20 : 24 .

وأما يفتاح فقد أفاض عمّا بصدره على هذا النّحو : «إن دفعتَ بني عَمُّون ليدي ، فالخارج الذي يخرج من أبواب بيتي للقائي عند رجوعي بالسّلامة من عند بني عَمُّون ، يكون للرَّبّ وأصعدُهُ مُحْرَقةً» (سفر القضاة - 11 : 31) .

فلنفترض أن جحشاً أو كلباً أو قطاً كان أول خارج للقائه عند رجوعه ، هل كان يُقدّمه قربان محرقة ؟ إن الله لم يُبرّ هذه المُراهنة ، فيرد في الكتاب المقدّس : «ثم أتى يفتاح إلى هَمِصفَاه המצפה إلى بيته ، وإذا بابنته خارجة للقائه»[1] .

قال الرّابي شمعون بن يُوحاي : «لقد تحقّقت مطالب ثلاثة أشخاص من قبل أن يتمّوا تلاوة دعائهم ، وهم : إليعزَر ومُوشيْه وشلومو .

«ففيما يخصّ إليعزَر نقرأ : «وإذ كان لم يفرغ بعدُ من الكلام ، إذا رِبقاه خارجةٌ»[2] .

«وفيما يخصّ مُوشيْه نجد : «فلمّا فرغ من التكلّم بكلّ هذا الكلام انشقّت الأرض التي تحتهم ، وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم»[3]» (أي قُورَح وربعه) .

«وفيما يخصّ شلومو نجد : «ولمّا انتهى شلومو من الصّلاة ، نزلت نارٌ من السّماء وأكلت المُحرقة والذّبائح» (أخبار الأيام 2 - 7 : 1) .

تقديس يوم شبَات

قال الرّابي يُوحَنان ، نقلاً عن الرّابي يُوسيه : «المبتهجون بقدوم يُوم شَبّات (السّبت المقدّس) يُورثهم الله من فضله بغير حساب . كما هو مكتوب : «فتفرح بالرَّبّ» ، و «أجعلُك تفرح بميراث يعقوب أبيك» . لا كما كان وعد أبرَهام : «قُم فامشِ في الأرض طُولها وعرضها» . ولا كوعد يصحاق : «أعطيك كل ما في هذه الأرض» ، بل كما كان وعد يعقوب : «وتمتدُّ غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً» » .

---

(1) سفر القضاة - 11 : 34 .
(2) سفر التكوين - 24 : 15 .
(3) سفر العدد - 16 : 31 .

قال الرّابي يهُوداه إنه لو كان اليسرَئيليّون قد راعوا تماماً حُرمة يوم شَبّات الأول ، بعدما صدر الأمر الإلهي بتقديس اليوم السّابع ، لكانوا نجوا من ربقة العبوديّة ، كماهو مكتوب : «وحدث في اليوم السّابع أن بعض الشعب خرجوا ليلتقطوا (المَنّا) ، فلم يجدوا»[1] . وفي الأصحاح التالي نقرأ : «وأتى عَماليق وحارب يسرَئيل في رَفيديم»[2] .

والقصّة التالية هي واحدة من قصص كثيرة وُضعت لتبيّن أن الحفاظ على حُرمة يُوم شَبّات يعود على صاحبه بالثّواب :

يُحكى أن يهودياً ، اسمه يوسيف ، كان يحافظ على حُرمة يُوم شَبّات ، وكان له جار بالغ الثّراء ، له اعتقاد كبير بالتّنجيم . وكان ثمّة منجّم عرّاف محترف قال له إن ثروته ستؤول بأجمعها إلى يوسيف . ولذلك ، قام الرّجل ببيع أطيانه وأملاكه ، واشترى بثمنها جوهرة عظيمة ، قام بإخاطتها في عمامته قائلاً : «سوف لن يتسنّى ليوسيف على الإطلاق الحصول عليها» . لكن الذي جرى أنه عندما كان الرّجل في بعض الأيام واقفاً على متن سفينة تقلّه في البحر ، هبّت ريح قوية وأطاحت بالعمامة من على رأسه . والتقفت الجوهرة سمكة ، فلمّا اصطيدت وعُرضت للبيع في السّوق ، صادف أن يوسيف اشتراها لتكون طعام مائدته عشيّة يُوم شَبّات . وبالطبع لمّا شقّ جوفها ألفى الجوهرة بداخلها[3] .

سُئل الرّابي يشمَعيل بن يهُوشُوَع : «كيف أضحى أغنياء أرض يسرَئيل بهذا الغنى الفاحش ؟» ، فأجاب : «كانوا يؤدّون ضريبة العُشر الواجبة في وقتها ، كما هو مكتوب : «تُؤدّي الأعشار لكي تصير غنياً» . فابتدر السّائل قائلاً : «ولكن الأعشار كانت تُدفع للّيويين ، فقط أيام قيام الهيكل . فما الفضيلة التي حازوها أثناء إقامتهم في بابل ، حتى أضحوا هناك أغنياء أيضاً ؟» .

---

(1) سفر الخروج – 16 : 27 .

(2) سفر الخروج – 17 : 8 .

(3) قصّة رمزيّة تتكرّر مراراً في آداب الشعوب ، وفيها مثال مهمّ على وجوب دراسة الفارق بين التّراث الأدبي الرّمزي والتّراث الدّيني النّاتج عن وحي . وسنرى في الفصل القادم نماذج أخرى مهمّة تُلقي أضواءً جليّة على هذا المفهوم .

فأجاب الرّابي : «ذلك أنهم رفعوا مكانة الشّريعة المقدّسة عن طريق العمل في تفسيرها» . «ولكن في البلاد الأخرى ، حيث لم يعملوا في تفسير الشّريعة ، كيف استحقّوا ما أتاهم من ثروة ؟» ، فكان الجواب : «استحقّوه بما كانوا يبدون من تقديس ليوم شبّات» .

قال الرّابي آحيّا بن أبّا : «مكثتُ في لوديك مرّة من المرّات ، فاستضافني رجل غني في يوم شبّات . كانت مائدته حافلة بأنواع الأطعمة الباذخة ، وكانت الصّحاف مصنوعة من الفضّة والذّهب . وقبل القيام بتلاوة مباركة للطعام ، قال صاحب البيت : «لله مُلك الأرض وما عليها» . وبعد تلاوة المُباركة قال : «السّموات سمواتٌ للرّب ، أما الأرض فأعطاها لبني آدام»[1] . قلت لمُضيفي : «يخال لي أنك تعذرني يا سيّدي العزيز ، إن أنا سمحتُ لنفسي أن أسألك عن موجب استحقاقك لهذه النّعماء ؟» ، فقال : «قد كنتُ فيما مضى جزّاراً ، وكنتُ دوماً أحرص على انتقاء خيار الماشية لأذبحها لأجل شبّات ، لكي يحصل النّاس من اللّحم على أحسنه في ذلك اليوم . ومن جرّاء ذلك ، كما أعتقد جازماً ، نلت هذه النّعم» . فأجبتُ : «فتباركَ الرّبّ الذي أعطاك هذا كلّه» » .

في إحدى المرّات سأل تُرنوسروپيس الحاكم الرّابي عَقيبا : «ما هو هذا اليوم الذي تدعوه شبّات وتتغالى في ذكره مزاياه ؟» ، أجاب الرّابي : «وما هي مزاياك أنت على باقي النّاس ؟» ، أجاب : «أنا أسود على الجميع ، إذ أن الإمبراطور قد عيّنني حاكماً عليهم» .

فقال عَقيبا : «فإن الرّبّ إلهنا ، الذي هو أعظم من إمبراطورك ، قد عيّن يوم شبّات يوماً أقدس من باقي الأيام» .

وما أجمل ما يؤثر حول عشيّة يوم شبّات :

عندما يبرح المرء الكنيس قافلاً إلى داره يرافقه ملاك للخير وملاك للشّرّ . فإن ألفى الخُوان مُزجىً في داره ، ومصابيح شبّات تشعّ بالأنوار ، وامرأته وأولاده يرتدون ثياب العيد لمباركة يوم الرّاحة المقدّس ، يقول ملاك الخير :

---

(1) سفر المزامير – 115 : 16 .

«ليكُن شبّات القادم وكل شبّات لكم يأتي على هذه الشّاكلة . سَلامٌ لهذا المسكن ، سَلام» ، وينبغي لملاك الشرّ أن يُجيب : «آمين !» .

ولكن إن كان الدّار غير مجهّز ، ولم تكن التّرتيبات أُعدّت لاستقبال يُوم شبّات ، وما من قلب في الدّار أنشد : «تعالوا يا أحبّتي نستقبل العَروس ، ونحتفي بقدوم شبّات » ، فعندها يتكلّم ملاك الشرّ ويقول :

«ليكُن كلّ شبّات لكم يأتي على هذه الشّاكلة» ، فيجيب ملاك الخير باكياً مُنتحباً : «آمين !» .

الثّواب والعقاب

أذنب شمشون تجاه الرّبّ بعينيه ، كما هو مكتوب : «قد رأيتُ امرأةً من بنات الفلسطينيين . . . إيّاها خُذ لي ، لأنها حَسُنَت في عيني» (سفر القضاة – 14 : 3) . ولذلك فإنه بعينيه قد عُوقب ، كما هو مكتوب : «فأخذه الفلسطينيّون وقلعوا عينيه»[1] .

وأبشالُوم بن داوِد كان يفتخر بشَعره ، «ولم يكن في كل يسرَئيل رجلٌ جميل كأبشالوم ، ولهذا كان مَمدوحاً جداً ، فمن باطن قدمه حتى هامته لم يكن فيه عيب . وعند حلقه رأسه – إذ كان يحلقه في آخر كل سنة ، لأنه كان يثقُل عليه – كان يزن شعر رأسه مئتي شيْقِل بوزن الملك»[2] . ولذلك ، فبشعره شُنِق[3] .

أمّا مريَم فقد انتظرت مُوشيْه ساعةً (لمّا كان في صندوق البَردي) . ولذلك ، فإن اليسرَئيليين انتظروا مرِيَم سبعة أيّام ، عندما أصابها البَرَص . «ولم يرتحل الشّعب حتى أُرجعت مرِيَم» (سفر العدد – 12 : 15) .

---

(1) سفر القضاة – 16 : 21 .

(2) سفر صموئيل الثاني – 14 : 25-26 .

(3) سفر صموئيل الثاني – 18 : 9 ، وذلك بأنه كان بوَغر أفرايم «راكباً على بغل ، فدخل البغل تحت أغصان البُطمة العظيمة المُلتفّة ، فتعلّق رأسه بالبُطمة وعُلّق بين السّماء والأرض ، والبغل الذي تحته مرّ» .

ويوسيف دَفَنَ أباه ، «فصعد يوسيف ليدفن أباه»[1] . لم يكُ ثمّة أعظم من يوسيف بين بني يسرَئيل ، غير أن مُوشيْه فاقه شأناً فيما بعد ، لذلك نجد : «وأخذ مُوشيْه عظام يوسيف معه»[2] . غير أن هذه الدّنيا لم تشهد أعظم من مُوشيْه ، لذلك فهو مكتوب : «ودَفَنَه (الله) في الجواء في أرض مُؤاب»[3] .

* * *

عندما أضحت المشقّة والحسرة نصيب بني يسرَئيل ، وتمّ إقصاء الضّعفاء عن شعبهم ، كان ملاكان يربتان بأيديهما على رأس مَن ينسحب ، قائلين : «لا يشهد هذا خلاص الشّعب» .

فعندما تحلّ المشقّة بالرَّعيّة لا يحسُن بالمرء أن يقول : «أنا ذاهبٌ إلى بيتي ، فآكل وأشرب ، وأموري تكون بخير» ، فعن مثل هذا يتحدّث الكتاب المقدّس : «فهو ذا بهجةٌ وفَرَح ، ذبحُ بقر ونَحر غَنَم ، أكل لحم وشُرب خمر . لنأكل ونشرب ، لأننا غداً نموت . فأعلَنَ في أذنيّ ربّ الجنود : «لا يُغفَرَنَّ لكم هذا الإثمُ حتى تموتوا» »(سفر يشَعْياه – 22 : 13-14) .

أمّا مُعلّمُنا مُوشيْه ، فقد حمل نصيبه على الدّوام من مشقّة الشّعب ، كما هو مكتوب : «أخذا حجراً ووضعاه تحته» (سفر الخروج – 17 : 12) . أفلم يكن ممكناً لهما أن يقدّما له مقعداً أو وسادة ؟ لكنه بعدها قال : «ما دام اليسرَئيليّون في شدّة (خلال الحرب مع عماليق) فها أنا ذا أتحمّل ما يقع على عاتقي إلى جانبهم ، لأن مَن يتحمّل ما يقع عليه في زمن البلاء يعيش ليبتهج بساعة السّلوان . وويلٌ لمن يقول في نفسه : «لعلّي أتركُ واجبي ، فمَن تُراه يدري بي إن أنا تحمّلتُ واجبي أم لم أتحمّل ؟» ، فحتى حجارة بيته وأغصان الأشجار تراها تكون شاهدةً عليه ، كما هو مكتوبٌ في الأسفار : «لأن الحَجَر يصرخ من الحائط ، فيشهد له الجائزُ من الخَشَب»[4] » .

---

(1) سفر التكوين – 50 : 7 .
(2) سفر الخروج – 13 : 19 .
(3) سفر تثنية الاشتراع – 34 : 6 .
(4) سفر حَبَقّوق – 2 : 11 . لكن كيف يقول مُوشيْه بما لم يكن مكتوباً بعد في عصره ؟!

السّعي في الرّزق

قال الرّابي مئير : «عندما يعلّم امرؤٌ ابنه حرفةً ، ينبغي له أن يدعو مالك الكون ومُعطي الغنى والفقر ، لأنه في كل حرفة وباب رزق ثمّة أغنياء وفقراء لا محالة . فمن الغباء أن يقول شخص ما : «هذه حرفة رديئة ، سوف لن توفّر لي معاشي» ، لأنه سوف يجد الكثيرين قد أجادوا وأفلحوا في المهنة ذاتها . وكذلك لا ينبغي لرجل مُنعَم في عمله أن يتباهى ويقول : «هذه حرفة ممتازة ، خير الصّنائع ، لقد جعلتني موسراً» ، لأن الكثيرين ممّن يعملون في الحرفة ذاتها سواه لم يلاقوا إلا الفقر . بل ليذكر الجميع أن كل شيء في الحياة إنما يتأتّى من خلال رحمة الله وحكمته الواسعتين» .

وقال الرّابي شمعون بن إليعيزَر : «تراني ألاحظ طيور السّماء ودواب الأرض كيف يأتيها رزقها ، وهي مع ذلك مخلوقة لخدمتي ، فأقول : «ألا يحقّ لي أن أحظى بحياة مثلها أو أقلّ منها مشقّة ، حيث أنني خُلقت لخدمة إخواني من النّاس ؟ ولكنني للأسف قد أخطأتُ في حقّ خالقي ، ولذلك عوقبتُ بالفقر والحاجة إلى العمل !» » .

وقال الرّابي يهُوداه : «غالبية المكاريين (البغّالين) قُساة القلوب ، فهم يضربون دوابهم المسكينة بغير رحمة . ومُعظم الجمّالين مُستقيمون ، إذ أنهم يجوبون البوادي والمفاوز الموحشة ، ويجدون متّسعاً من الوقت للتأمّل والتفكّر في الله . ومُعظم البحّارة متمسّكون بأهداب الدّين ، فحياتهم اليوميّة المحفوفة بالأخطار تدفعهم إلى ذلك . وخير الأطبّاء قمينون بالعقاب ، إذ أنهم في أثناء تحصيل علومهم يتعاطون التّجارب على مرضاهم ، فتكون عاقبة ذلك مراراً الموت . أما خير الجزّارين فيستحقّون أن يُصنّفوا مع العماليقيين ، فهم معتادون على الدّم والقسوة ، كما هو مكتوب في حقّ العماليقيين : «اذكُر ما فعله بكَ عَماليق في الطريق عند خروجك من مصر . كيف لاقاكَ في الطريق وقطع من مؤخّرتكَ كلَّ المُستضعَفين ، وأنتَ كليلٌ ومُتعَب»[1] .

---

(1) سفر تثنية الاشتراع - 25 : 17-18 .

يولد الإنسان ويداه مُطبقتان ، ويموت ويداه مبسوطتان . فهو عندما يدخل مُعترك الحياة يودّ لو يقبض كل شيء ، أما عندما يبارح الحياة فإذا بكل شيء ينسلّ غيلةً من يديه .

مَثَل الإنسان كمثَل الثّعلب ، فقد أبصر ثعلبٌ كَرماً فتملّكته الشّهوة إلى الأكل من أعنابه . بيد أن السّياج كان ضيّق الثّغرات ، وكان جسم الثّعلب أضخم من أن يتمكّنَ من النّفاذ عبرها . فكان أن صام ثلاثة أيام ، ولمّا نحل جسمه واستدقّ ولج الكرم ، وراح يولم بكامل شهيّته على عناقيد العنب ، ناسياً أمر الغد وما سيأتي به ، ولم يكترث إلا للانغماس فيما هو فيه من مُتَع . فإذا به يغدو مكتنزاً من جديد ، ويعجز عن الخروج من ساحة وليمته . ولذا ، لم يجد بُدّاً من الصّوم ثلاثة أيام أخرى ، فلمّا أمسى نحيلاً من جديد عَبَرَ من خلال السّياج ونفذ إلى خارج الكَرم ، نحيلاً كما دخله .

فهكذا شأن الإنسان ، يلج الحياة ضعيفاً وعرياناً ، ثم يغادرها ضعيفاً وعرياناً بالمثل .

وكم هي معبّرة هذه الحكاية التالية ، ممّا يُؤثَر عن الإسكندر[1] :

يُروى أنه حام حول أبواب الجنّة ، وطرق الباب للدّخول .

«مَن الطارق ؟» . . سألت الملائكة السَّدَنة .

«أنا الإسكندر» .

«ومَن هو الإسكندر ؟» .

«أنا الإسكندر بذاته ، الإسكندر الأكبر ، فاتح الدُّنيا» .

أجابت الملائكة : «لسنا نعرف هذا الاسم ، فهذا باب الله ، لا يدخله إلا الصّالحون» .

---

(1) أي الإسكندر الأكبر المقدوني Alexander (356–323 ق . م) الفاتح الشهير وأحد عباقرة الحرب على مرّ العصور .

فراح الإسكندر يرجو إعطاءه شيئاً ليبرهن على أنه قد بلغ أبواب الجنّة ، فطُرحت له شظيّة من عظم جُمجمة . فأراها الحكمائه ، فوضعوها في إحدى كفّتي ميزان . كال الإسكندر ذهباً وفضّة في الكفّة الأخرى ، غير أن شظيّة العَظم بقيت أثقل ، فكال المزيد بما فيه تاجه وقُلاداته المرصّعة بالجواهر وإكليله الملكي ، غير أن كسرة العظم الصّغيرة ظلّت تفوقها جميعاً بالوزن . عندها ، أخذ أحد الحُكماء ذَرّة من تُراب من الأرض وجعلها على قطعة العظم ، فإذا بالميزان يثبُ إلى أعلى .

لقد كانت شظيّة العَظم تلك من العظام المُحيطة بعين الإنسان ، وأما عين الإنسان هذه فليس ثمّة شيء يُرضيها أو يملأها إلا التُّراب الذي يطمرها في القبر .

عندما يموت الصّالحون فالأرض هي التي تتحسّر . فالدُّرّة تبقى دوماً دُرّة ، بخلاف أنها انتقلت من مُلك صاحبها السّابق . ولذا فليبكِ الخاسرون .

ما الحياة الدُّنيا إلا كطيف زائل ، كما يقول وحي الكتاب المقدّس . كظلّ بُرج أو شجرة ، أهو ظلٌ يبقى وقتاً ؟ لا ، بل هو كظلّ طير يطير ، يمضي من ناظرينا فلا طيرُ يبقى ولا ظلّ .

موعظة جنائزية لموت حاخام

«حبيبي نزل إلى جنّته إلى خمائل الطّيب ، ليرعى في الجَنّات ويجمع السَّوْسَن»

דודי ירד לגנו לערגות הבשם לרעות בגנים וללקט שושנים:

(نشيد الأناشيد – 6 : 2) .

فما الدّنيا إلا جنّة حبيبي ، وحبيبي هو ملك الملوك . وكخمائل الطّيب هو يسرَئيل ، حيث يفوح عبير الرّحمة الزكي ، ويتضوّع أريج العلم مع النّسائم العليلة ، وتحفّ بخمائل الطّيب دعةُ السّلام ورغده . حيث تُزهر النّباتات وتُورق ، فتوفّر أوراقها وغصونها الوارفة حِرزاً أميناً لمن أمضّ به لهيب الحرّ أو مُكابدة الحياة . وحيث حبيبي يطلب أجمل الرّياحين ويقطف الأزاهير ، التي هي طلاّب الشّريعة ، ممّن يجدون في عقائد دينهم غاية النَّعيم .

عندما يشتدّ لهيب النّار بخشب الأرز ويستعر ، أفلا يجدُر بنبات الزُّوفا (أشنان داوِد) أن يخاف ويرتعد ؟ وعندما يسحب الزَّبانية بالشِّصّ حيّة لُوْياتان[1] לויתן الرّهيبة من أعماقها السَّحيقة ، فما يبقى من أمل لأسماك المناقع الضّحلة ؟ وعندما يُلقى بخيط صيد السّمك في السّيل الجارف ، فكيف تشعر بالأمان أمواه السّواقي الرّقراقة ؟

فلنرثي لحال أولئك الباقين على قيد الحياة ، ولا نرثينّ مَن اصطفاه الله من وجه الأرض . فلقد آل هو إلى السّكينة الأبديّة ، بينما نمكثُ نحن ها هنا خاضعين للأسى والحَسرات .

* * *

(1) وحش بحري يرمز إلى الشّرّ ، يذكر في سفر أيوب - 41 : 1 ؛ ومزامير داوِد - 74 : 14 ؛ والمزامير - 104 : 26 ؛ وسفر يشَعْياه - 27 : 1 .



الفصل الثالث

وقائع من سِيَر حياة الحاخاميم

الرَّابي عَقيبا[1]
רבי עקיבא

من واجب الإنسان شُكر الله على ما يصيبه من ضَـرَر ومكـروه ، كما يشكره على ما يصيبه من خير ، كما هـو مكتـوب : «فتُحبّ الـرّبّ إلهـك مـن كـلّ قلبك ، ومن كلّ نفسك ، ومن كلّ قوّتك»[2] .

«من كلّ قلبك» . أي من كل نزوع طبيعي لك ، سواء تجاه الخير أو الشرّ .
«ومن كلّ نفسك» . حتى وإن لزم الأمر أن تعطيه روحك .
«ومن كلّ قوّتك» . كلّ ما تملكه لشخصك . وبغـضّ النّظر عمّا يُقـدَّر لـك من الخير أو الشرّ ، فعليك أن تكون شكوراً .

كان الرّابي عَقيبا في إحدى المرّات مرتحلاً عبر البلد ، وكان معه جحش وديك ومصباح . فلمّا حلّ الظلام كان قد بلغ قرية حاول فيهـا البحـث عـن مـأوى ، لكنـه لم يُصب في ذلك فَلاحاً .

---

(1) عَقيبا (بالعبرية أكيبا أو أكيڤا) بن يُوسيف (50-135 م) مؤسّس اليهوديّة الحاخاميّة وشارح المشناه (القانون الشفهي) . عاضد ثورة شمعون بار كوخبـا ضـد الرّومـان (132-135 م) ، وكان يعتقده المَشيّح المنتظر ، وإثر فشل ثورته قُبض على عَقيبا فعُذّب حتى مات .

(2) هذه آية من أهم صلاة في التّوراه : «اسـمع يا يسـرَئيل» (شماع يسرَئيل שמע ישראל) ، سفر التّثنية - 6 : 4-9 ، ونصّها الكامل : «اسمع يا يسـرَئيل ، الـرّبّ إلهنـا ربٌّ واحـد . فتُحبّ الرّبَّ إلهَك من كلّ قلبك ومن كلّ نفسك ومن كلّ قوّتك . ولتكُن هذه الكلمات التي أنا أوصيكَ بها اليوم على قلبك ، وقُصّها على أولادك ، وتكلّـم بهـا حين تجلـس في بيتك ، وحين تمشي في الطريق ، وحين تنام ، وحين تقوم . واربطها علامةً على يـدك ، ولتكُن عصائبَ بين عينيك . واكتُبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك» .

قال الرّابي : «كلّ ما يأتي من الله فهو خير» ، وحزم أمره على التوجّه إلى الغابة ، عازماً على المبيت فيها . أشعل مصباحه ، فأطفأته الرّيح ، فقال : «كلّ ما يأتي من الله فهو خير» . وما لبث الوحوش الضّارية أن افترست الجحش والدّيك ، فلم يزد الرّجل على مقولته : «كلّ ما يأتي من الله فهو خير» .

في اليوم التالي سمع بأن فرقة من جنود الأعداء كانت قد اجتازت بالغابة في تلك الليلة . فلو أن الجحش كان نهق ، أو أن الدّيك صاح ، أو لو لمح الجنود ضوء مصباحه ، لكان لاقى حتفه دونما ريب ، ولذلك عاود مقولته : «كلّ ما يأتي من الله فهو خير» .

* * *

وجرى مرّة عندما كان الرّابي جَمْليئيل ، والرّابي إليعيزَر بن عازورْياه ، والرّابي يهُوداه ، والرّابي عَقيبا ، كانوا يسيرون معاً ، تناهت إلى أسماعهم أصوات صياح وضحك وصخب فرح صادرة عن حشد من النّاس على مَبعدة . فبكى أربعة من الحاخاميم ، ما خلا عَقيبا الذي ضحك بقوّة .

فقال الآخرون له : «عَقيبا ، ما الذي يضحكك ؟ هؤلاء الوثنيّون الذين يعبدون الأصنام يُقيمون في أمان وسلام ، وينعمون بالسّعد والحُبور ، بينما تمكث مدينتنا المقدّسة خراباً يَباباً ، فلتَبْكِ بدلاً من أن تضحك» .

أجاب الرّابي عَقيبا : «لهذا السّبب بعينه أضحك وأشعر بالسّعادة ، فإن كان الله يسمح لهؤلاء الذين يعصون أوامره بالحياة سُعداء على الأرض ، فكم تكون بالأحرى عظيمة السّعادة التي يدّخرها في الحياة الآخرة لمن يتّبعون أوامره وينتهون عن نواهيه !» .

في مناسبة أخرى ، كان هؤلاء الحاخامون يتّجهون صعوداً إلى يَرُوْشَلايم ، فلمّا بلغوا جبل صُوفيم ورأوا الإقفار الذي يخيّم على المكان مزّقوا ثيابهم . ولما بلغوا الموضع الذي كان يقوم فيه الهيكل ، رأوا ثعلباً ينفر من البقعة التي كان بها قُدْس الأقداس ، فراح أربعة منهم يبكون بمرارة ، إلا عَقيبا بَدا بالمثل جَذِلاً . فراح زملاؤه يوبّخونه مجدّداً على شعوره هذا الغير ملائم في نظرهم .

فقال : «تُنكرون فرحي ، فقولوا أنتم أولاً : ما الذي يُبكيكم ؟» .

«لأن الكتاب المقدّس يُخبرنا بأن أي غريب (من غير نسل أهَرُون) يقترب من قُدس الأقداس ، ينبغي أن يُقتل ، والآن فها هي الثّعالب تتّخذه وجاراً لها . أفلا نبكي لذلك ؟» .

أجاب عَقيبا : «فأنتم تبكون إذاً للسّبب ذاته الذي يُفرح قلبي . أوليس مكتوباً : «أُشهِد لنفسي شاهدين أمينين ، أُوريّا الكاهن وزكريّا بن يِبِرِخْياهو»[1] ؟ فما هي علاقة أُوريّا بزكريّا ؟ لقد عاش أُوريّا عندما كان الهيكل الأول قائماً ، بينما عاش زكريّا في أيّام الثاني . أفلا تعلمون بأن نبوءة أُوريّا تُشبِّه بنبوءة زكريّا ؟ فمن خلال نبوءة أُوريّا نجد : «لذلك بسببكم تُفلَح صهيون كحقل ، وتصير يروشَلايْم خِرَباً ، وجبل البيت شَوامخ وَعر»[2] ، وفي سفر زكريّا نجد : «سيجلس بعدُ الشّيوخ والشّيخات في أسواق يروشَلايْم»[3] . فقبل أن تتحقّق نبوءة أُوريّا ، قد كان يمكن لي أن أشكّ في حقيقة كلام زكريّا المُطمْئِن ، ولكن بما أن الأولى قد تحقّقت بالفعل ، أراني واثقاً أن وعود زكريّا سوف تتحقّق أيضاً ، فلهذا السّبب أنا فَرِحٌ جذلان» .

أجاب الرّفاق : «إن كلامك هذا يعزّينا يا عَقيبا ، فأدام الله علينا عزاءه» .

ومرّة أخرى بعد ، لمّا كان الرّابي إليعزَر طريح الفراش وقد برّحت به أسقام المرض ، وجعل أصحابه وتلامذته يبكون عنده ، إذا بالرّابي عَقيبا يظهر فَرِحاً ، ويسألهم علامَ يبكون . فأجابوا : «لأن رابينا المحبوب مُلقىً بين الحياة والموت» . أجابهم : «لا تبكوا ، بل على العكس ابتهجوا . فإن كان نبيذه لم يُمسِ حاذقاً ، ولم تُنكَّس رايتُه ، لظننتُ أنه في الحياة الدّنيا قد نال ثواب صلاحه ؛ ولكنني إذ أرى الآن معلّمي وهو يعاني لما قد يكون اقترفه في حياته من آثام ، فإنني أبتهج وأزهو . فلقد علّمنا بأن أكثرنا صلاحاً وتُقىً لا بدّ أن يكون ارتكب ذنوباً ، ولذا فهو في الحياة الآخرة ينال سلاماً» .

---

(1) سفر يشَعْياه – 8 : 2 .
(2) سفر ميخا – 3 : 12 ، وقبل ذلك ترد النّبوءة في سفر يرمياه – 26 : 18 .
(3) سفر زكريّا – 8 : 4 .

وعندما كان الرّابي إليعيزَر مريضاً ، قام بعيادته أعيان الحاخاميم الأربعة ، وهم : الرّابي طَرفون ، والرّابي يهُوشُوَع ، والرّابي إليعيزَر بن عازُورْياه ، والرّابي عَقيبا .

فتكلّم الرّابي طَرفون وقال : «أنت لبني يسرَئيل خيرٌ من وَبل المطر على أديم الأرض ، لأن المطر يحيي الحياة في الدّنيا فحسب ، أما أنت يا معلّمي فلقد ساعدت على إنضاج ثمار هذه الحياة الدّنيا والآخرة» .

وقال الرّابي يهوشُوَع : «أنت لبني يسرَئيل خيرٌ من الشّمس ، فإن كانت الشّمس تنير هذه الدّنيا فحسب ، فأنت قد وهبتَ نورك لهذه الحياة الدّنيا وللآخرة» .

ثم تكلّم الرّابي إليعيزَر بن عازُورْياه ، فقال : «أنت لبني يسرَئيل خيرٌ من الأب والأم للإنسان . فهما يقدّمانه إلى هذه الدّنيا ، أما أنت يا معلّمي فتُرشده إلى سواء السّبيل نحو طريق الخلود» .

ثم تكلّم الرّابي عَقيبا ، فقال : «من الخير للإنسان أن يُبتلى ، إذ أن مُعاناته تكفّر عن سيئاته» .

قال معلّمه : «فهل في الكتاب المقدّس تأكيدٌ لذلك يا عَقيبا ؟» .

أجاب عَقيبا : «أجل ، «كان مِنَشّيه ابن اثنتي عشرة سنةً حين مَلَكَ ، ومَلَكَ خمساً وخمسين سنةً في يروشَلايْم ، وعمل الشّرّ في عيني الرّبّ» (سفر الملوك الثاني – 21 : 1) . فكيف كان ذلك ؟ أيكون الملك حَزَقْياه علّم الشّريعة للعالَم بأسره ، ولم يعلّم ابنه ؟ حتماً لا ، لكن مِنَشّيه لم يلتفت إلى وصاياه وأهمل كلمة الله حتى ابتُلي جسده بالأمراض ، كما هو مكتوب (في سفر أخبار الأيام الثاني – 33 : 10) : «وكلّم الرّبّ مَنَشّيه وشعبه فلم يُصغوا ، فجلب الرّبّ عليهم رؤساء الجُند الذين للملك أشّور ، فأخذوا مِنَشّيه بخزامة وقيّدوه بسلاسل نُحاس وذهبوا به إلى بابل . ولمّا تضايق طلب وجه الرّبّ إلهه ، وتواضع جداً أمام إله آبائه ، وصلّى إليه . فاستجاب له وسمع تضرّعه ، وردّه إلى يروشَلايْم إلى مملكته . فعلم مِنَشّيه أن الرّبّ هو الله» .

«فماذا كان من أمر ملك أشّور مع مَنَسّيه ؟ لقد وضعه في برميل من نُحاس وأضرم تحته ناراً ، فلمّا جعل مِنَسِّيْه يُعاني الآلام المُبرّحة في جسده ، راح عقله يُعاني أكثر فأكثر ، ففكّر : «أأصرخ إلى الله القدير ؟ واحسرتاه ، إن سخطه عليّ لشديد . وإن استصرختُ أوثاني فهذا كله هباء . واكَرْباه وحَسْرَتاه ، أيُّ أمل بقي لي ؟» .

«فصلّى لأكبر أوثانه ، وبقي ينتظر استجابة بلا طائل . فصرخ إلى الأرباب الأدنى شأناً ، وبقي ماكثاً بلا صَريخ ولا مُجيب . وأخيراً توجّه إلى الله الأزلي العظيم ، فقال :

«يا يهُواه الأزلي ! يا إله أبرَهام ويصحاق ويعقوب ومَن تَلاهُم ، يا مُبدع السّموات والأرض . يا مَن خلقتَ للبحار شُطآناً ، وضبطتَ بكلمتك جبروت المُحيط العظيم . يا مَن رحمتُه تعدل عظمته وسُلطانه ، ويا مَن آلى على نفسه قبول توبة الأوّابين إليك بقلب سليم . قد جئتُك بذنوب تعدل رمل الشَّطّ . قد أسأتُ أمامك ، وارتكبتُ كلّ مَقيت في حضرتك وعملتُ كلّ شرّ . فها أنا ذا آتي إليك مُسربلاً بقيودي ، وعلى ركبتي أتوسّل إليك ، طالباً بأسمائك العُظمى الرّحيمة ، أن ترحم بلائي وشكواي . مغفرتك وعفوك يا ربّ ! لا تُهلكني بهذه الشّدّة بما اقترفت يداي ، ولا تَنذَر عذابي يدوم للأبد . ورغم أنني لا أستحقّ رحمتك يا ربّ ، خلّصني بمنّك وكرمك . ومن الآن فصاعداً سأمجّد اسمك كلّ أيام حياتي ، إذ أن مخلوقاتك كلّها تهلّل بتمجيدك ، ولك كلّ العظمة والخير دائماً وأبداً ، سِلاه[1] !» .

«فسمع الله صلاته ، كما هو مكتوب : «فاستجاب له وسمع تضرّعه ، وردّه إلى يروشَلايْم إلى مملكته» .

تابع عَقيبا قائلاً : «فمن خلال ذلك نتعلّم أن في البَلاء مغفرةً للخطايا» .

* * *

(1) سِلاه تعبير عبري : סלה يرد مراراً في مزامير داود ، معناه : تسبيح .

قال الرّابي إليعيزَر الكبير : «نحن مأمورون بما يلي : «فتُحبُّ الرَّبَّ إلهك من كلّ نفسك وبكلّ ما هو مُحبّب إليك» .

«أفلا تتضمّن عبارة «من كلّ نفسك» مغزى «بكلّ ما هو مُحبّب إليك» ؟

«لربما يحبّ بعض النّاس نفسه أكثر ممّا يحبّ ماله ، فله يُقال : «من كلّ نفسك» ، بينما بخصوص مَن كان يحبّ ماله أكثر من نفسه فالأمر الإلهي ينصّ : «وبكلّ ما هو مُحبّب إليك» » .

غير أن الرّابي عَقيبا على الدّوام يشرح عبارة «من كلّ نفسك» على أنها تعني : «حتى وإن طُلبت منك حياتك» .

وماذا كان موقف الرّابي عَقيبا إبّان صدور ذاك المرسوم الذي حرّم على اليسرَئيليين دراسة الشّريعة ؟ لقد أسّس عدّة رعويات سرّية ، وراح يدرّسهم خفيةً .

فقال له پاپوس بن يُوداه : «ألستَ خائفاً يا عَقيبا ؟ قد تُكتشف أفعالك ، فتُعاقَب على مُخالفتك للمرسوم» .

أجاب عَقيبا : «اسمع ، سأروي لك قصّة . يُحكى أن ثعلباً كان يسير بجانب النّهر ، فأبصر بالسّمك يسبح ويسبح جيئةً وذهوباً ، دون توقّف ، فقل لنفسه : «علامَ أنتنّ في عجلة من أمركنّ ؟ ما الذي يخيفكنّ ؟» .

أجبن : «شباك الصّيادين» .

«فقال الثّعلب : «تعالينَ إذاً ، وعشنَ معي علي اليابسة» .

«فضحكت الأسماك ، وقُلن : «ويقولون إنك أكثر الحيوانات حكمة ؟ الحقّ أنك أكثرها غفلةً . فإن كنا تحت الخطر حتى في موطننا الأصلي ، فكم بالأحرى نكون في خطر أدهى إن نحن تركناه ؟» .

«فشأننا هو كذلك بالضبط . إذ يُقال لنا عن الشّريعة إنها «حياتنا وطول أيّامنا» . فهذا عندما تكون أمورنا بخير وأمان ، فكم هي حاجتنا إليها أكبر بالأحرى في أوقات كهذه ؟» .

ويُقال إنه لم يمض كثير من الوقت بعدها ، حتى زُجَّ بالرّابي عَقيبا في السّجن بسبب تدريسه الشّريعة ، وإذا به في السّجن الذي حُبس فيه يجد پاپوس ، الذي كان مُداناً بجناية من نوع آخر .

فقال له الرّابي عَقيبا : «پاپوس ، ما الذي أتى بك إلى هنا ؟» .

فأجاب پاپوس : «مَرحى لك مَرحى ، بأنك تُسجن لتدريسك شريعة الرّبّ ، أما أنا فعاراً لي وشناراً ، إذ آتي هنا بسبب أمور الباطل» .

فلمّا سيقَ الرّابي عَقيبا إلى الإعدام ، كان وقت صلاة الصّبح قد دخل . فصاح بصوت جهوري ثابت : «اسمَع يا يسرَئيل ، الرَّبُّ إلهُنا ربٌّ واحد» .

فراح الجلاّدون يمزّقون لحمه بالمناخس المُدبّبة ، غير أنه بقي يردّد : «الرّبّ واحد» אדני אחד (أدوناي إحاد) .

وتابع : «كنتُ دوماً أقول إن الآية «من كلّ نفسك» تعني : حتى وإن طُلبت منك حياتك ، وكنتُ أتساءل إن كان في وسعي حقاً أن أبرّ بكلامي هذا . فها أنا ذا اليوم أفعل ، وإن «الرّبّ واحد» » .

وبهذه الكلمات الأخيرة فاضت روحه إلى بارئها .

فنُعمى لك يا أيها الرّابي عَقيبا[1] ، بأن روحك خرجت طاهرة ، وأن سعادة الحياة الأبديّة تكون مُلكاً لك بتمامها .

الرّابي إليْشَاع بن أبوياه
רבי אלישע בן־אבויה

الرّابي إليْشَاع بن أبُوياه ، الذي كان علاّمةً لا يُجارى في فقه الشّريعة ، بات في أواخر حياته مُرتداً משמד . وكان الرّابي مئير واحداً من تلاميذه ، لم يُثنِه شيء عن محبّته الفائقة التي يكنّها لمعلّمه .

---

(1) نحن المسلمون ننظر إلى كل إنسان مؤمن مُوحِّد بأنه من عباد الله الصّالحين ، ولا نقول باقتصار الإيمان على شعب دون آخر ، بل ﴿إلا مَن أتى الله بقلبٍ سَليم﴾ .

وحدث في إحدى المناسبات عندما كان الرّابي مئير يُحاضر في المدرسة ، أن دخل بعض التّلاميذ وقالوا له : «ها هو معلّمُك إليْشاع يمتطي صهوة حصان في يوم شبّات المقدّس» .

فخرج الرّابي مئير من المدرسة ، ولمّا أدرك إليْشاع مشى بجانب حصانه . فحيّاه هذا الأخير ، وسأل : «أيّة آية من الكتاب المقدّس كنت تفسّر ؟» .

أجاب الرّابي مئير : «من سفر أيوب ، الآية «وبارك الرّبّ آخرة أيّوب أكثر من أولاه»[1]» .

قال إليْشاع : «فكيف فسَّرتَ هذه الآية ؟» .

«بأن الرّبّ زاد على كلّ ما كان من مال لأيّوب ضعفاً» .

أجاب إليشاع : «لكنّ معلّمك عَقيبا قال غير ذلك ، قال إن الرّبّ بارك أواخر أيام أيوب بضعفين من التّوبة والعمل الصّالح» .

فسأل الرّابي مئير : «فكيف تفسّر إذاً الآية «نهايةُ أمرٍ خيرٌ من بدايته»[2]؟ هَبْ أن رجلاً ابتاع بضاعةً ما في شبابه ومُني فيها بخسائر ، فهل من الممكن أن يستردّ ثروته في شيخوخته ؟ أو لنفترض أن شخصاً درس شريعة الله في شبابه ثم نسيها ، فهل من المُحتمل أن تعود إلى ذاكرته في أواخر أيامه ؟» .

أجاب إليْشَاع : «معلّمك عَقيبا لم يقل ذلك ، بل شرح الآية بأن «عواقب الأمور تصحّ إن صحّت بداياتها» . وسيرة حياتي تُثبت صواب هذا التفسير . ففي اليوم الذي أُدخلتُ فيه بعهد أبرَهام[3] عمل أبي مأدبة عظيمة ، فراح بعض من زوّاره يغنّي ، والآخر يرقص ، بينما راح الحاخامون يتبادلون الحديث حول حكمة الله وشرائعه . فراقَ الأمر لأبي أبُوياه ، فقال : «عندما يشبّ ولدي تعلّمونه فيصبح مثلكم» . فلم يكُ راغباً بتعليمي لوجه الله ، بل ليُشهر اسمه من خلالي وحسب . لذلك في آخر أيامي صرتُ خبيثاً ومُرتداً . والآن هيّا عُد» .

---

(1) سفر أيوب – 42 : 12 .
(2) سفر الجامعة – 7 : 8 .
(3) المُراد بعهد أبرَهام في اليهوديّة الختان ، انظر سفر التكوين – 17 : 9–14 .

«ولماذا ؟» .

«لأنه في يوم شَبّات لا يجوز لك أن تمضي إلى هذا الحدّ ، إذ حسبتُ المسافة التي قطعتَها معي بتعداد خطوات حصاني» .

قال الرّابي مئير : «طالما كنت بهذه الحكمة فتحسب لي المسافة التي يجوز لي اجتيازها من خلال خطوات حصانك ، ولمّا كنتَ حريصاً على مصلحتي ، فما بالك لا تعود إلى الله وتتوب عن رِدّتك ؟» .

فأجاب إلِيْشَاع : «ليس ذلك لي . ففي إحدى المرّات كنتُ أركب حصاناً في يوم الغُفران ، وصادف مجيؤه يوم شَبّات . فلمّا عبرتُ بالكنيس سمعتُ صوتاً ينادي : «عودوا أيها الأبناء الضالّون ، عودوا إليّ فأعود إليكم ، ما خلا إلِيْشَاع بن أَبُوياه ، الذي عرف مولاه ثم تمرّد عليه» » .

فما الذي يدفع رجلاً متفقّهاً كإلِيْشَاع بالرّدّة إلى طرق الضّلال ؟

يُذكر أنه عندما كان مرّة يدرس الشّريعة في وادي جِنُوسان ، أبصر رجلاً يتسلّق شجرة ، وعثر الرّجل على عُشّ طير في الشّجرة ، ورُغم أنه أخذ الأم وفراخها فقد انصرف دون أن يمسسه أي ضرر . ثم رأى رجلاً آخر عثر على عُشّ طائر ، فاتّبع تعاليم الكتاب المقدّس وأخذ الفراخ فقط ، تاركاً الأم تطير عنه ، ومع ذلك نهشته حيّة فيما كان نازلاً ، فمات . ففكّر إلِيْشَاع في نفسه : «إذاً أين هي حقيقة الكتاب المقدّس ووعوده ؟ أليس مكتوباً : «فلا تأخذ الأم مع الأولاد ، أطلق الأمّ وخُذ لنفسك الأولاد ، لكي يكون لك خيرٌ وتُطيل الأيام»[1] . فأين هو طول الأيّام المزعوم لذاك الرّجل الذي اتّبع الوصية ، بينما الآخر الذي انتهكها بقي سليماً مُعافى ؟» .

إنه لم يسمع كيف فسّر الرّابي عَقيبا هذه الآية ، بأن طول الأيام إنما هو في الحياة الآتية ، حيث السّعادة تعمّ .

وثمّة سبب آخر أيضاً يُروى حول دافع إلِيْشَاع للضّلال والارتداد .

(1) سفر التّثنية - 22 : 6-7 .

ففي غُضون الفترة المشحونة بالخوف خلال مرحلة الاضطهاد الدّيني ، كان الرّابي الفقيه يهوداه ، الذي أمضى حياته في دراسة الشّريعة وتطبيق وصايا الله ، قد سُلّم إلى أيدي جلاّدي التّعذيب الغلاظ القلوب . فوُضع لسانه في فم كلب فقضمه الكلب وانتزعه من فيه .

فقال إليْشَاع : «إن كان اللّسان الذي لم ينطق إلاّ بالحقّ يُعامَل هكذا ، والحكيم الفقيه يُهان على هذا النّحو ، فما هو إذاً جدوى تجنّب الكذب وزلاّت اللّسان ، أو اجتناب الجهل ومَثَالبه ؟ فإن كان ما جرى هذا وارداً ومسموحاً ، فمعناه بلا ريب أنه لا الصّالح يُجزى بإحسانه ، ولا قيامةَ بعد الموت» .

ولمّا أمسى إليْشَاع عجوزاً وقع طريح المرض ، فلمّا دري الرّابي مئير بمرض معلّمه العجوز ، قام بعيادته .

قال الرّابي مئير متوسّلاً : «أوّاه ، عُدْ إلى إلهك ، عُدْ !» .

قال إليْشَاع : «ماذا ؟ أعود ؟ وهل يقبل توبتي ، توبة مُرتدّ تمرّد عليه بهذا الشكل ؟» .

قال مئير : «أليس مكتوباً : «تُرجع الإنسان إلى الغُبار» ؟ (المزامير 90 : 3) . فمهما كانت نفسُ الإنسان محطّمة ، يبقى بإمكانه الأوبة إلى إلهه والحصول على المغفرة وراحة النّفس» .

فاستمع إليْشَاع إلى هذا الكلام ، وبكى بمرارة ثم فاضت روحه[1] . ولم يمض كثير من السّنين عقب موته ، حتى أتت بناتُه وقد عضّهن الفقر بنابه ، يلتمسن العون من المدرسة . فقُلن : «تذكّروا محاسن أبينا في تفقيهه النّاس ، لا في مسلكه» .

فامتثل القيّمون على شؤون المدرسة لهذا المطلب ، وأعانوهنّ .

---

(1) ولد إليشاع قبل عام 70 م ، واستهوته الحضارة الهلّينيّة فربما كان هذا دافع ارتداده ، وقيل كان غنوصياً ، فكان يُلقّب بلفظ أخير אחר أي الآخَر (الكافر) . وشخصية هذا الرّجل تستدعي الدّراسة حقاً ، ولم يُكتب عنه باللغة العربية غير إلماع في موسوعة المسيري . وعنه دراسة للباحث اليهودي بيرديشفسكي .

الرّابي شمعون
רבי שמעון

كان الرّابي يهوداه والرّابي يُوسيه (جُوزيه) والرّابي شمعون يتناقشون في بعض الأيام ، عندما دخل يهوداه بن جيريم البيت الذي كانوا فيه ، وجلس مع الثلاثة . وكان الرّابي يهوداه يتحدّث بمديح ضافٍ عن الأمميين (الرّومان)[1] . فقال : «أترون كيف حسّنوا من أمر مُدُنهم ، وكيف رفعوا رونقها وجمالها ، وكم بذلوا من جهد لأجل راحة مواطنيهم ورفاهيّتهم : حمّامات عامّة ، وجسور ، وشوارع أنيقة وعريضة . لا شكّ بأن لهم بذلك فضلاً عظيماً» .

أجاب الرّابي شمعون : «لا بل كلّ ما فعلوه كان ناجماً عن دافع الأنانيّة . فالجسور تعود عليهم بالعوائد ، لأن كلّ مَن يستعملها تتوجّب عليه ضريبة ، أما الحمّامات فهي لترَفهم الشّخصي . هذه كلّها من ضروب الأنانيّة ، وليس بدافع الحسّ الوطني» .

فراح يهوداه بن جيريم يردّد هذا النّقاش على أسماع أصحابه ، حتى وصل أخيراً إلى أذني الإمبراطور ، فلم يضرب على ذلك صفحاً . فأمر بأن يهُوداه ، الذي تكلّم بخير في حقّ الدّولة ، يُرقّى شأنه ويُكرَّم ؛ وأن يُوسيْه (جُوزيه) الذي بقي صامتاً بدلاً من أن يُثني على تصريحات يهُوداه ، يُنفى إلى صِفُوري ציפורי ؛ وبأن يُعدَم شمعون الذي اعترض على المديح .

فما كان من هذا الأخير إلاّ أن هرب مع ابنه واختبأ في المدرسة عندما دري بهذا المرسوم الإمبراطوري . ومكث هناك بأمان نسبي مدّة من الوقت ، وكانت زوجته تجلب له الطعام يومياً . ولكن عندما طُلب إلى الضبّاط القيام ببحث مكثّف خاف ، وتحسّب من أنه عبر قلّة انتباه امرأته قد يُكشف مكان اختبائه .

قال في نفسه : «إن عقل المرأة ضعيف ومتقلقل ، فإن استجوبوها وأربكوها أقرّت بمكاني ، وكان الموت مصيري لا مَحالة» .

---

(1) يعدّ اليهود الرّومان من أكبر أعدائهم ، عانوا منهم اضطهاداً وتنكيلاً قاسيين طوال حكم روما للمشرق (64 ق . م - 395 م) ، وهدم تيطوس هيكلهم عام 70 م .

فلذا خرج شمعون وابنه من المدينة وأويا إلى كهف ناءٍ في البرّيّة ، وكان بقرب هذا الكهف بضعة أشجار فاكهة كانت تمدّهم بالقُوت ، ونبع ماء صافٍ ينبجس بين الصّخور في الجوار القريب . وعاش الرّابي شمعون هناك مدّة ثلاث عشرة سنة ، إلى أن مات الإمبراطور وأُلغيت مراسيمه . فعاد عندها إلى المدينة .

فعندما دري صهره الرّابي فِنْحاس بمقدمه ، خفّ إلى زيارته على الفور ، ولّما آنسَ انحساراً واضحاً في حالة نسيبه الذّهنية والجسدية ، ابتدره قائلاً : «ويلتاه وأوّاه إذ ألقاك بهذه الحالة التّعيسة !» .

غير أن الرّابي شمعون أجاب : «ليس الأمر بذاك ، بل الحمد لله أنك تجدني بهذه الحالة ، لأنك لا تراني أقلّ صلاحاً وتُقىً من ذي قبل . فلقد حفظني الله ، وحافظ على إيماني به ، ولذا فمن الآن وصاعداً لأستفيضنّ في شرح آية التّوراه : «وكان يعقوبُ إنساناً كاملاً»[1] . فهو كاملٌ في حالته الجسديّة ، وكاملٌ في حالته الدّنيويّة ، وكاملٌ في معرفته بالله» .

* * *
* *
*

(1) سفر التكوين – 25 : 27 .

أثناء مناقشة أنطونينوس للرّابي يهُوداه ، قال له : «في الحياة الآخرة ، عندما تمثُل الرّوح بين يدي الخالق الأعظم للحساب ، ألا يمكن لها أن تجد دعوى للتّنصّل من الخطايا الدّنيويّة ، بالقول : «إن هذا الخطايا كانت خطايا الجسد ، وإذ أنّي تخلّصتُ من الجسد ، فلستُ مسؤولة عن هذه الخطايا» ؟» .

أجاب الرّابي يهُوداه : «دعني أقصّ عليك هذه الحكاية[1] : كان للملك بستان تين فاخر ، وكان لديه مفضّلاً أثيراً . فلئلاّ تتعرّض ثماره للسّرقة أو الأذيّة ، عيّن على البستان حارسين اثنين ، ولكن ليدرأ احتمال ألا تميل نفساهما إلى الأكل من ثمار البستان ، اختار الواحد منهما أعمى والآخر أعرج . ولكن إذ أضحيا في البستان ، قال الأعرج لصاحبه : «إنّي لأرى تيناً فائق الجودة ، وكم هو لذيذ وشهيّ ، احملني إلى الشجرة حتى نتمكّن كلانا من الأكل منه» .

«فقام الأعمى بحمل الأعرج ، وأكلا من التّين .

«ولمّا دخل الملك البستان لاحظ على الفور أن خير ثمار التّين قد اختفت ، فسأل الحارسين عمّا جرى بها . فأجاب الأعمى : «لستُ أدري . وليس في إمكاني سرقتها ، فأنا أعمى ولا أستطيع رؤيتها» . وأجاب الأعرج : «ولا أنا بإمكاني سرقتها ، فلستُ أستطيع أن أطول الشّجرة» .

«غير أن الملك كان حكيماً ، فأجاب : «بل قام الأعمى بحمل الأعرج» ، وعمد إلى معاقبتهما وفقاً لذلك .

«فهذا هو شأنُنا . ما الدّنيا إلا بُستان أحلّنا فيه الملك الأزليّ ، لكي نتولّى حراسته ونقوم عليه ، ونفلح تُرابه ونعتني بثماره . أما الرّوح والجسد فما هما إلا الإنسان ، إن انتهك أحدهما الوصايا انتهكها الآخر ، ولذا فبعد الموت ما ينبغي للرّوح أن تقول : «إنه بسبب الجسد الذي كنتُ لازمةً به ارتكبتُ المعاصي» ، لا فالله سيفعل كما فعل صاحب البستان ، كما هو مكتوب : «يدعو من السّموات من فوق ، إلى الأرض إلى مُداينة شعبه»[2] .

---

(1) نرى في قصص تراثنا الإسلامي تشابهاً ، كما في كتاب «التوّابين» لابن قُدامة لمقدسي .
(2) مزمور لآساف ، سفر المزامير – 50 : 4 .

«يدعو من «السّموات من فوق» ، التي هي الرّوح ، «إلى الأرض تحت» ، التي هي الجسد ، الممتزج بالتُّراب الذي منه أتى» .

* * *

قال رجلٌ وثنيّ للرّابي يهُوشُوَع : «أتؤمن بأن الله يعرف الغيب ؟» .

أجاب الرّابي : «نعم» .

قال السّائل : «إذاً لماذا هو مكتوب : «فقال الرَّبّ : «أمحو عن وجه الأرض كلّ ما خلقتُه ، لأنّي حزنتُ أني عملتُهم» ؟ (سفر التكوين 6 : 7) ، ألم يعرف الرّب مُسبقاً بأن الإنسان سيفسد ويعمل الشرّ ؟» .

فقال الرّابي يهُوشُوَع : «ألديكَ أولاد ؟» .

فكان جواب الرّجل : «نعم» .

«فماذا كنتَ تفعل عندما يُولَد لك طفل ؟» .

«كنتُ أعمل حفلاً عظيماً» .

«فما الذي كان يدفعُك إلى الابتهاج ؟ ألا تعلم بأنهم مائتون يوماً ؟» .

«بلى ، هذا حقّ ، لكنني في ساعة الابتهاج لا أفكّر في المستقبل» .

قال الرّابي يهُوشُوَع : «فهذا هو إذاً شأن الله ، فهو يعلم بأن الإنسان سوف يُخطئ ، لكن علمه هذا لم يحُل دون تنفيذ غرضه الطيّب في خَلقه إيّاه» .

* * *

قال أحد الأباطرة للرّابون جَمْليئيل :

«ما إلهُك إلا لصّ ، كما هو مكتوب : «فأوقع الرّبّ الإله سُباتاً على آدم فنام ، فأخذ واحدةً من أضلاعه»[1]» .

فقالت ابنةُ الرّابي : «دَعني أجيب على هذا الطّعن الباطل . في الليل دخل اللّصوص غرفتي فسرقوا منها آنيةً فضيّة ، لكنهم تركوا بدلها آنيةً ذهبيّة» .

---

(1) سفر التكوين – 2 : 21 .

فقال الإمبراطور : «ليت مثل هؤلاء اللّصوص يأتون كلّ ليلة» .

فهذا كان شأن آدام ، أخذ الله منه ضلعاً ، لكنّه ترك بدله امرأة .

* * *

قال الرّابي يهُوشُوَع من سكْنين ، نقلاً عن الرّابي ليڤي : «أخذ الرّبّ يفكّر من أيّ جزء من جسم الرّجل يخلق المرأة : ليس من الرأس ، لئلاّ تكون مغرورة . ولا من العينين ، لئلاّ ترغب برؤية كل شيء . ولا من الفم ، لئلاّ تكون ثرثارة . ولا من الأذن ، لئلاّ ترغب بسماع كل شيء . ولا من القلب ، لئلاّ تغلب عليها صفة الحسد . ولا من اليد ، لئلاّ ترغب باستكشاف كل شيء . ولا من القدم ، لئلاّ تكون جوّالة لا يقرّ لها قرار . وإنما من أكثر مكان احتجاباً ، وهو الذي يبقى مستوراً حتى وإن كان الرّجل عارياً . . ألا وهو الضّلع» .

* * *

في إحدى المرّات ، سأل تلاميذ الرّابي شمعون بن يُوحاي معلّمهم :

«لماذا لم يهب الرّبّ بني يسرَئيل ما يكفي من المَنّا ، لتقوم بأوَدهم حَولاً كاملاً مرّة واحدة ، بدلاً من إنزاله يومياً ؟» .

فأجاب الرّابي : «سأجيبكم بحكاية : كان هناك في بعض الأيام ملك وله ابن كان يعطيه مصروفاً سنوياً معيّناً ، وكان يدفع المبلغ بأكمله لنفقاته السّنوية في يوم محدّد . وسرعان ما أصبح الأمر على نحو أن هذا اليوم الذي ينبغي فيه دفع المبلغ كان اليوم الوحيد الذي يرى الأب فيه ابنه . فلذا قام الملك بتغيير ترتيباته ، وصار يعطي ابنه في كل يوم ما يقوم بشأنه لذلك اليوم حصراً ، ولذا صار الابن يزور أباه عند طلوع شمس كل صباح .

«فهذا كان شأن بني يسرَئيل ، وكان كلّ ربّ عائلة معتمداً على المَنّا التي ينالها في كل يوم من فضل الله ، لقُوته وقُوت عياله ، وهذا ما جعل بطبيعة الحال تفكيره مكرّساً للوهّاب العظيم وسَنَد الحياة» .

* * *

عندما كان الرّابي إليعيزَر مريضاً عادَه تلاميذه ، وقالوا : «أيها الرّابي ، علّمنا طريق الحياة كي نرث الخُلود» .

فأجاب الرّابي : «كرّموا أقرانكم . واعرفوا لمَن تصلّون . امنعوا أبناءكم من المجادلات العَبَثيّة ، واجعلوهم بين المتعلّمين لكي يحصّلوا الحكمة . فهذا لكي تستحقّوا الحياة في العالم الآخر» .

ولمّا كان الرّابي يُوحَنان مريضاً زاره تلاميذه أيضاً . فلمّا رآهم طفق يبكي ، فقالوا له متعجّبين : «يا رابينُو[1] ! يا نُور يسرَئيل ! يا عِمادنا الأكبر ! ما الذي يُبكيك ؟» .

فأجاب الرّابي : «لو كنتُ مُقبلاً على المُثول بين يدي مَلك من لحم ودَم ، يعيش اليوم وغداً يُمسي إلى رَمْسه ؛ مَن قد يسخط عليّ ، ولكن ليس إلى الأبد ؛ مَن يسجنني ، ولكن ليس للأبد ؛ مَن قد يقتلني ، ولكن في هذه الدّنيا فحسب ؛ مَن قد أرشيه أحياناً ، حتى وإن خفت منه ؛ كان ذلك كلّه ليهون . ولكنّني أمثل الآن بين يدي ملك الملوك ، القُدّوس الأكبر ، تبارك اسمه ، الذي يبقى إلى أبد الدّهر . الذي إن غضب ، كان غضبه أبديّاً ؛ وإن سجنني ، فللأبد ؛ وإن أمر بقتلي ، ففي الحياة الآخرة ؛ وليس بوسعي رشوته لا بالكلام ولا المال . ليس هذا فحسب ، بل أمامي طريقان ، أحدهما يُفضي إلى حَوْمَة العَذاب ، والآخر إلى الثّواب ، ولستُ أدري على أيّهما أسير . أفلا أبكي إذاً ؟» .

* * *

سأل تلاميذ الرّابي يُوحَنان بن زكّاي معلّمهم هذا السّؤال :

«ما السّبب في أنه ، بحسب الشّريعة ، تكون عقوبة قاطع الطّريق أخفّ وَطأة من عُقوبة السّارق النّقّاب ؟ فحسب شريعة مُوشيه : «إذا سرق إنسانٌ ثوراً أو حَمَلاً فذبحه أو باعه ، يُعوّض عن الثّور بخمسة ثيران ، وعن الحَمَل بأربعة من الغَنَم» (سفر الخروج 21 : 37) .

---

(1) الصيغة في العبرية : רבינו ، وتعني : سيّدنا .

أما عن قاطع الطريق فنجد : «فإذا أخطأ وأقرّ بذنبه ، يردُّ المسلوب الذي سَلَبه ، يُعوِّضه برأسه ويزيد عليه خُمْسَه»[1] . ولذلك ، فمَن يرتكب عمل سَلب يُغرّم بخُمس قيمة المسلوب ، بينما يُغرَّم السّارق النّقّاب عن الثّور بخمسة ثيران ، وعن الحَمَل[2] بأربعة من الغَنَم . فلماذا يكون ذلك ؟» .

فأجاب المعلّم : «ذلك بأن قاطع الطريق السّلاّب يعامل العبد كمعاملة السّيّد ، فهو يقوم بالسّلب بحضور العبد ، أي الإنسان المسلوب ، والسيّد ، أي الله . أمّا السّارق المتسلّل النّقّاب فيتصور أن عين الله غافلة عنه ، فيقوم بأفعاله خفيةً ، وهو يحسب كما يقول صاحب المزامير : «ويقولون : الرّبّ لا يُبصر ، وإله يعقوب لا يُلاحظ» (المزامير 94 : 7) . اسمعوا هذه الحكاية : «عمل رجلان وليمة احتفال ، فبادر الواحد منهما إلى دعوة سكان المدينة بأجمعهم ، وأهمل دعوة الملك . أما الآخر فلم يدعُ لا الملك ولا رعيّته . فمَن تُراه منهما يستحقّ الإدانة ؟ لا ريب أنه الذي دعا الرّعيّة دون الملك . وطالما كان أهل الأرض رعيّة الله ، فإن السّارق المتسلّل يخشى عيونهم ، ولكنه لا يأبه لعين الملك ، أي عين الله المطّلعة على أفعاله كلّها» .

قال الرّابي مئير : «إن هذه الشّريعة تعلّمنا كيف يقدّر الله قيمة العمل . فإن سرق إنسان ثوراً يعوَّض عنه بخمسة ثيران ، لأنه عندما كان الثّور في حوزته بغير وجه حقّ لم يكن يؤدّي عملاً لصاحبه الشّرعي . وأما الحَمَل فلا عَمَل له ، ولا إنتاج له على هذا النّحو ، ولذلك فهو يعوَّض عنه بأربعة فقط» .

* * *

تعشّى الرّابي نَحمان مع معلّمه الرّابي يصحاق ، ولمّا قام بعد الأكل قال : «باركني يا معلّمي !» . فأجاب الرّابي يصحاق : «اسمع . كان مُسافرٌ يجتاز بالصّحراء يوماً ، فلمّا أخذ منه التّعب والجُوع والعطش كلّ مأخذ ، بلغ واحة بها شجرة مُثمرة وارفة الأغصان ، يجري تحتها نبع ماء صافٍ رقراق .

(1) سفر اللّاويين - 6 : 4 .
(2) ترد العبارة في التّرجمة العربية : الشّاة ، وهو غلط ، فالعبارة العبرية שה تعني الحَمَل .

«فأكل الغريب من الفاكهة اللّذيذة الطيّبة ، واستمتع وتقيّل في الظلّ الماتع ، وروى ظمأه من الماء الفوّار الذي كان ينبجس رقراقاً تحت قدميه . ولمّا تأهّب لمتابعة رحلته ، توجّه إلى الشّجرة وقال لها :

« «أيتها الشّجرة المُباركة ، بأيّة كلمات أباركك ، وأيّ خير أتمنّاه لك ؟ لا أقدر أن أتمنّى لك طيب الثّمار ، فهي لك بالأصل وعلى كلّ حال ؛ وكذلك فبركة وفرة الماء صائرةٌ إليك سَلَفاً ، والظلّ الماتع الذي تمنحه الأغصان الجميلة قد وهبه الله الأزلي لك من قبل ، من أجلي أنا ومن أجل كلّ مسافر على هذا الدّرب . فذَرِيني إذا أدعو الله لك ، بأن يكون كلّ خَلَف لك طيّباً مُباركاً مثلك» .

«فهكذا هو شأنك يا تلميذي . كيف تراني أباركك ؟ فأنت ممتازٌ في معرفة الشّريعة ، ووجيهٌ في الأرض ، ومُبجّلٌ ومُبارك في معاشك . فليهبك الله أن تكون ذُرّيتك كلّها صالحةً على مثالك» .

* * *

كان جِبْعاه بن پسِيْساه رجلاً حكيماً ، كما يقول الحاخامون . فلمّا قاضى أبناء كنعان اليسرَئيليّين بدعوى سرقة أرضهم ، قائلين : «أرض كنعان لنا ، كما هو مكتوب : «أرض كنعان . . أرض كنعان بتُخومها» (عدد 34 : 2) ، وطالبوا بردّها ، تصدّى جِبْعاه لمُرافعة القضيّة أمام الحاكم .

فقال جِبْعاه لهؤلاء الأفارقة : «إن كنتم تأتون ببُرهانكم من أسفار التُّوراه ، فمن التُّوراه أيضاً أدحضه لكم . ففيها : «ملعونٌ كنعان ، عبدُ العبيد يكون لإخوته» (سفر التكوين 9 : 25) . فأملاك العبد تعود في هذه الحالة لمن ؟ لسيّده طبعاً . حتى وإن كان مُلك الأرض أصلاً لكم ، فمن خلال العبوديّة آلَ إلى بني يسرَئيل .

قال الحاكم : «دُونَكم فردّوا عليه» .

فطلب المُدَّعون ثلاثة أيام لإعداد ردّهم ، ولكنهم في ختام الأيام الثلاثة تواروا عن الأنظار .

ثم تقدّم المصريّون قائلين : « «وأعطى الربُّ نعمةً للشّعب (اليسرَئيليين) في عيون المصريين ، حتى أعاروهم فضّةً وذهباً»[1] . فالآن هلُمّوا أعيدوا لنا الذّهب والفضّة التي أعارها لكم أجدادنا» .

ومجدّداً تقدّم جِبْعاه بالنّيابة عن حاخامي يسرَئيل ، فقال : «أقام بنو يسرَئيل في مصر أربع مئة وثلاثين سنة ، فهلمّوا الآن ، ادفعوا لنا أجور الستّ مئة ألف رجل الذين عملوا لكم مجاناً ، فنردّ لكم الذّهب والفضّة» .

ثم تقدّم بنو يشْمَعيل وقِطُوْراه أمام الإسكندر المَقدوني ، فقالوا : «بل أرض كنعان لنا ، كما هو مكتوب : «فهؤلاء هم نسلُ يشْمَعْيل بن أبرَهام» ، تماماً كما هو مكتوب : «فهؤلاء هم نسلُ يصحاق بن أبرَهام» . ولمّا كان الابن يعدل الابن الآخر ، فهلُمَّ أعطنا نصيبنا» .

فقام جِبْعاه ثانيةً نائباً عن الحاخاميم ، وقال : «من التُّوراه التي تأخذون منها بُرهانكم أردّ دعواكم . أليس مكتوباً : «وأعطى أبرَهامُ يصحاقَ كلّ ما له ، وأمّا بَنو السَّراري اللّواتي كانت لأبرَهام فأعطاهم أبرَهام عَطايا»[2] . فالرّجل الذي يعطي لأبنائه ميراثهم خلال فترة حياته ، لا يقصد من خلال ذلك أن يعطيهم إيّاه ثانيةً بعد موته . فليصحاق أعطى أبرَهام كلّ ما يملك ، ولأبنائه الآخرين سواه أعطى عطايا ، ثم صرفهم .

يقول الحاخامون : «كان الملك مُنماص من سلالة الملوك الحشمونيين رجلاً صالحاً حقاً . وهب للفقراء خلال فترة من فترات المجاعة كلّ ما في خزانته وخزانة أبيه ، فلامه أقرباؤه وانتقدوه قائلين : «كلّ ما جمعه أبوك ضيّعتَه وبدّدتَه» .

فأجاب مُنماص : «أبي كوّم هذه الكنوز هنا على الأرض ، أمّا أنا فأجمعها فوق في السّموات . و«ثَمَر الصِّدّيق شجرة حياة ، ورابحُ النُّفوس حكيم»[3] . فأبي اختزنها حيث يمكن أن تصل إليها أيدي النّاس ، أما أنا فقد جعلتُها حيث لا

(1) سفر الخروج – 13 : 26 .
(2) سفر التكوين – 25 : 5 .
(3) سفر الأمثال – 11 : 30 .

تبلغها يدُ بشر . وإذ جاء في الكتاب : «العدلُ والحقّ قاعدة كُرسيك»[1] . فلأبي لم يُثمر هذا الكنز أيّة ثمار ، لكنه أثمر لي وأكثر أضعافاً مُضاعفة . «قولوا للصّدّيق خيرٌ ، لأنهم يأكلون ثمرَ أفعالهم»[2] . لقد ادّخر أبي مالاً ، وادّخرتُ أنا حياة . «ثَمَرُ الصّدّيق شجرة حياة ، ورابحُ النّفوس حكيم»[3] . أبي ادّخر لغيره ، وأنا ادّخرتُ لنفسي ؛ وكان ادّخاره لهذه الحياة الدّنيا ، بينما ادّخرتُ للآخرة . «ويسيرُ بِرُّك أمامك ، ومجدُ الرّبّ يجمعُ ساقَتَكَ»[4]» .

* * *

(1) من قصيدة لإيثان الأزراحي في سفر المزامير - 89 : 14 .
(2) سفر يشَعْياه - 3 : 10 .
(3) سفر الأمثال - 11 : 30 .
(4) سفر يشَعْياه - 58 : 8 .

القسم الرابع

من أمثال الحاخامات وأقوالهم
ونماذج من أساطير التلمود

ويلٌ للأبناء المحرومين من مائدة أبيهم .
حفنةٌ من الطعام لا تقوم بأوَد أسد ، وتراب الحفرة لا يكفي لملئها .
ادعُ الله لنيل رحمته ، حتى يُهال الكوم الأخير من التُّراب على قبرك .
لا تكفَّ عن الصّلاة حتى وإن جرت السّكين في مجرى نحرك .
لا تفتح فاكَ بكلمة سوء .
طولُ الأناة خيرٌ من وَفرة المال .
الحصان الذي يُعلَف بالشّعير على هواه يضحي حَروناً .
طُوبى للتّلميذ الذي على مقاله يُثني مُعلّمه .
من ساعة كون الخيار غضاً يمكن الحكم على صلاحيّته لاحقاً للأكل .
لا تفعل بالآخرين ما تكره أن يفعله بك الآخرون .
يتشكّى الجحش من البرد حتى في تمّوز .
تعلّم أولاً ثم فلتعلّم الآخرين .
قلّةٌ من النّاس مَن يُبصرون عيوب نفوسهم .
الضوء الفرد ينير لمئة رجل كما ينير لرجل واحد .
الطعام الذي يطبخه عدّة طبّاخين لا يكون حاراً ولا بارداً[1] .
ما الحياة الدّنيا إلا عُرس .
الصّبا طاقةٌ من الزّهر .

---

(1) وفي المثل العبري السّائر : כשהטבחים מרבים נקדח התבשיל : «إذا كثُر الطبّاخون شاطَ الطعام» .

شُجيرة الآس تبقى حتى في الصّحراء شُجيرة آس .
روِّض لسانك على مقولة : «لستُ أدري» .
الدّار الذي لا يستقبل المسكين يستقبل الطبيب .
حتى الطيور في سمائها تزدري البخيل .
قرى الضّيف من علائم عبادة الرّبّ .
لصديقك صديق ، ولصديق صديقك صديق ، فكُن كتوماً .
لا تستجرنَّ على نفسك المثالب والعيوب .
دَع عنك غشيان المزادات إن لم يكن لديك مال .
سلخ الذّبائح بأجر في قارعة الطريق خيرٌ لك من التّراخي والاستجداء .
أكثر من التّعاطي مع ذوي الحظّ والفَلاح .
المُقَدَّر في قسمة جارك لا يكون أبداً لك .
هزالة جدران دارك تُغري اللّص بسرقتك .
المكان لا يُشرّف الإنسان ، بل الإنسان يُشرّف المكان .
حتى أدنى الرّجال شأناً يكون في بيته حاكماً .
إذا أضحى الثّعلب ملكاً فانْحَنِ له .
إن كانت الكلمة في موضعها بدرهم ، فالسّكوت في موضعه بدرهمين .
طُوبياه يقترف الذّنوب وجاره يتلقّى الصّفع .
قد يلوح للفَقر بهاءٌ على بعض النّاس ، كسرج أحمر على فرس بيضاء .
لا تستهلك ماء بئرك كلّه إن كان للنّاس فيه حاجة .
الطبيب الذي يصف الدّواء مجاناً لا قيمة لوصفته .
الوردةُ منبِتُها بين الأشواك .
الخمر خمر صاحب الدّار ، أمّا الثّناء فمن نصيب السّاقي .
مَن يشوب الأشياء يضحي مَشوباً ، ومَن طابَت أعلاقُه زاد نُبلُه .
لن تجد رجلاً ضيّق الصّبر بدائنيه .
حسبُك أن تبيع مرّةً ليعدّك النّاسُ تاجراً .
لا تتغالى بتعداد مثالبِ جارك ، إن كان مثلُها فيك .
إن لم تجد ضالّتك في مَكان ما ، فأَوْلى لك طلبُها في مكان آخر .

مَن يقرأ الرّسالة عليه أن ينفّذ ما جاء فيها .
الإناء المستخدم لغايات نبيلة لا يجوز تدنيسه في أغراض وضيعة .
أصلح شأن زينتك أولاً ثم فلتعتنِ بمظهر الآخرين .
درهمان في كيس يُجلجلان أكثر مَن مئة .
المرء يرى الذَّرّة في عين جاره ، لكنه لا يرى في عينه هو عموداً .
تنافُس العُلماء مَدعاةٌ لترقّي العلوم .
إن أفضيتَ بسرّك إلى ثلاثة ، دري به عشرة .
إبّان المودّة كان لوحُ مقعد يكفينا ، فالآن تضيق بنا ساحةٌ ذَرعُها ستّون ؟
إذا ركبت الخمرةُ مَتن الرّأس تطايرت منه أسرارُ النّفس .
إذا تكلّم كاذبٌ بصدق ، فجزاؤه عدم تصديق النّاس له .
تمنّى الجملُ قروناً ، فإذا به يفقد أذنيه .
واحَسرةً على مَن ينطفئ ذكرُه فلا يعود له ظهور .
الموظّف عند ملك يناله من التّشريف حظّ .
لا يمكن لدارس مزاولة التّجارة ، ولا لتاجر تكريس وقته للدّرس .
لا فائدة لك تُرجى من إشعال مصباحك في غَمرة ضوء الهاجرة .
ذَرِ الثّمرة من تلقاء نفسها تدعو بالخير للأوراق .
اللّحم بلا ملح لا يصلح إلا للكلاب .
لا تأخذنّك الثّقة بذاتك حتى يحين يوم مماتك .
ويلُ لبلد فقد رئيسه ، وويلٌ لمركب لم يبقَ له ربّان .
من يُكثِّر أكداس اللّحم في جسده فطعاماً للدّود يدّخرها .
اليوم قصير ، والعمل اللازم كثير ، والعامل كسول .
كُن لرؤسائك مُطعاً ، وبالصّغار رفيقاً ، ومع النّاس أجمع وَدوداً .
الصّمت سياجٌ للحكمة .
من دون الشّريعة تنعدم الحضارة .
لكلّ امرئ يومُه لا مَحالَة .
كُن ذيلاً بين الأُسود ولا تكُن رأساً بين الثّعالب[1] .

---

(1) وثمّة مَثَل في التّلمود يناقضه : كُن رأساً بين الثّعالب ولا تكُن ذيلاً بين الأسود .

البئر الذي منه شُربُك لا يجدر بك أن تُلقي فيه الحجارة .
كثيراً ما يُفصَّل جلدُ الفِلو سَرجاً ليوضع على ظهر أمّه .
وَطأة الحقيقة ثقيلة ، لذا قد قَلّ من يحملُها .
أقلِل من القول وأكثِر من الفعل .
مَن يُكثِر من الكلام يزداد وُلوغه في المعاصي .
ضَحِّ بمصلحتك في سبيل سواك ، تجدهم يضحّون بمصالحهم في سبيلك .
الشّريعة ادرسها اليوم ، ولا تؤخّرها لغد أبداً .
لا تتّخذ صَلاتَك عبئاً ثقيلاً ، بل لتكُن ابتهالاتُك صادقة من القلب .
مَن أحبّ الخَلق أحبّه الخالق .
كَرِّم أبناء المساكين ، فبهم يُشرق للعلم بهاؤه .
لا تتّخذ لنفسك جاراً يجمع بين الصّلاح والجهل .
الفلس الصّغير في الجرّة الكبيرة مصدرٌ لقَرقعة عظيمة .
استخدم إناءك الثّمين اليوم ، فلعله ينكسر غداً .
القطّ والجرذ يتصالحان على جيفة .
مَن جالَ في أرضه كلّ يوم عثر على قطعة نقد يومياً .
الكلب يتبعك من أجل الفُتات الذي في جيبك .
الجُند يقاسون ويلات الحروب ، أما المجد فمن نصيب الملوك .
عندما يسقط الثّور يكثُر جزّاروه .
انزل عند اختيار الزّوجة خُطوةً ، وخُطوةً اصعد عند اختيار الصّديق .
اضرب الآلهة يرتعد الكَهَنة .
الشّمس من تلقاء ذاتها تغيب ، بغير معونتك .
لا تؤاخذنّ إنساناً باللّغوِ في كلامه إبّان بلواه .
بعض النّاس يأكل وترى سواه يحمد الله .
الكاظمون الغَيظَ أهلٌ لمغفرة الذّنوب .
مَن يرتكب المعصية مرّتين لا يراها عُقب ذلك معصية .
يوم تحابينا كنّا ننام على حدّ سيف ، فالآن تضيق بنا أريكةٌ عرضها ستّون ؟
دراسة الشّريعة أعلى شأناً من التّضحية .

حلّ بيروشَلايْم الخراب من جَرّاء إهمال تعليم النَّشئ .
هذه الحياة يُنجيها الله بكرامة أنفاس أطفال المدارس .
حتى من أجل إقامة الهيكل لا يجوز إقفال المدارس .
طُوبى للابن الذي تفقّه على أبيه ، ومُباركٌ الأب الذي يفقّه ابنه .
تجنّب الغضب تنأ عن المعاصي ، ولا تتمادَ تنأ عن غضب الرّبّ .
عندما يُقبل الآخرون أعرِضْ وتولّ ، وعندما يفترقون فلتُقبِل .
إذا كنتَ الشاري الوحيد فاشترِ ، فإن حضر الشّارون فأمسِك .
السَّفيه لا تؤثّر فيه الشّتيمة ، كما لا يؤثّر حدّ السكّين في جسد الميت .

الدّيك والبومة يلبثان سهرانَين بانتظار الضّياء ، فيتعجّب الدّيـك : «الضّـوء يُبهجني ، ولكن ليتَ شعري ماذا تُراكِ تنتظرين ؟» .

السّارق الذي لا يتسنّى له سرقة شيء يدّعي في نفسه الشّرف[1] .

قال رجل جَليليّ : «إذا حلّ سخط الرّاعي على قطيعه ، عيّن عليه كَرّازاً[2] أعمى» .

حتى إن لم يكن لِزاماً عليك إكمال العمل ، فلا تكُفّنَّ عن متابعته . فإن كان العمل عظيماً تكون المكافأة عظيمة ، ولوفّى سيّدك بدفعاته .

ثمّة تيجانٌ ثلاثة : تاج الشّريعة ، وتاج الكهانة ، وتاج الملكيّة . ولكن ما يفوقها جميعاً هو تاج السُّمعة الطيّبة .

مَن تُراه يحوز الحكمة ؟ مَن كان راغباً بتلقّي العلم أنّى كانت مَظانُّه . ومَن هو القويّ ؟ مَن يكظم انفعاله . ومَن هو الغني ؟ مَن رضي بنصيبه . ومَن هو المستحقّ للتّكريم ؟ مَن كان يكرّم النّاس على اختلاف درجاتهم .

لا تُحقّرنّ شأن أحد ولا تحكُمنّ على شيء بالاستحالة ، فلكلّ امرئٍ يومُه ولكل شيء موضعُه .

---

(1) الأنكى من ذلك كثيرٌ من أهل الصّدارة في عصرنا : يسرقون كل شيء ثم يتنازعون ألقاب الشّرف ، وبينهم وبين الشّرف آلاف من الأميال .
(2) الكَرّاز كَبش كبير يُجعل في عنقه جرس مُجلجل ، يتبعه القطيع في سيره للمرعى .

الحديد يكسر الحجر ، والنّار تصهر الحديد ، والماء يُخمد النّار ، والغيوم تبتلع الماء ، والعاصفة تبدّد الغيوم ، والإنسان يصمُد للعاصفة ، والخوف يقهر قلب الإنسان ، والخمر يمنع الخوف ، والنّوم يغلب الخمر ، والموت سيّدٌ للنّوم . «أمّا البِرّ» - كما يقول شلومو - «فيُنجي من الموت»[1] .

كيف يتسنّى لك النّجاة من رِبقة المعاصي ؟ ضع نُصب عينيك ثلاثة أشياء : من أين أتيتَ ، وإلى أين تمضي ، وأمام مَن ينبغي لك أن تمثُل . أمّا المُستهزئون ، والكذّابون ، والمُنافقون ، والمُفتَرون ، فلا نصيب لهم في نعيم الحياة الآخرة . وجُرم القذف وتشويه سُمعة النّاس لا يقلّ عن القتل .

تُبْ ولو قبل موتك بيوم[2] .

أُنزلت على هذه الدّنيا عشرة أجزاء من الحكمة ، فنالت شريعة بني يسرَئيل تسعة أجزاء ، ونالت بقيّة الدّنيا جُزءاً واحداً . وأُنزلت على الدّنيا عشرة أجزاء من البهاء ، فنالت يروشَلايِم منها تسعة أجزاء[3] ، وبقيّة الدّنيا جُزءاً .

قال الرّابي شمعون : «تقوم هذه الدّنيا على عُمُدٍ ثلاثة : الشّريعة ، والعبادة ، والإحسان» .

وقال الرّابي آدا : «إن تعوّد رجلٌ على حضور الجماعة في الكنيس بانتظام ، وتخلّف عن الحضور لسبب قاهر ، فإن الله يفتقده ويسأل عنه» .

وقال الرّابي شمعون بن يهُوشُوَع : «أيّ مَن بنى مكاناً للعبادة تواضع له أعداؤه» .

وقال الرّابي لَكيش : «مَن كان قادراً على حضور الصّلاة في الكنيس ولم يفعل ، فأيٌّ جار سَوء هو» .

---

(1) سفر الأمثال - 10 : 2 .
(2) حاشية على النّص : سُئل الرّابي الذي قال : «تُب ولو قبل موتك بيوم» من قِبَل تلاميذه عن كيف يمكنهم تنفيذ نصيحته ، طالما أن الإنسان يجهل متى يكون يوم موته . فقال : «عدّ كلّ يوم يأتيك آخر أيّامك ، وتزوّد على الدّوام بالتّوبة وفعل الخير» .
(3) ما برح قُدسنا الشريف مدينةً مقدّسة لدى الجميع ، ولكن ليتَ شعري متى نراها ؟

قال الرّابي يُوسيه : «ينبغي للمرء ألا يرتقي للصّلاة عالياً ، لأنـه مكتـوب : «من الأعماق صرختُ إليك يـا ربّ» » (المزامير 130 : 1) . والرّابي ذاته يحظـر الحركة أو الكلام في أثناء تأديـة الصّلاة ، وذلـك عمـلاً بتوجيه شـلومو : «احفـظ قَدَمَك حين تذهـبُ إلـى بيـت الله ، فالاسـتماع أقـرب مـن تقديـم ذبيحـة الجُهّـال» (سفر الجامعة - 5 : 1) .

وقال الرّابي حيّا بـن أبّا : «الصّلاة بصـوت عـالٍ ليس أمراً مـن ضـرورات العبادة ، فالأهمّ عندما نُصلّي أن نتوجّه بقلوبنا إلى السّماء» .

عندما تحقّق لأجدادنا البُرء في الصّحراء عند نظرهم إلى الحيّـة النّحاسـية[1] ، لم يكن الأمر أن الحيّة هي التي كانت تُميت أو تُحيي ، بل كـانت التّوجّه الصّـادق إلى الآب في السّموات .

قـال الحاخامات : «احمـد الله في السّرّاء كمـا تحمـده في الضّرّاء» ، وكـانوا يـأتون علـى ذلـك بمثـال داود : «كـابدتُ ضيقـاً وحُزنـاً ، وبـاسـم الـرّبّ دعـوتُ» (المزامير 116 : 3-4) .

وقال الرّابي آشي : «فضيلة التّصدُّق تفوق كلّ ما عداها» .

قال الرّابي إليعزَر : «المُتصدّق في السّرّ أعظم من مُوشيْه» . يستجيز مقولته هذه من كلام مُوشيْه (التّنية 9 : 19) : «لأني فزعتُ مـن الغضـب» ، ومـن كـلام شلومو : (أمثال 21 : 14) بمثابة الجواب : «الهديّة في الخفاء تفثأ الغضب» .

وقال الرّابي يهُوشُوَع : «ذو الشّحّ خبيثٌ كعابد وثَن» .

وقال الرّابي إليعزَر : «الصّدَقة خيرٌ من التّضحية» .

وقـال الرّابي يُوحَنـان : «مَن يُعطي (صَدَقة) يمسي غنيّـاً» ، أو كمـا هـو مكتوب : «والصّدّيقون يُجْزَون خيراً»[2] .

---

(1) انظر سفر العدد - 21 : 9 : «فصنع مُوشِيْه حيّة من نُحاس ووضعهـا علـى الرّاية ، فكـان متى لدَغت حيّة إنساناً ونظر إلى حيّة النّحاس يحيا» .

(2) سفر الأمثال - 13 : 21 .

في أحد الأيام سأل بعض المَناطقة (الفلاسفة) الرّابي عَقيبا : «إذا كان إلهُـك يحبّ المساكين ، فعَلامَ لا يكفيهم ؟» .

أجاب عَقيبا : «إن الله يُبقي بيننا أهل الحاجـة والفقـر ، لئلاّ تضيـع الفرصـة للإحسان وعمل الخير» .

فردّ المنطقي : «ولكن كيف عرفتَ أن فضيلة التصدُّق هذه تُرضي الله ؟ فلو أن سيّداً عاقب عبيده بحرمانهم مـن الطعـام والكسـاء ، أكـان يرضيـه أن يطعمهـم غيره ويكسوهم ؟» .

قال الرّابي : «ولكن افترض بالمقابل أن أبناءً لأب حنون ، لم يعُد في وسـعه إعالتهم فـأضحوا مسـاكين ، أيزعجـه أن تحنّ لهـم بعـض النّفـوس الرّحيمـة فتمدّ إليهم يد العون ؟ نحن لسنا عبيـداً لسيّد قـاسٍ ، بـل الله يدعونـا أبنـاءه ، كمـا أننـا ندعوه – سُبحانه – أبانا» .

قال رَبّاه : «عندما يقف المرء أمـام عـرش الحسـاب الـذي يُقيمـه الله ، يُسأل هذه الأسئلة :

أصادقاً كنتَ في مُعاملاتك كلّها ؟
أخصّصتَ طَرَفاً من وقتك لدراسة الشّريعة ؟
أحافظتَ على الوصيّة الأولى (لا يكُن لك آلهةٌ أخرى أمامي) ؟
أكنتَ في ساعات المِحَن مُحافظاً على صلتك بالله وإيمانك به ؟
أكنتَ تتفوّه بلسان الحكمة ؟» .

* * *

«بركات البيت بأسرها مصدرها الزّوجة ، لذا فعلى زوجها تكريمها» .

قال الرّاب : «ينبغي للأزواج أن يحرصوا على عدم جعل نسـائهم يبكـين ، لأن الله يُحصي دموعهنّ» .

«في أحوال الصّدقة التي بها رجال ونساء ، تجب إعانة النّساء أولاً . فإن لم يكن ثمّة كفاية للطرفين ، وجب على الرّجال أن يتنازلوا لهنّ» .

«موت المرأة لا يشعر بوطأته أحد كما يشعر به زوجها» .

«تُذرَف الدّموع على مذبح الله على فِعل مَن ينبذ حُبّه الأول» .

«مَن أحبّ زوجته كنفسه ، وكرّمها أكثر من نفسه ، فهو يهذّب أبناءه على نحو حَسَن ، كما يكون موافياً للآية : «فتعلم أن خيمتك آمنة ، وتتعهّد مَرِيضك ولا تفقد شيئاً» » (أيوب 5 : 24) .

قال الرّابي يُوسيه : «أنا لا أنادي زوجتي «يا امرأتي» ، بل «يا بيتي» ، لأنها بالفعل أساس بيتي» .

«مَن كان لديه معرفة بالله ومعرفة بالإنسان ، مُحالٌ أن يزلّ ويُذنب» .
«أُنزلت علينا التُّوراه لإحلال السّلام في الأرض» .
«مَن ظلم النّاس ولو بأدنى من فِلس ، فهو خبيثٌ كقاتل النّفس» .
«مَن رفع يده في وجه مُحبّ له فهو مُقترفٌ للكبائر» .
«لا تُصادق مَن يشتمل بثوب وَلِيّ ليُخفي عيوب جهالاته» .

وقال الرّابي شمعون :

«مَن ترك لنفسه حريّة أهوائها كان مَثَله كعابد وَثَن» .
«فضيلة كرم الضّيافة لا تقلّ عن دراسة الشّريعة» .

وينصح الرّابي يهُوداه : «لا تترك نفسك أبداً أمام مزالق الغواية ، فحتى داوِد ذاته لم يقدر على مقاومتها» .

أمّا الرّابي تيرا فلمّا سأله تلاميذه أن يعلّمهم السرّ الذي كفل له عمراً مديداً وسعيداً ، أجاب : «لم أكُ أُمعن في الغضب مع بيت أهلي ، ولم أحسد أبداً مَن كان أعلى مني ، ولم أبتهج أبداً لسقوط أحد ما» .

«بئسَ مَن يُنكر على الشّجرة أغصانها ، وعلى الشّيء ظلّه» .
«أمسُكَ ماضيك ، ويَومُك مستقبلك ، وغدُك سرٌ في علم الغيب» .
«كفى بالقلب واعظاً ، وكفى بالزّمان مُعلّماً ، وكفى بالدّنيا كتاباً ، وكفى بالله خِلاًّ» .

«ما الدُّنيا إلا دَينٌ في رقبة الإنسان ، والموت دائنٌ مُطالبٌ بها يوماً» .

«اسعَ إلى فهم المرء من خلال فعاله ومقاله ، فآراء النّاس مُضلّة» .

وقال الرّابي يعقوب :

«مَن تسبّب في عُقوبة شخص آخر ظُلماً وبُهتاناً يمكث بظاهر باب الجنّة» .

وقال الرّابي يصحاق :

«خطايا صاحب المزاج الحادّ أكثر من مزاياه» .

وقال الرّابي لَكيش :

«الرّجلُ الخَطّاء جاهلٌ بقدر ما هو خبيث» .

وقال الرّابي صموئيل :

«أفعالُنا في هذه الدّنيا تتجسّد لنا وتشهد علينا في الآخرة» .

«تحمُّل الاتّهام الباطل في السِّرّ خيرٌ من الإفصاح بفعل امرئٍ مُذنب على رؤوس الأشهاد» .

«مَن كان له حَياء لا يُبادر إلى ظُلم» .

«ثمّةَ فارقٌ عظيمٌ بين مَن يحسّ بالعار والخجل أمام نفسه ، ومَن لا يحسّ بهما إلا أمام النّاس» .

وقال الرّابي عَقيبا :

يتضمّن عهدُ الله إلينا أمرَ العمل ، لأن الوصية القائلة : «ستّة أيام تعمل ، وأما اليوم السّابع ففيه تستريح»[1] ، تضع «الرّاحة» شرطاً على «العمل» .

وقال الرّابي شمعون في الموضوع ذاته :

«أوصى الله آدام أولاً بجنّة عِدن ليعملها ويحفظها (تكوين 2 : 15) ، ثم عقب ذلك سمح له بالأكل من نتاج عمله» .

---

(1) سفر الخروج – 23 : 12 .

قال الرّابي طَرفون טרפון :

«لم يُقم الله بين بني يسرَئيل حتى عملوا على استحقاق حضوره ، إذ أمر : «فيصنعون لي مَقْدِساً لأسكن في وسطهم» » (خروج 25 : 8) .

عندما كانت يروشَلايْم في أيدي الرّومان الوثنيين ، تقدّم أحد مَناطقتهم (أي الفلاسفة) فسأل الحاخامات :

«إذا كان إلهكم يمقُت عبادة الأوثان ، فما باله لا يحطّم الأوثان ويستأصل شأفتَها من الأساس ؟» .

فأجابه الحُكماء : «أتودّ أيضاً لو تُنسف الشّمس والقمر من أجل بعض الجُهّال الذين يعبدونهما ؟ إن تغيير مجرى الطبيعة لمعاقبة الخُطاة من شأنه أن يعود بالمعاناة على البريئين أيضاً» .

في سفر قُهِلت (الجامعة) 9 : 14-15 نجد هاتين الآيتين :

«مدينةٌ صغيرةٌ فيها أُناسٌ قليلون ، فجاء عليها ملكٌ عظيم ، وحاصرها وبنى عليها أبراجاً عظيمة . ووُجد فيها رجلٌ مسكينٌ حكيم ، فنجّى هو المدينة بحكمته» .

يفسّر الحكماء هاتين الآيتين بشكل جدّ جميل : فـ«المدينة الصّغيرة» ما هي إلا الإنسان ، و «الأُناسٌ القليلون» مختلف صفات النّفس . أما «الملك» الذي حاصرها فهو نوازع الشّرّ ، و «الأبراج العظيمة» التي بناها عليها هي «الآثام» . وأما «الرجلٌ المسكينٌ الحكيم» فما هو إلا «أعمال الخير» التي يمكن لأدنى مسكين أن يأتيها .

قال الرّابي يهُوداه :

«مَن يُحجم عن تعليم إحدى الوصايا لتلميذه فهو مُدانٌ بجُرم السّرقة ، تماماً كمن يسرق من ميراث أبيه ، كما هو مكتوب : «بنامُوسٍ أوصانا مُوشيْه ميراثاً لجماعة يعقوب» (سفر التثنية 33 : 4) . ولكن إن هو علّمه ، فماذا يكون له من الثّواب ؟» .

قال رابا : «ينالُ بركة يُوسيف» .

قال الرّابي إليعزَر :

«البيت الذي لا تُدرس فيه الشّريعة بالليل مآلُه إلى الخراب» .
«الغني الذي لا يُعين طالباً راغباً في دراسة شريعة الله لا يُصيبُ ثروة» .
«مَن دلّس كلامه ، فقال غير ما يفعل ، مَثَله مثل عابد الأوثان» .

قال الرّابي حاما بن بابا :

«مَن أكل وشرب دون أن يُبارك اسم الربّ ، هو كمن يسرق ، هذا لأن «السّموات سمواتٌ للرّب ، أمّا الأرض فأعطاها لبني آدام»[1]» .

قال الرّابي شمعون بن لكيش :

مَن يُطبّق وصيّةً إلهيّة في هذه الدّنيا يجدها مسجّلة في أعماله بالآخرة ، كما هو مكتوب : «ويسيرُ بِرُّك أمامك ، ومجدُ الرّبّ يجمعُ ساقَتَكَ»[2] . والأمر ذاته يكون بالعكس لمن يُذنب . لأن في الكتاب المقدّس : «فاحفظ الوصايا والفرائض والأحكام التي أنا أوصيكَ اليوم لتعملها»[3] ، فعليك أن تعملها - أي الوصايا - اليوم ، برغم أن الثّواب عليها ليس موعوداً اليوم وإنما في المستقبل ، فإن عملتَ الوصايا فهي تشهد لك ، إذ أن «بِرُّك يسيرُ أمامَك» » .

ويُطلق الحاخامات لقب أبرار الله على مَن يُؤذَون فلا يفكّرون في الانتقام ، ومَن يسلكون في محبّة الله ، ومَن يحافظون على طلاقة وجوههم في أوقات الشّدائد والصّعاب . وعن مثل هؤلاء كتب يشَعْياه في سِفره : كـ«الشّمس نوراً في النّهار»[4] השמש לאור יומם .

* * *

(1) سفر المزامير - 115 : 16 .
(2) سفر يشَعْياه - 58 : 8 .
(3) سفر تثنية الاشتراع - 7 : 11 .
(4) سفر يشَعْياه - 60 : 19 .

أحبّ زوجتك كنفسك ، وكرّمها أكثر من نفسك . فمَن عاش بلا زواج تكون حياتُه بلا بهجة . وإذا كانت زوجتُك صغيرة القَدّ ، فانثنِ إليها واهمس في أذنها . ومَن يشهد موت زوجته فكأنما يشهد في الواقع خراب الهيكل ذاته . وإن أولاد الرّجل الذي يتزوّج حبّاً في المال يُضحون لعنةً عليه .

مَن كان علمُه يفوق عَمَلَه فهو أشبه بشجرة كثيفة الأغصان واهية الجُذور ، فأول عاصفة قوية تأتيها تُطيح بها أرضاً . أما مَن كانت أعماله تفوق معرفته فهو كشجرة يسيرة الأغصان ولكن قويّة الجُذور ضاربة في الأرض ، شجرة لا تقدر على اقتلاعها رياح السّماء كلّها .

رُبَّ لعنة تندّ عن صالحٍ خيرٌ من مُباركة تصدر عن خبيث . فكانت مثلاً لعنة أخيّا الشّيلوني خيراً من مُباركة بِلعام بن بِعُور[1] . فهكذا لعَن أخيّا اليسرَئيليّين : «ويضرب الرّبّ يسرَئيل كاهتزاز القَصَب في الماء» (سفر الملوك الأول 14 : 15) . فالقصب ينثني ولا ينكسر ، إذ أنه ينمو في الماء وجذوره صلبة . أما بِلعام فكانت مُباركته ليسرَئيل هكذا : «كأرْزات على مياه»[2] כארזים עלי־מים ، لكن بما أن شجر الأرز لا ينمو على المياه فجذوره هكذا تكون واهية ، وإذا هبّت عليه ريحٌ قويّة تكسّر بِدَداً .



(1) راجع ما تقدّم من ذكره أعلاه في الفصل السّادس من القسم الأول ، وكان من حُكماء فرعوه إبّان ولادة مُوشيه (موسى ﷺ) ، فتنبّأ ضدّه وألّب فرعوه عليه ، وكان مصيره في النهاية القتل : «أما بِلعام بن بِعور فقتلوه بالسّيف» (سفر العدد – 31 : 8) .
(2) سفر العدد – 24 : 6 .

الجزيرة المهجورة

يُحكى أن رجلاً غنياً ، كان طيّب النّفس مجبولاً على الإحسان ، رغب بإسعاد عبده ، فوهبه حريّته وأعطاه فوقها حِمل سفينة من البضائع . وقال الرّجل للعبد : «اذهبْ فأبحرْ في البلاد ، وبعْ هذه البضائع ، فكلّ ما تحصّله منها خُذْه لنفسك حلالاً طيباً مُباركاً لك فيه» .

فمضى العبد مُبحراً في عُرض المحيط ، ولكنه لم يكد يتوغّل في سفره حتّى هبّت عليه أنواءٌ عظيمة ، فجنحت به السّفينة إلى الصّخر وتحطمت أشلاءً ، فضاع كل ما عليها من مَتاع ، ما خلا العبد نفسه ، فسبح إلى شاطئ جزيرة كانت على مقرُبة . فراح الرّجل ، تحت وطأة الحُزن والقُنوط وفراغ اليد من حُطام الدّنيا ، يجول في الجزيرة ، إلى أن أشرف على مدينة رائعة فسيحة ، فخفّ إليه حشدٌ من النّاس مُبتهجين وراحوا به يهتفون : «على الرَّحب والسّعة ! حَلَلتَ أهلاً ونزلتَ سهلاً ! عاش الملك !» . وجاؤوا بعربة فخمة ، فوضعوه بها ورافقوه إلى قصر فخم ، حيث حَفّ به الكثير من العبيد ، وألبسوه حُللاً ملكيّة ، وراحوا يخاطبونه بشعار المُلك ، ويُعربون عن انصياعهم التّام لرغباته كلّها .

عقدت الدّهشة لسان العبد وأخذه العجب كلّ مأخذ ، وخُيِّل له أن كلّ ما رآه وسمع به وشهده كان مَحض حُلم عابر . فلمّا أيقن بحقيقة الأمر وبواقعيّة ما يجري أمامه ، قال لبعض الرّجال حوله ممّن آنس فيهم مودّةً وقُرباً :

«ما الأمر بالضّبط ؟ لستُ بفاهمٍ شيئاً . ما لكُم تُسوّدون وتشرّفون رجلاً لا تعرفونه ، جوّالاً عاري البدن لم تروه في حياتكم قَطّ ، فتجعلونه عليكم حاكماً وملكاً ؟ إن هذا لممّا يُدهشني إلى درجة العجز عن التّعبير» .

فأجابوا : «إن هذه الجزيرة ياسيّدي يقطنُها الجان ، وطالما كانوا يتضرّعون إلى الله أن يُرسل إليهم في كل سنة واحداً من أبناء البشر ليتولّى عليهم . فكان أن استجاب الله لدعائهم ، وجعل يُرسل إليهم في كلّ عام أُنسياً ، فكانوا يتلقّونه بالاحترام والتّشريف وينصّبونه على عرش مدينتهم . غير أن شرط هذا التكريم والسّلطة أنه يزول مع انقضاء الحَوْل . إذ عند اختتام سنة تؤخذ منه حُلله الملكيّة ،

ويُطرح على متن سفينة فيُحمل إلى جزيرة واسعة ومهجورة ، حيث يتعيّن عليه ، إن هو لم يهيّئ لنفسه أموره بحكمة ، أن يعيش بمفرده حياةً بائسة تعيسة ، بلا رفيق أو أنيس . ثم يُنصّبُ ملكٌ جديد ، وهكذا تكرّ السّنون دواليك . هذا وإن الملوك الذين سبقوك كانوا غير آبهين أو مكترثين للأمر ، فكانوا ينغمسون في ملاذّ سُلطتهم ويتقلّبون في نَعمائها ما حلا لهم أن يفعلوا ، ولا يتفكّرون في اليوم الذي تزول فيه من أيديهم . لذا فكُن أنت حكيماً ، وانظر ما تفعل» .

فكان أن استمع الملك الجديد بانتباه إلى مقالهم أجمع ، وندم حتى على الوقت الذي ضيّعه قبل ذلك دون أن يهيّئ لنفسه مرفقاً ، من قبل أن يزول عنه سُلطانه .

فخاطب الحُكماء الذين تكلّموا ، قائلاً : «أشيروا علي يا ذوي الحكمة ، كيف لي أن أهيّئ من أمري لأيامي القادمة في مُستقبلي ؟» .

فأجاب أحدهم : «كما جئتَنا عارياً ، فعارياً تُغادرنا إلى الجزيرة المهجورة التي أنبأتُك عنها ، أمّا الآن فأنت الملك وبمقدورك أن تفعل ما يحلو لك ، لذا فأرسل عُمّالاً إلى هذه الجزيرة ، ومُرهُم ببناء الدُّور وفلاحة الأرض وبتجميل المكان . فتتحوّل التّربة الجرداء إلى حقول خصيبة ، ويرتحل النّاس إليها للعيش ، فتجد لنفسك مملكةً جديدة ورعيّة يتلقّونك بالابتهاج والتّكريم عندما يزول من هنا سُلطانك . إنّ السنّة قصيرة ، والعمل كثير ، لذا فشُدّ العزم وكُن نشيطاً» .

فاتّبع الملك مشورته ، وأرسل الفَعَلة والمواد اللازمة إلى الجزيرة النائية ، التي ما لبثت قبل انقضاء مُدّة سُلطانه المؤقّت أن أضحت مكاناً زاهراً وماتعاً بكل ما تشتهي النّفس . كان الملوك الذين سبقوه يتوجّسون ويتحسّبون ليوم انقضاء سُلطانهم بالجَزَع ، أو يتجنّبون التّفكير به ، فأما هو فكان يتطلّع إلى ذلك اليوم كيوم فرح وابتهاج ، يدخل فيه حياةً مديدة من الرَّغَد والأمان .

فلمّا جاء اليوم الموعود ، جُرِّد العبد العَتيق الذي أضحى ملكاً من سُلطانه ، وزال عنه مع سُلطانه هذا لباسُه الملكي ، وطُرح عارياً على متن سفينة ، ووُجهت أشرعتها صوب الجزيرة المهجورة .

غير أن الرّجل عندما أشرف على ساحلها ، إذا بالنّاس الذين أرسلهم إليها يأتون لاستقباله بالعَزف والتّهاليل والفرحة العارمة . ونصّبوه عليهم أميراً ، فعاش بينهم مُقيماً بالرّضا والحُبور ما شاء له أن يُقيم .

فالرّجل الغني المُحسن ما هو إلا الله ، والعبد الذي أعتقه ما هو إلا الرّوح التي يعطيها الله للإنسان . أما الجزيرة التي أتاها العبد فهي الحياة الدّنيا ، يأتيها الإنسان عارياً وباكياً أمام أهله ، يُكنّى عنهم بسكّان الجزيرة الذين يستقبلونه بكلّ حفاوة ويجعلونه ملكاً بينهم . أما الأصحاب الذين يخبرونه عن أمور البلدة فما هم إلا «نوازع فطرته الطيّبة» . وسَنَة سُلطانه هي دور حياته ، وأما الجزيرة الثّانية فهي العالم الآخر ، الذي ينبغي له أن يجمّله بأعمال الخير ، أي بـ «الفَعَلة والموادّ اللازمة» ، وإلاّ عاش وحيداً طريداً إلى أبد الدّهر .

* * *

الإمبراطور والعجوز

يُحكى أن الإمبراطور هادريانوس عندما كان مجتازاً ببعض شوارع طبريّة أبصر رجلاً عجوزاً طاعناً في السّنّ يغرس شجرة تين ، فتوقّف وقال للرّجل : «لمَ تغرس هذه الشّجرة ؟ لو عملتَ شاباً لأضحت لك في شيخوختك ذخيرةٌ تتعيّش منها ، أما الآن فلا ريب أنك غيرُ مُدركٍ ثمار هذه الشّجرة» .

فأجاب العجوز : «في شبابي عملتُ ، وما زلتُ إلى الآن أعمل . وبإذن الله آكلُ من ثمر هذه الشّجرة التي أغرسُها . فبيده هو مصيري» .

قال الإمبراطور : «قُل لي كم عُمرك» .

«غبرتُ في هذه الدّنيا مئة عام» .

«لك من العمر مئة عام ، ولا تزال تأمل الأكل من هذه الشّجرة ؟» .

أجاب العجوز : «إذا كانت هذه إرادة الله ، وإلا تركتُها لابني ، كما ترك لي أبي ثمار عمله من قبل» .

قال الإمبراطور : «طيّب ، إن أنتَ عشتَ بالفعل حتى تحمل هذه الشّجرة وتُثمر ، فأرجو منك أن تُعلمني بهذا» .

ويُحكى أن العجوز امتدّ به العمر حتى حملت الشّجرة وأثمرت ، فتذكّر كلام الإمبراطور وقرّر زيارته ، فأخذ بيده سلّة[1] صغيرة ، وملأها بأطيب ثمار تلك التّينة ، ومضى لطيّته . فلمّا وصل وأطلع حرّاس القصر[2] على مسألته ، سُمح له بالمثول بين يدي الملك .

قال الإمبراطور : «أُدْنُ أيّها الشيخ ، ما هو مطلبُك ؟» .

فأجاب العجوز : «ما أنا يا مولاي إلاّ العجوز الذي قُلتَ له يوماً : «إن عشتَ حتى تحمل هذه الشّجرة وتُثمر ، فأعلمني بهذا» . فها أنا ذا أتيتُ وجلبتُ لك بعضاً من ثمارها ، لتأكل منها أيضاً» .

فسُرّ الإمبراطور غاية السّرور ، فأمر بإفراغ سلّة الرّجل من تينها ، وأمر بملئها له حتى أعلاها بالقطع الذّهبيّة .

فلمّا مضى العجوز ، قال بعض أفراد البطانة للإمبراطور : «لماذا أكرمتَ هذا اليهودي العجوز إلى حدّ بالغ ؟» .

أجاب الإمبراطور : «إن كان الله أكرمه ، أفلا أُكرمه أنا ؟» .

ويُحكى أنه كانت بجوار هذا العجوز تعيش امرأة ، فلمّا نمي إليها خبر سَعد جارها رغبت إلى زوجها بأن يجرّب حظّه في السّياق ذاته . فملأت له سلّة عظيمة بالتّين ، وطلبت إليه حملها على كتفه وقالت : «هيّا ، احملها إلى الإمبراطور ، فهو يحبّ التّين وسيملأ لك سلّتك بالقطع الذّهبيّة» .

فلمّا بلغ الزّوج أبواب القصر ، أطلع الحرّاس على شأنه قائلاً : «قد جلبتُ للإمبراطور تيناً كما ترون ، فأرجوكم أفرغوا سلّتي واملأوها بالذّهب» .

---

(1) العبارة في العبرية : סל سَل ، تتقارض مع العربيّة ، وإن كان بصيغة المذكّر .
(2) هل ترك الإمبراطور هادريانوس روما ليقيم هنا ؟ هذه حكاية أسطورية نعم ، لكن الطامّة أن كثيراً من التّراث الدّيني تتم صياغته وقولبته هكذا ليصير مُقدّساً !

فلمّا وصل الخبر إلى الإمبراطور ، أمر بالعجوز أن يقف أن يقف في رواق القصر ، وأن يقذفه كلّ مَن مَرّ بثمار تينه . فعاد إلى بيته طافحاً بالكدمات مكسور الخاطر ، ليلاقي زوجته الخائبة الرّجاء .

فقالت : «لا تهتمّ ، ولك ثمّة عزاءٌ يرضيك ، فلو كان ما تحمل ثمار جوز الهند عوضاً عن التّين ، لكنتَ نلتَ من اللّطم أضعافاً» .

* * *

بَيِّنةٌ على ملكيّة

يُحكى أن أحد أبناء يروشَلايْم كان مُسافراً ، فأصابه المرض في نُزُل على الطريق . وإذ أحسّ الرّجل أن نهايته قد دنَت ، دعا بصاحب النُّزُل وقال له : «إنني لا مَحالةَ مُلاقٍ حتفي ، فإن أتى بعد موتي أيّ أحد ليطالب بتركتي ، فلا تسلّمه شيئاً حتى يُبدي لك ثلاث علامات حكمة تدلّ على أنه بها جدير ، هذا لأنني أوصيتُ ابني قبل خروجي مُسافراً ، بأنّه إن حلّ بي الموت فعليه أن يُبدي علائم للحكمة قبل أن يرث ممتلكاتي» .

ومات الرّجل ، فدُفن حسب الشّعائر اليهوديّة ، وتمّ إعلان موته على الملأ كيما يحضر ورثته . فلمّا دري ابنه بوفاته انطلق من يروشَلايْم إلى حيث مات ، وقرب أبواب المدينة لقي رجلاً معه حمل حَطَب للبيع ، فاشترى هذا الحمل وطلب تسليمه في النُّزُل الذي كان متوجّهاً إليه . فقام الرّجل الذي ابتاع منه بقصد النُّزُل على الفور ، وقال : «ها هو ذا الحطب» .

أجاب صاحب النُّزُل : «أيّ حَطَب ؟ ما طلبتُ حطباً» .

أجاب الحطّاب : «بل طلبه الرّجل الذي يأتي الآن خلفي ، سوف أدخل وأنتظره» .

على ذلك ، أمّن الابن لنفسه مَن يتلقّاه بالتّرحاب عندما يصل النُّزُل ، فكانت تلك أولى علائم حكمته .

قال له صاحب المكان : «مَن أنت ؟» .

فأجاب : «ابن الرّجل الذي توفّي في نُزُلك» .

فأعدّوا له عشاءً ، ووضعوا على المائدة خمس حمامات ودجاجة . وقعد معه إلى المائدة كلٌّ من صاحب المكان وزوجته وابنيه وابنتيه .

قال الرّجل للضّيف : «فلتقسِم الطعام» .

قال الشّاب : «أنتَ السيّد هنا ، وهذا حقٌّ لك وليس لي» .

فقال الرّجل : «أرغبُ إليك أن تفعل ، فأنت ضيفي ابن التّاجر ، هيّا . . أرجوك أن تقسم علينا الطعام» .

فلمّا رأى الشّاب منه إلحاحاً ، قدّم حمامة للابنين ، وأخرى للبنتين ، وقدّم الثالثة للرّجل وزوجته ، وأبقى لنفسه الحمامتين الباقيتين . فكانت هذه العلامة الثانية على حكمته .

فبدا صاحب النُّزُل مُتمعضاً بعض الشيء من هذه الطريقة في التّقسيم ، ولكنه لم يفتح فاهُ بكلمة .

ثم قام ابن التّاجر باقتسام الدّجاجة ، فأعطى للرّجل وزوجته الرأس ، وللابنين الفخذين ، وللبنتين الجناحين ، وأبقى لنفسه بَدَن الدّجاجة[1] . فكانت تلك العلامة الثالثة على حكمته .

---

(1) يرد أمثال هذه القصّة في مجاميع الأدب العربي المؤلّفة في عهود الإسلام الأولى ، مثل : «زهر الآداب» للحُصري القيرواني ، و«العَقد الفريد» لابن عبد ربّه الأندلسي ، و«المُستطرَف» للأبشيهي . فهذا دليل على أن مصدر المرويات كان من التّراث القائم في المشرق قبل أن تشيع الكتابة بالعربية ، كقصص التّلمود والمدراش (النّاقلة عن الهند وفارس) ، والقصص الديني السّرياني . ولا ريب أن للتّراثين الأدبي والدّيني تمازجاً أكيداً .
نقول : ليس هذا عيباً ، فلا يسوء بأية لغة الاقتباس والتأثّر ، إنما الخطير ظهور طبقة من الباحثين ، كالألمانيين أبرَهام گايگر وتيودور نولدكه والمجري إگناتس گولدتسيهر ، وبأيامنا جوزيف قزّي (أبو موسى الحريري) وكريستوف لوكَسنبرغ (اسم مُستعار) ، راحوا يرمون النّصّ القرآني ذاته بتهمة الانتحال والنّقل . فلاقى ذلك أصداءً ، مع فشل لدينا في الرّدّ ، لنُدرة مَن يجيد علوم الفيلولوجيا والنّقد النّصّي وفقه اللّغات السّامية !

فقال الرّجل : «أهكذا تكون القسمة في بلدكم ؟ رأيتُك وأنت تقسم بيننا الحَمَامات ، فلم أتكلّم . أما دجاجتي يا سيّدي العزيز ، فلا بُدّ لي أن أسألك عن تعبير أمرها» .

فأجاب الشّاب قائلاً :

«سبق أن قلتُ لك إن القسمة ليست من شأني ، لكنك عندما أصررتَ فعلتُ ما بوسعي ، ولعلّي أصبتُ في قسمتي هذه . فأنت وزوجتك وحمامةٌ فهذه ثلاثة ، وابناك وحمامةٌ فهذه ثلاثة ، وابنتاك وحمامةٌ فهذه ثلاثة ، وأنا وحمامتان فهذه أيضاً ثلاثة ، فلعمري أنها لَقسمةٌ حَقّ . أما بخصوص الدّجاجة ، فأعطيتُك وزوجتك الرأس ، لأنكما رأسان في البيت . وأعطيتُ كلاً من ابنيك فخذاً ، لأنهما عمودا البيت ، وبغيرهما لا يدوم اسم العائلة . أما ابنتاك فأعطيتُ كلّ واحدة منهما جناحاً ، لأنهما بطبيعة الحال سوف تتزوّجان ، فيصير لهما أجنحة ويطيران من عُشّ الأسرة . وأمّا بَدَن الدّجاجة فأخذتُه لنفسي لأنه يُشبه شكل السّفينة ، طالما أنني جئت إلى هنا بسفينة وآمل الرّجوع بسفينة . وإنّي لابنُ التّاجر الذي توفّي في بيتك ، فهاتِ أعطني ملكيّة أبي المتوفى» .

قال صاحب البيت : «دُونَك هي حلالاً لك ، فامضِ راشداً» . فاستلم الشّاب تركة أبيه ومضى سالماً غانماً .

* * *

ردُّ دَين

يُحكى أن رجلاً من أبناء أتينا[1] (مدينة قرب يروشَلايْم) زار يروشَلايْم ، وبعد أن غادرها راح يُزري بها وبأهلها . فاغتاظ اليروشَلْميّون أيّما غيظ إذ صاروا عُرضةً لسخريته ، فحثّوا أحد أبناء مدينتهم على السّفر إلى أتينا ، ليُغري الرّجل بالعودة إلى يروشَلايْم ، فيتسنّى لهم أن يُفحموه ويردّوا على إهاناته .

---

(1) كذا بالأصل ، ولعلّ المقصود «تِمنات» (باللاتينية Thamna) بين القُدس ونابلس .

فقام اليروشَلْمي قاصداً أتينا ، وسرعان ما التقى بالرّجل الذي يريد . فلمّا كانا في بعض الأيام يتمشّيان في الطرقات ، قال اليروشَلْمي : «مهلاً ، قد انقطع سَير حذائي ، فأرجوك خُذني إلى الإسكاف» .

فأصلح الإسكاف سَير حذائه ، وإذا بالرّجل يدفع له قطعة نقد تفوق ثمن الحذاء ذاته .

في اليوم التالي ، لّما كان الرّجل يتمشّى مع صاحبه تعمّد قطع سَير الفردة الثانية من الحذاء ، فلمّا قصدا الإسكاف من جديد ابتدره بالمبلغ الوافي ذاته على إصلاحه .

قال الأتيني : «مَهْ ، لا بُدّ أن الأحذية غالية الثمن للغاية في يروشَلايْم[1] ، ما دمتَ تدفع هذا المبلغ الكبير لإصلاح مجرّد سَير !» .

أجاب الآخر : «نعم ، فهي تساوي تسع دوكات ، وحتى في أيام الرُّخص لا يقلّ ثمنها عن سبع أو ثمان» .

«ما دام الأمر كذلك فلا ريب أنها تجارة مُجزية لي بأن أورّد أحذية من مدينتي وأبيعها في مدينتك» .

«نعم وأيمُ الحقّ ، ولكن لعلّك تُنبئني بمجيئك أوّلاً كيما أرتّب لك أمر التعرّف إلى الزّبائن» .

وهكذا ، قام الرّجل الذي هزئ باليروشَلْميين بابتياع بضاعة كبيرة من الأحذية ويمّم وجهه شطر يروشَلايْم ، بعد أن أرسل إلى صاحبه يُنبئه بقدومه . فخرج هذا الأخير إلى استقباله ، فلقيه قبل وصوله إلى أبواب المدينة ، وابتدره قائلاً :

«يقتضي العُرف في يروشَلايْم أن أيّ غريب يدخلها بغرض الاتّجار ، عليه أن يحلق رأسه ويُسخّم وجهه . فهل أنت جاهز لمثل ذلك ؟» .

---

(1) أشرنا في المقدمة أننا ننهج عند الترجمة مبدأ إيراد جميع المفردات والمصطلحات والأسماء بمنطوقها الوارد في نصّها . أما اسم المدينة لدينا فهو : القُدس الشريف .

أجاب الآخر : «ولـمَ لا ؟ طالما أنني أتوخّى أرباحاً جزيلة ، فما الذي يمنعني أو يؤخّرني عن أمر بسيط كهذا ؟» .

وهكذا ، بادر الرّجل إلى حلق رأسه وتسخيم وجهه (بما جعل يروشَلايْم كلّها تُدرك بأنه هو مَن ازدرى المدينة وأهلها) ، ومكث في السّوق وبضاعته أمامه مُزجاة .

فراح الشّارون يمرّون به ويسألون : «بكم الأحذية ؟» .

فيجيبهم : «بعشر دُوكات ، أو ربما بعتُ بتسع ، ولكن ليس أبداً أقلّ من ثمان» .

فكان ذلك يُثير موجات من الضّحك والقهقهة والصّخب في السّوق ، ثم طردوا الرّجل منه تحت صيحات السّخرية ، ورموا بأحذيته في أعقابه .

فطلب الرّجل اليروشَلمي الذي غرّر به ، وقال له : «ما حَمَلَك على أن تفعل بي ذلك ؟ أرأيتَني أهنتُك في أتينا ؟» .

أجاب اليروشَلمي : «فليكُن هذا لك درساً ، ولا أظنّك تُعاود الهُزء بنا بعد الآن أبداً» .

* * *

ابن عرس والبئر

يُحكى أن شاباً صادف أثناء ارتحاله في البلاد فتاةً صبيّة ، فما لبثا أن وقعا في الهوى . فلمّا توجّب على الفتى مُبارحة المنطقة التي تُقيم فيها الفتاة ، التقى العاشقان ليقولا كلمة الوداع . فعندذاك تبادلا العهد بالوفاء ، ووعد أحدهما الآخر بأن يمكث بانتظار حبيبه إلى أن تسمح لهما الأقدار بالزّواج . وقال الفتى : «فمَن يشهد على خطوبتنا هذه ؟» . فإذا بهما يبصران ابن عِرس يمرّ أمامهما ويختفي في الأجمة . فأردف الفتى : «أترين ؟ ابن عِرس هذا مع البئر الذي نقف عنده يشهدان على خطوبتنا» . ثم تفارقا .

وكرّت السّنون ، فظلّت الفتاة وفيّةً على العهد ، أما الفتى فتزوّج . وبعد مدّة وُلد له ابن ، وراح يكبر تحت أنظار والديه المسرورين . وفي بعض الأيام كان الصبيّ يلعب فناله التّعب ، فاستلقى على الأرض ونام ، فعضّه ابن عِرس في رقبته فنزف حتى مات . وكابد قلبا الأبوين من جرّاء هذه الفاجعة غاية الحزن والمشقّة ، ولم يستكن بالهما حتى رُزقا بطفل آخر . ولكن لمّا صار بإمكان هذا الابن الثاني المشي بمُفرده راح يتجوّل خارج البيت ، وإذ انحنى أمام البئر ليتفرّج على صورته في الماء فقد توازنه وانقلب في البئر وغرق .

عندها ، تذكّر الأب عهده الذي حَنِث به ، وتذكّر شاهديه : ابن عِرس والبئر . فأخبر زوجته بالقصّة ، فوافقت على الطّلاق . ثم مضى طالباً الفتاة التي وعدها بالزّواج ، فوجدها ما زالت قائمة على عهدها تنتظر رجوعه . وروى لها كيف أنّه من خلال إرادة الله قد عُوقب على ما جناه من ذنب ، وبعد ذلك تزوّجا وعاشا بسعادة ووئام .

* * *

الوريث الشّرعي

يُحكى أن يسرَئيلياً حكيماً ، يقطن على مرحلة من يروشَلايْم ، أوفد ابنه إلى المدينة المقدّسة لمتابعة دراسته . فخلال غياب الابن حلّ المرض بالأب ، ولمّا أحسّ بدنوّ أجَله كتب وصيّته ، تاركاً كل ما يملك لواحد من عبيده ، بشرط أن يسمح لابنه أن يختار أيّ غرض فرديّ يُعجبه من الإرث .

فحالما توفي الأب قام العبد مُبتهجاً بحظّه الفائق ، وهَرَعَ إلى يروشَلايْم فأخبر ابن سيّده الرّاحل بما جرى ، وأطلعه على الوصيّة .

فصُعق الابن وتألّم للخبر ، وبعد مُضيّ المدّة المعيّنة للحداد راح يتفكّر مليّاً في أمره . فمضى إلى معلّمه ، وشرح له مُلابسات الأمر ، وقرأ عليه وصيّة أبيه ، وجعل يندب إليه حظّه بضياع ما كان يؤمّله من أمر إرثه ، متعجّباً من أنه لم يأت ذنباً يُغضب أباه ، وراح يتمادى في امتعاضه على هذا الجَور .

قال المعلّـم : «حسبُكَ فاصمُت ، مـا كـان أبوك إلا امرءاً حكيمـاً ووالـداً عطوفاً . وما هذه الوصيّة إلا شاهداً حيّاً على حُسن فهمه وبُعد رؤياه . فلعلّ ابنه يكون بمثل حكمته يوماً» .

تعجّب الفتى قائلاً : «ماذا ؟ لستُ أرى أيّة حكمـة في وَهـب ملكيّتـه أجمـع لعبد من عبيده ، ولا أيّ محبّة في تجاهله هذا لابنه الوحيد» .

أجاب المعلّم : «اسمع ، من خلال هذا الفعل بـالذّات عمـد أبـوك إلـى أمـر واحد فحسب ، ألا وهو تأمين تسليم إرثك إليك دون سواك ، إذا كنـتَ بمـا يكفـي من الحكمة لتستفيد من ذكائه . فلا بدّ أنّه قال لنفسه عندما أحسّ بيد الموت تقترب منه : «ابني الآن بعيد ، وعندما أمـوت سـوف لـن يكـون حـاضراً ليتولّـى شـأن مـا أملك ، ولا ريب أن عبيـدي سيُسـارعون إلـى انتهـاب أملاكـي ، وحتـى أنهـم قـد يُخفوا عن ابني خبر موتي ليكسبوا مزيداً من الوقت ، ويحرمونني من طعم العـزاء والسُّلوان بحضور ابني» .

«فليدرأ هذا كلّه ، أوصى بمُلكه إلى عبده ، موقنـاً بـأن هـذا الأخير إذ يظـنّ بحقّه السّافر في الأمر سيخفّ إلـى إبلاغـك علـى وجـه الأمـر ويُحـافظ علـى الممتلكات ، كما رأيته فَعَلَ بالضّبط» .

«طيّب . . طيّب ، وفيمَ تُراه ينفعني هذا كلّه الآن ؟» . بادر التّلميـذ النّـافذ الصّبر مُقاطعاً .

أجاب المعلّـم : «آهـا . . أرى أن الحكمـة لا تسـكن عقـول الشّـباب ! أمـا علمتَ أن ما يملكه أيّ عبد إنما هو مُلكٌ خالصٌ لسيّده ؟ أولم يترك لك أبوك حريّة اختيار الشيء الذي ترضاه من تركته كلّها حلالاً طيّباً لك ؟ فمـا عليـك إلا اختيـار العبد بمثابة حصّتك المُرتضاة ، فيكون امتلاكك لـه ضمانـاً لاسـترجاع كـل مـا كـان لأبيك . فهذا هو مقصده الحكيم والرّؤوف» .

ففعل الفتى بنصيحة المعلّم ، وأطلق بعدها للعبد حريّته . ولكنه منـذ ذلـك اليوم طفق يردّد : «الحكمة حكرٌ على الشّيوخ ، والفهـم لا يـأتي إلا بطـول الأيـام ومُكابدة الحياة» .

لا شيء في الدّنيا بغير نفع

يُحكى أن داوِد ملك يسرَئيل كان في بعض الأيـام مُضطجعاً على أريكتـه ، يتفكّر ويتـأمّل في العديـد مـن شـؤون هـذه الحيـاة . فقـال في نفسـه : «ما هـو نفـع العنكبوت في هذه الحياة ؟ لا أرى لها شأناً سوى تكويم الغُبار والأقذار في الدّنيـا ، فتشوّه كلّ مكان ويتأتّى عنها كلّ إزعاج» .

ثم قعد يتفكّر بالمجنون ، فقال في نفسه : «كم هو تعس منكود الحظ ! أفهـم أن جميع الأشياء تُرتّب بأمر الله بنظام وتوفيق تـامّين ، أمـا هـذا فيخـرج عـن نطـاق مداركي ، إذ كيف يولد بعض النّاس حَمقى أو يُصابون بالجنون ؟» .

ثمّ أخذ البعوض يزعجه ، فراح الملك يتساءل : «وما هو نفع هذا البعـوض أيضاً ؟ ما هو مُوجب خلقه في هذه الدّنيا ؟ إنـه لا يـؤدّي إلاّ إلـى إقـلاق راحتنـا ، وليس للدّنيا من وجوده أيّ فائدة» .

غير أن الملك داوِد عاش بعدُ ليُدرك أن هذه الحشرات بالذّات ، وأن الحكمـة من ترتيب الحياة ، وأن الكائنات ذاتها التي راح يستنكر وجودها ، إنما تمّ تسخيرها لمنفعته الشخصية بالذّات .

فلمّا هرب داوِد من وجه شاؤول ، ألقى إخوة جُليات القبض عليه في أرض الفِلسطينيين ، فأخذوه إلى ملك جَت גת ، فلم يتسنَّ له الإفلات من حَومة المـوت إلاّ بادّعاء الجنون ، فأقرّ الملك بأن رجلاً كهذا لا يمكن أن يكون الملـك داوِد ، كمـا هو مكتوب : «فغيّر عقله في أعينهم ، وتظاهر بالجنون بين أيديهـم ، وأخـذ يُخربـش على مصاريع الباب ، ويسيل ريقُه على لحيته» (صموئيل الأول 21 : 13) .

وفي واقعة أخرى ، اختبأ داوِد في مغارة عِدلاّم מערת עדלם[1] ، فكان أن عنكبوتاً أتت إثر دخوله تنسج على باب المغارة خيوطها . فمرّ مُلاحقوه المطـالبون بدمه بذاك المكان ، فتجاوزوا عنه على اعتبار أنه لا يمكـن لأحـد أن يلـج مغـارةً قـد نسجت عليها العنكبوت ، من غير أن يهتِك خيوطها .

---

(1) راجع حول هذه الواقعة سفر صموئيل الأول - 22 : 1 ، لكن رواية العنكبوت ليس فيه ، بل هي تُراث شفهي الأصل من أجَداء التّلمود والمدراش .

وكذلك كان البعوض في خدمة داوِد عندما دخل معسكر شاؤول ، لكي يحصل على أسلحة هذا الأخير . فلمّا كان يتسلّل أمام أبنير النّائم ، تحرّك هذا وإذا به يضع ساقه على جسد داوِد . فلو أنه تحرّك كان أوقظ أبنير ولاقى حتفه ، وإن بقي على وضعه ذاك لطلع عليه الصّباح وكان القتل نصيبه ، فلم يدرِ ما يفعل وإذا ببعوضة تحطّ على ساق أبنير ، فهزّها بسرعة ونجا داوِد .

ولذلك أنشد داوِد يقول : «جميع عظامي تقول : يا ربّ مَن مِثلُك»[1] .

* * *

عاقبة الإيمان

كان اليسرَئيليّون أُمروا بزيارة يروشَلايْم في ثلاثة أعياد . فحدث في إحدى الأيّام أن الماء شحّ في المدينة ، فمضى واحد من النّاس يلتمس من بعض الأعيان الذي كان له ثلاثة آبار بأن يسمح لهم بالاستقاء من مائها ، واعداً بإعادة ملئها في موعد معيّن ، ومتعهّداً في حال عدم توفّر الماء بدفع مبلغ كبير من الفضّة برسم التّعويض . فلمّا حلّ الموعد المعيّن ، كانت الدّنيا مُمحلة ولم ينزل المطر ، وكانت الآبار الثلاثة خالية من الماء . ففي الصّباح أرسل صاحب الآبار يطلب المال الموعود . فأجاب نَقديمون بن جُوريون ، وهو الرّجل الذي تولّى هذا الواجب من أجل صالح النّاس : «النّهار ما زال في أوّله ، وثمّة وقت بعد» .

فدخل الهيكل وراح يتضرّع إلى الله بأن يُرسل المطر ، ويُبقي له ماله الذي غامر بفقده بأكمله . واستُجيب لدُعائه بالفعل ، فتجمّعت السُّحُب وهطل المطر مدراراً . وفيما كان خارجاً من الهيكل بقلب مُفعم بالرّضا ، إذا به يقابل دائنه الذي ابتدره قائلاً :

«صحيح ، لقد ملأ المطر آباري ، ولكن ها قد حلّ الظلام ومضى النّهار ، وحسب اتفاقنا يبقى لزاماً عليك أن تدفع لي المبلغ الموعود» .

---

(1) سفر المزامير – 35 : 10 .

فدعا نَقديمون مرّة أخرى ، وإذا بالسّحب تنجلي ، فبانت الشمس المائلة نحو المغيب وألقت بأشعّتها الذهبية على المكان الذي كان يقف فيه الرّجلان ، فدلّت على أن نور النّهار لمّا ينقضي بعد ، ولو أن السُّحُب الماطرة كانت لبعض الوقت أظلمت ألقَه .

* * *

ابتينوس وجَرْماه

كانت عائلة تُعرف بآل أبتينوس ، يجيد أفرادها صناعة البخور المُستخدم في الصّلاة . وكانوا يضنّون بتعليم أيّ إنسان معرفتهم ، فخشي قيّمو الهيكل أن تبيد هذه الصّنعة عند موت هؤلاء ، فصرفوهم من الخدمة ، وأتوا بناس آخرين من الإسكندريّة في مصر بُغية تحضير اللُّبان المعطّر . غير أن هؤلاء لم ينالوا رضا النّاس ممّا اضطرّ القوّامين إلى إعادة الخدمة لأيدي آل أبتينوس ، الذين من جهتهم رفضوا قبولها مجدّداً ، ما لم تُضاعف لهم مكافأة خدماتهم .

فلمّا سُئلوا عن سبب إصرارهم على رفض تعليم فنونهم للآخرين ، أجابوا بأنهم يخشون إن هم علّموا بعض النّاس غير المُستأهلين ، أن يبادر هؤلاء فيما بعد إلى استخدام معرفتهم في عبادة وثنيّة . وكان أفراد هذه العائلة حريصين غاية الحرص على عدم التطيّب بأيّ من نوع من الطّيوب ، لئلا يقر في ذهن النّاس بأنهم يستخدمون الأطياب العطرية المُستخدمة في صناعة البخور لأغراض دنيئة .

وثمّة مثال شبيه بذلك فيما يتعلّق بآل جَرْماه ، الذين كانوا يحتكرون معرفة صنع خُبز التّقدمة المُستخدم في صلوات الهيكل .

وحول هذين المثالين كان قول ابن عَزّاي : «باسمك ينادونك ، وفي مدينتك يُسكنونك ، ومن مالك يُعطونك» ، بمعنى أن الثّقات ينبغي لهم ألا يخشوا غَصب الآخرين حرفتهم . وعبارة «فباسمك ينادونك» ، كما جرى مع آل أبتينوس وجَرْماه ، «ومن مالك يعطونك» ، تعني أن ما يكسبه المرء يكون له حلالاً طيّباً ، لا يحقّ لأحد أن ينتزعه منه .

الوثوق بالله

يُحكى أن الرّابي يُوحَنان بن ليفي صام وصلّى للرّبّ لكي يُجيز له رؤية إلياهو[1] المَلَك ، الذي رُفع حيّاً إلى السّماء . فاستجاب الله لدُعائه ، فظهر له إلياهو على هيئة رجل .

توسّل الرّابي إلى إلياهو قائلاً : «دَعني أتّبعك في طوافك عبر البلاد ، وأراقب أحوالك وأفعالك ، فأكسب لنفسي حكمةً وفهماً» .

قال إلياهو : «لا ، فأفعالي لا سبيل لك إلى فَهمها ، وتصرّفاتي لا صبر لك عليها ، فكيف تصبر على ما ليس لك به علم ؟» .

لكن الرّابي أقام على توسّله : «لن ترى مني أيّ إزعاج أو تساؤل ، لكن اسمح لي أن أتّبعك في دربك» .

قال إلياهو : «إذاً هَلُمّ ، ولكن ليلزم لسانُك الصّمت ، وعند أوّل سؤال تسألنيه ، أو أول إشارة تعجّب منك ، فهو الفُراق ما بيننا» .

فجال الاثنان معاً عبر البلاد ، وبلغا بيت رجل فقير ، لم يكن يملك من المال وأسباب الرّزق سوى بقرة . فلمّا اقتربا خفّ الرّجل وامرأته إلى استقبالهما واستحلفاهما بالدّخول إلى كوخهما وتناول الطّعام والشّراب من الميسور لديهما ، وبأن يمضيا اللّيل تحت سقفهما . فهذا ما كان ، فلقيا كل حفاوة من مُضيفيهما الفقيرين الكريمين . وفي الصّباح قام إلياهو مُبكراً يصلّي ، فما إن فرغ من صلاته حتى وقعت بقرة الفقيرين ميتةً . ومضى الرّفيقان في رحلتهما .

---

(1) إلياهو أو إيليّا التِّشبي من أنبياء إسرائيل ، عارض عبادة البعل التي اتّبعها الملك أخاب بن عُمري في السّامرة . ترد سيرته في سفر الملوك الأول - أصحاح 17-22 ؛ وسفر الملوك الثاني - أصحاح 1-2 ، وفيه أنه رُفع حياً ولم يمُت . يتكرّر ظهوره العجائبي في التّلمود ليُنجد الحاخامات ويعلّمهم . يُعرف في تُراثنا الإسلامي باسم «نبي الله إلياس ﷺ» ، يرد في القرآن الكريم : ﴿وإنّ إلياسَ لَمِنَ المُرسَلين * إذ قالَ لقومه ألا تتَّقُون * أتدعُون بَعلاً وتَذَرون أحسنَ الخالقين﴾ (الصّافّات : 122-124) .
وفي بعض متون الحديث الشريف والتّراث الشفهي لقصص الأنبياء يرد باسم «الخضر - أبو العبّاس» ، ويقرن بعض النّاس بالخطأ بين الخضر والقدّيس جاورجيوس .

فأخذت الحيرة من الرّابي يُوحَنان كلّ مأخذ ، فقال لإلياهو : «لـم يكفنـا أن نُنكر عليهما أداء حقّ ضيافتهما وخدماتهما الطيّبة بدفع أجرة مـا ، بـل وتُبـادر إلـى إهلاك بقرة هذا الرّجل الطيّب الذي . . » .

فقاطعه إلياهو : «صَه ، فلتسمع أذنك ولتُبصر عينُك ، ولكـن فلتصمتْ ! فإن أنا أجبتُك فهو فُراق بيني وبينك» .

وتابعا طريقهما معاً . وعند المساء وصلا دارةً واسعة فخمة ، يسكنها رجل غنيّ متعجرف . فلقي الرّجلان استقبالاً هزيلاً ، وقُدّمت لهمـا قطعـة مـن الخبز وكأس ماء ، حتى أن صاحب البيت لم يكترث بمجرّد التّرحيب بهمـا أو الحديث معهما ، فباتا ليلتهما هناك مُهملَين . وفي الصّباح لاحظ إلياهو أن جداراً في البيت بحاجة إلى إصلاح ، فأرسل في طلب النجّار وبذل أجرة الإصلاح من مالـه ، بأن هذا كما قال ردٌّ لكرم الضّيافة التي لقياها .

فتملّك العجب من جديد الرّابي يُوحَنان ، لكنـه لـم ينطـق بحـرف ، وتابعـا طريقهما قُدُماً .

ولمّا قارب حلول الظّلام ، دخلا مدينة كان فيهـا كنيـسٌ كبير وفخـم . ولمّا كان موعد صلاة المساء قد حلّ فقد دخلا الكنيس وراحا يُمعنان النّظر فيما بالمكـان مـن الزّخـارف الغنيّـة ، والطنـافس المُخمليّـة ، والنّقـوش المُذهّبـة . وبعـد اختتـام الصّلاة ، قام إلياهو وصاح عالياً : «أهُنا مَن يودّ إطعـام فقيرين وإيوائهمـا في هـذه الليلة ؟» . فلم يُجب أحد ، وأبَوا أن يضيّفوا المُسـافرين الغريبـين أو يكرموهمـا . ولكن في الصّبـاح ، عـاود إليـاهو دخـول الكنيـس ، وراح يصـافح أفـراده قـائلاً : «أتمنّى لكم أن تصيروا جميعكم رؤساء» .

في المساء التالي دخـل الرّجـلان مدينـة ثانيـة ، فلمّـا سـارع شـمّاس الكنيـس لاستقبالهما ، بعد إخبار أفراد الجماعة بقدوم غريبين ، فُتحت أحسن دار للضيافة في المدينة لهما ، وراح الجميع يتنافسون في تقديم الكرم والرّعاية لهما .

ففـي الصّبـاح لـدى توديعهمـا لهـؤلاء ، قـال لهـم إليـاهو : «فليُعيّـن الـرّبّ عليكم رئيساً واحداً فحسب» .

فهنا ، لم يعد يُوحَنان يُطيق صبراً ، فقال لإلياهو : «قُل لي ، أنبئني بتأويل هذه الأفعال التي شهدتُها . فأولئك الذين عاملونا بغير اكتراث رُحِتَ تُغدق عليهم دعوات الخير ، وأما الذين أكرمونا وأحسنوا إلينا فلم توفّهم حقّهم بالمثل . فحتى إن كان لا بُدَّ من الفُراق ، أرجوك أن تُخبرني بتأويل ذلك كلّه» .

قال إلياهو : «اسمعْ ، وتعلّم الوثوق بالله ، حتى وإن لم تفهم طُرُقه ! فلمّا دخلنا أولاً بيت الرّجل الفقير الذي عاملنا بلُطف ، اعلمْ أنه في ذلك اليوم بالذّات كان مُقدّراً أن تموت زوجته . فدعوتُ الرّبّ بأن تكون البقرة فداءً لها ، واستجاب الله دعواتي ، وأُبقيت المرأة لزوجها . أمّا الرّجل الغني الذي زُرناه بعدها ، فقد عاملنا بغير اكتراث ومع ذلك أصلحتُ له جداره ، وأصلحتُه بغير أساس جديد ، وبغير حفر إلى عُمق الأساس القديم . فلو أنه أصلحه هو ، لكان قام بالحفر ولكان عثر على كنز مطمور تحته ، لكنّه الآن ضاع عليه إلى الأبد . أمّا أفراد الكنيس الذين أبوا أن يُضيّفونا فقلتُ لهم : «فلْتَصيروا جميعكم رؤساء» ، والحقّ أنه برئيس واحد فقط يُؤمَن عدم نشوب الخلافات» .

«فافهم وعِ ما أقول : إن رأيتَ خبيثاً يخوض في النّعماء ، فلا تبتئسنّ أو يستولي عليك نَزَغٌ من حَسَد ؛ وإن رأيتَ صالحاً قد أمضّه الفقر وتقلّبته الرّزايا ، فلا يتوجّسنَّ قلبُك أو تدُر بجَنانك في عدل الله الظّنون . فإن الرّبّ لَعَدْلٌ قويم ، وحُكمه حَقٌّ وصواب ، وعينُه ترى الخليقة بأجمعها ، وليس لأحد أن يقول له : «ما الذي فعلتَ ؟» » .

وعقب هذه الكلمات ، اختفى إلياهو ، وبقي يُوحنان بمُفرده[1] .

* * *

(1) هذه الرّواية من أجَداء التّلمود ، في حين أن أجَداء المدراش تختصّ بشرح وتذييل المرويات التاريخية والأدبية للتّوراه ، بقصص أنبيائها وملوكها ، ثم شخصياتها التاريخية اللاحقة (في أسفار النبيئيم والكتوبيم) . ويُوحَنان (أو يهُوشُوَع) بن ليفي متأخّر عن شخصيات الأسفار اليهوديّة الثلاثة . وبذا يلاحظ القارئ مدى اتّساع مساحة التّلمود - من حيث حجمه وحقله الزّمني - على الأسفار الثلاثة (تَنَخ) ، وعلى ما يليها من شروحات في المدراش ، حتى غدا المصدر التشريعي الأول لليهوديّة الحاخاميّة الأرثوذوكسيّة .

العروس والعريس

يُحكى أن رجلاً أحبّ صبيّة صادقة وجميلة ، فبادلها الوفاء وعاهدها أن يُقيم على محبّته لها . ولحين من الزّمان مضى كل شيء على ما يُرام ، وعاشت الفتاة بخير ووئام . ثم حصل ما جعل الرّجل ينشغل عنها فتركها ، وجعلت تنتظره طويلاً ولكنه لم يعُد . وأخذ مُحبّوها يُشفقون لها بينما يهزأ بها العُذّال ، الذين جعلوا يُشيرون إليها قائلين : «ها قد نَبَذَكِ ، ولن يعود مُطلقاً» . فالتمست الفتاة حُجرتها ، وراحت تقرأ في السرّ الرّسائل التي كان حبيبها يكتبها لها ، وكان في تلك الرّسائل يعدها بالبقاء دوماً على العهد . فراحت تقرأها وتبكي ، لكنها وجدت فيها شيئاً من العزاء والسّلوى لقلبها ، فكفكفت دموعها وأوصدت في وجه الشّكّ قلبها .

وفي إطلالة يوم مُشرق مُفرح ، إذا بالرّجل الذي أحبّته يعود ، ولمّا دري بأن النّاس كانوا يُشكّكون سألها كيف حافظت على وفائها ، فأرته رسائله وأكّدت له ثقتها المُطلقة .

فأمّة يسرَئيل ، إبّان نكبتها وسبيها[1] ، كانت الأمم تسخر منها ، وصارت آمالها في الانعتاق مَثاراً للهُزء ، يُضحك من حكمائها ويُزرى بأوليائها . لكن أمّة يسرَئيل بقيت مواظبة على زيارة كُنُسها وارتياد مدراسها . وكانت تقرأ الرّسائل التي كان الله وجّهها إليها ، وتؤمن بما فيها من الوعود المقدّسة .

ولا ريب أن الله سيخلّصها حين يشاء ، وهو عندما يقول لها : «كيف أمكنك البقاء وحيدة على إيمانك برغم هُزء الهازئين ؟» ، فهي تُشير إلى كتب الشّريعة وتُجيب :

«لو لم تكُن شريعتُك لذّتي ، لهَلَكتُ حينئذٍ في مَذَلّتي» (المزامير 119 : 92) .

* * *

(1) لا يذكر لنا حاخامات التّلمود ، لماذا يعاقب الله «شعبه المُختار» (أهل الكتاب עם הספר) مئات وآلاف السّنين ، إن كانوا لا يستحقّون العقاب ؟

الحقّ

يُحكى[1] أن الله عندما عزم على خلق الإنسان تجمّعت الملائكة حوله ، فقال بعضها متعجّباً : «فلتخلق يا الله مَن يُسبّح بحمدك على الأرض ، كما نسبّح نحن ونُرنّم لمجدك في السّماء» .

لكن غيرهم قالوا : «استمع لنا أيها الملك الجبّار ، ولا تخلق هذا الإنسان ! فالانتظام الرّائع للسّموات العُلى الذي أحللته على الأرض سوف يشوّشه الإنسان ويُفسد فيه» .

ثم ران الصّمت على الحَشد المتنازع ، عندما ظهر ملاك الرّحمة أمام عرش العِزّة وسجد . وكم كان صوته عَذباً رخيماً حينما قال : «أيها الآب ، فلتخلق الإنسان ، واجعله على صورتك الكريمة ! وسأملأ قلبه بالرّحمة الإلهيّة ، وروحه أطبعُها بالرّفق المخلوقات جميعها ، فمن خلاله يتمثّلون رمز تسبيحك» .

وسكت ملاك الرّحمة ، فتكلّم ملاك السّلام والدّموع تهمل من عينيه : «بل لا تخلقه يا الله ! فهو ينقض السّلام ، وسيعقب مجيئه إلى الأرض سفكٌ للدّماء لا مَحالة . وتعمّ الأرض الفوضى والرّعب والحرب ، فلا يبقى على الأرض من عمل يدك مكانٌ بهيج» .

ثم تكلّم ملاك العَدل بصوت حازم : «فعندها تُدينُه يا الله ، ويكون ماثلاً على الدّوام تحت حُكمي» .

فاقترب ملاك الحقّ قائلاً : «لا يا إله الحقّ ، لا تخلقنَّه ، فمع هذا الإنسان ينزل إلى الأرض الكذب والبُهتان !» .

ثم سكت الجميع ، ومن قلب الصّمت صدر الوحي الإلهي : «فإلى الأرض تنزل معه يا مَلاك الحقّ ، لكنك تبقى مُقيماً في أحواز السّماء ، متردّداً بين السّماء والأرض ، مُحكماً بينهما الوصال» .

* * *

---

(1) لا يرد هذا الحوار أبداً في التّوراه (التكوين ، أصحاح 2) ، بل تنفرد به أجَداه التّلمود .

خراب بيتار

يُحكى أنه كان من العادات المُتبعة في بيتار[1] عندما يولد لأبوين طفل أن تُغرس باسمه شجرة أرز صغيرة ، لتنمو وتكبر مع الطفل . فحدث في بعض الأيام أن ابنة الإمبراطور كانت تركب عبر المدينة ، فانكسرت عربتها ، وقام مرافقوها باقتلاع أرزة صغيرة لإصلاحها . فما كان من الرّجل الذي غرس هذه الأرزة إلا أن هجم على العبيد وأوسعهم ضرباً .

فأثار هذا العمل سخط الإمبراطور بشدّة ، فوجّه إلى المدينة على الفور جيشاً قوامه ثمانون ألف رجل . فقام هؤلاء باجتياحها وقتلوا سكّانها ، رجالاً ونساءً وأطفالاً . وجرت الأنهار حمراء من فيض الدّماء ، ويُقال إن الأرض أضحت خصيبة مُثمرة للزّارعين مُدّة سبع سنين من أجساد الهالكين ، الذين يُقال إن عددهم كان يُناهز الأربع مائة ألف يسرَئيلي .

* * *

خراب يروشَلايْم

عندما عظُمت ذنوب اليسرَئيليّين كثيراً وفاقت اصطبار العليّ القدير ، ورفضوا الاستماع إلى كلام يِرِمْياه ירמיה وتحذيراته ، غادر هذا النّبي يروشَلايْم وارتحل إلى أرض بنيامين . فطالما كان لا يزال في المدينة المقدّسة ، ويدعو لها بالرّحمة ، بقيت بمنجاة . لكنه عندما مضى إلى أرض بنيامين ، أتى نِبوخَذْناصَّر נבכדנאצר لتدمير أرض يسرَئيل ، فنهب المدينة ، وسلبها نفائسها ، وتركها طُعمةً لألسنة اللّهيب تضطرم بها . وأرسل نبوخذناصَّر لتدمير يروشَلايْم قائده نبوزَرادان[2] נבזראדן (فيما بقي هو نفسه في رِبلاه) .

---

(1) كذا بالأصل ، والصّواب : بَتير ، بلدة محصّنة على مشارف القُدس بجنوبها الغربي .

(2) الواقعة في سفر الملوك الثاني ، الأصحاح 25 ، وفيه (25 : 8) : «وفي الشهر الخامس في سابع الشهر ، وهي السنة التاسعة عشرة للملك نبوخَذْناصَّر ملك بابل ، جاء نبوزَرادان رئيس الشُرَط عبدُ ملك بابل إلى يروشَلايم ، وكل بيوت العظماء أحرقها بالنّار . وجميع أسوار يروشَلايم مُستديراً هَدَمَها كل جيوش الكلدانيين» .

لكنه قبل أن يأمر بتسيير الحملة ، سعى عن طريق علامات الفأل ، بحسب خُرافات عصره ، إلى التأكّد من مآل الحملة . فرمى عن قوسه سهماً وجّهه إلى الغرب ، فحاد السّهم صوب يروشَلايم . ثم رمى ثانيةً نحو الشرق ، فانطلق السّهم نحو يروشَلايم . فرمى ثالثةً ، راغباً بمعرفة الاتجاه الذي تقع فيه المدينة العاصية التي ينبغي تدميرها في هذه الدّنيا ، وللمرّة الثالثة توجّه السّهم صوب يروشَلايم .

فلمّا تمّ اجتياح المدينة ، سار مع أمرائه وقادته تجاه الهيكل ، وصاح مُستهزئاً بإله يسرَئيل : «فأنتَ إذاً الإله العظيم الذي يرتجف أمامه العالم ؟ ها نحن أولاء هنا في قلب مدينتك وهيكلك !» .

وعلى أحد جُدران المدينة عثر على أثر لسِنان سهم ، يدلّ على أن أحداً قد قُتل أو رُمي في هذا المكان ، فسأل : مَن قُتل هنا ؟» .

أجاب النّاس[1] : «زَخَريّا بن يهُوياداه ، الكاهن الأكبر ، كان لا يكفّ عن تقريعنا على آثامنا وكُفرنا ، فمللنا من كلامه وقمنا بإعدامه» .

ثم قام جنود نِبوخَذْناصَّر بسفك دماء أهل يروشَلايْم ، بما فيهم كهنتُها وأهلوها ، شيوخها وشبابها ، ونساؤها ، وصبيتها الذين يحضرون الدّروس في مدارسها ، وحتى الرّضّع في مهودهم . ودام الاحتفال الدّموي حتى اشمأزّت منه حتى نفس قائد الوثنيين الأعداء ، فأصدر أمراً بإيقاف هذه المذبحة الجماعيّة . ثم أمر بجمع كافّة الأواني الذّهبية والفضيّة من الهيكل ، وأرسلها بمراكبه إلى بابل ، ثم بعد ذلك أمر بطرح النّار في الهيكل .

---

(1) انظر مراثي يرمياه 2 : 20 حول مقتله على يد الملك يوآش . وفي هذه القصص الأسطوريّة الرّمزيّة أمثلة على نتاج الفكر البشري (لكهنة مجهولين) بتأليف مقاطع من أدب كهنوتي يتقولب وتصقله الألسنة والأقلام عبر العصور ، ليصير يوماً ما جزءاً لا يتجزأ من عقيدة دينية راسخة . فهنا مثلاً : أيُعقل أن يلحظ الفاتح المُحارب أثر سهم في جدار ويكترث لأمر كاهن أُعدم ؟ لا يعدو الأمر كونه رواية أدبية بما فيها من حبكة وعِبرة وتشويق !
ثمّة علمٌ يختص ببحث المرويّات القديمة هو «النّقد النّصّي» Textual-Critique ، ظهرت به عشرات المؤلّفات حول تأثّر التّوراه الكبير بتُراث بابل وكنعان والزّرادشتيّة .
يبقى سؤال : أيّة أديان هي التي داخَلَها فنّ «صناعة المُقدّس» هذا ؟

فتقدّم الكاهن الأكبر ، ولبس ثوبه وإيفُوده (אפוד الحلّة الحبريّة) قائلاً : «طالما أن الهيكل حلّ به الخراب ، فلا حاجة لكاهن يتولّى الصّلاة» ، وألقى نفسه في النّار فهلك . فلمّا رأى ذلك الفعل بقيّة الكهنة ممّن ظلّ على قيد الحياة ، حملوا كنّاراتهم وآلات عزفهم وحذوا حذوَ الكاهن الأكبر .

وأمّا مَن تبقّى من النّاس ممّن لم يقتلهم الجُند ، فقد أُوثقوا بقيود الحديد ، وحُمّلوا مع غنائم الظافرين ، وسيقوا إلى السّبي . أمّا يِرمْياه[1] النّبي فكان عاد إلى يروشَلايْم وانضمّ إلى مصير إخوانه التُّعساء ، الذين أُخرجوا شبه عرايا . فلمّا صاروا إلى موضع يُعرف بـ «بيت كورو» ، ابتاع لهم يِرمْياه ثياباً أحسن ممّا عليهم . وخاطب نِبوخَذْناصَّر والكلدانيين قائلاً : «لا تظنّوا أنكم بحَولكم وقوّتكم تمكّنتم من إخضاع شعب الله المُختار ، بل هي ذُنوبهم وآثامهم التي جعلتهم مستحقّين لهذه المِحَن والنّكبات» .

وهكذا ، تقدّم الشّعب في رحلة سَبْيهم وهم يبكون وينوحون ، حتى بلغوا أنهار بابل . فقال لهم نِبوخَذْناصَّر : «غنّوا يا قوم ، واضربوا لي بقيثاراتكم ، هيّا رنّموا الأناشيد التي اعتدتُم ترنيمها لربّكم العظيم في يروشَلايْم» .

فرداً على هذا ، علّق اللّيويّون كنّاراتهم على شجر الصّفصاف قرب ضفاف النّهر ، كما هو مكتوب : «على أنهار بابل هناك جلسنا ، بكينا أيضاً عندما تذكّرنا صهيون ، على الصَّفْصاف في وسطها علّقنا كنّاراتنا» (مزامير 137 : 1) . ثم قالوا : «لو لم نتوانَ عن اتّباع أمر الله ورنّمنا بحمده مُخلصين لما وقعنا بين يديك . والآن كيف نرنّم لك الصّلوات والأناشيد التي لا تنبغي إلا لوجه الله الأزلي ؟ كما قيل : «كيف نُرنّم ترنيمة الرّبّ في أرض الغُرباء ؟» » (137 : 4) .

---

(1) في الترجمة العربية للأسفار اليهودية يرد اسمه : إرميا ، وهو غلط . فالاعتبار بمنطوق لغة الأصل وليس قولبات اللغات الأخرى . ولذلك كتبنا هنا : أبرَهام وليس إبراهيم ، ويسرَئيل وليس إسرائيل ، ومُوشيه وليس مُوسى ، ويروشَلايْم وليس أورشليم . هذا فيما يختصّ بنقل المقاطع العبرية من التّلمود ، أما فيما يخصّ ورود هذه الأسماء بتراثنا الإسلامي فالبديهي أن نلتزم المُعرّب (مثال : إسحاق ، يونس ، إلياس) ، وأمّا ما له تسمية عربية مُغايرة فنضبطها أيضاً (مثل : القُدس الشريف) . ونُذكّر أخيراً أن لكل لفظ ثلاثة معانٍ معياريّة : اشتقاقي ، وعُرفي ، واصطلاحي .

ثم قال القادة للحرّاس : «هؤلاء الرّجال أهلٌ للموت ، فهم يأبون إطاعة أوامر الملك ، فليموتوا» .

ولكن إذا بفلَطياه بن يهُوياداه يتقدّم ويخاطب نِبوخَذْناصَّر قائلاً : «هَبْ أن قطيعاً سُلّم إلى يديّ راعٍ ، فخطف الذّئب منه حَمَلاً ، أخبرني مَن يكون المسؤول أمام المالك عن الحيوان المفقود ؟» .

أجاب نِبوخَذْناصَّر : «الرّاعي بالتأكيد» .

فأجاب فلَطياه : «إذاً أصغِ إلى كلامك الذي قُلتَه : «الله أعطى يسرَئيل إلى يديّ» ، فتكونُ مسؤولاً إذاً عمّن يُذبح» .

فأمر الملك بفكّ القيود عن الأسرى ، ولم يتمّ إعدامهم .

* * *

خراب يروشَلايْم الثاني

كان مصير يروشَلايم الدّمار بسبب قَمْصا وبار قَمْصا ، وهذا هو مُؤدّى ما حصل :

يُحكى أن ثمّة رجلاً عمل وليمةً ، وكان صديقاً لقَمْصا ، لكنه كان يُبغض بار[1] قَمْصا . فبعث رسولاً إلى قَمْصا يدعوه إلى وليمته ، غير أن الرّسول أخطأ فسلّم الدّعوة لعدوّ سيّده ، بار قَمْصا .

فقبل بار قَمْصا الدّعوة ، وحضر في الوقت المعيّن لها ، لكن عندما أبصر المُضيف عدوّه يدخل بيته ، أمَرَه بالمغادرة على الفور . فقال بار قَمْصا : «لا ، طالما أنني حضرتُ فلا تُهنّي هكذا بالطّرد . وسوف أدفع لك ثمن كل ما آكلُه وأشربه» .

---

(1) بار لفظة آرامية : ܒܪ ، دخلت العبريّة وتعني : ابن . فلذا يُلاحظ في العبرية أن الأسماء قد ترد بصيغة : «بار» أو«بِن» (أي ابن) ، هذا ولم نُثبت ألف ابن في النّص حيث ننقلها بصيغتها العبريّة בן وليس العربيّة . أما اسم قَمْصا فآرامي : קמצא جرادة .

فقال الرّجـل : «لستُ أريد مالك ، ولا حُضورك هنا . فانصرف على الفور» .

لكن بار قَمْصا تمسّك بموقفه ، وقال : «أدفع لك جميع تكلفة وليمتك ، لا تدعني أُهان في عيون ضيوفك» .

فكان صاحب الدّعوة مُصمّماً على موقفه ، فلم يعُد أمام بار قَمْصا إلا أن انسحب من صالة الوليمة مُغضباً . وقال في قلبه : «عديدٌ من الحاخامات كانوا حاضرين ، فلم يتدخّل واحد منهم لصالحي ، ولذا فإن هذه الإهانة التي حلّت بي أمام أعينهم لا بُدّ أنها أرضتهم» .

فما كان من بار قَمْصا إلا أن بادر بالوشاية ضدّ اليهود أمام الملك ، قائلاً : «اليهود ثائرون في وجهك» .

فسأل الملك : «وكيف أتبيّن ذلك ؟» .

أجاب بار قَمْصا : «أرسل تقدمةً إلى هيكلهم ، فترى أنها تُرفض» .

فأرسل الحاكم عندها عجلاً صحيح البُنية ليُضحّى به من أجله في الهيكل ، ولكن بترتيب من بار قَمْصا أوقع الرّسول بالعجل عيباً ، فكانت النّتيجة بطبيعة الحال ، من جرّاء كونه غير مُلائم للأضحية (كما في سفر اللّاويين 22 : 21)[1] ، أنه قُوبل بالرّفض .

فلهذا السّبب بالذّات تمّ توجيه قيصر[2] لاحتلال يروشَلايم ، فأحكم الحصار على المدينة سنتين . وكان أربعة من أثرياء أهالي يروشَلايم قد أذخروا ما يكفي من الطعام للقيام بأوَد السكّان أكثر من ذلك بكثير ، ولكن لمّا كان السّكّان كارهين لمحاربة الرّومان وخائفين منهم ، فقد خرّبوا الأهراء وتسبّبوا في مجاعة قاسية للغاية على المدينة .

---

(1) وهو : «وإذا قرّبَ إنسانٌ ذبيحةَ سلامة للرّبّ وفاءً لنذر أو نافلة من البقر أو الأغنام تكون صحيحةً للرّضا ، كلّ عيب لا يكون فيها . الأعمى والمكسور والمجروح والبَثير والأجرب والأكلف ، هذه لا تُقرّبوها للرّبّ ، ولا تجعلوا منها وقوداً على المذبح للرّبّ» .

(2) اجتاح فلسطين النائب الإمبراطوري فسپاسيان ، ثم احتل ابنه تيطوس القدس 70 م .

ويُحكى أن سيّدة من سَراة القوم ، هي مِريَم بَت بايتوس ، دفعت بخادمها لشراء بعض الطّحين للاستعمال المنزلي . فألفى الخادم الطّحين قد بيع كلّه ، ولكن كان هناك بعض الجَريش الذي كان بوسعه شراءه . لكنه خفّ إلى الدّار ، لكي يستشير رغبة سيدته أولاً بخصوص ذلك ، فاكتشف عند عودته أن ذلك قد بيعَ أيضاً ، ولم يعُد بوسعه شراء شيء سوى بعض جَريش الشّعير الخشن . فلم يشأ شراء ذلك بغير إذن ، فعاد إلى الدّار ثانيةً ، ولكنه عندما عاد إلى الهُري للحصول على جَريش الشّعير ، كان ذلك هو الآخر قد نفد .

عندها خرجت سيّدته بنفسها لشراء الزّاد ، لكنها لم تعثر على شيء . وإذْ عضّها الجوع بنابه ، التقطت من الطريق قشرة ثمرة تين وأكلتها ، فاعتلّت من ذلك صحّتها وماتت . ولكنها قبل موتها رَمَت بكلّ ذَهَبها وفضّتها في الطريق ، وقالت : «ما نفعُ هذه الثّروة إن لم يكن بوسعي ابتياع الطعام بها ؟» . وهكذا تحقّق كلام يْحزَقْئيل في نبوءته (7 : 19) : «يُلقون فضّتهم في الشّوارع» .

فبعد خراب الأهراء ، أبصر الرّابي يُوحَنان أثناء مشيه في المدينة النّاس يسلقون القشّ في الماء ويشربون منه للتقوّت . فقال متعجّباً : «آه ، ويلٌ لي على هذه المحنة ! كيف يقدر مثل هذا الشّعب على مُقاومة جيش عظيم ؟» . فتقدّم إلى ابن أخيه بِن بَتْياح ، أحد زُعماء المدينة ، للحصول على إذن بمغادرة يروشَلايم . غير أن بِن بَتْياح أجاب : «لا مجال لذلك على الإطلاق ، لا يمكن لكائن حيّ أن يغادر المدينة» . فقال يُوحَنان متوسّلاً : «أخرجني إذاً كجُثّة» . فأذعن بِن بَتْياح لذلك ، وتمّ وضع يُوحَنان في نَعش ، وحُمل عبر أبواب المدينة ، وكان الرّابي إليعزَر والرّابي يهُوشُوَع وبِن بَتْياح يلعبون دور المُشيّعين . وجُعل النّعش في بعض الكهوف ، فبعد أن عاد الجميع إلى منازلهم ، قام يُوحَنان من النّعش ، وتوجّه إلى معسكر الأعداء . وهناك حصل من القائد على الإذن بتأسيس كلّيّة عُليا للشّريعة في يَبْنى[1] ، يكون الرّابون جَمْليئيل رئيساً لها .

(1) اشتهر مجمعها الدّيني اليهودي بعد خراب الهيكل 70 م ، أقام فيها الرّابي يُوحَنان بن زكّاي مركزاً للسّنهدرين ، كما أقام الرّابي جَمْليئيل بشيڤا (معهداً دينيا) سماه : כרם ביבנה «كِرِم بيبْنِه» (أي كَرْمُ يَبنى) . وكان الرّومان يسمّونها : يامنيا Jamnia .

سُرعان ما اجتاح تيْطوس المدينة ، وقتل من أهلها كثيراً ، وأرسل الآخرين سبايا إلى المنفى . ثم دخل الهيكل ، حتى قُدس الأقداس ، وهَتَك السّتار الذي يفصله عن الأقسام الأقلّ قُدسيّة . واستولى على الأواني المقدّسة ، وأرسلها إلى روما .

من خلال قصّة قَمْصا وبار قَمْصا هذه ينبغي لنا أن نتعلّم الحرص على عدم إهانة جيراننا ، وخاصّة عندما يؤدّي مثل هذا السّبب البسيط إلى التّسبّب بنتائج وخيمة . ولقد قال حاخامونا بأن مَن يعمل على إحراج جاره بإهانة ما ، فهو أشبه ما يكون بمَن يسفك دماً .

* * *

حَنّاه وعيالها السّبعة

في غضون الأيام الرّهيبة التي أعقبت سقوط المدينة المقدّسة ، زُجّ بحَنّاه[1] وعيالها السّبعة في السّجن .

وبحسب أعمارهم ، كانوا يؤتى بهم أمام الغازي الطاغية ، فيؤمَرون بتقديم فروض الطاعة ، بالسُّجود له ولآلهته .

فقال الابن الأكبر متعجّباً : «مَعاذ الله أن أسجد لوَثَنك . فوصايانا الإلهيّة تأمرنا : «أنا الرّبّ إلهُك» ، فلغيره أبداً لا أسجد» .

فسُحب مُباشرة إلى الخارج لكي يُعدَم ، وتمّ توجيه الطلب ذاته إلى أخيه ، وهو الابن الثاني . فأجاب : «أخي لم يسجد ، فأنا لا أفعل أيضاً» .

سأل الطاغية : «ولمَ لا ؟» .

أجاب الفتى : «لأن الوصيّة الثانية من الوصايا العشر تأمرنا : «لا يكُن لك آلهةٌ أخرى أمامي» » .

---

(1) يُعرف الاسم في العربية بصيغة : حَنّة . كحنّة أم مريم البَتول ، عليها السّلام .

فسرعان ما تلا مصرعه كلماته الجريئة هذه .

وقال الابن الثالث : «ديني يُعلّمني : «فإنك لا تسجد لإله آخر» (خروج 34 : 14) ، فنعمَ المصير الذي ناله أخواي ، دون السّجود لك أو لأوثانك» .

وطُلبت الطاعة ذاتها من الابن الرّابع ، فقال بكل شجاعة وإيمان كإخوته : «مَن ذَبَحَ لآلهة غير الرّبّ وحده يهلك» (خروج 22 : 19) ، فبلا رحمة قُتل .

أمّا الفتى الخامس ، فقد قال واهباً نفسه الغضّة تكريماً لشعار بني يسرَئيل : «اسمع يا يسرَئيل ! الرّبّ إلهنا ربٌّ واحد» .

«لماذا أنت بكل هذا العند ؟» ، سُئل الأخ السّادس ، عندما مَثُل هو الآخر أمام الطاغية وازدرى بالطلب المطروح عليه .

فقال : «لأن الرّبّ في وسطك إلهٌ عظيم ومَخُوف» (تثنية 7 : 21) ، ومات في سبيل المبادئ التي اعتنقها .

ثم أُحضر الفتى السّابع الأصغر أمام قاتل إخوته ، فخاطبه برفق قائلاً : «أي بُنيّ ، تقدّم فاسجد لآلهتي» .

فأجاب الصّبي : «مَعاذ الله ! ديننا المقدّس يعلّمنا : «فاعلم اليوم ورَدِّد في قلبك ، أن الرّبّ هو الإله ، في السّماء من فوق وعلى الأرض من أسفل ، ليس سِواه» (تثنية 4 : 39) . فلا يمكن أبداً أن نبدّل إلهنا بسواه ، ولا هو يبدّلنا بأي شعب آخر ، لأنه كما هو مكتوب : «قد واعدتَ الرّبّ اليوم أن يكون لك إلهاً» (تثنية 26 : 17) ، فمكتوب أيضاً : «وواعَدَك الرّبّ اليوم ، أن تكون له شعباً خاصاً»[1]» .

ومع ذلك ، بقي الطاغية يتكلّم برفق وبكلمات رقيقة : «أنت لم تزل صغيراً ، ولم ترَ بعدُ إلا قليلاً من مباهج الحياة ومفاتنها ، بل أقلّ ممّا كان نصيب إخوتك . فافعل كما أطلب منك ، فيكون مستقبلك باهراً سعيداً» .

---

(1) تتمّة الآية : «وتحفظ جميع وصاياه ، وأن يجعلك مُستعلياً على جميع القبائل التي عملها في الثّناء والاسم والبهاء ، وأن تكون شعباً مُقدّساً للرّبّ إلهك ، كما قال» .

قال الصّبي : «الرّبّ يحكم دائماً وأبداً ، أما شعبُك ومملكتُك فزائلان . وإن كنتَ اليوم هنا ، فغداً تصير إلى قبرك . وإن كنتَ اليوم في العَلياء ، فغداً في أسفل سافلين . وأمّا الله العليّ القدير فدائمٌ باقٍ إلى الأبد» .

فتابع الإمبراطور : «أما ترى إخوتك أمامك صَرعى ؟ فيكون مصيرك مثلهم إن تمنّعت عن فعل ما أريد . أترى ، سأطرح خاتمي إلى الأرض ، فانحنِ والتقطه ، فأعُدُّ ذلك منك ولاءً لآلهتي» .

أجاب الصّبي بجَنان ثابت : «أتظنّني أخشى تهديداتك ؟ كيف أخشى بشراً أكثر من الله العظيم ، ملك الملوك ؟» .

سأل الإمبراطور : «فأين هو إلهك ، وما يكون بالضبط ؟ أثمّة إله يكون على وجه الدّنيا ؟» .

أجاب الفتى[1] : «أيكون هناك عالَمٌ بغير خالق ؟ عن آلهتك يُقال[2] : «لها أفواه ولا تتكلّم» . أما عن إلهنا فيقول مُنشد المزامير : «بكلمة الرّب صُنعت السّموات»[3] . وآلهتُك «لها أعيُنٌ ولا تُبصر» ، أمّا هو فله «أعيُن الرّبّ الجائلةُ في الأرض !»[4] . وآلهتُك «لها آذانٌ ولا تسمع» ، بينما عن إلهنا مكتوب : «والرّبّ أصغى وسمع»[5] . وعن آلهتك قيل : «لها مناخر ولا تشمّ» ، بينما «تنسّم الرّبّ رائحة الرّضى»[6] . وآلهتك «لها أيدٍ ولا تلمس» ، أما إلهنا فيقول : «بيديّ أنا صنعتُ الأرض»[7] . وعن آلهتك مكتوب : «لها أرجل ولا تمشي» ، بينما يخبرنا زَخَريّا عن إلهنا : «وتقف قدماهُ في ذلك اليوم على جبل الزّيتون»[8] .

---

(1) خُطبة بليغة ، بودّنا – بعد جهد ساعتين في تخريج آياتها من الكتاب البالغ 1358 صفحة – لو نفهم كيف يُلقيها طفل على مسمع إمبراطور يهدّده بالقتل بعد مقتل 6 إخوة له !
(2) جميع هذه الإلماعات عن الأصنام مصدرها مزامير داوِد – 115 : 5-7 .
(3) سفر المزامير – 33 : 6 .
(4) سفر زخريّا – 4 : 10 .
(5) سفر ملاخي – 3 : 16 .
(6) سفر التكوين – 8 : 21 .
(7) سفر يشَعياه – 45 : 12 .
(8) سفر زخريّا – 41 : 4 .

ثم قال الإمبراطور[1] الظالم الغشوم :

«فإن كانت لإلهك حقاً هذه الصّفات كلّها ، فلماذا تُراه لم يخلّصك من سُلطاني ؟» .

أجاب الفتى[2] : «لقد نجّى حَنَنْياه ورفاقه من سطوة نِبوخَذْناصّر[3] ، لكنهم كانوا صالحين ، وكان نبوخَذْناصّر ملكاً يستحقّ أن يشهد مُعجزة تقع . أمّا أنا فلستُ أهلاً للنّجاة ، ولا أنت قَمين باستظهار جبروت الله !» .

عندها ، أصدر الطاغية أمره : «فليُقتل الفتى كإخوته» .

فتكلّمت حَنّاه ، أم الفتية وصرخت : «أعطني طفلي أيها الملك الظالم ، دعني أضمّه بذراعيّ قبل أن تُهلك روحَه الغَضّة الطاهرة !» .

وألقت بذراعيها على الفتى ، وحضنته بقوّة إلى حضنها ، لاصقةً شفتيها بشفتيه . وصاحت : «خُذ روحي ، اقتلني أولاً قبل طفلي» .

فأجاب ساخراً بها : «لا ، ليس لي فعلُ ذلك إذ تحظّره شرائعكم[4] : «وأمّا البقرة أو الشّاة فلا تذبحوها وابنها في يوم واحد» » (ليويين 22 : 28) .

فأجابت الأم : «أوّاه ، ويلٌ لك من حافظٍ للشّريعة حريصٍ عليها !» . ثم شدّت إلى صدرها جسد طفلها ، وقالت : «امضِ يا حبيبي ، فقُلْ لأبرَهام إنّ أُضحيتي فاقَتْ أُضحيته . فإن أقام مذبحاً ليضحّي عَليه بيصحاق ، فأمّك أقامت سبعة مذابح ، وضحّت بسبعة من أمثال يصحاق في يوم واحد . وهو كان في معرض تجربة فحسب ، أمّا أمّك فقد امتُحنت بالفعل»[5] .

---

(1) لم يكن تيطوس إمبراطوراً ، بل كان أبوه فِسپاسيان (69-79 م) ، خلفاً لنيرون .

(2) يلوح لنا أن هذا الفتى لا يتجاوز - بحسب الرّواية - 5 أو 6 سنوات ، فيكون منه كل هذه الأجوبة القويّة المُفحمة لتيطوس ؟ عَودٌ على نظريّة «صناعة المُقدّس» .

(3) انظر خبر ذلك في سفر دانيئيل ، الأصحاح الثالث .

(4) إذا كان تيطوس يحفظ أسفار اليهود عن ظهر قلب ، فلا عجب أن يُلقي الطفل خُطبة تتضمّن 10 آيات ، كل واحدة منها في موضع مختلف من الأسفار !

(5) القصّة قاسية جداً ، الهدف من قيمتها الرّمزية في التّلمود تجسيد ما وقع لليهود من جَور وعَسف في تاريخهم ، بغرض الاستفادة من ذلك في شدّ أزرهم .

وبعد إعدام ابنها الأخير ، غَدَت حَنّاه مجنونةً فاقدةً للعقل ، فألقت بنفسها من سطح منزلها . ولمّا سقطت فارقت الحياة على الفور[1] .

فطُوبى لكم ، يا أبناء حَنّاه السّبعة ، وها هو ثوابكم في الآخرة ينتظركم . بنِعْم الإخلاص عبدتُم إلهكم ، وإذ تجتمع أمّكم بأبنائها البَرَرة في الآخرة ، ففي النّعيم خالدةً مُخلّدة تُقيم .

* * *

(1) القصّة بنسبة عريضة من التفاصيل استعارها التّراث الدّيني البيزنطي بقصّة القدّيسة صوفيا H,αγια Σοφια ، واستشهاد بناتها الثلاث : إيمان ومحبّة ورجاء ، في سبيل الإيمان المسيحي ، ضمن موقف مشهدي مؤثّر . نعود دوماً للتذكير بمسألة التّواتر والاستنساخ في التّراث العرفاني الرّوائي لقصص الأولياء والصّالحين والشّهداء بين الأديان ، والخط غير المرئي (أو المُهمل) بين كون الرّواية مُسنَدةً أم مَنحولة . لكن المُثير أن الرّواية المَنحولة (رغم وضعها) قد تكون أجمل وأبعد تأثيراً في نفوس المؤمنين !
وبالإجمال فإن صيغة الخطاب الغنوصي الموجّه للعامّة بين الدّيانات تكاد تكون واحدة ، ولا يمكن بحال من الأحوال إنكار واقع الاستعارة والاقتباس المُتبادل .



القسم الخامس

الشّرائع المدنيّة والجزائية
والأعياد المقدّسة

«إيّان يلتقي كلٌّ من معياري تطبيق العدل وحُسن النّوايا ؟ عندما يمكن حثّ الأطراف المتنازعة على التّوصّل إلى اتّفاق بشكل سلمي» .

كان تحقيق هذه الغاية الهدف الأسمى دوماً للشّرائع اليهوديّة القديمـة ، غير أن ثمّة فارقاً مميّزاً تُراه يفصل ما بين شقّي الشّرائع المدنيّة والجزائيّـة . وفي الدّعاوى السّالفة كان يمكن تجهيز المُرافعات مُسبقاً ، والأحكام تصدر إمّا عن الهيئة العامّة للقُضاء ، أو عن قُضاة خصوصيّين يُختارون من قِبَل الطرفين المتنـازعين ، فيمـا كان هناك العديد جداً من الضّوابط الأخلاقيّـة المُسلطة على القُضاة لإبقائهم ضمن حدود النّزاهة ، كما في الأمثلة التالية :

«مَن يحكُم بمُلك شخص لغيره ظُلماً وبُهتاناً ، تُسأل عنه روحه أمام الله» .

«إذا جلس القاضي للحُكم بين الأقران فكأنّ ثمّة سيفاً موجّهٌ إلى قلبه» .

«ويلٌ لقاضٍ يُصدر حُكماً جائراً ، ويعمل على تحميل مسؤوليّته للشّـهود . فإن الله يحاسبه عليه هو بالذّات» .

«إذا وقف الخصمان أمـامك فعاملهمـا على أنهمـا مُذنبـان ، أمّا عند فضّ المحكمة فعاملهما على أنهما بريئان ، طالما أن الحُكم أُبرم وانتهى» .

ولم يكن يحقّ للقاضي الاستماع إلى أيّة تفاصيل حول دعوى قضائيّة ، مـا لم يكن جميع الفُرقاء حاضرين ، وعليـه فـرضٌ لازبٌ بـأن يكـون بعيـداً تمامـاً عـن التحيّز جرّاء مقام الخصوم أو غناهم ، لفقير ضدّ غنيّ أو لغنيّ ضدّ فقير .

وكان شهود الدّعوى يتعرّضون لأقصى درجات التّدقيق ، بما لا يقلّ عن تدقيق الدّعوى ذاتها ، وكانت تُستبعد عنهم اللّياقة مُباشرةً إن كانت لهم أدنى مصلحة شخصيّة في الدّعوى . وكان إذا طالب صاحب الادّعاء بأكثر ممّا يحقّ له شرعاً ، من باب الطمع بالمزيد ، يفقد دعواه أصلاً .

وفيما كان يكفي ثلاثة قُضاة لتشكيل محكمة للفَصل في الدّعاوى المدنية ، كان يلزم لتأليف المحاكم التي تنظر في الدّعاوى الجنائيّة ثلاثة وعشرون قاضياً ، وبينما كان في الدّعاوى المدنيّة يلزم تحقيق الأغلبية بشخص واحد للتبريء أو للإدانة ، ففي الدّعاوى الجنائيّة يلزم للتبرئة الأغلبية بشخص واحد ، أما للإدانة فيلزم شخصان .

وكان شُهود الوقائع في الدّعاوى الجنائيّة يتمّ تنبيههم على النّحو التالي ، لدى حضورهم للشّهادة في المحكمة :

«لعلّك تنوي النّقل عن مصدر إشاعات ، فتكون ناقلاً عن شاهد آخر ، فتروي ما سمعتَه عن شخص ثقة برأيك ، أو لعلّك لا تدري بأننا سنختبرك بأسئلة تفصيلية وعباراتِ تَقَصٍّ . فلتعلم إذاً أن هذه المحاكمة ، التي تقف فيها حياة امرئٍ على المِحَكّ ، ليست كالمحاكمات المتعلّقة بشؤون المَتاع الدّنيوي . فالمال يمكن تعويضه بالمال ، وأما في المحاكمات التي كهذه فليس الأمر مُقتصراً على دم شخص يُدان ظُلماً ، وإنما دمُ ذُرّيته وذُرّيّة ذُرّيته إلى أبد الدّهر يكون حملاً ثقيلاً ينوءُ به كاهلُ شاهد الزّور . لقد خُلق آدامُ وحيداً مُفرداً ، فمَن يقتل نفساً واحدةً بغير حقّ فهو يُؤاخَذ كأنّما قتل النّاس أجمعين . لذلك فعليك أن تتحرّى مواقع كلامك ، ولكن من جهة أخرى لا تقولَنّ : «وما علاقتي أنا بهذا كلّه ؟» ، بل تذكّر عبارة الكتاب المقدّس : «وإذا سمع أحدٌ وهو شاهدٌ يُبصر أو يعرف ، فإن لم يُخبر به حَمَلَ ذَنبَه» ، وفضلاً عن ذلك تذكّر : «وعند هَلاكِ الأشرار هُتافٌ»[1]» .

وكانت العقوبات تُنفَّذ بأقصى حدّ من الرّفق ، وكان الدّستور الدّيني برمّته يتجلّى العدالة التّامّة ، مُلطَّفةً بالرّحمة بأصدق وأبلغ معانيها .

---

(1) سفر الأمثال – 11 : 10 . والآية السّابقة ترد في سفر اللّيويين – 5 : 1 .

وبالغةً ما بلغت جرائم الجاني ، كانت تفي عقوبة واحدة لتحتويها جميعاً . وكان لا يمكن أن تُرفق العقوبة بغرامة ماليّة ، وفي حالات الجَلد كان عدد الجلدات مُحدّداً في أشدّ الحالات غَرَماً بتسع وثلاثين جَلدة .

وكان يلزم القُضاة في القضايا الكُبرى أن يصوموا طوال النّهار في الأيام التي ينطقون فيها بأحكامهم ، وحتى بعد الحُكم كانت الدّعوى تُدقّق ثانيةً في المحكمة العُليا قبل أن تكتسب الدّرجة القطعيّة .

أما موقع الإعدام فكان يُجعل على بُعد كبير من المحكمة ، وعند سَوقه إلى هناك كان السّجين يُوقَف عدّة مرّات ، ويُسأل عمّا إذا كان بإمكانه أن يفكّر بأي شيء لم يُذكر ، قد يكون من شأنه التأثير في رأي القُضاة لصالحه . وكان يحقّ له العودة إلى المحكمة تكراراً كما يرغب لتقديم دُفوع فرعية جديدة ، وكان ثمّة مُنادٍ يتقدّمه ويصيح عالياً : «هذا الرّجل يُساقُ إلى الإعدام . . . وجريمتُه كذا . . . والشّهود عليه فُلان وفُلان . . . فإذا كان لدى أحد أي شيء يشهد به لصالحه ، فليتقدّم الآن ويُدلي بما لديه» .

وكان يُطالَب قُبيل إعدامه بالاعتراف ، فيقول له القوّامون : «اعترف بذُنوبك ، فكلّ مَن يعترف ويتوب له في الآخرة نصيب» . فإن لم يُدلِ باعتراف كان يُطلب إليه ترديد التالي : «فليكُن موتي كفّارةً لذنوبي كلّها» .

غير أن عقوبة الإعدام مع ذلك كلّه كانت شيئاً نادر الحدوث[1] ، وكأنها كانت من النّاحية العَمَليّة مُلغاةً . والواقع أن عديداً من القُضاة كانوا ينادون عَلَناً بإسقاطها ، وكان ثمّة محكمة نطقت بحكم موت واحد خلال سبع سنين ، أُطلق عليها لقب : «محكمة القَتَلة» .

* * *

(1) المحاولات پراغماتيّة واضحة لتصوير أحكام الشريعة اليهودية القديمة وكأنها تتوافق تماماً مع إيديولوجيات العصر الحاضر ومعاييره الأخلاقيّة ، بأعلى مستوى .

عيد العُبور
פסח يِسح (الفصح)

يبدأ عيد الخبز الفطير أو عيد العُبور[1] عشيّة يوم 14 من شهر «نيسان» ניסן (أبريل) ، ولقد تمّ وضعه تخليداً لذكرى رَدّ أسلافنا من مصر ، وهي ذكرى أبديّة . وخلال مدّة هذا العيد يُحرّم علينا كليّاً تناول أي طعام مُخمّر[2] .

قال مُوشيْه لليسرَئيليين باسم الرّب[3] : «اسحَبوا وخُذوا لكم غَنَماً» .

فلدى التزامهم بهذه الوصيّة يستحقّون الله بجدارة وهو بالتالي بخلّصهم ، لأنه عندما تكلّم كانوا «عُراةً حُفاة» من الأعمال الصّالحة والفِعال الحميدة .

«اسحَبوا وخُذوا لكم غَنَماً» : أي انسحبوا عن الأوثان التي تعبدونها مع المصريين ، ومن العُجول والحِملان المصنوعة من الحجر أو من المعدن ، إنما بواحد من الحيوانات التي كنتم بها تُذنبون تهيّأوا للوفاء بالتزامكم تجاه أوامر إلهكم .

ولمّا كان الرّمز الفلكي لشهر نيسان هو الحَمَل ، وحتى لا يَقِرَ في أذهان المصريين أنه من خلال قوّة الحَمَل تمّ لهم الانتفاض من نَير العبوديّة ، فقد أمر الله شعبه أن يأخذوا حَمَلاً ويأكلوه . ولقد أُمروا بأن يشووه كاملاً وبألاّ يكسروا فيه عَظماً ، لكي يتيقّن المصريون من أن ما أكلوه كان حَمَلاً بالفعل .

وقال الله لمُوشيْه : «قُل لبني يسرَئيل أن يطلبوا من المصريين أمتعة ذَهَب وأمتعة فضّة»[4] ، لئلاّ يُقال فيما بعد : «لقد تحقّق الكلام القائل : «ويُستَعبَدون لهم فيُذلّونهم» ، ولم يتحقّق الكلام القائل : «وبعد ذلك يخرجون بأموال جزيلة»[5] » .

---

(1) يِسح (أو فِسح) في العبريّة هو العبور ، ومنه نقلت السّريانية : ܦܨܚܐ ، وعنها العربيّة ، والفرنسيّة pâques ، والرّوسيّة Пасха ، بينما في الإنكليزيّة passover .

(2) أي العجين يُداف بالماء أو يُلَتّ بالزيت ليختمر في اليوم التالي . أما الفَطير فالعجين قبل اختماره ، ولذا يُسمّى عيد الفصح : חג המצות «حَج هَمّسوت» (عيد الفطير) .

(3) سفر الخروج – 12 : 21 .

(4) اقتباس من سفر الخروج – 3 : 22 ؛ 11 : 2 .

(5) انظر سفر التكوين – 15 : 14 .

ولمّا كلّم مُوشيْه اليسرَئيليين بأن عليهم أن يصعدوا خارجين من مصر بأملاك جزيلة ، أجابوه : «ليتنا نخرج ولو كانت أيدينا فارغـة» ، أي كـالعبد المُلقى بـه في السّجن ، إذا قال له السّجّان : «غداً أُطلقك من السّجن ، وأعطيك مالاً وفـيراً» ، أجابه : «أطلقني اليوم ، ولا تعطني شيئاً» .

وفي اليوم السّابع من عيد العُبور عَبَرَ بنو يسرَئيل خلال البحر الأحمر على اليابسة .

في بعض الأيـام ، كـان رجـلٌ يسافر في طريقـه وابنه يسبقه على الـدّرب . فعرض لهما أمامهما قاطع طريق ، فوضـع الرّجـل ابنـه خلفـه . وإذا بذئـب يـأتي خلف الصّبي ، فحمله أبوه واحتواه في ذراعيه .

فهكـذا بنـو يسـرَئيل ، لّما أرهقتهـم أشعّة الشـمس الحـادّة «نشر الله عليهـم السّحاب ليَقيهم» ، ولّما جـاءوا أمطر الله عليهـم خُبزاً مـن السّـماء ، ولّما عطشـوا «أخرج لهم الماء من الصّخرة»[1] .

عيد الحَصَاد
חג הקציר

يقع «عيد الأسابيع»[2] חג שבעות أو عيد «الحَصَاد» חג הקציר في اليوم السادس من الشهر الثالث «سيوان» סיון (حزيران) . وهو يُسـمّى بعيـد الأسـابيع لأنه عند مضيّ تسعة وأربعين يوماً ، أو سبعة أسابيع بما يُعادلهـا ، مـا بـين اليـوم الثاني من عيد العُبور ، كانت العادة (إبّان كان الهيكـل قائماً) أن تُقـدَّم حزمـة من الشّعير الأخضر ، وفي هذا الاحتفال كان يُخصّـص رغيفـان مخبـوزان مـن بـاكورة دقيق القمح المحصـود ، لكـي يُقدَّمـا «خميراً بـاكورةً الرّبّ» . وهـو كذلـك بمثابـة ذكرى لتسليم الله لَوْحي الوصـايا لُموشيْه بجبل سيناء[3] .

---

(1) انظر سفر الخروج – 17 : 6 .
(2) انظر سفر الخروج – 34 : 22 .
(3) انظر سفر الخروج 24 : 12 ؛ 34 : 1 .

ولكن لماذا لا نرى الكتاب المقدّس ينصّ على ذكر هذا العيد كباقي الأعياد الأخرى ، بأن يصرّح قائلاً على سبيل المثال : «في اليوم السّادس من الشهر الثالث نزلت الشريعة» ؟

هذا لأنه في العصور السّالفة كان الذين يحملون جُزافاً لقب «الحُكماء» يكرّسون إيمانهم وعبادتهم للكواكب[1] ، ويعدّدونها سبعة ، ويخصّصون لكل واحد منها يوماً من أيام الأسبوع . واختارت بعض الأمم الشمس إلهاً أكبر لها ، بينما فضّلت أممٌ سواها القمر ، وهكذا دَواليك ، فكانو يصلّون لها ويعبدونها . ولكنهم ما كانوا يعلمون أن الكواكب تتحرّك وتتغيّر بحسب موازين الطبيعة ، التي وضعها وبرأها الله العليّ القدير ، والتي بيده لأن يغيّرها حسبما يشاء ويريد ، وجرى أن عديداً من اليسرَئيليين اعتنقوا جهالاتهم وكفرهم هذا . ولذلك ، بما أنهم اعتبروا الكواكب سبعة ، فلقد وضع الله أشياء كثيرة أخرى بناءً على هذا العدد ، لكي يُريهم أنّما كما هو خالقهم فهو أيضاً خالق الكواكب[2] .

وأما اليوم السّابع من الأسبوع فجعله يوم شَبّات ، والسّنة السّابعة جعلها سنة راحة ، وبعد مضيّ سبع سنين سبع مرّات ، أي بعد مضيّ سبع سنين سَبتيّة (שנה שמטה) ، عيّن سنة اليوبيل היובל ، أو سنة الخَلاص . وخصّص سبعة أيام لعيد العُبور (الفصح) ، وسبعة أيام لعيد المَظالّ (سُكّوت) . وحصار أريحا دام سبعة أيام ، قام أثناءها سبعة كهنة بنفخ سبعة أبواق (شُوفار שופר) ، وهم يطوفون حول أسوارها سبع مرّات في اليوم السّابع .

لذلك ، بعد احتساب سبعة أسابيع خلال أوان نُضج القمح ، يتعيّن على اليسرَئيليين عقد احتفال في الكنيس ، لتسبيح مَن يمنع ما يشاء ولا يمتنع عنه شيء ، ومَن يُغيّر ما يشاء ولا يطاله تغيير .

---

(1) المقصود بذلك الدّيانات الوثنيّة في المشرق ، وما نقل عنها وتبعها في أوروبا بوثنيتها الغربيّة التي انتسخت خصوصاً عبادة البعل الكنعاني وأبيه إيل (صار لدى الإغريق زيوس ولدى الرّومان جوپيتر) . أما الشمس فرمز لزيوس والقمر لأنثاه .

(2) ما شاء الله ، إذا كان واضعو هذه النظرية العبقريّة يرون أن الله يمكث في انتظار جهالات القوم ليضع لكونه مقاييسه بغرض إفحامهم ، فهذا ينقض عقيدتهم الدّينية لمبدأ التوحيد ولكون الخالق كلّيّ القُدرة وحكيماً ! حاشى وتعالى عن هذا الهذر .

في اليوم الأول تمّ تخليص اليسرَئيليين من نَيْر العُبوديّة ومن العبادة الباطلة ، وفي اليوم الخمسين مُنحوا الشريعة لتوجّههم في أمور معاشهم ، ولذا فلقد أُمِروا بتعداد هذه الأيام وحفظها .

وتروي الأسطورة أن بني يشمَعيل طُلب إليهم أن يتّبعوا الشريعة ، فسألوا : «فعَلامَ تنصّ الشريعة ؟» ، قيل لهم : «لا تسرق» . فأجابوا : «فكيف نتّبعها إذاً وقد ورد في حقّ أجدادنا بالكتاب المقدّس : «يده على كل واحد»[1] ؟» .

كما طُولب بنو عيسو أن يتّبعوا الشريعة ، فسألوا أيضاً : «عَلامَ تنصّ ؟» ، قيل لهم : «لا تقتل» ، فقالوا : «لا يمكننا اتّباعها ، لأن أبانا يصحاق قد باركنا بقوله : «وبسيفك تعيش»[2]» .

ثمّ إنه لما طُولب بنو يسرَئيل[3] باتّباع الشّريعة ، أجاب الشعب : «سمعنا وأطعنا» .

عيد رأس السنة ، أو يوم الذكرى
(رُوش هَشّاناه) ראש השנה

في اليوم الأول من الشهر السابع «تشري» תשרי تحلّ ذكرى خلق الدّنيا . وفيه يُنفخ في البُوق (الشُوفار שופר) إعلاناً على النّاس أن سنةً جديدة قد بدأت دورها ، ولكي يُنذَروا على وجوب مراجعة أعمالهم بشكل دقيق ، والتّوبة عن الذّنوب حيث تجب التّوبة .

أفلا يجدر بكل إنسان عاقل ، إن كان دارياً باقتراب مثوله أمام محكمة إدانة ، أن يهيّئ نفسه لمثل ذلك اليوم ؟ أوليس يلجأ للاستشارة ، سواءٌ أكانت الدّعوى تتعلّق بقضيّة مدنيّة أم جنائيّة ؟ فكيف إذاً بالأحرى يلزمه أن يكون

---

(1) سفر التكوين – 16 : 12 .

(2) سفر التكوين – 27 : 40 .

(3) الطريف أن الباحث في تاريخ الأمم والشعوب ليس بواجد أمّة – لا في الشرق ولا في الغرب – إلا وتجزُم بأنها خير الأمم وأرفعها شأناً ، اصطفاها الله من دون العالمين !

مستعداً لمواجهة ملك الملوك ، العالم بأسرار الصّدور وخفايا الأمور ؟ ففي هذه القضيّة ليست تفيده أيّة استشارة ، وإنّما لا يُدافع عنه ويترافع إلا التّوبة والتّقوى وأعمال البِرّ . لذلك ، فعلى الإنسان أن يراجع أعماله ويتوب عن خطاياه ، قبل حُلول يوم الدّينونة . وفي شهر «إيلول» אלול (سبتمبر) عليه أن يضع نفسه أمام مسؤوليّة العدالة الرّهيبة التي تتربّص بالبشريّة كلّها .

وهذا هو العيد الذي غفر فيه الرّبّ لليسرَئيليين الذين صنعو الشّرّ بعبادة العجل المسبوك . وفيه أمر مُوشيْه بالصّعود ثانيةً إلى الجبل ليعطيه لوحاً آخر ، بعدما كسر الأول . فهكذا يقول الحكماء : «قال الرّب لُموشيه في شهر إيلول : «إصعد إليّ إلى الجبل»[1] ، فصعد مُوشيْه وتلقّى اللّوح الثاني في ختام الأربعين يوماً . وقبل صعوده أمر بنفخ البُوق عبر المُخيّم» . ومُنذ ذيّاك الحين ، جرت العادة بنفخ الشّوفار (البُوق) في الكُنُس ، لتحذير النّاس بأن يوم الحساب في السنة الجديدة يقترب بسرعة ، ومعه يوم الدّينونة . ولذلك ، تُتلى صلوات الاسترحام مرتين في كل يوم صباحاً ومساءً ، اعتباراً من اليوم الثاني من إيلول وحتى عشيّة يوم الغُفران ، وهذه الفترة تتضمّن الأربعين يوماً الأخيرة التي قضاها مُوشيْه في سيناء[2] ، عندما رضي الله عن بني يسرَئيل ، وغفر لهم خطيئة الشّرك بعبادة العجل المسبوك .

قال الرّابي إليعيزَر : «وُلد أبرَهام ويعقوب في شهر تشري ، وفيه ماتا . وفي اليوم الأول من تشري تمّ خلق الكون ، وخلال عيد العبور وُلد يصحاق . وفي أول تشري (رأس السنة) تذكّر الله النّسوة العاقرات الثلاث : ساراه ، وراحيل ، وحَنّاه . وفي اليوم الأول من تشري وُضع عن أجدادنا كدّهم الشاقّ بأرض مصر . وفي أول تشري خُلق آدام ، ومن بداية خلقه نحتسب سنين تقويمنا ، أي مُنذ اليوم السّادس للخليقة . وفي ذلك اليوم أيضاً أكل من الثّمرة المحرّمة ، ولذلك فهو العيد المعيّن للتّوبة والتّوّابين ، حيث قال الرّب لآدام : «هذه تكونُ علامةً للأجيال التي تأتي ، ففي هذه الأيام يُدان نسلُك ، وفيها تكون التّوبة والغُفران»» .

---

(1) انظر سفر الخروج – 24 : 12 .
(2) انظر سفر الخروج – 24 : 18 .

هذا وإن الرّبّ يُعلن أوامره أربع مرّات في السنة :

فأولاً : في رأس السنة ، باليوم الأول من تشري . فيه يؤمَر بمحاسبة نفوس البشر جميعاً عن السنة القادمة .

ثانياً : في اليوم الأول من عيد العُبور . فيه يُعيَّن في القَدَر مدى إمحال غلال الحُبوب أو وَفرتها .

ثالثاً : في عيد الحَصَاد . فيه يُبارك الرَّبّ ثمار الأشجار ، أو هو يأمرها بألاّ تحمل إلا لُماماً .

رابعاً : في عيد المَظالّ . فيه يقرّر الرّبّ إن كان المطر سيبارك الأرض في موسمه أم لا[1] .

ويُدان الإنسان في يوم رأس السنة ، ثم يصدر عليه الحُكم مُبرَماً في يوم الغُفران . غير أن الرّابي ناتان قال إن الإنسان يُدان في جميع الأوقات .

وكان الرّابي عَقيبا يعلّم تلاميذه : «لمَ تأمر الشّريعة في عيد العُبور بتقديم حزمة من الشّعير ؟ لأن عيد العُبور هو موسم حصاد الحُبوب . فالرّبّ يقول : «قدّموا لي حزمة شعير في يوم العُبور ، أُبارك لكم القمح الذي في الحقل» .

«ولماذا في الكتاب : «وعيد الحَصَاد أبكار غَلاّتك التي تزرع في الحقل»[2] ؟ هذا لأنه في وقت عيد الحصاد تنضج الثّمار ، والله يقول : «قدّم لي رغيفين من أبكار القمح ، أُبارك لك الثّمر الذي على الشّجر» .

---

(1) يرى الباحثون أن أصول اليهوديّة متأثرة بأديان الشرق القديم الوثنيّة الحُلوليّة ، المتمحورة في الزّراعة والحياة الرّعويّة . فيُلاحَظ هنا : غلال الحبوب ، ثمار الشّجر ، كميّة المطر . ولا ننسى أن البعل (الخصم الأكبر للتّوحيد اليهودي والأقدم منه) كان إلهاً زراعياً للمطر والخصب ، بينما كان أبوه إيل للخَلق والبَركة (على سذاجة تفكير الكهنة) . ومن المثير أن اسم البَعل ما زال حياً في بلاد الشام كلّها : «أرض بعل ، تين بعل» ، ومؤخراً سمعنا في قرى جبال اللاذقيّة (موطن الكنعانيين القُدامى أبناء «أجَريت») عبارة تعجب رائعة : «أيلي» (بمدّ الياء الأخيرة وإمالتها بلهجة كنعانيّة السّاحل) ، تدلّ بوضوح صارخ على اسم الإله الآب إيل ، الذي ما برح لليوم في الآراميّة والعبريّة : אל .

(2) سفر الخروج - 23 : 16 .

«ولماذا أُمرنا بتقديم قُربان شراب من الماء إلى الهيكل في عيد المظالّ ؟ لأن عندها يكون موسم المطر[1] ، والربّ يقول : «قدّم لي تقدمة الشّراب من الماء ، أُبارك لك مطر هذا العام» .

«ولماذا يصنعون البوق الذي يُنفخ فيه من قرن الكبش ؟ لكي يذكر الرّبّ الكبش الذي ضُحّي به بدلاً من يصحاق ، ويسمح لكرامة الأجداد الصّالحين أن تزن لصالح نسلهم ، كما هو مكتوبٌ في الوصايا العَشر : «وأصنعُ إحساناً إلى ألوف من مُحبّيّ وحافظي وَصاياي» (خُروج 20 : 6)»[2] .

في يوم رأس السّنة تُتلى في الكُنُس عُهود الميثاق الذي كان أُعطي ليصحاق للسّبب ذاته . ففيما هناك لدى الله رحمةٌ بعباده ، فهو يسمح لهم بفرصة للتّوبة لئلاّ يهلكوا في شُرورهم ، فلذا علينا كما هو مكتوب في مراثي يِرِمْياه (3 : 40) أن «نفحص طُرُقنا ونمتحنها ونرجع إلى الرّبّ» .

خلال السنة يكون الإنسان ميّالاً إلى الفُجور والتّمادي في معاصيه ، ولذلك يتمّ نفخ البُوق لردّه إلى رشده وتنبيهه إلى الوقت الذي يمضي بسرعة . فيُقال له : «انهض من سُباتك ، فإن ساعة العقاب تدنو» . فالله الأزلي لا يرغب بإهلاك أبنائه ، بل بمجرّد دفعهم إلى التّوبة وحُسن المآب .

وثمّة ثلاثة صُنوف من البشر يُحضرون للدّينونة : الصّالحون ، والأشرار ، والمُهملون . فأمّا الصّالحون فإن الله يُثيبهم حياةً مُنعمة ، وأمّا الأشرار فيُدينُهم ، وأمّا المُهملون فهو يُمهلهم . ومن يوم رأس السنة إلى يوم الغُفران يُمسك عن إجراء حُكمه ، فإن هم تابوا حقاً يُدخَلون في زُمرة الصّالحين وتجوز لهم الحياة الطّيّبة . لكنّهم إن بقوا على حالهم يُحسبون عندها من الأشرار .

---

(1) التشابه تام بين تقدمة قُربان عيد سُكّوت الذي يبدأ في 15 تشرين الأول (أكتوبر) وبين عيد قُربان الماء لدى الكنعانيين ، فكانوا في الفترة ذاتها يقومون بشعيرة سكب الماء في جُرن مقدّس يقع على قمّة جبل حرمون – أعلى قمّة في جنوب سورية – ليُبارك بعل حرمون المطر ونبع الأعوج وغُدرانه . وعلى القمّة إلى اليوم آثار معبد وثني (قصر عنتر) كان به كتابة يونانيّة قديمة استلبها آثاري إنكليزي لصالح جمعيّة .P.E.F عام 1880 .

(2) انتهى كلام الرّابي عَقيبا .

وثمّة ثلاثة أصوات للبُوق يُعَبَّر عنهـا في الكتـاب المقـدّس : فـالصّوت الأول صوتٌ رَخيم (تقيعاه תקיעה)[1] ، والثاني صوت تحذير أو وعيد مُرتجف (تِروُعـاه תרועה)[2] ، ثم الثالث صوتٌ رَخيمٌ من جديد (تِقْيعاه תקיעה) .

فالصّوت الأول يمثّل الصّحوة الأولى للإنسـان نحـو التّوبـة ، ولـذا عليـه أن يختبر قلبه جيداً ويتخلّى عن طُرُقه الشّرّيرة وأن يُنقّي سريرته ، كما هـو مكتـوب : «ليترك الشّرّير طريقه ورجلُ الإثم أفكارَه ، وليتُب إلى الرّبّ فيرحمه»[3] .

أما الصّوت التّحذيري فيمثّل الأسف الـذي يشعر بـه الإنسـان النّـادم علـى سُوء مسلكه ، وعلى عزمه الصّادق على العودة إلى جادّة الصّلاح .

والصّوت الأخير هو الصّوت الرَّخيم من جديد ، الذي يمثّـل رغبـةً مُخلصـة في الإبقاء على القلب التّائب مجرّداً من الذّنوب .

والكتاب المقدّس يقول لنا : «بل الكلمة القريبة منك جداً وفي قلبـك لتعمـل بها» (تثنية 30 : 14) . فتعلّمنـا هـذه الآيـة أن التّوبـة هـي أقـرب إلـى المؤمنـين بـالله وكتابه ممّا يدّعيه المتزمّتون . فثمّة كفّـارات عسيرة يفرضهـا هـؤلاء المُتزمّتون علـى المُذنب بينهم : فعليه صيام أيام عدّة ، أو أن يمشي حافياً على دروب وعرة ، أو أن يبيت الليل في العَراء . ولكن في الحقيقة ليس مطلوباً منا أبـداً أن نطـال قـاع المُحيط أو نرتقي قمم الجبال ، حيث أن كلمة الله المقدّسة تقول لنا : «ليست هي في السّماء ولا هي في عبر البحر ، بل الكلمة قريبة منك جداً»[4] .

هذا ويُمكن لنا القيام بالتّوبة عبر هذه الطرق التالية :

أولاً : لَفظاً بالكلام ، الصّادر عن قلب سليم .
ثانياً : بمشاعرنا المُفعمة بالأسى على ما اقترفناه من ذُنوب .
ثالثاً : بصالح الأعمال في تالي الأيام .

---

(1) منها المُفردة العبرية : תקע تِيْقَع : النّفخ في الصُّوْر .
(2) مثال ذلك في العبريّة : תרועת הצוצרה تروعَت هَصُّوصراه : صوت البُوق .
(3) سفر يشَعْياه – 55 : 7 .
(4) سفر التثنية – 30 : 12 .

أعلن الرّابي سعدياه أن الله أمرنا بالنّفخ في البُوق يوم رأس السّنة لعشرة أسباب ، هي :

أولاً : لأن في هذا اليوم كانت بداية الخَلق ، عندما بدأ حُكم الله على الكون والخليقة ، فبما أنه من المألوف نفخ الأبواق لدى تتويج ملك ما ، علينا بالطريقة ذاتها أن نُعلن بصوت البُوق أن الخالق هو مَلِكُنا ، كما قال داوِد : «بالأبواق وصوت الصُّوْر اهتفوا قُدّام المَلِك الرّبّ»[1] .

ثانياً : بما أن يوم رأس السنة هو أول أيام التّوبة العشرة ، فنحن نقوم بنفخ بُوق الشُّوفار كدعوة لحثّ الجميع على الأوبة إلى الله والتّوبة إليه . فحتى لو لم يفعلوا ، فهم على الأقل قد نالوا تحذيراً ، ولا يمكن لهم أن يحتجّوا بمبرّر الجهل . وعلى النّحو ذاته ، نرى أن ملوك الدّنيا يُعلنون أوامرهم ومراسيمهم ضمن هذا الإجراء أصولاً ، لئلاّ يقول قائلٌ من النّاس : «لا عِلمَ لنا بهذا» .

ثالثاً : ليذكّرنا بالشّريعة التي نزلت في جبل سيناء ، حيث يُقال : «وصوتُ بُوق شديد جداً» וקל שפר חזק מאד (سفر الخروج 19 : 16) . وأيضاً لكي يذكّرنا أن علينا تجديد العهد على أنفسنا بتنفيذ وصاياه ، كما فعل أجدادنا فقالوا : «كلّ ما تكلّم به الرّبّ نفعل»[2] כל אשר־דבר יהוה נעשה .

رابعاً : لكي يذكّرنا بالأنبياء ، الذين يُشبّهون بالرُّقباء الحارسين الذين ينفخون في بُوق التّحذير ، كما نجد في سفر يَحَزْقيل (33 : 4) : «فإذا سمع السّامع صوت البُوق ولم يتحذّر فجاء السّيف وأخذه ، فدمُه يكون على رأسه . وأمّا مَن يتحذّر فيخلّص نفسه» .

خامساً : ليذكّرنا بخراب الهيكل وصيحات الحرب المُرعبة التي يُطلقها عدوّنا : «لأنكِ سمعتِ يا نفسي صوتَ البُوق وهُتافَ الحرب» (يِرميَاه 4 : 19) . لذلك ، فإنه يتوجّب علينا عندما نسمع صوت الشُّوفار أن نتوسّل إلى الله لإعادة بناء الهيكل .

---

(1) مزامير داوِد – 98 : 6 .
(2) سفر الخروج – 19 : 8 .

سادساً : ليذكّرنا بعهد يصحاق ، الذي قدّم نفسه قُرباناً للأضحية عن طيب خاطر ، تمجيداً لاسم الله القُدّوس .

سابعاً : عندما نسمع صوته المُرعب ، قد يدفعنا ذلك من جَرّاء الخوف إلى التّواضُع أمام سيّد الكون ، لأن من طبيعة هذه الآلات الحربيّة التسبّب في شعور بالرُّعب ، كما لاحظ النّبي عاموس עמוס : «أم يُضرَب بالبُوق في مدينةٍ والشّعبُ لا يرتعد ؟»[1] .

ثامناً : لكي يذكّرنا بيوم الدّينونة العظيم والرّهيب الذي يُنفَخ فيه بالصُّوْر ، كما نجد في سفر صَفَنياه (1 : 14-16) : «قريبٌ يومُ الرّبّ العظيم ، قريبٌ وسريعٌ جداً ، يومُ بُوقٍ وصوتُ نفير[2]» יום שופר ותרועה .

تاسعاً : لكي يذكّرنا بأن ندعو لحلول أوان الوقت الذي يُجمع فيه منبوذو بني يسرَئيل سوياً ، كما هو موعود في سفر يشَعْياه : (27 : 13) : «ويكون في ذلك اليوم أنه يُضرَب ببُوق عظيم ، فيأتي التائهون الهالكون في أرض أشّور» .

عاشراً : لكي يذكّرنا بقيامة الأموات ، وبإيماننا التّامّ بذلك . يقول النبي يشَعْياه[3] : «يا جميع سكّان المسكونة وقاطني الأرض ، عندما ترتفع الرّاية على الجبال تنظرون ، وعندما يُضرَب بالبُوق تسمعون !» .

لذلك كلّه ، علينا أن تبقى قُلوبنا مُعلّقة بهذه الأعياد ، وأن نطبِّق الوصيّة التي تأمرنا بها التُّوراه ، كما هو مكتوب[4] : «هذه هي الفرائض والأحكام التي تحفظون لتعملوها في الأرض التي أعطاك الرّبّ إله آبائك ، لتمتلكها كلّ الأيّام التي تحيون على الأرض» .

* * *

(1) سفر عاموس – 3 : 6 .
(2) في الترجمة العربية : «يوم بُوق وهُتاف» ، وهذا غلط فالمفردة العبرية תרועה «تروعاه» تعني : صوت النفخ في البوق ، تقدّمت ص 373 .
(3) سفر يشَعْياه – 18 : 3 .
(4) سفر التثنية – 11 : 32 ؛ 12 : 1 .

عيد يوم الغُفران

(يوم كِپور) יום כפור

من الطبيعي أن قلوب كل مَن يخافون الله ينبغي أن ترتجف لدى تصوُّر فكرة أن جميع أعمال النّاس يدري بها الخالق تمام الدّراية ، وأنها سوف تُحتسَب عليهم خيراً أم شراً . غير أن الله على الدّوام جاهزٌ لقبول التّوبة الصّادقة . ولهذه التّوبة درجاتٌ سَبع ، هي :

أولاً : توبة الإنسان الصّالح ، الذي يتوب عن خطأه بمجرّد أن يُدرك ذنبه . فهذه التّوبة هي خير الدّرجات وأتمّها كمالاً .

ثانياً : توبة الإنسان الذي عاش بعض الوقت حياةً مَعصية ، لكنه في أيّام فَورة شبابه يتخلّى عن طُرُقه الشرّيرة ، ويكبح في نفسه مُيوله الفاسدة . كما قال شلومو : «فاذكُر خالقَك في أيّام شبابك» וזכר את־בוראיך בימי בחורתיך (الجامعة 12 : 1) . فبادر إذاً بترك طُرُقك الشرّيرة إبّان فَورة حياتك .

ثالثاً : توبة الإنسان الذي حالَ سببٌ ما دونه واقتراف ذنب كان ينويه ، ثمّ أحسّ حقاً بالنّدم على نيّته الخبيثة . يقول صاحب المزامير : «طُوبى للرّجُل المُتّقي الرّبّ»[1] . ولكن أيُراد به الرّجل دون المرأة ؟ بل البشر أجمعهم ، لكن الكلمة المُستخدمة تفيد معنى القوّة ، أي مَن يتوبون إبّان شبابهم وفَورة حياتهم .

رابعاً : توبة الإنسان الذي تكون معصيتُه في حقّ نفسه ، فيُوبّخ عليها ، كما في مثال أهل نينوى ، إذ أنهم لم يتوبوا حتى توجّه إليهم يُوناه مُنذراً : «بعد أربعين يوماً تنقلبُ نينوى»[2] . وكان أهل نينوى يؤمنون برحمة الله ، فرغم أن أمر الله قد صدر في حقّهم لم يُثنهم ذلك عن المُبادرة إلى التّوبة . «فلمّا رأى الله أعمالهم أنهم رجعوا عن طريقهم الرّديئة ، ندمَ اللهُ على الشرّ الذي تكلّم أن يصنعه بهم فلم يصنعه»[3] .

---

(1) مزامير داود – 112 : 1 .
(2) سفر يوناه – 3 : 4 .
(3) سفر يوناه – 3 : 10 .

ولذلك فإن الحاخامين يقولون : «يا أيّها الإخوة ، لا لُبس المُسوح ولا الصيّام يعودان بالمغفرة على الذّنوب ، وإنما يكون ذلك بتوبة القلب وبأداء صالح الأعمال ، فلم يُذكَر عن أهل نينوى أن «الله رأى صيامهم ومُسوحهم» ، بل «رأى الله - أعمالهم - أنهم رجعوا عن طريقهم الرّديئة» » .

خامساً : توبة مَن يتوبون إن هُم مَسَّهُم الضُّرّ . فكم يتّسم قبول توبة هؤلاء بالنُّبل بما يسمو كثيراً عن طبيعة البشر ! مثال ذلك قصّة يفتاح الجلعادي : «أمَا أبغضتموني أنتم وطردتموني من بيت أبي ، فلماذا أتيتم إليّ الآن إذ تضايقتُم ؟» (سفر القضاة 11 : 7) . غير أن الرّحمة اللامحدودة لإلهنا تتقبّل حتى مثل هذه التّوبة ، كما هو مكتوب : «عندما ضُيِّق عليك وأصابتك كلّ هذه الأمور . . ترجع إلى الرّبّ إلهك»[1] . وعلى هذا المبدأ وُضع مَثَل الآباء الشائع : «التّوبة وصالح الأعمال درعٌ واقٍ دون البَلوى والعقاب» .

سادساً : توبة الطّاعن في السّنّ . فحتى إن بلغ الإنسان أرذلَ العُمر وغدا ضعيفاً واهناً ، ثم تاب من قلبه ، فإن توبته تُقبَل . كما يقول صاحب المزامير[2] : «تُرجع الإنسان إلى الغُبار ، وتقول : «ارجعوا يا بني آدام» » ، بمعنى أن الإنسان بإمكانه الرّجوع في أيّ وقت أو بأيّ عُمر : «ارجعوا يا بني آدام» .

يقول الحاخاميم : «حتى وإن كان الإنسان صالحاً في شبابه وقوّته ، لو أنه عصى أوامر الله في شيخوخته فإن فَضل صَلاحه السّابق يزول عنه ، كما هو مكتوب : «إذا رجع البارُّ عن برّه وعمل إثماً ، ومات فيه ، فبإثمه الذي عمله يموت» (يحَزَقْيل 18 : 26) . غير أن الإنسان الذي كان شرّيراً في مُقتَبَل عُمره ، ثم شعر بندم حقيقي وتاب في أواخر عُمره ، لا يعود «شرّيراً» بعدها . ولكن هذه التّوبة مع ذلك ليست بمحمودة إن هي تأخّرت كثيراً» .

سابعاً : وهي آخر درجات التّوبة والمغفرة : توبة مَن يكون عاصياً لخالقه طوال أيام حياته ، ثم يرجع إليه عندما تمتدّ إليه يدُ الموت .

---

(1) سفر التثنية - 4 : 30 .

(2) مزامير داوِد - 90 : 3 .

يقول الحاخاميم إن كان ثَمّةَ امرؤٌ مريضاً ودَنَت ساعةُ موته ، فعلى الحُضور أمام سرير موته أن يقولوا له : «اعترف بذُنوبك أمام خالقك» .

فينبغي لِمَن كان مُشرفاً على حَتفه أن يعترف بذُنوبه وتقصيره . وما المريض المُحتضر إلا كرجل يقف أمام محكمة مُقامة لإحقاق العدل ، فإن كان لهذا الأخير مُحامون يترافعون عنه ويُزكّون دعواه ، فليس للأوّل ما يُحامي عنه إلا التّوبة وصالح الأعمال . كما هو مكتوب في سفر أيّوب : (33 : 23–24) : «إن وُجد عنده مُرْسَلٌ وسيطٌ واحدٌ من ألف ، ليُعلن للإنسان استقامته ، يتَراءف عليه ويقول : «أطلقه عن الهُبوط إلى الحُفرة ، لقد وجدتُ فِديةً» » .

وعلى ذلك ، لدينا سبع درجات من التّوبة والتّكفير عن الذّنوب ، فمَن يُغفلها جميعاً عليه أن يُلاقي العذاب في الآخرة . لذلك فقُم بالواجبات المُلقاة على عاتقك ، وتُب طالما كان المجال أمامك مُتاحاً لإصلاح ما أسأت به . كما يقول الحاخاميم : «تُب وإن حضرك الموت ، قبل أن تصير إلى رمسك» .

وكان النّبي يْحَزَقْئيل يُنادي مُنذراً : «يا بيت يسرَئيل ، تُوبوا وارجعوا عن كل معاصيكم ، ولا يكونُ لكم الإثمُ مَهْلكةً !»[1] בית ישראל שובו והשיבו מכל־פשעיכם ולא־יהיה לכם למכשול עון: فماذا يعني هذا الإنذار ؟ يعني أنه بغير التّوبة سوف تموتون .

ولقد تمّ تصوير مسألة التّوبة بهذه الحكاية :

يُحكى أنه كانت هناك سفينة كبيرة تُبحر عدّة أيام في عُرض المُحيط ، وقبل أن تبلغ وُجهتها المنشودة هبّت عليها ريحٌ وأنواءٌ عاتية حَرَفتها عن مسارها ، إلى أن تهادَت في النّهاية بالقرب من جزيرة بهيّة المنظر ، فأرساها بحّارتها عندها . وكانت في هذه الجزيرة تنمو أصناف الأزاهير والأقاحي الفوّاحة الخلاّبة والفواكه اللّذيذة بـ «إسراف بالغ» ، أمّا الأشجار الباسقة فكانت تُلقي بظلالها الوارفة الماتعة على جنبات المكان ، الذي بدا لركّاب السّفينة بأبلغ ما تشتهيه النّفس من الإمتاع والرّاحة .

---

(1) سفر يْحَزَقْئيل – 18 : 30 .

وانقسم هؤلاء الرّكاب إلى خمسة فرق : فقرّرت الفرقة الأولى منهم عدم مُغادرة السّفينة ، قائلين : «لعلّ ريحاً مُواتيةً تهبّ، ويمكن سحب المرساة وتتابع السّفينة إبحارها ، فتُترَك وراءها مُخلَّفين . لسنا نريد المخاطرة بفقدان الوصول إلى وجهتنا من أجل المُتعة المؤقّتة المُتاحة على هذه الجزيرة» . بينما مضت الفرقة الثانية إلى الشاطئ لبعض الوقت ، فاستمتعت بعطر الأزاهير ، واستطابت مذاق الفواكه ، وعادت إلى السّفينة مُغتبطةً وقد ساورها النّشاط ، فوجدت أماكنها على حالها ولم تفقد شيئاً ، إلا أنها اكتسبت على صعيد الصّحّة وطيب النّفس شيئاً كثيراً من جرّاء الاستجمام في زيارة الجزيرة .

أما الفرقة الثالثة فزارت كذلك الجزيرة ، لكنها بقيت طويلاً حتى هبّت الرّيح المواتية ، ولمّا يبلغوها إلا بالكاد وكان بحّارتها آخذين في سحب الأنجر (المرساة) ، وفي خلال عجلتهم وفوضى اندفاعهم فقد الكثير منهم أماكنهم ، ولم ينعموا بالرّاحة خلال تتمّة الرّحلة كما كان الأمر في بدايته . لكنهم مع ذلك كانوا أكثر تعقّلاً من الفرقة الرابعة ، فلقد مكث هؤلاء الأخيرون على متن الجزيرة طويلاً جداً ، وانغمسوا حتى الثُّمالة في مُتعها ، وتركوا جرس التّحذير في السّفينة يُجلجل دون أن يُلقوا إليه بالاً . وقالوا : «ها هي ذي الأشرعة ما زالت لم تُنشَر بعد ، فبوسعنا أن نغرف من المُتعة المزيد لبضع لحظات أخرى» . وراح الجرس يجلجل من جديد ، لكنهم مكثوا مُتوانين مُتباطئين ، وقالوا في أنفسهم : «لا شكّ أن الرُّبّان لا يُبحر دوننا» . لذا فقد مكثوا على الشاطئ حتى أبصروا السّفينة تتحرّك ، فما كان منهم إلاّ أن هبّوا بعجلة طاغية وسبحوا بإثر السّفينة وراحوا يتسلّقون جوانبها ، فمن جرّاء ذلك أصيبوا بقُروح وخُدوش لم يُشفوا منها في غُضون بقيّة الرّحلة .

أما الفرقة الخامسة ، فيا حسرةً عليها ! راح أولئك يأكلون ويشربون ويعمَهون في الملذّات والملاهي ، إلى درجة أنهم لم يسمعوا صوت الجرس ، ولمّا انطلقت السّفينة خلّفتهم وراءها . وراحت الوحوش الضّارية المُختبئة في الأدغال الكثيفة تصطادهم وتفترسهم ، وأمّا مَن نجا منهم من هذه البَليّة فقد هلك من فَرط التُّخمة .

فأمّا «السّفينة» فهي أعمالنا الصّالحة التي تحملنا إلى وجهتنا ، أي الآخـرة . و«الجزيرة» تمثّل متَع الحياة الدُّنيا ، التي أحجمت المجموعة الأولى من الركـاب عن تذوّقها أو النّظر إليها ، ولكنّها عندما يُستمتَع بها - كما فعلت الفرقة الثانية - فهي تجعل حياتنا مُريحةً ماتعة ، دون التّسبّب لنا في إهمال واجباتنا المفروضة . غير أن هذه المُتَع ينبغي ألاّ يُسمَح لها أن تستولي على نفوسـنا ومَلَكاتنا بـأكثر ممّا ينبغي . والواقع أن بوسعنا الرّجوع والعودة - كما فعلت الفرقة الثالثة - فيما يكون الوقت لا يزال مُتاحاً ، وإن كان الثّمن بعض الخُسران ، أو حتى كالفرقة الرّابعة التي لم تتمّ لها النّجاة إلا في الرَّمَق الأخير ، مع كثير من الكَدمات والجروح التي لا يمكن أن تُشفى بالكامل . لكننا نبقى في خطر دائم بأن نبيت كالفرقة الأخيرة ، فنُمضي حياتنا بأسرها ونحن نلهث وراء الباطل والتّفاهات ، ناسين المستقبل ، فنهلك حتى من السّمّ المستتر ضمن الأطايب التي تُغوينا .

فمَن هو المُستحقّ للأسى ؟ ومَن هو البائس ؟

ذلك هو مَن يترك لورثته ثروةً طائلة ، ويأخذ معه إلى قبره عبئاً ثقيلاً من الذّنوب . ومَن يجمع الثّروة بغير حقّ ، «مُحصِّل الغنى بغير حقّ ، في مُنتصف أيّامه يتركه» (يِرمْياه 17 : 11) . وعند أبواب دار الخُلود لا يُمكن للذّهب أو للفضّة أن تُرافق رُوح الإنسان ، بل إن الأعمال الصّالحة والإيمان بالله هي التي تكون دليلاً لرُوحه إلى النّجاة .

ورغم أن الله رؤوفٌ رحيم ويغفر ذُنوب الإنسان المُسيء بحقّه ، فإن مَن يُسيء إلى جيرانه وإلى النّاس عليه أولاً أن يتحصّل على مغفرة جيرانه والنّاس من قبل أن يطلب مغفرة الرّب[1] . قال الرّابي إليعيزر[2] : «هذا ما ينبغي لكم فعله ، كما هو مكتوب : «لتطهيركم من جميع خطاياكم أمام الرّبّ» (ليويين 16 : 30) . ففي يوم الغُفران تُتاح المغفرة لذُنوب الإنسان تجاه باريه ، ولكن ما خلا الذّنوب الواقعة على النّاس ، فتلك بحاجة إلى تنازُلهم أولاً» .

---

(1) هذه القاعدة الشرعية موجودة بشكل مُشابه تماماً في الإسلام .
(2) كان هناك اثنان من مشاهير الحاخاميم بهذا الاسم : إليعيزر بن شمعون (إليعيزر الكبير) ، وإليعيزر بن عازورياه . والأول كان مُعلّماً للثاني .

فإن طُولِب إنسانٌ بالصَّفح عن أخيه الإنسان ، عليه أن يفعل ذلك عن طيب نفس ، وإلاّ فكيف يجرؤ في يوم الغُفران على طلب المغفرة على خطاياه تجاه الله الأزلي ؟ ولقد جرت العادة في هذا اليوم للإنسان أن يطهّر نفسه كليّاً ، جسديّاً وروُحيّاً ، وأن يرتدي ثياباً بيضاء نظيفة ، ليتمثّل بذلك كلام النّبي يشَعْياه : «إن كانت خطاياكم كالقِرمِز تبيضُ كالثّلج»[1] .

* * *

يُحكى أن عُمدة إحدى المُدُن أرسل في إحدى المرّات خادمه إلى السّوق لشراء بعض السّمك . فلمّا وصل المذكور إلى موضع السّوق وجد أن السّمك قد بيع كلّه إلا واحدة ، وكان ثمّة خياط يهودي على وشك شراء هذه السّمكة المُتبقّية الوحيدة . فقال خادم العُمدة : «أدفعُ بها بها قطعة ذهبيّة» ، فقال الخياط : «فأنا أدفع اثنتين» . فأبدى رسول العُمدة عندها استعداده لدفع ثلاث قطع ذهبيّة بها ، غير أن الخيّاط تمسّك بالسّمكة ، وقال إنه لن يتخلّى عنها ولو اضطرّه الأمر لدفع عشر قطع ذهبيّة ثمناً لها . فما كان من خادم العُمدة إلاّ أن عاد إلى الدّار ، وروى لسيّده مُجريات الأمر وهو يتميّز غيظاً . فأرسل العُمدة في طلب الرّجل الذي يُعدّ واحداً من رعيّته ، فلمّا مثُل هذا الأخير أمامه سأله :

«ما هي صنعتُك ؟» .

أجاب الرّجل : «أنا خيّاط يا سيّدي» .

«إذاً كيف يمكنك أن تدفع ثمناً باهظاً في سمكة ، وكيف تجرؤ على إهانة كرامتي من خلال عرض مبلغ أكبر ممّا عرضه خادمي ؟» .

أجاب الخيّاط : «إنّي أصومُ غداً ، فلذا رغبتُ بالسّمكة لآكلها اليوم ، فأتقوّى بها على صيام الغد . ولم أكُ مستعداً للتخلّي عنها ولا مُقابل عشرة قطع ذهبيّة» .

سأل العُمدة : «فما فضلُ يوم الغد على سواه من سائر الأيّام ؟» .

---

(1) سفر يشَعْياه – 1 : 18 .

أجاب الرّجل : «فما هو فضلُك على سائر الرّجال ؟» .

«بأن المَلِك قد عيّنني لهذا المنصب» .

أجاب الخيّاط : «إذاً فلتعلمْ أن مَلِك المُلوك قد عيّن هذا اليوم أقدس من كلّ الأيام الأخرى ، حيث أننا في هذا اليوم نرجو الله أن يغفر لنا خطايانا» .

أجاب العُمدة : «إن كان الأمر كذلك فأنتَ على حقّ» . وانصرف اليسرَئيلي لشأنه آمناً مُطمئناً .

فهكذا إن نوى الإنسان طاعة الله ، لا شيء يُثنيه عن مقصده . في هذا اليوم أمر الله أبناءه بالصّيام ، لكن عليهم أن يقوّوا أجسادهم على طاعته بأن يأكلوا في اليوم السّابق له . فمن واجب الإنسان أن ينقّي نفسه ويطهّرها جسدياً ورُوحيّاً ، مع اقتراب يومه الأكبر . وإن عليه أن يكون تامّ الاستعداد للمُثول في أيّة ساعة أمام الحضرة الإلهيّة الجبّارة ، متّخذاً التّوبة وصالح الأعمال خير رفيق له .

كان لرجل ثلاثة رفاق ، وكان يحبّ أحدهم محبّةً جَمّة ، وكان يحبّ الثاني أيضاً إنما ليس بدرجة الأول ، أما تجاه الثالث فلم يكن شعوره مُبالياً .

فجرى أن ملك البلاد أرسل مقدّماً إلى هذا الرّجل ، يأمره بالحضور فوراً أمام العَرش . فارتعدت فرائص الرّجل للأمر ، وحسب أن بعض النّاس قد تكلّم باطلاً في حقّه ، أو لربّما افترى عليه تُهمة زُور أمام ملكه ، ولمّا خشي من المُثول بمفرده أمام الحَضرة الملكيّة ، فقد ارتأى أن يطلب من أحد رفاقه أن يذهب معه . فأولاً ، بطبيعة الحال طلب ذلك من أعزّ رفاقه ، لكن هذا أحجم على الفور عن الذّهاب ، دون أن يقدّم عُذراً أو سبباً لقلّة وفائه . فما كان من الرّجل إلا أن طلب ذلك من رفيقه الثاني ، الذي قال له :

«سوف أذهب معك إلى حدّ بوّابة القصر ، ولكنني لا أدخل معك أمام الملك» .

فلمّا اعتراه اليأس طلب الأمر ذاته من رفيقه الثالث الذي كان مُهملاً شأنه ، فإذا به يجيبه على الفور :

«لا تخشَ شيئاً ، فأنا ذاهبٌ معك وتراني أتكلّم في حقّك بكل خير ، ولا أتركك وحيداً حتى تنجلي عنك غمّتك هذه» .

فأمّا «الرّفيق الأول» فهو ثروة الإنسان ، التي ينبغي له أن يخلّفها وراءه عندما يموت . و«الرّفيق الثاني» يتمثّل بالأقارب الذين يتبعونه إلى القبر ويتخلّون عنه بعدما يُهال على جُثمانه التّراب . وأما «الرّفيق الثالث» الذي دخل معه إلى حضرة الملك فهو بمثابة الأعمال الصّالحة خلال حياة الإنسان ، التي لا تتخلّى عنه أبداً ، بل تصاحبه وتشدّ من أزره أمام ملك الملوك ، الذي لا يُقيم لأحد مهابةً ولا يأخذ من أحد رشوةً .

وكان الرّابي إليعيزر يعلّم تلاميذه بما يلي :

«في هذا اليوم العظيم والرّهيب لا يجد الملاك «سَمال» סמל (الرَّقيب) أي حَوب أو ذنب يشُوب بني يسرَئيل ، فيخاطب العليّ القدير قائلاً :

«أيّها الملك الرّبّ ، على وجه الأرض في يومنا هذا ثمّة شعبٌ مُطهّر ومُبرّاً ، وبنو يسرَئيل هم كالملائكة في يوم الغُفران . وكما يحلّ السّلام في السّموات فهو يحلّ الآن عند هذا الشّعب ، المُسبّح باسمك القُدّوس» .

«فيستمع الله لهذه الشّهادة من مَلاكه ، ويغفر لشعبه كافّةَ خطاياهم» .

ولكن رغم أن الله العظيم يغفر لنا خطايانا على هذا النّحو ، علينا ألا نعود فنقترفها من جديد ونظنّ بأننا مُحصّنون ، لأن مَن يقول : «لعلّي أرتكبُ لي ذنباً ثم أتوب» ليست له مغفرة ولا كفّارة» .

* * *

عيد المَظالّ
(حَج هَسُكُّوت) חג הסכות

يبدأ عيد المَظالّ في اليوم الخامس عشر من الشهر السابع «تشري» תשרי (أكتوبر) ، وخلال مدّته البالغة سبعة أيام يؤمَر اليسرَئيليّون بالإقامة في المَظالّ أو السّقائف . ولقد تمّ وضع هذا العيد للإبقاء في ضمائرهم على ذكرى الخيام التي كانت لهم بمثابة البيوت خلال إقامتهم أربعين سنة في البرّيّة . ورُموز هذا العيد هي سُعف النّخيل ، التي تُربط بها عساليج الآس والصّفصاف والأُتْرُج .

في هذا العيد نُؤمَر بالاحتفال والفرح ، لأن مشيئة الله لا ترتضي لنفوسنا الابتلاء على الدّوام ، كما في عيده المُكرّم يوم الغُفران . بل بعدما نكون قد خفضنا جناح نُفوسنا وعُدنا إلى خالقنا طائعين تائبين ، نُؤمَر بالاحتفال مع أسرنا وجيراننا . ولذلك فنحن ندعو هذا العيد بموسم احتفالنا .

لقد قال الرّب : «لا يكون هذا لكم صوماً كيوم الغُفران ، بل تأكلون وتشربون وتبتهجون فيه ، وتُضحّون بذبيحة السّلامة» . والكتاب المُقدّس ينصّ في متنه على عبارة[1] : «سبعة أيّام للرّبّ» ، ولذا فعلينا في خضمّ بهجتنا أن نُكرّس له طرفاً صالحاً من تفكيرنا .

فهكذا يأمَرنا الملك الكلّي القُدرة بأن ننتقل من مساكننا الدّائمة وأن نسكن سبعة أيام تحت السّقائف . وهذه الوصيّة تعلّمنا أن الإنسان ينبغي ألا يركن كثيراً إلى البناء المهيب الذي قد يكون شيّده ، وألا يستغرق في تزيينه بالزّخارف المُكلفة ، وكذلك ينبغي له ألاّ يبذل ثقته بالكامل لبني البشر ، ولا حتى الحكّام في بلده . بل عليه الاعتماد كليّاً على الله العظيم ، الذي قال : «ليَظهر الكون إلى الوجود» ، فله وحده الحَوْل والقوّة والسُّلطان . وهو وحده الذي لا يتحوّل ولا يتبدّل ، ولا يكون أبداً غير ما صرّح عن نفسه ، كما هو مكتوب : «ليس الله إنساناً فيكذب» (سفر العدد 23 : 19) לא איש אל ויכזב ، وهو وحده الذي يحفظنا من كلّ سوء .

---

(1) سفر اللّيويين – 23 : 34 .

وعيد المظالّ يحلّ في الخريف ، بعد أن يتمّ تخزين محاصيل الحقل في الأهراء ، تبعاً لكلمة الكتاب المقدّس : «تعمل لنفسك عيد المظالّ سبعة أيّام ، عندما تجمع من بيدرك ومن معصرتك» (تثنية 16 : 13) חג הסכת תעשה לך שבעת ימים באספך מגרנך ומיקבך .

ففي هذا الموسم ، عندما يرى الإنسان الوفرة حوله ، لربّما يأخذ بقلبه التِّيه والكبر ، وقد يشعر أنه يُغني بيته ويُضفي عليه بذخاً ورونقاً . فلهذا السّبب يُؤمَر بمغادرته لبعض الموسم ، وبأن يسكن تحت السّقائف حيث تتوجّه أفكاره إلى الله ، ففي هذا السّكن المُقام بشكل غشيم وهزيل وغير المحمي من المطر ، يمكن له أن يتذكّر بأنه من خلال هذا المطر الذي أرسله العليّ القدير في أوان موسمه حصلت الوفرة في غلاله ، ومن خلال هذا التّأمُّل فهو يؤمن بحقيقة أن كلّ ما هو جارٍ في مُلكه إنما كان بفضل من الله ومنّته ، لا من جرّاء تدبيره هو وقوّته .

وهذه السُّكنى في السّقائف من شأنها أن تُعيد إلى الذّهن الطريقة التي عاش بها اليسرَئيليّون أربعين سنة بعدما غادروا مصر ، بمجرّد جدران مؤقّتة لتحميهم من حرّ الصّيف اللاهب وبرد الشتاء القارس ، ومن الرّياح والعواصف . وكيف كان الله معهم عبر أجيالهم كلّها وحُفظوا من كلّ شرّ .

وحسب ما يرى بعض الحاخاميم لم يسكن اليسرَئيليّون بالفعل في سقائف بالبرّية ، وإنّما أحيطوا بالغَمام ، بسبع غمامات تحديداً : أربع غمامات ففي كلّ جانب واحدة ، والخامسة ظلٌّ يقيهم حرارة الشّمس اللاهبة ، أما السّادسة فعمودٌ من نار يُنير لهم في الليل (فكان في مقدورهم الرّؤية في الليل بالوضوح ذاته الذي في النّهار) ، والسّابعة كانت تسبق مسيرهم وتهديهم إلى سَواء السّبيل[1] .

وكان ارتحال بني يسرَئيل من مصر في شهر «نيسان» ניסן (أبريل) ، ولقد عملوا هذه السّقائف على الفور ، فاستخدموها أربعين عاماً . وعلى ذلك كانوا يُقيمون في السّقائف على مدار العام بأكمله ، ولذا فكان من الممكن لنا تخليد ذكرى هذا الأمر إمّا في الرّبيع أو الخريف ، وإمّا في الصّيف أو الشتاء على حدٍّ

(1) قابل على التُّوراه ، سفر الخروج – 13 : 21 .

سَواء . فلماذا إذاً عيّن الله الخريف موعداً لهذه الشّعيرة ؟ هذا لأننا إن أقمنا في السّقائف بأيام الصّيف ، تصبح المسألة مُلتبسةً بين أمرين : أنحن نفعل ذلك التزاماً منّا بأمر الله ، أم نفعله لمسرّتنا وإمتاع نُفوسنا ؟ ذلك بأن كثيراً من النّاس يطلبون الانتجاع إلى البقاع الهَويّة في هذا الفصل ، وأمّا في الخريف عندما تطرح الأشجار أوراقها ، ويُضحي الهواء بارداً قارساً ، ويكون قد حان أوان إصلاح بيوتنا لفصل الشتاء ، إن نحن أقمنا في هذه المساكن المؤقّتة فإنما يكون في ذلك إظهارٌ أكيدٌ للرّغبة في تنفيذ أوامر الخالق .

وعيد المظالّ هو أيضاً عيدٌ لجمع الغلال ، حين ينبغي لنا أن نحمد الله ونشكره على الكَرَم الذي عامَلَنا به ، والغنى الذي بارَكَنا بالحصول عليه . فعندما يقدّم الله الأزلي للإنسان قُوتَه ، عليه في الأمسيات الطويلة التي تلي ذلك أن يتفكّر وأن يدرس كتابه المقدّس ، وأن يجعل من هذا العيد بالفعل «عيداً للرّبّ» ، وليس عيداً مُقتصراً على مسرّة النّفس .

هذا وإن الأصناف الأربعة من مملكة النّبات التي نتّخذها في هذا العيد يُقصد بها تذكيرنا بالعناصر الأربعة للطبيعة ، التي تعمل تحت توجيه ورضا العليّ القدير والتي بغيرها ينعدم وجود الكائنات والأشياء كافّة . ولذلك فإن الكتاب المقدّس يأمرنا في «عيد الرّبّ» هذا بأن نتوجّه إليه بالحمد والشّكر ، وأن نفرح أمامه بهذه الأصناف الأربعة ، وكلّ منها يمثّل واحداً من العناصر المذكورة .

يرد في الكتاب المقدّس (ليويين 23 : 40) : «وتأخذون لأنفسكم ثمر شجر الحمضيات» (هادار הדר ، وهو هنا الأُتْرُج אתרוג) ، ولونه أصفر فاقع فيشبه النّار . والصّنف الثاني هو سَعفة النّخيل (في العبرية : لُولاف לולב) ، والنّخيل شجرٌ مرتفع وينمو قائماً مُنتصباً في الهواء ، وثمرته حُلوة ولذيذة الطعم ، فهذه إذاً تمثّل العنصر الثاني ، أي الهواء . أمّا الثالث فهو غُصن شجرة الآس ערעבת ، وهي من أدنى الشّجيرات ارتفاعاً ، تنمو على ارتفاع واطئ من الأرض وطبيعتها باردة ويابسة كالتّراب ، ممّا يجعلها مُلائمة لتمثيل هذا العُنصر . والصّنف الرّابع هو «صفصاف الوادي» ערבי־נחל الذي يكون خيرُ نموّ له بالقرب من الماء تماماً ، وأغصانه تتدلّى نحو الجدول ، فهو يمثّل بذلك العنصر الأخير ، الماء .

ويعلّمنا الكتاب المقدّس أن علينا أن نتوجّه بالشّكر العميق لله على كل واحد من هذه العناصر الأربعة[1].

أما الأُتْرُج فنحمله باليد اليُسرى ، والأصناف الثلاثة الأخرى نمسك بها معاً باليد اليُمنى . ونفعل ذلك لأن الأُتْرُج يحتوي من ذاته على كلّ ما تمثّله العناصر الأخرى : فالقشرة الخارجيّة صفراء كالنّار ، واللّحاء الدّاخلي أبيض ورطب كالهواء ، أما اللُّبّ فمائي ، والبذر جافٌّ كالتّراب . وهي تُحمل باليد اليُسرى ، هذا لأن اليد اليُمنى هي الأقوى ، وثمرة الأُتْرُج ليست سوى واحدة ، بينما باقي الشّعارات ثلاثة .

وهذه الشّعارات الأربعة[2] تمثّل أيضاً الأعضاء الرّئيسية الأربعة في جسد الإنسان : فالأُتْرُج يشابه شكله القلب نوعاً ما ، وبغير قلب لا يمكن لنا الحياة ، وبالقلب ينبغي للإنسان أن يحبّ بني جنسه من البشر . أمّا سَعفة النّخيل فتمثّل الصُّلب ، الذي هو عِماد هيكل الإنسان والذي يقع القلب إلى الأمام منه ، وهذا يعني أن علينا أن نعبد الله بكامل جسدنا . أمّا أغصان الآس فتشبه عين الإنسان ، التي بها يرى المرء أعمال إخوانه من البشر ، والتي بواسطتها يمكنه أن يحصّل المعرفة بالشّريعة . أمّا أغصان الصّفصاف فتمثّل الشّفاه ، التي بواسطتها يمكن للإنسان أن يُسبِّح الله الأزلي ويشكره . والآس يُذكر في الكتاب المقدّس[3] قبل الصّفصاف ، لأننا نقدر أن نرى الأشياء ونعرفها قبل أن نتمكّن من لفظ أسمائها بشفاهنا ، وبوسع الإنسان أن ينظر إلى الكتاب المقدّس قبل أن يدرسه .

لذلك ، فبهذه الأعضاء الرّئيسيّة الأربعة من هيكل الإنسان علينا أن نسبّح الخالق ، كما قال داوِد : «جميع عظامي تقول : يا رَبّ مَن مِثلُك ؟»[4].

---

(1) نظرية عناصر الطبيعة الأربعة ، التي شاعت في القرون السالفة ، نسفتها في عصرنا علوم الكيمياء الحديثة من عُضويّة ومعدنيّة .

(2) هذه المُناظرة مثال على ما يزخر به التّلمود من مُعمّيات القبالاه الرّمزيّة الغنوصيّة ، ممّا ستظهر له أصداء في الأدب الصّوفي العرفاني الإسلامي ومُصطلحاته الغيبيّة .

(3) في متنه (لوييين 23 : 40) : «وتأخذون لأنفسكم في اليوم الأول ثمر شجر حمض وسَعَف النَّخل وأغصان شجر الأيك وصَفصاف الوادي ، وتفرحون أمام الرّبّ سبعة أيّام» .

(4) سفر المزامير – 35 : 10 .

وكان الرّابي العظيم مُوشيْه بن ميمون في مؤلّفه الموسوم بـ «مُوريه نَبُوخيم» מורה נבוכים (دلالة الحائرين) ، قد فسّر بأن الله قد أمر اليسرَئيليين باتّخاذ هذه الشّعارات الأربعة خلال هذا العيد ، لكي يذكّرهم بأنهم قد جُلبوا من البريّة ، حيث لا تنمو ثمار ولا يعيش بشر ، إلى أرض تجري بها الأنهار والمياه ، أرض تفيض لبناً وعسلاً . ولهذا السّبب أمَرَنا الله بأن نحمل بأيدينا الثّمر المُبارَك لهذه الأرض أثناء ترنيم آلاء الحمد له سُبحانه ، فهو مَن صَنَعَ الآيات والعجائب من أجلنا ، وهو مَن يُطعمنا ويمدّنا بالقُوت ممّا تُنبته الأرض .

وهذه الشّعارات الأربعة تختلف من حيث الطّعم والشّكل والرّائحة ، تماماً كما يختلف بنو آدام في سلوكيّاتهم وعاداتهم .

والأُتْرُج فاكهة قيّمة ، فهي تصلح للأكل ولها عَرفٌ طيّبٌ للغاية . وهي تشبّه بالإنسان العاقل والسّالك سبيل الصّلاح تجاه الله وإخوته من البشر . فأمّا رائحة الأُتْرُج فهي أعماله الصّالحة ، ولُبّها هو علومه التي يغتذي منها الآخرون . ولذا فالأُتْرُج هو أكمل هذه الشّعارات ، وهو لذلك يُذكَر أولاً على الدّوام ، ويُحمل بمُفرده بيدٍ واحدة .

أمّا سَعفة النَّخيل فرغم أنها تطرح ثماراً ، لا رائحة زكيّة لها . وهي تُشبَّه بأولئك النّاس الحائزين على الفقه ، لكنهم واهون من حيثُ أعمالهم ، العارفين بالشّريعة والمُنتهكين لأحكامها .

ويُشبَّه الآس بأولئك النّاس ذوي الفطرة الطيّبة ، الذين يُحسنون التّصرّف تجاه الله والنّاس ، لكنهم غير مُتفقّهين في العلم .

أمّا صَفصاف الوادي فليس له ثمارٌ ولا رائحةٌ عطريّة ، وهو لذلك يُشبَّه بالنّاس الذين ليس لهم علمٌ ولا يعملون بصالح الأعمال .

بيد أن هؤلاء إن هم توحّدوا جميعاً وبذلوا ضراعاتهم إلى العَليّ القدير ، فهو لا ريب سيستمع إلى كلامهم ودُعاءهم ، ولهذا فإن مُوشيْه قال لليسرَئيليين : «وتأخذون لأنفسكم» . . إلخ ، أي لمصلحتكم ومنفعتكم ، وذلك من خلال حَمدكم وتسبيحكم للرّبّ خلال الأيام السّبعة التي يمرّ بها عيد المَظالّ ، متّخذين

هذه الشّعارات ، وأن تهتفوا معها بعبارة : «هُوشَعنا»[1] הושענא (خَلّصنا) ، مع الآية : «هُوْدو لِيهُواه كي طُوْف كي لِعُولام حَسْدُو» הודו ליהוה כי טוב כי לעולם חסדו: «احمدوا الرّبّ لأنه مُباركٌ ولأنّ إلى الأبد رحمتُه»[2] .

* * *

وكان الحاخاميم يقولون إن مَن فاتَه حضور عيد المَظالّ في يَروشَلايْم ، فقد فاتَه طعم السّعادة الحقيقيّة في حياته . وكان أول أيام العيد يُعقد فيها بوقار تامّ ، أما الأيام الوسطى فيُحتفَل بها بالفرحة والابتهاج بضُروب من اللّهو .

وكان هيكل يَروشَلايْم مُجهّزاً برِواق للنّساء ، كان يُسمّى شقّة النّساء ، بينما كان الرّجال يجلسون في الأسفل كما هي العادة إلى اليوم في الكنيس . وإلى ذاك الحدّ جرى ترميمه . وكان الكهنة الشباب يملأون مصابيح الشّمعدانات الكبيرة بالزّيت ، ويُشعلونها جميعاً ، إلى درجة أن المكان كان يشعّ بالضّياء حتى تُنير انعكاساتُه المتلألئة شوارع المدينة . وكانت الأناشيد والتّرانيم تصدح بأصوات العُبّاد الأتقياء ، بينما يُرتّل الكهنة من سبط ليوي التّسابيح للرّبّ على أنغام الكنّارات ، والشّوفار ، والأبواق ، والمزامير ، وباقي آلات العزف . وكانوا يقفون على خمس عشرة درجة عريضة ، بالغين من الطابق السُّفلي إلى الرِّواق ، أي قاعة النّساء . وكانوا يُنشدون أثناء صُعودهم خمسة عشر مَزموراً ، مُفتتحين بمَزمور «ترنيمة المَصاعد» שיר המעלות (شيْر هَمَعَلُوت) ، فيما كانت الجَوقة الكُبرى تنضمّ بأصواتها إليهم .

وكان الرّابي هِلّيل[3] الشيخ العتيق مُعتاداً على أن يخطب في جُموع المُصلّين في هذه المناسبات الدّينيّة .

---

(1) ترد العبارة في سفر أخبار الأيام الأول - 16 : 35 : «وقولوا خلّصنا (هُوشيعينو) يا إله خلاصنا واجمعنا وأنقذنا من الأمم ، لنحمد اسم قُدسك ونتفاخر بتسبيحتك» . وهذه التّرنيمة كانت من الاحتفال بمسح داوِد ملكاً على كلّ يسرئيل ، وإصعاد تابوت الرّبّ إلى مدينته الجديدة «مدينة داوِد» עיר דויד ، انظر السِّفر المرقوم 15 : 1 .

(2) سفر أخبار الأيام الأول - 16 : 34 . والاسم الأعظم (يهُواه) بلفظ : «أدوناي» .

(3) هو الرّابي هلّيل هَنّاسي ، تقدّمت ترجمته في القسم الثالث ، صفحة 253 .

فكان مُعتاداً على أن يقول : «إذا كان الله ساكناً هنا ، فها أنتم إذاً هنا موجودون ، كلّ واحد فيكم ، وأرواح كلٍّ منكم . ولكن إن ابتعد الله من بينكم من جرّاء المعاصي فمَن يكون منكم هنا إذاً ؟ هذا لأن الله يقول : «إذا أنت أتيتَ إلى بيتي آتي إلى بيتك ، أمّا إن تجافيتَ عن زيارة مسكني فأُهمل دخول مسكنك» كما هو مكتوب في متن التُّوراه : «في كلّ الأماكن التي فيها أصنع لاسمي ذِكراً آتي إليك وأُباركُك» (خروج 20 : 21)» .

فعندها يُجيب بعض النّاس : «طُوبى لأيّام شبابنا ، إذ لم تَصِم بالعيب والشّنار أيام شَيْبَتنا» . فأولئك كانوا زُمرة أهل التّقوى .

بينما يُجيب آخرون : «طُوبى لشيخوختنا ، ففيها تُبنا عن خطايا شبابنا وكَفّرنا عنها» . فأولئك كانوا زُمرة التّوّابين .

ثمّ تنضمّ الزُّمرتان معاً وتقولان : «طُوبى لمن كان بلا خطيئة . أمّا أنتَ أيّها المُذنب فهَلُمَّ إلى التّوبة ، إرجع إلى الله تَنَلْ مَغفرةً واسعة» .

فكان الاحتفال يستمرّ طوال الليل ، حيث أن الشّعائر الدّينيّة عندما كانت تُختَتَم كان النّاس ينصرفون إلى السَّمَر واللّهو الحلال والغامر .

وكان هذا العيد يُسمّى أيضاً «عيد استقاء الماء» ، لأنه خلال قيام الهيكل كان الخمر يُقدَّم خلال العام كتقدمة محرقة ، ولكن في عيد المَظالّ كانوا يقدّمون تقدمتيّ شراب ، إحداها من الخمر والأخرى من الماء . وبخصوص تقدمة الماء كانوا يعملون عيداً خاصّاً في اليوم الثاني من صلاة عيد المَظالّ ، يدعونه عيد استقاء الماء . ولقد جرى وضعه بناءً على عبارة النّبي يشَعْياه :

«فتَستَقُون مياهاً بفَرَح من ينابيع الخَلاص»[1] .

ושאבתם־מים בששון ממעיני הישועה׃

* * *

---

(1) سفر يشَعْياه – 12 : 3 .

عيد التاسيس
(عيد الأنوار - حَنُوكاه) חנכה

يُحتفَل بهذا العيد لمدّة ثمانية أيام خلال الشهر التاسع «كسليف» כסלו (ديسمبر) ، وهو يخلّد ذكرى تأسيس الهيكل من بعد خرابه على يد أنطيوخوس إيبيفانِس Antiochus Epiphanes ، الذي تمّ دحر جيوشه على أيدي الحشمونيين ملوك المكابيّين الأبطال .

ولقد صَنَعَ الله القُدّوس مراراً الآيات والعجائب لصالح أبنائه في ساعة ضيقهم ، فأظهر من خلال ذلك عظمته الفائقة لأمم الدّنيا . وهذه الآيات تقف حائلاً دون سقوط الإنسان في حَمأة الكُفر وعَزو كلّ اتّفاقات القَدَر إلى مسار حركة الطبيعة . فالله الذي خلق الدّنيا من العَدَم ، بإمكانه أن يغيّر بمشيئته الطبيعة التي أنشأها بيده . فلمّا أحرز الملوك الحشمونيّون - بمعونة الله - نصرهم السّاحق وأحلّوا في بلدهم السّلام والوئام ، كان أوّل عمل قاموا به تطهير الهيكل وإعادة تأسيسه من بعد خرابه . فعلى ذلك ، وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر كسليف ، التزاماً منّا بفروض الطاعة لتعاليم الحاخاميم ، نشرع في عيد التأسيس من خلال إنارة المصابيح أو الشّموع المُعدّة خصّيصاً لهذه المناسبة[1] . ففي الليلة الأولى نُنير واحداً ، ثم واحداً إضافياً في كلّ ليلة تالية خلال مدّة العيد . ونحتفل به كذلك بترتيل ترانيم الشّكر والتّهليل (هَلّلُوْياه הללויה) .

وهذا العيد قد تمّ التّبشير به في سفر العدد ، فلمّا كان أهَرُون يتلقّى تقدمات رؤساء الأسباط كلّهم وهدايا أريحيّتهم الكبيرة ، كان يُساوره شعور نَدَم ، لأنه هو وسبطه (قبيلته) كانوا غير قادرين على المشاركة معهم في ذلك . لكن هذه العبارات قيلت لتعزية خاطره : «شأنُك يا أهَرُون أعظم من شأنهم ، فأنت مَن يُضيء السُّرُج المُقدّسة ويُصلح أمرها»[2] .

---

(1) فلهذا يُدعى «عيد الأنوار» ، أو «حَنُوكاه» חנכה المُشتقّة من العبرية «حَنُوك» חנוך التي تعني التّأسيس أو التّنشئة . و«حَنوكيّاه» חנכיה هو شمعدان «المُنُوراه» מנורה ذي التسع شُعَب المُستعمل بعيد الأنوار ، بينما تكون المُنُوراه العاديّة بسبع شُعَب .
(2) انظر سفر العدد 8 : 1-2 : «متى رفعتَ السُّرُج فإلى قُدّام المنارة تُضيء السُّرُج السّبعة» .

فمتى قيلت هذه العبارات ؟

عندما كُلِّف بمُباركة بني يسرَئيل ، كما يرد في سفر العدد 6 : 23 ، وكما سيرد لاحقاً في سفر المكابيين بين أسفار الأپوكريفا المحذوفة[1] .

والربّ قال لمُوشيْه[2] : «كَلِّم أهَرُون وقُلْ له : في الأجيال التي تأتي ، يكون هناك تأسيس آخر وإضاءةٌ للسُّرُج ، فنَسْلُك وحده هو مَن يتولّى هذه الشّعيرة[3] . ولسوف تُرافق المعجزات والعجائب هذا التّأسيس . ولا تخشَ على عَظَمة رؤساء سبطك[4] ، فخلال قيام الهيكل تقدّم أنت القرابين ، وأمّا إضاءة السُّرُج فتكون لك ولبَنيك فريضةً دَهريّة . ولدى خراب الهيكل سيتوقّف تقديم القرابين ، أمّا إضاءة سُرُج التأسيس الذي يعمله الحشمونيّون فلا تتوقّف أبداً» .

وكان الحاخامات يُعلنون هذا الاحتفال بإضاءة السُّرُج ، لإشهار مُعجزة الله للأجيال القادمة جميعها ، ولذا فمن واجبنا أيضاً أن نُضيء مثلها في الكُنُس وفي بيوتنا .

ورغم أن الله قد ابتلى بني يسرَئيل بناءً على معصياتهم ، فهو ما برح يعاملهم بالرّحمة ، ولم يسمح بوقوعهم في الهلاك التّام ، ولذا فحول هذا العيد أيضاً يردّد الحاخامات هذه الآية من سفر اللّيويّين (26 : 44) :

«ولكن مع ذلك أيضاً ، متى كانوا في أرض أعدائهم ما أبيتُهم ولا كرهتُهم حتى أُبيدَهم وأنكُثَ ميثاقي معهم ، لأني أنا الرّب إلههم» ואף־גם־זאת בהיותם בארץ איביהם לא־מאסתים ולא־געלתים לכלתם להפר בריתי אתם כי אני יהוה אלהיהם:

---

(1) لا وجود لسفري المكابيّين (مكابيم) بمتون «الكتوبيم» من النصّ المسُوراتي العبري لأسفار اليهود (تَنَخ) ، ولا في التّرجمات الإنجيليّة (الپروتستانتيّة) ، لأنهما محذوفان ومرفوضان (سفاريم حيصُونيم ספרים חיצונים) . زِد عليه أنه ليس لهذين السّفرين إلا أصول إغرَيقيّة . أما الطالب لهما فيجدهما في التّرجمات الكاثوليكيّة .

(2) هذا النّصّ ليس في التّوراه ، بل هو من أجداء التّلمود . إذ كيف يخاطب الله أهَرُون على لسان أخيه مُوشيْه ، فيذكر تأسيس الحشمونيين للهيكل بعد قرون من عصرهما ؟

(3) ثمّة أشياء مُضارعة لذلك في سفر العدد ، الأصحاح 18 .

(4) أي سبط ليوي الذي منه أهَرُون وأخوه مُوشيْه ، ابنا عَمرام بن قهات بن ليوي بن يعقوب .

فهكذا يفسّر الحاخاميم هذه الآية :

«ما أبيتُهم» ، في زمن الكلدانيين عيّنتُ لهم دانيئيل ورفاقه ليخلّصوهم .

«ولا كرهتُهم» ، في زمن الأشّوريّين مددتُهم بماتياس وأبنائه ورفاقه لكي يخدموهم .

«حتى أُبيدَهم» ، في زمن هامان أرسلتُ مُردَخاي وإستير لإنقاذهم .

«وأنكُثَ ميثاقي معهم» ، في زمن الرُّومان عيّنتُ الرّابي يهُوداه وشُركاءه للعمل على خلاصهم .

«لأنّي أنا الربّ إلههم» ، أي في المُستقبَل سوف لن تتمكّن أيّة أمّة من الحُكم على يسرَئيل ، وستعود لنَسل أبرَهام من جديد دولتُهم المُستقلّة .

هذا وإن تأسيس الهيكل ، الذي يُخلّد عيد «الحَنُوكاه» ذكراه ، قد تمّ في العام 3632 للخليقة ، أي في عام 129 ق.م .

* * *

عيد پُوريم
פורים

يُخصّص هذا العيد[1] ، الواقع في اليوم الرّابع عشر من الشّهر الثاني عشر «آدار» אדר (مارس) ، لتخليد ذكرى خلاص العبريّين من مكائد هامان ، عن طريق مساعي مُردَخاي وإستير ، بعَون الله .

ورغم أن الله القُدّوس يحذّر اليسرَئيليّين ، بُغية أن يتوبوا عن ذُنوبهم ، فهو أيضاً يُغريهم ويُرغّبهم ، لكي يُضاعف لهم الثّواب .

فعلى سبيل المثال ، إن الأب الذي يحبّ ابنه ويتمنّى له أن يحسّن من سُلوكه ، ينبغي له أن يُعاقبه على إساءاته ، ولكنه عقابٌ تقف من ورائه محبّةٌ صافية .

(1) التّسمية «فُوريم» جمع «فُور» ، وهو القُرعة التي كان استقسم بها هامان لإبادة اليهود .

قال بعض المُرتدّين يوماً للرّابي صَفْرا : «مكتوبٌ : «إيّاكُم فقط عرفتُ من جميع قبائل الأرض ، لذلك أُعاقبكم على جميع ذُنوبكم»[1] ، فكيف يصحّ ذلك ؟ هَبْ أن رجلاً له حصانٌ بريٌّ جامح أكان يُركِب عليه أعزّ أصحابه ، فيُعرّضه لخطر السّقوط والإصابة ؟» .

فأجاب الرّابي صَفْرا : «افترض أن رجلاً أقرضَ مالاً لشخصين ، أحدهما صديقه والآخر عدوّه . فلا ريبَ أنه سيسمح لصديقه بتسديد القَرض له بالتّقسيط بحيث لا يكون سَدادُ الدَّين مُرهِقاً له ، وأمّا عدوّه فسيطالبُه بالمبلغ كاملاً . فالآية التي تذكرها تنطبق على هذا الأمر بالطريقة ذاتها : «أنا أحبّكم ، ولذلك أُعاقبُكم على جميع ذُنوبكم» ، بمعنى : «أُعاقبُكم عليها حينما تقع ، شيئاً فشيئاً بما يمكّنكم من أن تحوزوا على الإبراء والنَّعيم في الحياة الآخرة» » .

إنّ تصرُّف المَلِك بتسليم خاتَمه إلى هامان كان له على اليهود تأثير أكبر من الوصايا والإنذارات التي راح ثمانيةٌ وأربعون نبيّاً يردّدونها على أسماعهم مُسبقاً ولاحقاً . فإذا بهم يلبسون المُسوح ويُحسّون بالنَّدَم الحقيقي وتسيل دُموعهم ويصومون ، فعامَلَهُم الله بالرّحمة وأهلك عدوّهم هامان .

ورغم أن قراءة سفر إستير (مَجِلاّه מגלה)[2] في عيد «پُوريم» ليست من وصايا التُّوراه ، فهي فريضةٌ علينا وعلى نَسلنا . ولذا فهذا اليوم مُعيَّن للاحتفال والابتهاج وتبادُل الهدايا ، وكذلك تقديم العَطايا للفُقراء لكي يُتاح لهم أيضاً حقّ الابتهاج . فكما في مَرسوم هامان ، لم يتمّ التّمييز بين الأغنياء والفقراء بل حُكم عليهم جميعاً بالهَلاك ، فالمفروض أيضاً أن تُتاح للجميع مُوجبات الفَرح ، وعلى ذلك ينبغي لنا في جميع العصور تذكُّر الفقراء بسَخاء في هذا اليوم .

* * *

(1) سفر عاموس – 3 : 2 .
(2) في هذا العيد يخرج اليهود دَرج «مجلَّت إستير» מגלת אסתר (المكتوبة بيد رحابنة العراق) مرّة في العام ، فيقرأونها ويأكلون الفطير מצה (مَصّاه) الخاص بهذه المناسبة .

القسم السادس

العصبيّة الدّينية والإثنية في التّلمود

«إذا ضرب وثنيٌّ يهودياً ، توجّب قتل الوثني» (سنهدرين 58 ב) .

«لا يتوجّب على اليهودي أن يدفع لوثني أجور عمل» (سنهدرين 58 ב) .

«إذا نطح ثورٌ لرجل يسرَئيلي ثوراً يخصّ رجلاً كنعانيّاً لا تُدفع أيّة فدية ، وأمّا إذا نطح ثور الكنعاني ثور اليسرَئيلي ، توجّب دفع الفدية بالكامل» (بابا قاما 37 ב) .

«إذا عثر يهودي على مَتاع ضائع يخصّ وثنيّاً فلا يتوجّب عليه ردّه» (بابا متسيا 24 א) . «الله لا يسامح يهودياً يزوّج ابنته لرجل عجوز ، أو يأخذ زوجةً لابنه طفلاً ، أو يردّ متاعاً ضائعاً لشخص كوثي» (سنهدرين 76 א) .

«عندما يقتل اليهوديّ كوثياً لا تتوجّب عليه عقوبة الموت . وأمّا ما يحتجنه اليهودي من الجُوي (الأممي) فيمكن له الاحتفاظ به لنفسه» (سنهدرين 57 א) .

«الأمميّون يقعون خارج نطاق حماية الشريعة ، ومالُهم يتيحه الله حلالاً لبني يسرَئيل» (بابا قاما 37 ב) .

«يجوز لليهودي أن يلجأ إلى الأكاذيب (الحيل) لكي يراوغ أمميّاً» (بابا قاما 113 א) .

«أبناء الأمميّين (الجوييم) جميعاً بهائم» (ياموت 98 א) .

«فتيات الأمميّين نجسات (نِدّاه) منذ مولدهنّ» (عَبوداه زاراه 36 ב) .

«الأمميّون (الجوييم) كَلِفون بمُواقعة البقر» (عَبوداه زاراه 22 א – 22 ב) .

«يحقّ لليهودي أن يـتزوّج بنتاً لهـا مـن العمـر ثـلاث سـنوات ويـوم واحـد» (سنهدرين 55 ב) .

«يتعيّن على اليهودي أن يتلو الصّلاة التالية في كل يـوم : لـك الحمـد يـا ربّ أنْ لم تخلقني أميّاً أو امرأةً أو عبداً» (مِناحوت 43 ב – 44 א) .

«إذا دفعت الغواية يهودياً إلى ارتكاب معصية ، فعليه أن يذهـب إلـى مدينـة لا يعرفه فيها أحد ويرتكب المعصية هناك» (موعيد قَطان 17 א) .

«كلّ مَن تُسوِّل له نفسه الخائبة معصيةَ الحاخاميم يستحقّ الموت ، ويُعـاقب في الجحيم بأن يُسلق في النّجاسة المغليّة» (عِروبين 21 ב) .

«كلّ الكفرة (مينيم) وسواهم ممّن يجحدون التّلمـود مصيرهم إلـى الجحيـم يُجازَون فيه أبد الدّهر» (رُوش هَشّناه 17 א) .

«كلّ مَن يقرأ كتب الدّين غير المشروعة لا يكون له نصيب في الحياة الآخـرة» (سنهدرين 90 א) .

«من واجب اليهود إتلاف كتب الكَفَرة والوثنيين» (شبّات 116 א) .

يرد في التّلمود : «علّمنـا حاخاماتنـا : مَـن يسـكب الزّيـت علـى المواشـي أو الأوعية فهو ليس بمُذنب ، أو على الأمّيّين (الجوييم) أو الموتى فهو ليـس بمُذنـب . فالشريعة المتعلّقـة بالماشـية والأوانـي صحيحة ، كمـا هـو مكتوب : «على جسـد إنسان لا يُسكب» (سفر الخروج – 30 : 32) ، والماشية والأواني ليست من صنف الإنسان (آدام)» .

«كان الحاخامات ، ومنهـم الرّابـي شـمعون بـن يُوحـاي ، يُعلّمـون أن قبـور الأمّيّين (الجوييم لا تسبّب الدَّنَس[1] من خلال حصول «أوهيل» (أي الوقوف على القبر أو الانحناء عليه) ، لأنه مكتوب : «وأنتم يا غَنَمي غَنَمُ مرعـايَ أُنـاسٌ أنتـم» (سفر يَحزَقئيل – 34 : 31) ، فـأنتم تُدعـون أُناساً (مـن آدام) ، وأمـا الوثنيّـون فليسوا يُدعون أُناساً» (يباموت 16 א) .

---

(1) تنصّ التّوراه أن لمس جثّة ميّت أو قبره دَنَسٌ لا يطهُر إلا برماد بقرة حمراء (پاراه أدُوماه) .

«قيل إن كاهناً يهودياً كان يقف في مقبرة ، فلمّا سُئل عن سبب وقوفه بانتهاك بيِّن لشريعة مُوشيْه ، أجاب بأن هذا الأمر مسموح ، إذ أن الشّريعة تمنع اليهود من مُلامسة قبور البشر (الآدميّين) فحسب ، وأنه هو كان يقف في مقبرة للأمميّين . إذ علّم الرّابي شمعون بن يُوحاي : قبور الأمميّين (الجوييم) لا تسبّب دَنَساً ، لأنه مكتوب : «وأنتم يا غنَمي غَنَمُ مرعايَ أُناسٌ أنتم» (سفر يَحزَقْئيل - 34 : 31) ، فأنتم فقط تُدعون أُناساً (آدميين)»[1] .

* * *

(1) نكفّ هنا عن متابعة هذا القسم ، بعد الذي نطالعه على أديم الإنترنت من بوادر نزاعات دينية شديدة ما برحت تتنامى في عصرنا وتُنذر بصراعات حادّة ، مع ردود أفعال سلبيّة متعصّبة . ولقد طالعنا مؤخراً كلاماً في حقّ ديننا الإسلامي ورسولنا الكريم (عليه أطيب الصّلاة والسّلام) أصابنا بالقرف والغثيان (وكاتبوه عرب بالمناسبة !) ، ممّا دعانا فوراً إلى اطّراح القلم ، والامتناع غاية الامتناع عن أن نكون طرفاً في هذه المُهاترات التي إن بدأت فلا تنتهي ، ولا يكون منها إلا الضّرر والأذيّة .
بدلاً من ذلك ، نلتزم في نقاش الأصول الدّينية عرضاً علمياً موضوعياً هادئاً ، بعيداً عن الخطوط الحمراء في إثارة النّعرات والنّزاعات ، وتعجبنا مثلاً لغة علاّمة مصر المسيري ، بما فيها من حوار علمي (وليس علمانياً) هادئ رصين يُعنى بالتّحليل والتفكيك الاحترافي بغير اتّهامات أو شتائم . أمّا من كان له من القرّاء الأكارم رأي آخر ، فها هو ذا بريدنا الإلكتروني ، ليتفضّل بمراسلتنا مُثاباً ومشكوراً !



التّلمود البابلي

الطبعات المترجمة

ثمّة أربع ترجمات معاصرة للتّلمود باللغة الإنكليزية ، هي :

1- طبعة سونتشينو *The Soncino Hebrew-English Talmud* ، بإشراف إيزيدور إيشتاين ، إصدار مطبعة سونتشينو بلندن 1935-1952 في 34 جزءاً ، فيها تواجه كل صفحة إنكليزية ما يقابلها من النّص الأرامي/ العبري . وكذلك ثمّة حواشٍ على كل صفحة ، تقدّم مواداً إيضاحيّة إضافيّة . طبعة كاملة .

2- طبعة *The Talmud of Babylonia* ، ترجمة أميركيّة ، بإشراف الرّابي جاكوب نُويْسْنَر Jacob Neusner وتْسْفي زَهافي Tzvee Zahavy وغيرهما . إصدار مؤسّسة Scholar Press for Brown Judaic Studies . وهي كاملة .

3- طبعة شوتِنْشتاين *The Schottenstein Edition of the Talmud* ، من منشورات Mesorah Publications . في هذه الترجمة ، كل صفحة إنكليزية تواجه الصفحة الآراميّة/ العبريّة . والصفحات الإنكليزية مشروحة ومُثقلة بالحواشي ، وكل صفحة آراميّة/ عبريّة من التّلمود يلزمها عادةً ثلاث صفحات ترجمة إنكليزيّة .

4- طبعة شتاينْزالتس *The Talmud: The Steinsaltz Edition* ، منشورات Random House (لم تتمّ بعد)[1] . يضمّ هذا العمل ترجمة جديدة للرّابي أدين شتاينزالتس Adin Steinsaltz (الملقّب : إِفْن يسرَئيل) من اللغة العبريّة ، مع تفسير جديد للتّلمود بأكمله . والمُنتظر أن تصدر في 40 جزءاً كبيراً .

* * *

(1) اطّلعنا في مكتبات Virgin على أجزاء منها بالفرنسية أيضاً .

التّلمود اليروشَلمي

الطبعات المترجمة

1- طبعة جامعة شيكاغو *Talmud of the Land of Israel* ، بإشـراف الرّابي جاكوب نُوْيْسنَر وتْسڤي زَهـاڤي وآخرين . منشـورات مطبعـة جامعـة شيكاغو . تعتمد هذه الطبعة طريقـة عـرض شـكلي تحليلـي ، تسـهّل تحديـد ومتابعـة الأقسـام المنطقيّة لأطروحاتها الكلاميّة .

نال هذا العمل كثيراً من التّقاريظ الإيجابيّـة ، غـير أن ثمّـة مـن يعـدّ منهجيّـة نُوْيْسنَر في ترجمته ذات صبغـة خُصوصيّـة غير موضوعيّـة ، ولقـد تولّـى نقـد أحـد أجزاء ترجمته بحدّة شاؤول ليبرمان Saul Liberman من «دائرة البحـث اللاهوتـي اليهودي» The Jewish Theological Seminary .

2- طبعة شوتِنْشتاين *Schottenstein Edition of the Yerushalmi Talmud* إصـدار دار Mesorah/Artscroll . وهـذه الطبعـة هـي الموازي لطبعـة شوتِنْشـتاين للتّلمود البابلي ، المذكورة آنفاً .

برنامج «داف يُومي»

يقدّم هذا البرنامج (على الإنترنت حالياً) كـل يـوم ورقـة (داف דף) واحـدة من التّلمود كجزء من عمل تذكاري ، ولقد ابتدع هذا البرنامج الرّابي مئير شـاپيرو في عـام 1923 بالمؤتمـر الدّولي الأول لاتّحـاد «أجودات يسـرئيل» אגדת ישראל المُنعقد في ڤينّا . وعلى اعتبار أن التّلمـود البـابلي يضـم 2711 ورقـة (مزدوجـة) ، فإن كلّ دورة لختمه تستغرق حوالي 7 سنوات ونصف . ولقـد بـدأ الـدّاف اليومـي دورته الدّراسيّة الثانية عشرة بتاريخ 2 آذار (مارس) عام 2005 م .

* * *

التّلمود
باللغة العربيّة

ليعذرنا القارئ على هذا العنوان المغلوط من الأصل ، فليس ثمّة طبعة أو ترجمة عربيّة للتّلمود ، من النّاحية الفعليّة على الأقل .

وكما أكّدنا في المقدّمة ، نرى في ذلك نقصاً علميّاً فادحاً ينبغي استدراكه بإصدار ترجمة لائقة ، شريطة أن تكون مُستوفيةً لجوانب الدّقّة والتّحقيق العلمي السّليم ، على غرار الطبعات الإنكليزية الأربع[1] . خاصّة أن الكتاب يُعدّ واحداً من أصعب وأعقد مصادر الفقه الدّيني ، ومادتّه اللّغويّة شديدة الوعورة : عبريّة قديمة (مشناه) + آراميّة (جِمارا) + عبرية قروسطية (تُوسافوت) . هذا ناهيك عن إشكاليّة المُصطلحات المُغرقة في الرّمزيّة بين الحُلوليّة والشّخيناه والغنوصيّة والقَبّالاه والزُّوهار ، وإشكاليّات الثّانوي من متن التّلمود (حَسرونوت هَشَاس) ، وتداخل الهَلَخاه والأجَداه ما بين التّلمود وكتب المدراش ، مع تأويلات التّفاسير والشّروح المختلفة ، وتضارب اشتقاق التّسميات ممّا قارنّاه مراراً بين عدّة طبعات (مثال : تسمية כנישתא דבי גובאר في مَسّيخت بِراخوت) .

لا ريب أن في هذه الدّوامة اللاهوتيّة والفيلولوجيّة المُذهلة سبباً وجيهاً لعدم ظهور ترجمة عربيّة إلى الآن . على أيّ حال ، إلى أن تقوم إحدى المؤسّسات العلميّة ، الرّسميّة أو الخاصّة ، في وطننا العربي الكبير بالانتباه إلى هذه المهمّة الكبيرة ، لا نرى أمامنا إلا أن نتعرّض بالبحث للمحاولتين اليتيمتين اللتين بُذلتا لتعريب التّلمود ، وإن كان الإخفاق أو الضياع مصيرَ كلّ منهما !

* * *

(1) المُلاحظ أن الطبعات المترجمة بأسرها للتّلمودين البابلي واليروشَلمي قام بها حاخامات يهود إشكنازيم تحديداً . فهل هذا هنا يمثّل عُرفاً وشرطاً لازباً ؟

المحاولة الأولى
مشروع الحَكَم الثاني

يذكر الدكتور جوزيف باركلي في كتابه «الأدب العبري» *Hebrew Literature* الصّادر في نيويورك عام 1901 [1]، أن صاحب قُرطبة بالأندلس «الحَكَم الثاني» (حكم بين 961–976 م) أمر الحاخام يُوسيف بن مُوشيْه بنقل التّلمود إلى العربيّة، فترجمه وسمّاه: «الخباثة المكسوّة في كيس»، لأنه حسب تعبير الحاخام «قد أُلبس ثوباً دنيئاً عندما تمّ الكشف عن سجاياه العظيمة من خلال التّرجمة».

وبالطبع فإن هذه النّظرة التقليديّة في كراهة ترجمة التّلمود (على اعتباره نصّاً توقيفياً لا يحيا إلا ضمن بيئته اللغويّة) تعكس طريقة تفكير القرن العاشر، ولم يصل إلى علمنا أن التّلمود كان تُرجم آنذاك إلى أيّة لُغات أخرى غير العربيّة. حتى أن الصّراعات ما تزال تقوم اليوم بين اليهود حول عدم جواز دراسة التّلمود باليديشيّة، وأن العبريّة هي اللغة المقدّسة «هَسَّفاه هَقّدوشاه» השפה הקדושה التي لا يجوز التعامل مع التّلمود إلا بها.

وعلى ذلك، فمن نافل القول أن حاخامات اليهوديّة الرّبّانيّة (التّلموديّة) يعدّون ترجمة الكتاب تفقده روحه وقيمته القَباليّة (الصّوفيّة) والحُروفيّة، وتجعل منه مجرّد صورة جامدة لا تفيد بأكثر من إعطاء فكرة عن مُحتواه، دون أن يصل ذلك إلى فحواه الجوهري وقيمته الحقيقيّة.

أمّا عن مصير ترجمة الحَكَم العربيّة، فلا تُفيدنا مصادر التّواريخ الحَوليّة أو المؤلّفات الدّينيّة بأي شيء، والمرجّح على الأغلب أنها بادَت منذ تلك العصور، ولم تُؤخذ عنها كما يبدو نُسخ أخرى!

* * *

(1) راجع: «التّلمود تاريخه وتعاليمه»، لظَفَر الإسلام خان، ص 50.

المحاولة الثانية

مشروع شمعون مويال

قصّة هذه المحاولة أكثر دراميّة من سابقتها . صاحبها مثقّف يهودي مصري من أبناء الإسكندريّة ، هو الدكتور «شمعون يوسف مُويال» ، لا يُعرف الكثير عن سيرة حياته ، إلا أنه نذر نفسه لنقل التّلمود إلى العربيّة ، وباشر بنشر أولى تجاربه عام 1909 بكتاب سمّاه : «التّلمود ، أصله وتسلسله وآدابه» ، فصدر عن مطبعة العرب بمصر في السنة المذكورة . يضمّ هذا الجزء مقدّمة عن تاريخ التّلمود وكتَبَته ومفسّريه ، ومَسّيخِت «پِرقيْه أبوت» פרקי אבות (فصول الآباء) وهي التاسعة في سِدِر نِزيقين ، مع بحث عن كتاب «الزُّوهار» لشمعون بن يُوحاي .

ويفيدنا مويال في مقدّمته أن مشروع ترجمة التّلمود كان ينوي القيام به بالأصل الكاتب والرّوائي الشهير جرجي زيدان ، فنزل له عنه . هذا وبلغ عدد صفحات كتاب مويال 148 صفحة ، آخرها كانت هذه الخاتمة :

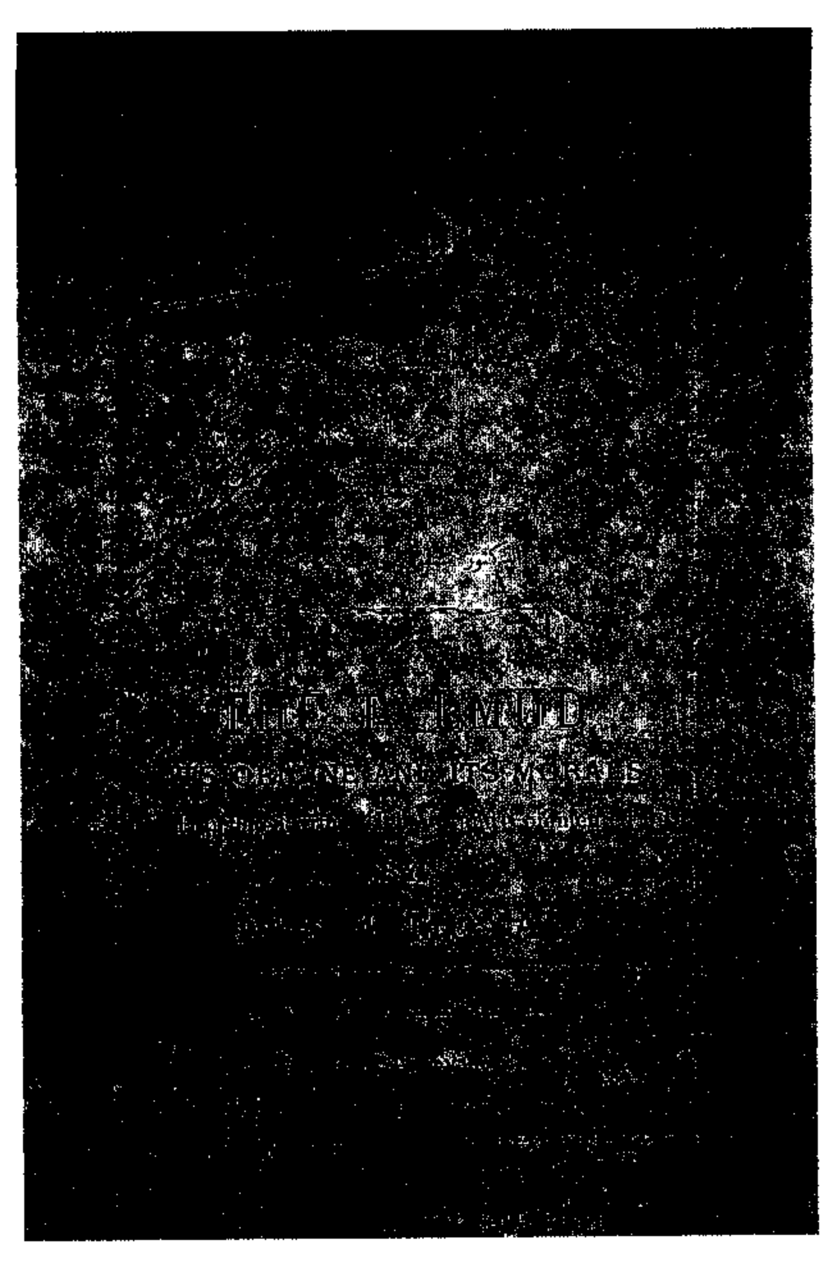
«هذا هو المجلّد الأول من ذلك الكتاب الذي كثرت بشأنه الأقاويل والأوهام على غير سابق معرفة به . ها هو على علاّته مترجم بقلم رجل لا يمنعه الإيمان عن المُجاهرة بما في ضميره من استحسان واستهجان .

«أعلى ترجمة مثل هذا الكتاب يستحقّ امرؤٌ مثل ما نالنا من الاضطهاد والمُضايقة والسّعي بقطع الأرزاق ؟ أعلى ترجمة مثلِ هذا الكتاب يجوز لرؤساء الدّين المدعوّين بزعامة الأمّة أن يقوموا في وجهنا ويتضافروا على معاكستنا بكل ما لديهم من الوسائل التي يسمح بها الدّين ولا يسمح ؟ ما أغرب تصرّفات رؤساء الأديان ، وما أسخف عقل الإنسان !

«على أننا نستنصر بالرّأي العام ، فإذا عضده بطلب هذا الكتاب بادرنا إلى نشر ما يليه ، وإلاّ كسرنا القلم وقُلنا إن معاصرينا كرؤساء الدّين فيهم» .

وكانت آخر كلمات شمعون : (مصر في أبريل سنة 909) ، إذ أنه لم يعش بعدها ليتابع عمله ، فقد لقي حتفه وتمّ جمع نسخ كتابه ، حتى أنه لا أثر له في كثير من المكتبات العامّة الكُبرى اليوم ! ولقد رجعنا إلى نسخة يتيمة منه كانت في مكتبة دمشق الظاهرية تملكها مُحبّ الدّين الخطيب . ثم صدر عنه مؤخّراً 2004–2005 طبعتان حديثتان (راجع مسرد البحث) .

* * *



طبعة مصر القديمة النّادرة من كتاب مويال ، كانت بظاهريّة دمشق
فطوّحت بها يد الدّهر إلى لندن ، حصلنا على الأقل على نسخة فوتوكوبي عنها !

مسرد مراجع البحث

المراجع العربية

- تاريخ اللّغات السّاميّة : د. إسرائيل ولْفِنسون ، القاهرة 1929 .
- التّلمود ، أصله وتسلسله وآدابه : ترجمه عن العبرانيّة وشرحه الدكتور شمعون يوسف موبال ، مطبعة العرب ، مصر 1909 . وطبعة حديثة بتقديم د. ليلى إبراهيم أبو المجد ومراجعة د. رشاد عبد الله الشامي ، الدار الثقافيّة للنشر ، القاهرة 2004 . وطبعة أخرى بتقديم د. سهيل زكّار ، دار التكوين ، دمشق 2005 .
- التّلمود البابلي ، رسالة عَبَدة [عِبادة] الأوثان : نصّ معرّب عن ترجمة إنكليزية لمايكل رودكِنسون ، تقديم نبيل فياض ، دار الغدير ، دمشق 1991 .
- التّلمود ، تاريخه وتعاليمه : ظَفَر الإسلام خان ، دار النفائس ، بيروت 1971 .
- فضح التّلمود ، تعاليم الحاخامين السّرّيّة : الأب برانايتس ، إعداد زهدي الفاتح ، دار النفائس ، الطبعة الثالثة ، بيروت 1985 .
- فهرس الكتاب المقدّس : جورج پوست ، مكتبة المشعل ، بيروت 1981 .
- الكتاب المقدّس : الترجمة البروتستانتية ، دار الكتاب المقدّس في الشرق الأدنى .
- الكتاب المقدّس : الترجمة الكاثوليكية ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت 1960 .
- الكشف عن تلمود اليهود : الأب الدكتور متري هاجي أثناسيو ، سلسلة (إيمان وحياة) – 19 ، دمشق 1991 .
- الكنز المرصود في قواعد التّلمود (اليهودي على حسب التّلمود) : أغوسطس رولنج ، ترجمة يوسف نصر الله ، بيروت 1968 .
- موسوعة اليهود واليهوديّة والصّهيونيّة : الدكتور عبد الوهاب المسيري ، دار الشروق ، القاهرة وبيروت 1999 .
- اليهود في الأندلس : د. محمد بحر عبد المجيد ، (المكتبة الثقافيّة – عدد 237) الهيئة المصريّة العامّة للتأليف والنّشر ، دار الكاتب العربي ، القاهرة 1970 .

المراجع العبرية

- דב בן אבא : מלון עברי אנגלי . סיגנט . ניריורק 1977 .
- יחזקאל קוגמן : מלון עברי ערבי . רבתעמון 1970 .
- מפתחות התלמוד : האגדות וציון לדרש ושער הציון . 1959 .
- מרדכי כהן : מילון חדש עברי צרפתי . לארוס . פריס 1982 .
- ספר תנ"ך . מדויק היטיב על פי המסורה . לונדון 1984 .
- עזיז ברהם : המקרא ותרגיל העברית . אלכסנדריה 1949 .
- רבחי כמאל : המלון החדש עברי ערבי . בירות 1975 .
- רבחי כמאל : שעורי השפה העברית . דמשק 1958 .
- רמב"ם : משנה תורה . בית דפוס מצנעים . ניריורק 1990 .
- תלמוד בבלי : בית דפוס ספראגראף . ניריורק 1958 .
- תלמוד דף יומי . http://www.e-daf.com .

- معجم عبري – إنكليزي : دوف بن أبّا ، دار نشر Signet ، نيويورك 1977 .
- قاموس عبري – عربي : يحزقيل قوجمان ، مكتبة المحتسب ، عمّان 1970 .
- فهارس التّلمود : الأجَداه ونُقول التّوراه ومَسْرَد حاخامي ، نيويورك 1959 .
- القاموس الحديث عبري – فرنسي : مردخاي كوهن ، لاروس ، باريس 1982 .
- أسفار الكتاب المقدّس (المَسُوراتي) : جمعية الكتاب المقدّس ، لندن 1984 .
- مدارج القراءة والإنشاء في العبريّة : عبد العزيز برهام ، الإسكندريّة 1949 .
- المعجم الحديث عبري – عربي : د. ربحي كمال ، بيروت 1975 .
- دروس اللغة العبرية : د. ربحي كمال ، مطبعة جامعة دمشق ، دمشق 1958 .
- مشنيه تُوراه : موشِيْه بن مَيمون ، دار Moznaim ، بروكلين نيويورك 1990 .
- التّلمود البابلي : دار نشر Rebecca Bennet (64 مجلداً) ، نيويورك 1958 .
- التّلمود «داف يُومي» (الورقة اليوميّة) : موقع إنترنت (عبري + يديش) .

المراجع الآرامية

- دليل الرّاغبين في لغة الآراميين : المطران يعقوب أوجين منّا الكلداني ، مطبعة دير الآباء الدومنكيين ، الموصل 1900 . والطبعة الثانية ، مركز بابل ، بيروت 1975 .
- اللّباب (ܚܘܚܬܐ) ، قاموس اللّغة الآرامية السّريانية الكلدانية : القس جبرائيل القرداحي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت 1887–1891 .

المراجع الفرنسية

Cohen, Avraham: *Le Talmud*, traduit de l'anglais par Jacques Marty, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1991.

Derenbourg, P.: *Le Livre des Parterres Fleuris*, Grammaire hébraïque en arabe d'Aboul Walid Merwan Ibn Djanah, Paris, 1886.

Neubauer, A.: *La Géographie du Talmud*, Georg Olms Verlag, Hildesheim-Frankfurt, 1965.

Schwab, M.: *Le Talmud de Jérusalem*, traduction française avec notes (en 6 vols.), nouvelle édition, Paris, 1969.

Steinsaltz, Adin (Even Israël): *Les Clés du Talmud, Guide et Lexique*, traduit en français par Jean-Jacques Gugenheim et Jacquot Grunewald, Éditions Bibliophane, Daniel Radford, Paris, 2005.

Steinsaltz, Adin: *Introduction Au Talmud*, traduit de l'anglais par Nelly Hansson, Éditions Albin Michel, Paris, 1987.

المراجع الألمانية

Berkovitz, E.L.: *Was ist der Talmud?*, Frankfurt, 1962.

Brockelmann, Carl: *Semitische Sprachenwißenschaft*, Berlin, 1916.

Krupp, Michael: *Der Talmud*, Gütersloher Verlagshaus, 1995.

Strack, H.L. und Billerbeck, P.: *Das Evangelium erläutert aus Talmud und Midrasch*, München, 1982.

Der Talmud, Bibliothek der Weltreligionen, Voltmedia, 2005.

Zunz, Leopold: *Die Gottesdienstlichen Vorträge der Juden*, Berlin, 1832.

المراجع الإنكليزية

Barclay, Joseph: *Hebrew Literature*, New York, 1901.

Barclay, Joseph: *The Talmud*, John Murray, London, 1887.

Boxer, Ben Zion: *The Talmud, selected writings*, introduced by: Ben Zion Boxer and Baruch M. Boxer, Paulist Press, New Jersey, 1989.

Brown, F., Driver, G.R. & Briggs Ch. A.: *A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament, Based on the Lexicon of W. Gesenius*, Oxford, 1951.

Cohen, Abraham: *Everyman's Talmud*, Dent & Sons, London, 1950.

Epstein, Isidore: *The Babylonian Talmud*, (34 vols.), London, 1935-52.

Fabian, A.: *The Babylonian Talmud*, University of Queensland Press, Santa Lucia, 1963.

Good News Bible, American Bible Society, New York, 1976.

Gilbert, Martin: *The Jews of Arab Lands, Their history in maps*, Burlington Press, Herts, 1976.

Hanaggid, Shmuel: *Introduction to the Talmud*, in Aryeh Carmell's *Aiding Talmud Study*, Philipp Feldheim, 1989.

Maimonides: *Commentary on the Mishnah*, Hebrew full text with English translation by Zvi Lampel, Judaica Press, 1998.

May, Herbert G.: *Oxford Bible Atlas*, Oxford University Press, London, New York, 1974.

Neusner, Jacob: *Sources and Traditions: Types of Compositions in the Talmud of Babylonia*, Scholars Press, Atlanta, 1992.

Parry, Aaron: *The Complete Idiot's Guide to the Talmud*, Alpha Books, 2004.

Polano, H.: *Talmud, Selections from its commentaries, teachings, poetry & legends*, Frederick Warne & Co. London, 1978.

Rodkinson, Michael, L.: *History of the Talmud*, Boston, 1903-18.

Shürer, E.: *History of the Jewish People*, translated by: Vermes & Millar, Edinburgh, 1973.

Steinsaltz, Adin: *The Essential Talmud*, translated from the hebrew by Chaya Galai, Jason Aronson Inc., New Jersey, 1992.

Steinsaltz, Adin: *The Talmud: A Reference Guide*, Random House, 1996.

Strack, Hermann, L.: *Introduction to the Talmud and Midrash*, Philadelphia, 1945.

"Talmud", article in: *Encyclopaedia Britannica*, 15th. ed., New York, 1981, vol. 17, pp. 2006-2014.

"Talmud", art. in: *Encyclopedia Judaica*, (on the web).

"Talmud", art. in: *Jewish Encyclopedia*, (on the web).

"Talmud", art. in: *Wikipedia, the free encyclopedia*, (on the web).

* * *

الأعمال العلمية المنشورة للمؤلّف

1- وصف دمشق في القرن السابع عشر ، من مذكرات الرّحالة الفرنسي لوران دارڤيو ، ترجمة عن الفرنسية من كتاب : *les Mémoires du Chevalier d'Arvieux* ، دمشق 1982 .

2- وصف دمشق والشام في أيام الملك الظاهر بيبرس : نصوص للقزويني ، تحقيق ودراسة ، دمشق 1983 .

3- أساليب الحماية الوقائية لواجهات الأبنية الأثرية في سورية ، ترجمة عن الفرنسية ، مديرية الدراسات في المديرية العامة للآثار والمتاحف 1983 .

4- مدينة دمشق القديمة مهدّدة بالزوال تحت وطأة التطوّر المدني : مارڤن هاو ، ترجمة عن الإنكليزية ، منشورات جمعية أصدقاء دمشق 1983 .

5- قلعة دمشق الأثرية ، تأريخ ووصف ، منشورات جمعية أصدقاء دمشق 1983 .

6- *The Ancient Walls and Gates of Damascus*, published by the Society of Friends of Damascus, Damascus, 1983.

6- قلعة الحصن ، دراسة تاريخية وأثرية : ترجمة عن الفرنسية لبحث للآثاري الفرنسي پول ديشان Paul Deschamps : *le Crac des Chevaliers* ، دمشق 1984 .

7- صالحية دمشق ، لمحة تاريخية موجزة ، منشورات جمعية أصدقاء دمشق 1984 .

8- المدرسة الصّادريّة ، أقدم مدرسة بدمشق ، منشورات جمعية أصدقاء دمشق 1984 .

9- غاية البيان في ترجمة الشيخ أرسلان : لشمس الدين محمد ابن طولون الصالحي ، تحقيق عن مخطوطة فريدة في مكتبة الدولة في برلين ، دمشق 1984 .

10- وصف دمشق من خلال نصوص نادرة لبعض الرّحالين الأوروبيين من القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر : مونديڤل ، دي لابروكيير ، بولون ، مانريك) ، ترجمة وتحقيق ، دمشق 1984 . ونُشرت منها مقتطفات في كتاب : دمشق الشام أقدم مدينة في العالم ، دمشق 1989 .

11- مسجد خالد بن الوليد ، أول مسجد بدمشق منذ الفتح الإسلامي . الندوة الدولية الثانية حول مدينة دمشق القديمة ، دمشق شباط 1985 . نُشر البحث في مجلة الحوليات الأثرية السورية 35 (1985) ، ص 417-431 .

12- أسطورة السّيف الدمشقي ، السّيف العربي وفولاذ الجوهر ، دمشق 1988 .

13- معالم دمشق التاريخية ، دراسة تاريخية ولغوية عن أحيائها ومواقعها القديمة ، تراثها وأصولها واشتقاق أسمائها ، بالتعاون مع د. قتيبة الشهابي ، وزارة الثقافة ، دمشق 1996 .

14- دمشق الشام في نصوص الرّحالين والجغرافيين العرب والمسلمين ، من القرن الثالث إلى القرن الثالث عشر للهجرة (جزءان) ، دراسة وتحقيق ، وزارة الثقافة ، دمشق 1998 .

15- أحمد بن فضلان ، أول رحّالة عربي يزور جنوب روسيا وأوروبا الشمالية ، بحث وتحقيق في مخطوطة معهد الاستشراق في سان پيتربورغ ، المنقولة عن نسخة مشهد . الجمعية الجغرافية السورية ، دمشق 1998 .

16- *The Role of Leading Kurdish Families in Urban Politics of Late Ottoman Damascus, 1807-1918*. Proceedings of Syria II Conference. Deutschen Morgenländischen Gesellschaft, Beirut, April 1999.

17- *The Ottoman Province of Damascus, 1725-1775. From Strife of Political Loyalties to Emergence of Ideological Identities*. Proceedings of the Third Conference on the Syrian Land. Institut für Politische Wissenschaft, Naher Osten. Friedrich-Alexander Universität, Erlangen-Nürnberg, August 2000.

18- سلسلة من المحاضرات عن انتقال الحضارة العربية من سورية إلى الأندلس ، ألقيت في جامعات ومعاهد سالامانكا ومدريد وغرناطة ، تشرين الثاني 2000 .

19- التعليق ، مذكرات يومية كتبت بدمشق : للشيخ شهاب الدّين أحمد بن طوق [الجيرودي] ، الجزء الأول بتحقيق الشيخ جعفر المهاجر ، مراجعة أحمد إيبش ، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق 2000 .

20- حوادث دمشق اليومية غداة الغزو العثماني للشام (926-951 هـ) ، صفحات مفقودة تُنشر للمرّة الأولى من كتاب «مفاكهة الخلاّن في حوادث الزمان» لابن طولون ، تحقيق ودراسة موسّعة ، دار الأوائل ، دمشق 2002 .

21- الحروب الصليبية ، صراع الشرق والغرب : للمؤرخ الفرنسي رنيه گروسّيه ، ترجمة لكتابه : René Grousset: *Les Croisades* ، دارقتيبة ، دمشق 2002 .

22- دفاتر شامية عتيقة ، مذكرات ومرويات ونوادر من تاريخ دمشق ، دارقتيبة 2002 .

23- مُعطيات تاريخية جديدة عن بلاد الشام في العهد العثماني ، بحث في ندوة دمشق القديمة والحفاظ عليها تراثاً وطنياً وعالمياً ، وزارة التعليم العالي ، كانون الثاني 2003 .

24- سيرة السّلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي «النّوادر السّلطانيّة والمحاسن اليوسفية» : لابن شدّاد ، تحقيق جديد عن مخطوطة الحرم القدسي النّادرة ، دار الأوائل ، دمشق 2003 .

25- تطوّر الإنجيل ، دراسة نقدية وترجمة جديدة لأقدم الأناجيل تكشف مفاهيم مثيرة : لإينوك پاول ، ترجمة لكتاب : Enoch Powell: *Evolution of the Gospel* ، مع دراسة وتحرير لمفرداته اليونانية واللاتينية والعبرية والآرامية ، دار قتيبة ، دمشق 2003 .

26- رحلة من الكويت إلى الرياض في عهد الإمام فيصل بن تركي آل سعود : للكولونيل لويس پيلي Lewis Pelly المفوّض البريطاني المُقيم في بوشهر عام 1865 م = 1281 هـ ، ترجمة وتقديم ، دار قتيبة ، دمشق 2004 .

27- مشاركة بمواد علمية مختلفة في «الموسوعة العربية» ، التي تصدر عن هيئة الموسوعة العربية التابعة لرئاسة الجمهورية في الجمهورية العربية السورية ، 2003-2004 .

28- رحلة إلى نجد ، أو : «رحلة حج إلى نجد» مهد العشائر العربية ، من دمشق إلى حائل عام 1878-1879 : للرحّالة البريطانية الليدي آن بلنت ، ترجمة وتعليق لكتابها : Anne Blunt: *A Pilgrimage to Nejd* ، دار المدى ، دمشق 2005 .

29- عوائد عرب الرّولة وشمائلهم ، في بوادي الشام والجزيرة العربية : للمستشرق التشيكي ألويس موزيل (موسى الرّويلي) ، ترجمة عن الإنكليزية وتقديم لكتابه المعنون : Alois Musil: *Manners & Customs of the Rwala Bedouins* ، دار قتيبة 2005 .

30- دمشق في عصر سلاطين المماليك ، مشاهد وأحداث من نصوص أدب الرّحلات العربية ، دار الشرق للطباعة والنشر ، دمشق 2005 .

31- مُعطيات جديدة في الطبوغرافيا التاريخية لدمشق : إعادة بناء المخطط المعماري للقصر الأبلق ، من خلال مقارنة سيرتي السّلطان الملك الظاهر بيبرس التاريخية والشعبية (بالتعاون مع الصديق محمد عصام الحجّار) ، بحث مقدّم لندوة «الرّواية الشعبية العربية» *"Roman Populaire Arabe, tradition et perspective d'avenir"* ، المعهد الفرنسي للشرق الأوسط بدمشق ، 27-28 نيسان 2005 .

32- دليل جامع دمشق الأموي الكبير ، وزارة الأوقاف ، دمشق 2005 .

33- جامع دمشق الأموي الكبير ، بيت الله ودُرّة دمشق ، تاريخه القديم عبر العصور وآثاره وعمارته وفنونه الزّخرفيّة ، منشورات وزارة الأوقاف ، دمشق 2005 .

34- *The Great Umayyad Mosque of Damascus, A Brief Guide*. Ministry of Waqf (Muslim Endowments). Damascus, 2006.

35- *La Grande Mosquée des Omeyyades à Damas*, guide abrégé, Ministère de Waqf, Damas, 2006.

36- *Die große Omayyaden Moschee in Damaskus*, ein klein Führer, Stiftungs-Ministerium, Damaskus, 2006.

37- التّلمود كتاب اليهود المقدّس ، تاريخه وتعاليمه ومقتطفات من نصوصه ، دراسة وترجمة ، تقديم الأستاذ الدكتور سهيل زكّار ، دار قتيبة ، دمشق 2006 .

دراسات جاهزة للنشر :

1- جامع دمشق الأموي الكبير ، دراسة موسّعة في تاريخه وآثاره وعمارته وفنونه .

2- أديرة دمشق السريانية القديمة في جبل قاسيون ، دراسة في الطبوغرافيا التاريخية تضم مُعطيات جديدة غير معروفة من قبل .

3- موسوعة خطط الريف السّوري ، دراسة في التاريخ والآثار والطبوغرافيا التاريخية والجغرافيا الطبيعية . الدراسة الأولى : محافظة ريف دمشق ، 8 مجلدات .

4- التّحفة الشهيّة في الألفاظ العاميّة الدمشقية ، بحث لغوي في تعابير أهل الشام وكناياتهم الشعبية ، بالاشتراك مع قتيبة شيخاني ، دار قتيبة (قيد النشر) .

5- سقى الله هديك الأيام يا شام ، مختارات من نصوص الأدب الشعبي الدمشقي .

6- دمشق في عصر سلاطين المماليك ، من خلال نصوص الرّحالين الأوروبيين .

7- دمشق في عصر سلاطين المماليك ، نصوص في الخطط للبلدانيين الدمشقيين .

8- صفحات من تاريخ دمشق في العهد العثماني (1073-1117 هـ) : من كنّاش الشيخ إسماعيل المحاسني وحفيده أحمد بن سليمان .

9- صفحات من تاريخ دمشق في العهد المملوكي (739-768 هـ) : للحافظ ابن كثير .

10- الحروب الصليبية كما رواها المؤرخون العرب *Storici Arabi delle Crociate* : للمستشرق الإيطالي فرانچيسكو گابريلي .

11- الفتح الإسلامي للقسطنطينية ، الحدث الذي غيّر مجرى تاريخ العالم : للمؤرخ البريطاني ستيفن رنسيمان ، ترجمة وتعليق : *The Fall of Constantinople* .

12- مؤامرة تستهدف القرآن الكريم : الرّد على ادّعاءات كريستوف لوكسنبرغ في كتابه :

Christoph Luxenberg: *Die syro-aramaeische Lesart des Koran; Ein Beitrag zur Entschlüsselung der Qur'ansprache.*

أي : «قراءات سريانية آراميّة لنصّ القرآن ، إسهام في تحليل لغة القرآن» .

قيد الإعداد للنشر :

1- رحلة إلى نجد ، من دمشق إلى حائل عام 1878-1879 : للرحّالة البريطانية الليدي آن بلنت ، الطبعة الثانية الكاملة مع رحلتها إلى عربستان وإيران ، وملاحق ولفريد بلنت عن جغرافيا الجزيرة وتاريخ آل سعود ومشروع سكّة حديد وادي الفُرات .

2- عشائر بدو الفُرات ، رحلة في البادية السوريّة عام 1878 : الليدي آن بلنت .

3- روّاد المشرق العربي : مشروع عمل وثائقي شامل ، يرصد رحلات الروّاد الرّحّالين الأوروبيين في مشرقنا العربي ، وإسهامهم في دراسة أحوال بلادنا وصفياً وجغرافياً وبشرياً وطبيعياً واقتصادياً ، عبر سجل طويلٍ من الاحتكاك الثقافي والحضاري بين الشرق والغرب . محاولة جديدة لتقديم قصّة هؤلاء الرّحّالين المغامرين .

4- رحلات تشارلز داوتي في شمالي الجزيرة العربية وأواسطها في عام 1877 ، نصوص مترجمة من كتابه الشهير : *Arabia Deserta* .

5- رحلات وليَم گيفورد پالگريف في شمالي الجزيرة العربية وأواسطها ، وإلى المنطقة الشرقية وقطر والبحرين والشارقة وعُمان ، في عام 1862-1863 . ترجمة كتابه :

The Personal Narrative of a Year's Journey through Central and Eastern Arabia.

6- النجد الشمالي ، رحلة من القدس إلى عُنيزة : للرحّالة الإيطالي كارلو گوارماني ، ترجمة لكتابه : *Il Neged Settentrionale* .

7- روّاد الجزيرة العربية : لداڤيد جورج هوگارث ، تاريخ الاستكشاف الأوروبي بالجزيرة .

8- مفاكهة الخلاّن في حوادث الزمان ، لابن طولون الصالحي ، تحقيق جديد بطبعة كاملة .

9- تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابي «الغُرَر الحِسان في تواريخ حوادث الزّمان» .

10- البادية التدمرية : ألويس موزيل ، دراسة في الآثار والطبوغرافيا التاريخية للبادية الوسطى في سورية ، من بادية الحَماد والصَّفا جنوباً إلى بادية الرّصافة شمالاً .

11- بادية الحماد وصحراء النّفود : ألويس موزيل ، رحلاته ومشاهداته الطبوغرافية في ديرة عشيرة الرّولة بأيام الشيخ النّوري الشعلان ، بين 1908-1915 .

12- نقوش كتابية صفأية وكوفية جديدة من جنوب سورية (الرّشَيدة ، وادي الشام ، بير الرّصيعي ، النّمّارة ، منقع الرّحبة ، الزّلّف ، قصر نقعة) ، مكتشفات جديدة في الإيبغرافيا تُنشر للمرّة الأولى ، كإسهام في «مدوّنة النقوش العربية» .

* * *

فهرس الكتاب

القسم الرابع : من أمثال الحاخامات ونماذج من أساطير التّلمود

القسم الخامس : الشرائع المدنيّة والجزائيّة والأعياد المقدّسة

القسم السادس : العصبيّة الدّينيّة والإثنيّة في التّلمود

* * *

وكان الفراغ من تأليف هذا الكتاب وتحريره وتسطيره ، على يد مؤلّفه ، بمحروسة دمشق الشام ، لخمس بقين من شهر نيسان سنة ألفين وستّ للميلاد . ولله الحمد بما وفّق وأعان .

ש"ס
תלמוד
ספר הקדוש של היהדות

מאת

אחמד איבש

ما هي حقيقة التلمود ؟

وما هو أثره الديني والأخلاقي في معتقدات الجماعات اليهودية وسلوكها عبر التاريخ ؟ ما هي تعاليمه . وعلام تشتمل أجزاؤه الكثيرة ومفرداته التي تصل إلى 2.5 مليون كلمة ؟

ماذا يعرف المثقف العربي عن هذا الكتاب ؟ أليس من الغريب أن يكون كل ما كتب عنه في العربية (على قلته) . كما يرى الكاتب الهندي ظفر الإسلام خان : «مجرد تكرار لكتاب شعبي قديم . هو : "الكنز المرصود في قواعد التلمود» ؟ وما مدى دقة رؤية الباحث المصري عبد الوهاب المسيري في موسوعته الشهيرة : «والواقع أن التلمود ليس من الكتب الباطنية . وتلك التي تحيط بها هالة من السرية والغرابة والإخفاء . كما يتوهم السواد الأعظم من الناس» ؟

ما سر التطابق المذهل بين مرويات «أجداد» التلمود . وبين «القصص» في تراثنا الإسلامي ؟ ولماذا عجز العرب تماماً عن ترجمة هذا الكتاب . الذي له من العمر ما لا يقل عن 19 قرناً من الزمان ؟ ثم كيف يتسنى للقارئ العربي الاطلاع على نصوصه المعقدة في العبادات والعرفانيات . بين مصطلحات التوحيد والحلولية والغنوصية ومعميات القبالاه والزوهار . ونظرته لـ «الجوييم» أو «الأخيريم» ؟

أسئلة كثيرة وتساؤلات أكثر وأعمق وأخطر تبرز بين السطور والحواشي . في هذا الموضوع الهام المرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتراث الديني لشرقنا الأدنى . كحلقة أساسية منه لا يسعنا جهلها أبداً !

